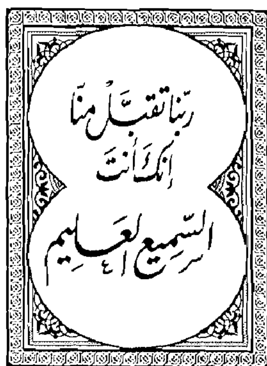
صحابيات حول الرسول ﷺ

جمع وترتيب
محمود المصري
أبو عمار

مكتبة الصفا

صحابيات ﷺ حول الرسول ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم



١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

رقم الإيداع: ٢٠٩٤١/ ٢٠٠٥

أولاد الحاج / عويس أمين صالح

مكتبة الصفا للنشر والتوزيع

١٢٧ ميدان الأزهر القاهرة ت: ٢٥١٤٧٣٢٠

١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر ت: ٢٥١٤٧٩٧٤ / ٠١٠١٤٣١١١٤

صحابيات حول الرسول ﷺ

جمع وترتيب
محمود المصري
أبو عمار

مكتبة الصفا

مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبعه بإحسان إلى يوم الدين.

فما زال فضل الله العظيم الكريم يتوالى علينا بالتوفيق لإخراج ونشر الكتب الدينية المبينة لشرع ربنا تبارك وتعالى، فقد مَنَّ علينا سبحانه بالتوفيق لإخراج عدة طبعات جديدة للمصحف الشريف توخينا فيها غاية الإتقان في جميع ما يتعلق بها.

كما وفقنا لإخراج عدة تفاسير لكتاب الله العزيز سواء كان كاملًا أو مفرقًا على هيئة سورة تلو السورة، أو مجموعة سور، أو موضوع تلو موضوع، كآيات الأحكام وغير ذلك من العلوم المتعلقة بالكتاب العزيز.

كما وفقنا لإخراج كتب الحديث النبوي الشريف والتي عليها قوام هذا الدين وهي بيان وتفسير لكتاب الله العزيز، والتي قام بها الجهابذة الأولون من سلفنا الصالح علماء الحديث، الذين وفقهم الله عز وجل لتوصيل الدين وتبليغه كتابًا وسنة، قولًا وفعلًا، نصًا وفهمًا وعملًا.

وقد أخرجنا بفضل الله عدة كتب كموطأ الإمام مالك، وصحيح الإمامين البخاري ومسلم، وسير أعلام النبلاء، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري، وشرح صحيح مسلم وغيرها من الكتب المتضمنة لحديث رسول الله ، رواية ودراية، وشرحًا وبيانًا.

وأيضًا وفقنا لإخراج كتب العلوم الشرعية التي تخدم الكتاب والسنة بشتي الأشكال. والتي قام بها من تبع الأولين بإحسان؛ لبيان مراد الله عز وجل في كتابه وسنة رسوله ، في صور شتي ما بين المطول والمختصر، رحمنا الله وإياهم وغفر لنا ولهم وأحسن إلينا وإليهم.

ويسرنا اليوم أن نقدم هذا الكتاب الذي بين يديك أخي القارئ وهو كتاب: «**صحابيات حول الرسول ﷺ**».

وهو إضافة جديدة لإصداراتنا والتي نرجو من الله عز وجل أن يتقبلها منا قبولًا حسنًا وأن ينفع بها الإسلام والمسلمين. إنه نعم المولى ونعم النصير.

والحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مكتبة الصفا

جعلها الله منارًا لخدمة العلم والدين

إصدارات كتب الشيخ محمود المصري

١ - لا تحزن وابتسم للحياة .
٢ - موسوعة الزواج الإسلامى السعيد .
٣ - تحذير الساجد من أخطاء العبادات والعقائد .
٤ - فتاوى الناس (المجلد الأول) كتاب الطهارة - الصلاة .
٥ - فتاوى الناس (المجلد الثانى) كتاب أحكام الصلاة والجنائز .
٦ - فتاوى الناس (المجلد الثالث) فتاوى الصيام - الفتاوى المعاصرة .
٧ - فتاوى الحج والعمرة .
٨ - ساعة وساعة « نوادر وعجائب » .
٩ - موسوعة الحقوق الإسلامية (٣ مجلد).
١٠ - سيرة الرسول ﷺ .
١١ - رحلة إلى الدار الآخرة .
١٢ - أصحاب الرسول ﷺ .
١٣ - صحابيات حول الرسول ﷺ (٢ مجلد).
١٤ - يوسف الأحلام « قصة سيدنا يوسف » .
١٥ - مسك الختام .
١٦ - حكايات عمو محمود للأطفال (الجزء الأول) .
١٧ - حكايات عمو محمود للأطفال (الجزء الثانى) .
١٨ - قصص الأنبياء (للأطفال) .
١٩ - تفسير جزء عم وطرق حفظ القرآن (للأطفال).
٢٠ - قصص القرآن (للأطفال) .
٢١ - قصص الرسول ﷺ (للأطفال) .
٢٢ - أخلاق الرسول ﷺ (للأطفال) .

إهداء واعتراف لأصحاب الفضل

وكما تعودت دائمًا أن أقدم هذا الإهداء والاعتراف لأصحاب الفضل، فوالله أنا لا أستطيع أن أنساهم أبدًا وذلك من باب قول الحبيب ﷺ: «**من لم يشكر الناس لم يشكر الله**»[(١)].

وفي مقدمة الناس جميعًا أقدم هذا الإهداء.

* إلى أمي الحبيبة - رحمة الله عليها - :

وكيف أنساكِ يا أمي الحبيبة... يا من ضحيتِ من أجلي بكل شيء، كيف أنسى أيامك العامرة بالعطاء والتضحية والرحمة والحنان... والله أنا لا أستطيع أن أوفيك حقك ولو كتبت ألف كتاب ولذلك أقول لكِ: جزاك الله عني وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء - فهو سبحانه القادر على أن يجزل لك العطاء في الدارين - فأسأله سبحانه أن يرحمك رحمة واسعة وأن يجعل قبرك روضة من رياض الجنة وأن يجعل أعمالي كلها في ميزان حسناتك وأن يجمع بيني وبينك في الجنة.

* إلى أبي الحبيب - حفظه الله - :

أسأل الله - تعالى - أن يعجِّل لك بالشفاء وأن يبارك في عمرك وأن يرزقني وإياك، وسائر المسلمين حُسن الخاتمة... فجزاك الله عني وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء فلقد كنت وما زلت نِعم الأب الرحيم.

* إلى أبنائي [عمار، وهاجر، وسارة، وحبيبة]:

أسأل الله أن يحفظكم وأن يبارك فيكم وأن يجعلكم من عباده المخلصين الطائعين وأن يستخدمكم لنُصرة دينه وأن يجعلكم في ميزان حسناتي وأن يجمعني بكم في جنته ومستقر رحمته.

---

(١) رواه أحمد، والترمذي، والضياء عن أبي سعيد وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥٤١).

* إلى كل أخ مسلم وإلى كل أخت مسلمة :

والله ما نسيت الدعاء لكم في صلاتي - وأنا ساجد بين يدي الله - فلا تنسوني من دعوة صالحة بأن يغفر الله لي ذنوبي وأن يرزقني الإخلاص في القول والعمل وأن يرزقني حُسن الخاتمة وأن يجمعني بكم في جنته إخوانًا على سُرر متقابلين. . . فجزاكم الله عني خير الجزاء في الدنيا والآخرة.

الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

محمود المصري

(أبو عمار)

بين يدي الكتاب

إن الحمد لله تعالى نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٠٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: الآية ١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أمر آخر الأمة لا يصلح إلا بما صلح عليه أمر أولها.

وإن دراسة التاريخ الإسلامي (عامة)، وتاريخ الصحابة والصحابيات (خاصة) يمثل خطوة عظيمة في طريق بعث الأمة؛ لأنه يدفع الأمة المسلمة لأن تقوم مرة أخرى وتنفض غبار الغفلة فتستعيد أمجادها وتعود مرة أخرى لتقود العالم كله إلى خيري الدنيا والآخرة.

فأصحاب النبي ﷺ هم خير جيل عرفته البشرية كلها وهم خير الخلق بعد الأنبياء والمرسلين - صلوات ربي وسلامه عليهم -... قوم اختارهم الله لصحبة نبيه أبرّهم قلوبًا وأعمقها فكرًا وأقلها تكلفًا، ولا بد للمتأخر أن يعرف فضل المتقدم، وذلك لأننا نعيش زمانًا نفتقد فيه إلى القدوات الصالحة.

ولذلك فإن الكتابة عن هؤلاء العظماء وكشف الستار عن الصفحات الناصعة التي سطّروها على جبين التاريخ بسطور من النور لهي من الواجب الذي يحتمه علينا هذا العصر الذي نعيش فيه معمعة أفكار واضطراب الموازين وموالاة الكافرين.

وكل ذلك لأن الأمة قد ابتعدت كثيرًا عن مصدر عزها ونبع شرفها ومعين كرامتها فأذلها الله لأذل الأمم.. في الوقت الذي أعزَّ الله فيه أصحاب الحبيب ﷺ لما ساروا على منهج الله واهتدوا بهدي رسول الله ﷺ.

* وها نحن نتعايش من خلال هذه السطور مع باقة عطرة من الصحابيات - رضي الله عنهن -.... إنها رحلة مباركة تحمل بين طياتها نفحات هؤلاء الكريمات اللواتي

عطّرن كتب السير بسيرتهن الميمونة المباركة.

لقد كانت كل صحابية بمثابة زهرة نبتت في حقل الإسلام فلما جاءت سحابة الإيمان وسكبت ماءها في هذا الحقل وإذا بتلكم الزهرة النقية التقية تتغذى من خلال النبعين الصافيين - كتاب الله وسُنة رسول الله ﷺ - وإذا بها تنشر عطرها وعبيرها ليملأ الكون كله بعطر الإيمان والتوحيد.

وإنني بعد أن انتهيت من كتاب **(أصحاب الرسول ﷺ)** - الذي كتب الله له القبول في قلوب إخواني من طلبة العلم والدعاة والعلماء - كان لابد من وقفة مع حياة الصحابيات - رضي الله عنهن - لتكتمل تلك الصورة المباركة لهذا المجتمع الفريد الذي لا يتكرر أبدًا عبر العصور والزمان.

وإن كانت نماذج الرجال كثيرة، فنماذج النساء لا تقل أهمية من حيث الكيف، فالمرأة المسلمة في صدر الإسلام لم تكن أقل ثباتًا في دينها من الرجال، ولا أقل تضحية وبذلاً في سبيل عقيدتها، فقد ضربت أروع الأمثلة في هذا المجال، فضحت من أجل إسلامها بكل ما تملك، مستهينة بكل ما يصيبها من ظلم وتعذيب وموت في سبيل عقيدتها.

هذا من حيث الكيف، أما من حيث الكم، فمعلوم أن المرأة تشكل نصف المجتمع من حيث العدد، فإذا وضعنا في الحسبان أنها تلد النصف الآخر علمنا أهميتها البالغة ودورها العظيم في بناء المجتمع.

هذا والمرأة سلاح ذو حدين، فإذا صلحت وأدت وظيفتها الأصلية، وهدفها المرسوم، كانت لبنة صالحة في بناء مجتمع إسلامي متماسك قوي الأخلاق، متين الدعائم.

ولهذا نجد أن الإسلام قد اهتم بالمرأة اهتمامًا بالغًا، وأحاطها بالتربية والرعاية، وشرع لها من الحقوق بما يلائم تكوينها وفطرتها ما لم تعهده أمة من الأمم على مر العصور.

وبهذا الاهتمام العظيم صاغ الإسلام تلك المرأة المسلمة التي كانت وراء هؤلاء العظام الأفذاذ الذين ملأوا الأرض بالحكمة والعدل، وركزوا ألويتهم في قلب آسيا، وهامات أفريقية، وأطراف أوروبا، وتركوا دينهم وشرعهم ولغتهم وعلمهم وأدبهم تدين لها القلوب وتستروحها النفوس... وقديما قيل: «إن وراء كل رجل عظيم امرأة عظيمة...» (١).

فأولئك هن الأمهات اللواتي انبلج عنهن فجر الإسلام، وسمت بهن عظمته، وصدعت بقوتهن قوته، وعنهن ذاعت مكارمه، ورسخت قوائمه، وهكذا كانت الأم في عصور

---

(١) نساء حول الرسول ص (٩).

الإسلام الزاهية، وأيامه الخالية: مهبط الشرف الحر، والعز المؤثل، والمجد المكين[1].

وصدق الشاعر:

الأم مـــدرســـة إذا أعـــددتهـــا أعـددت شـعـبًا طـيـب الأعـراقِ
الأم روض إن تـعـهـده الـحـيـا بـالـري أورق أيـمـا إيـراقِ
الأم أسـتـاذ الأسـاتـذة الألـى شـغـلـت مـآثـرهـم مـدى الآفـاقِ

* فإلى كل أخت مؤمنة تؤمن بالله واليوم الآخر أقدم تلك الباقة العطرة من حياة هذا الجيل الفريد لتتعايش كل أخت بقلبها مع هذه السيرة العطرة وتتعرف على القدوة الحقيقية التي فاح عبيرها وانتشر أريجها.

فهن مثالٌ يُحتذَى ونبراسٌ يُقتدَى... بالوقوف على أخبارهن تحيا القلوب وباقتفاء آثارهن تحصل السعادة وبمعرفة سيرتهن ومناقبهن تكون القدوة بجميل الخصال ونبيل المآثر والفِعال.

ونحن - والذي رفع السماء - لفي مسيس الحاجة لقراءة سير الصحابة والصحابيات لأن إبراز تاريخ هذا الجيل الفريد والتركيز على كل ما قاموا به في تحملهم لأمانة الدعوة إلى الله وما أصابهم في سبيلها من الأذى يكون له أعظم الأثر في أن نعرف قدرهم ومكانتهم وفضلهم وبذلك نعتز بهذا الجيل فيكون أعظم قدوة لشبابنا وفتياتنا فيرتبط حاضر الأمة بماضيها العريق.

فهيا إلى هذه الواحة اليانعة لنعيش في رحاب الصادقات ولنستنشق عبير الصدق عسى الله أن يرزقنا الصدق والإخلاص في الدنيا.. والنعيم والرضوان في الآخرة.

فأسأل اللهأن يجعل لهذا الكتاب القبول في قلوب أخواتي المسلمات وأن ينفعهن به ويرزقهن العمل بما فيه... وأسأله - تعالى - أن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتي يوم أُدرج في أكفاني.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه أفقر خلق الله إلى الله
محمود المصري
(أبو عمار)

---

(١) عودة الحجاب/ محمد إسماعيل (٢/ ٢١٢).

فضائل نساء قريش

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير نساء ركبن الإبل** (قال أحدهما: **صالح نساء قريش**. وقال الآخر: **نساء قريش**) **أحناه على يتيم في صغره. وأرعاه على زوج في ذات يده**»(١)(٢).

وعن سعيد بن المسيب؛ أن أبا هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**نساء قريش خير نساء ركبن الإبل. أحناه على طفل. وأرعاه على زوج في ذات يده**».

قال: يقول أبو هريرة على إثر ذلك: ولم تركب مريم بنت عمران بعيرًا قط(٣).

فضائل نساء الأنصار

عن إبراهيم بن المهاجر قال: سمعت صفية تحدث عن عائشة أن أسماء سألت النبي ﷺ عن غسل المحيض ؟ فقال: «**تأخذ إحداكن ماءها وسدرتها فتطهر فتحسن الطهور، ثم تصب على رأسها فتدلكه دلكًا شديدًا حتى تبلغ شئون رأسها، ثم تصب عليها الماء ثم تأخذ فرصة ممسكة فتطهر بها**» فقالت أسماء: وكيف تطهر بها ؟ فقال: «**سبحان الله تطهرين بها**» فقالت عائشة: (كأنها تُخفي ذلك) تتبعين بها أثر الدم وسألته عن غُسل الجنابة فقال: «**تأخذ**

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٠٨٢) في النكاح/ باب: إلى من ينكح وأي النساء خير وما يستحب أن يتخير لنطفه من غير إيجاب، ومسلم (٢٠٠/ ٢٥٢٧) في فضائل الصحابة/ باب: من فضائل نساء قريش.

(٢) قال الإمام النووي: قوله ﷺ: (خير نساء ركبن الإبل نساء قريش أحناه على ولد في صغره وأرعاه على زوج في ذات يده) فيه فضيلة نساء قريش، وفضل هذه الخصال، وهي الحنوة على الأولاد، والشفقة عليهم، وحسن تربيتهم، والقيام عليهم إذا كانوا يتامى، ونحو **ذلك**: مراعاة حق الزوج في ماله، وحفظه، والأمانة فيه، وحسن تدبيره في النفقة وغيرها، وصيانته، ونحو ذلك. ومعنى (ركبن الإبل) نساء العرب، ولهذا قال أبو هريرة ﷺ في الحديث: لم تركب مريم بنت عمران بعيرًا قط، والمقصود أن نساء قريش خير نساء العرب وقد علم أن العرب خير من غيرهم في الجملة وأما الإفراد فيدخل بها الخصوص ومعنى ذات يده أي شأنه المضاف إليه ومعنى أحناه: أشفقه، والحانية على ولدها التي تقوم عليهم بعد يتمهم فلا تتزوج فإن تزوجت فليست بحانية [مسلم بشرح النووي (١٦/ ١١٩ ، ١٢٠)].

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٠١/ ٢٥٢٧) في فضائل الصحابة/ باب: من فضائل نساء قريش.

ماء فتطهر فتحسن الطهور أو تبلغ الطهور، ثم تصب على رأسها فتدلكه حتى تبلغ شئون رأسها ثم تُفيض عليها الماء» فقالت عائشة: نِعم النساء نساء الأنصار لم يكن يمنعهن الحياءُ أن يتفقهن في الدين[١].

فضل أزواج النبي ﷺ

قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٦].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

لقد اختار النبي ﷺ لنفسه ولأهل بيته معيشة الكفاف، لا عجزًا عن حياة المتاع، فقد عاش حتى فتحت له الأرض، وكثرت غنائمها، وعمَّ فيؤها، واغتنى من لم يكن له من قبل مال ولا زاد ! ومع هذا فقد كان الشهر يمضي ولا توقد في بيوته نار. مع جوده بالصدقات والهبات والهدايا. ولكن ذلك كان اختيارًا للاستعلاء على متاع الحياة الدنيا ورغبة خالصة فيما عند الله. رغبة الذي يملك ولكنه يعف ويستعلي ويختار. . ولم يكن رسول الله ﷺ مكلفًا من عقيدته ولا من شريعته أن يعيش مثل هذه المعيشة التي أخذ بها نفسه وأهل بيته، فلم تكن الطيبات محرمة في عقيدته وشريعته؛ ولم يحرمها على نفسه حين كانت تقدم إليه عفوًا بلا تكلف، وتحصل بين يديه مصادفة واتفاقًا، لا جريًا وراءها ولا تشهيًا لها، ولا انغماسًا فيها ولا انشغالاً بها. . ولم يكلف أمته كذلك أن تعيش عيشته التي اختارها لنفسه، إلا أن يختارها من يريد، استعلاء على اللذائذ والمتاع، وانطلاقًا من ثقلتها إلى حيث الحرية التامة من رغبات النفس وميولها.

وقال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا[٢] ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٣٣٢) في الحيض/ باب: استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة من مسك في موصوف الدم، وأبو داود (٣١٤) في الطهارة/ باب: الاغتسال من الحيض، وابن ماجة (٦٤٢) في الطهارة وسننها/ باب: في الحائض كيف تغتسل، وأحمد (٢٤٦٢١).

(٢) وقد عصمهن الله من ذلك.

نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

* * *

خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

سيدة نساء العالمين

ومع أول كوكبة من كواكب المجموعة النبوية نلتقي مع رمز الطُهر والعفاف والتُقى... مع الزهرة التي فاح أريجها وعبيرها فملأ أرجاء الكون كله بعبير الإيمان والتضحية والبذل والفداء.

مع أول من آمن بالله - من النساء -... وأول من صلى مع رسول الله ﷺ.. وأول من رُزق منها الأولاد... وأول من بشرها بالجنة من أزواجه... وأول من أقرأها ربها السلام... وأول صدّيقة من المؤمنات... وأول زوجات النبي ﷺ وفاة... وأول قبر نزل فيه النبي الكريم ﷺ بمكة... آمنت به حين كفر به الناس وصدقته حين كذّبه الناس وواسته بمالها حين بخل الناس ورزقه الله منها الولد.

إنها العاقلة اللبيبة المصونة الكريمة التي كانت تُدعى في الجاهلية «**الطاهرة**» فكيف بها في ظل الإسلام ؟!.

إنها سكن النبي ﷺ التي آزرته ووقفت بجواره ليبلغ دعوة ربه وهيأت للحبيب ﷺ كل أسباب السعادة والنعيم. وساندته في أحلك أوقات المحنة حتى استحقت بكل جدارة أن يأتيها السلام من عند السلام من فوق سبع سموات بل وتأتيها البشرى ببيتٍ في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب.

إنها سيدة نساء العالمين وزوجة سيد الأولين والآخرين ﷺ. إنها خديجة رضي الله عنها.

التي سطع نجمها في عالم الإيمان والطُهر والعفاف والنُبل والعطاء والوفاء.

إن الثناء لا يُكتسب بالمال، وإنما بما يترك الإنسان في دنياه من فضائل يبقى أريجها مدى الدهر، ينتعش بذكره الأحياء، وتصفو بذكرياته النفوس، وتتغذى بسيرته العقول؛... قل لي بربك: أليست هذه قمة السيادة في الحياة وفي الممات؟!

إن صديقة المؤمنات الأولى خديجة رضي الله عنها لم تكن أم المؤمنين فحسب، وإنما كانت أم كل فضيلة، ولها في عنق كل موحد فضل وحق إلى يوم يُبعثون، فهل نستطيع أن نفي أمنا جزءًا من حقها ؟! (١).

(١) نساء أهل البيت (ص: ٦٧).

تالله إن أخبارها دواءً للقلوب وجلاءً للألباب من الدنس والعيوب وقدوة في زمن كادت القدوات فيه أن تغيب. . . بالوقوف على سيرتها تحيا القلوب وباقتفاء آثارها تحصل السعادة وبمعرفة مناقبها تكون القدوة بجميل الخصال ونبيل المآثر والفعال.

فتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا مع أعظم أمٍ في الكون كله لنعلم قدرها ومكانتها ومنزلتها عند الله وعند رسول الله ﷺ ولنسعد بسيرتها العطرة التي نقدم من خلالها أعظم قدوة لنسائنا وبناتنا وأخواتنا بل وأمهاتنا.

فهيا لنعطر قلوبنا بسيرتها المباركة.

من هي خديجة رضي الله عنها

هي أم المؤمنين وسيدة نساء العالمين في زمانها. أم القاسم ابنة خويلد بن أسد ابن عبد العزى بن قُصي بن كلاب، القرشية الأسدية. أم أولاد رسول الله ﷺ وأول من آمن به وصدقه قبل كل أحد.

ومناقبها جمة. وهي ممن كمل من النساء. كانت عاقلة جليلة دينة مصونة كريمة، من أهل الجنة، وكان النبي ﷺ يثني عليها، ويفضلها على سائر أمهات المؤمنين، ويبالغ في تعظيمها، بحيث إن عائشة كانت تقول: ما غرت من امرأة ما غرت على خديجة، من كثرة ذكر رسول الله ﷺ إياها. . . (١).

ومن كرامتها عليه ﷺ أنه لم يتزوج امرأة قبلها، وجاءه منها عدة أولاد، ولم يتزوج عليها قط، ولا تسرَّى إلى أن قضت نحبها، فوجد لفقدها، فإنها كانت نعم القرين. وكانت تنفق عليه من مالها، ويتَّجر هو ﷺ لها.

وقال الزبير بن بكار: كانت خديجة تُدعى في الجاهلية الطاهرة. وأمها هي فاطمة بنت زائدة العامرية.

كانت خديجة أولاً تحت أبي هالة بن زرارة التميمي، ثم خلف عليها بعده عتيق ابن عابد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، ثم بعده النبي ﷺ، فبنى بها وله خمس وعشرون سنة. وكانت أسن منه بخمس عشرة سنة (٢).

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري(٣٨١٧) في المناقب/ باب: تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها، ومسلم (٢٤٣٥) في فضائل الصحابة/ باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها.

(٢) سير أعلام النبلاء/ للإمام الذهبي (٢/ ١٠٩-١١١) بتصرف.

فلقد وُلدت في أم القرى وكان ذلك قبل عام الفيل بخمس عشرة سنة تقريبًا.

وقفة مع النفس

ها هي خديجة رضي الله عنها صاحبة القلب الطاهر والنفس الراضية تقف في لحظة مع نفسها تستعرض شريط الذكريات . . . فهي على الرغم من النجاح الباهر الذي حققته - بفضل الله - في عالم التجارة حتى باتت قافلتها إلى الشام تعدل قوافل قريش إلا أنها كانت لا تشعر بالسعادة لأن قلبها كان يحتاج إلى الزاد الذي لا يستطيع قلبٌ أن يحيا بدونه - إنه زاد الإيمان الذي جاء به الحبيب ﷺ بعد ذلك -. . وكذلك فهي التي تعثرت حياتها الزوجية أكثر من مرة في الوقت الذي كان قلبها يتطلع إلى حياة زوجية سامية كلها تضحية ومحبة وبذل وعطاء.

لقد تزوجت أبا هالة بن زرارة التميمي وكانت تسعى بكل ما تملك ليكون زوجها سيدًا في قومه ولكن الموت قطع عليها تلك الأمنية فمات زوجها ورحل عن دنيا الناس - بعد أن أنجبت منه هندًا -. ثم تقدَّم لها بعد فترة رجل من أشراف قريش وهو عتيق بن عابد بن عبد الله المخزومي فتزوجها ولكن هذا الزواج لم يدم طويلاً. فعاشت خديجة سيدة نساء قريش بلا زوج وهي التي يتمناها أشراف القوم. . . لكنها كانت تشعر في قرارة نفسها أن الأقدار تخبئ لها شيئًا عظيمًا يجعلها تنسى هموم الماضي ويدُخل البهجة والسعادة على قلبها.

رؤيا تعانق كواكب الجوزاء

كانت خديجة رضي الله عنها امرأة عالية الهمة، جياشة العواطف، واسعة الأفق، مفطورة على التدين والنقاء والطهر، حتى لقد عرفت بين أترابها وبين نساء قريش بالطاهرة [(١)] - وناهيك بهذه الصفة التي حلقت بها فجعلتها في سماء السُّبَّق إلى ساحة المعالي.

كانت خديجة رضي الله عنها تصغي كثيرًا إلى أحاديث ابن عمها ورقة ابن نوفل عن الأنبياء، وعن الدين، وكثيرًا ما كانت أحلامها المجنحة ترفرف في سموات عالية من الفضل والفضيلة لم تكن لتصل إليها أماني أهل عصرها من رجال ونساء.

في ليلة غارت نجومها، واحلولك ظلامها، جلست خديجة في بيتها بعد أن طافت

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ١١١).

مرارًا بالكعبة، عندئذ ذهبت إلى فراشها وقد ارتسمت على شفتيها علائم الرضا والابتسام، ولم يدر في ذهنها أي خاطر في ذلك الوقت، وما أسلمت جنبها للرقاد حتى استسلمت للنوم وراحت في سبات.

ورأت فيما يرى النائم شمسًا عظيمة تهبط من سماء مكة لتستقر في دارها، وتملأ جوانب الدار نورًا وبهاءً، ويفيض ذلك النور من دارها ليغمر كل ما حولها بضياء يبهر النفوس، قبل أن يبهر الأبصار بشدة ضيائه.

هبت خديجة من نومها، وراحت تدير عينيها فيما حولها بدهشة، فإذا بالليل ما يزال يسربل الدنيا بالسواد، ويجثم على الوجود والموجودات، بَيد أن ذلك النور الذي بهرها في المنام لا يزال مشرقا في وجدانها، ساطعًا في أعماقها.

عندما غادر الليل الدنيا، غادرت خديجة فراشها، ومع إشراقة الشمس، وصفاء الكون في الصباح الباكر، كانت الطاهرة خديجة في طريقها إلى دار ابن عمها ورقة ابن نوفل، لعلها تجد عنده تفسيرًا لحلمها البهي في ليلتها الماضية.

دخلت خديجة على ورقة، فألفته قد عكف على قراءة صحيفة من الصحف السماوية التي شغف بها، فراح يقرأ سطورها كل صبح ومساء، وما أن مس صوت خديجة أذنيه حتى رحب بها وقال متعجبًا:

خديجة ؟ الطاهرة ؟

قالت: هي ، هي.

قال في دهشة: ما جاء بك الساعة ؟

جلست خديجة، وراحت تقص عليه ما رأت في منامها حرفًا حرفًا، ومشهدًا مشهدًا.

كان ورقة يصغي إلى خديجة في اهتمام جعله ينسى الصحيفة في يده وكأن شيئا ما نبَّه إحساسه، وجعله يتابع سماع الحلم إلى النهاية.

وما إن انتهت خديجة من كلامها حتى تهلل وجهه بالبشر، وارتسمت على شفتيه ابتسامة الرضا، ثم قال لخديجة في هدوء ووقار: أبشري يا ابنة العم... لو صدق الله رؤياك ليدخلن نور النبوة دارك، وليفيضن منها نور خاتم النبيين... الله أكبر... ماذا تسمع خديجة ؟ ما الذي يقوله ابن عمها ؟ وجمت خديجة لحظات... سرت في بدنها

قشعريرة، جاشت في صدرها عواطف مشبوبة زاخرة بالأمل والرحمة والرجاء.

ظلت خديجة ﵂ تعيش على رفرف الأمل، وعبير الحلم الذي رأته، فعسى أن تتحقق رؤياها، وتكون مصدر خير للبشرية، ومصدر نور للدنيا، فقد كان قلبها الكبير منبعًا للخيرات، أما عقلها فكان يستوعب كل ما حولها من أحداث بشكل يتفق مع حياتها.

كانت خديجة ﵂ إذا تقدم إليها سيد من سادات قريش لخطبتها، تقيسه بمقياس الحلم الذي رأته، والتفسير الذي سمعته من ابن عمها الشيخ الوقور ورقة ابن نوفل... ولكن - إلى الآن - لم تنطبق صفات خاتم النبيين على الذين تهافتوا على خطبتها والاقتران بها، فكانت تردهم ردًا جميلاً، وتخبرهم أنها لا تود الزواج، فقد كانت تحس إحساسًا غامضًا أن القدر الإلهي يخبئ لها شيئا رائعًا لا تدري ما هو، لكنها تستشعر أن منه ما يدخل الطمأنينة إلى قلبها(١).

الزواج المبارك

قال ابن إسحاق: وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم(٢) إياه، بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قومًا تجارًا، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها: من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مالٍ لها إلى الشام تاجرًا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبله رسول الله ﷺ منها، وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام.

فنزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريبًا من صومعة راهب من الرهبان، فاطلع الراهب إلى ميسرة، فقال له: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ قال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي(٣).

ثم باع رسول الله ﷺ سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد أن يشتري، ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة، فكان ميسرة - فيما يزعمون - إذا كانت الهاجرة واشتد الحرُّ يرى ملكين يظلانه من الشمس، وهو يسير على بعيره. فلما قدم مكة على خديجة

---

(١) نساء أهل البيت (ص: ١٦ - ١٩) بتصرف.
(٢) تضاربهم: تقارضهم، والمضاربة المقارضة.
(٣) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٢٩) من طريق الواقدي، وإسناده ضعيف فالواقدي متروك.

بمالها، باعت ما جاء به، فأضعف أو قريبا. وحدثها ميسرة عن قول الراهب وعما كان يرى من إظلال الملكين إياه. وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة مع ما أراد الله بها من كرامته(١).

شُغلت خديجة بأحاديث وذكريات، شغلت بحديث ميسرة عن محمد ﷺ، وبقول ابن عمها ورقة: إن محمدًا نبي هذه الأمة، واحتل الحلم - الذي رأت فيه الشمس تهبط من سماء مكة لتستقر في دارها - أقطار رأسها، وراح صوت ورقة يتردد في أعماقها: أبشري يا ابنة العم، لو صدق الله رؤياك ليدخلن نور النبوة دارك، وليفيضن منها نور خاتم النبيين.

انتقلت خديجة من سيل ذكرياتها إلى الواقع الذي تحياه، نظرت وفكرت في محمد، فإذا هو يملأ صفحة خيالها.

اجتمعت الدلائل والقرائن عند خديجة بأن محمدًا هو الرحيق الذي يختم به الأنبياء. فباتت ترجو أن تكون زوجًا له ولكن أنَّى الطريق إلى ذلك ؟!

إنها امرأة عريقة النسب ممدودة الثروة، وقد عُرفت بالحزم والعقل، ومثلها مطمح لسادة قريش لولا أن السيدة كانت تحقر في كثير من الرجال أنهم طلاب مال لا طلاب نفوس. وأن أبصارهم ترنو إليها بغية الرفادة من ثرائها وإن كان الزواج عنوان هذا الطمع!

لكنها عندما عرفت محمدًا - عليه الصلاة والسلام - وجدت ضربًا آخر من الرجال. وجدت رجلًا لا تستهويه ولا تدنيه حاجة. ولعلها عندما حاسبت غيره في تجارتها وجدت الشح والاحتيال. أما مع محمد ﷺ فقد رأت رجلًا تقفه كرامته الفارعة موقف النبل والتجاوز، فما تطلع إلى مالها ولا إلى جمالها. لقد أدى ما عليه ثم انصرف راضيًا مرضيًا.

ووجدت خديجة ضالتها المنشودة(٢).

وفي غمرة الحيرة والاضطراب تدخل عليها صديقتها نفيسة بنت منبه، وتجلس معها تبادلها أطراف الحديث حتى استطاعت أن تكشف السر الكامن المرتسم على محياها وفي نبرات حديثها.

وهدأت نفيسة من روع خديجة وطمأنت خواطرها، وذكرت بأنها ذات الحسب والنسب والمال والجمال، واستدلت على صدق قولها بكثرة الطالبين لها من أشراف الرجال.

---

(١) ابن هشام (١/ ١٦٥ ، ١٦٦).
(٢) فقه السيرة للغزالي (ص: ٨٨ ، ٨٩).

وما إن خرجت نفيسة من عند خديجة حتى انطلقت إلى النبي ﷺ وكلمته أن يتزوج الطاهرة خديجة، وقالت: يا محمد ما يمنعك أن تتزوج؟ فقال -عليه الصلاة والسلام-: «ما بيدي ما أتزوج به».

قالت: فإن كُفيت ودُعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة فهل تجيب ؟ فرد متسائلاً: ومن ؟

قالت على الفور: خديجة بنت خويلد.

فقال: إن وافقت فقد قبلت.

وانطلقت نفيسة لتزف البشرى إلى خديجة، وأخبر - عليه الصلاة والسلام - أعمامه برغبته في الزواج من خديجة، فذهب أبو طالب وحمزة وغيرهما إلى عم خديجة عمرو ابن أسد، وخطبوا إليه ابنة أخيه، وساقوا إليه الصداق.

في ذلك المجلس اللطيف، قام أبو طالب يخطب، ذكر أبو العباس المبرد رحمه الله وغيره، أن أبا طالب خطب خطبة الإملاك فقال:

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضئ - أصل - معد، وعنصر مُضر، وجعلنا حضنة بيته، وسواس حرمه، وجعل لنا بيتا محجوبًا، وحرما آمنًا، وجعلنا الحكام على الناس؛ ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن برجل إلا رجح عليه برًا وفضلاً، وشرفًا وعقلاً، ومجدًا ونبلاً.

فإن كان في المال قُل - قلة - فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، وعارية مسترجعة، ومحمد من قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد، وبذل لها ما آجله وعاجله من مالي عشرين بكرة، وفي رواية: وقد بذل لها من الصداق اثنتى عشرة أوقية ذهبا ونشًا - أي نصف أوقية - ثم قال أبو طالب: وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل فزوجها[1].

ولما تم العقد نُحرت الذبائح، ووزعت على الفقراء، وفتحت دار خديجة للأهل والأقارب.

كانت الطاهرة خديجة رضي الله عنها بنت أربعين في سن اكتمال الأمومة، أما محمد ﷺ ففي سن اكتمال الشباب ابن خمس وعشرين سنة.

وفي هذا الزواج المبارك كانت الطاهرة خديجة هي الزوجة الوفية في حبها، وهي

---

(١) «السيرة الحلبية» (١/ ٢٢٦)، و «الروض الأنف» للسهيلي (١/ ٢١٣).

الأم الرؤوم في حنانها وعطفها وبرها رضي الله عنها.

حكمتها ورجاحة عقلها

وليس شيء أدل على حكمتها وكياستها ورجاحة عقلها من أنها قد اختارت النبي ﷺ زوجًا رغم كونه إذ ذاك فقيرًا وهي غنية ثرية يتطلع إليها أثرياء قومها وأشرافهم فتأبى، وما ذاك إلا أنها قد عرفت بحكمتها وحصانة عقلها أن كمال الرجولة، وشرف المروءة، وسلامة الطبع أمر وراء الغنى المادي، والعرض الزائل.

إنها تبحث عن نوع آخر من الغنى والثراء!

إنه غنى النفس، وثراء الضمير، ودماثة الخلق! وأين تجد ذلك كله على الوجه الأكمل في غير محمد ﷺ، وإذا كان بعض الكتاب يذهب إلى أن الذي دفعها إلى الاقتران بالنبي ﷺ هو ما ذُكر لها من حسن تعاطيه للتجارة بيعًا وشراءً، وما اتصف به في تجارته من صدقٍ وأمانة وغير ذلك.

فإنا نقول: إن هذا وإن كان من الأسباب التي يرغب لمثلها في الرجال - لا سيما من كانت ذات مال كخديجة رضي الله عنها تحتاج من يتجر لها في مالها.

غير أنا نقول: لعل ذلك كان من الأسباب الظاهرة التي تبرر خديجة بها زواجها من محمد ﷺ وهو أحدث منها سنًا، إذ كان يصغرها بخمس عشرة سنة فهو في الخامسة والعشرين من عمره، وهي في الأربعين.

فضلاً عن قلة ماله، وعدم رياسته ومكانته. غير أنها وجدت في صدقه وأمانته وحسن تجارته وعراقة نسبه ﷺ ما تبرر زواجها به أمام قومها.

غير أننا بحثنا عن السبب الحقيقي في زواج هذه المرأة بمحمد ﷺ وهي في سن الأربعين أي في اكتمال عقلها ورشدها فليست بالفتاة الطائشة، ولا العجوز الخرفة... السبب الحقيقي هو بحثها عن الرجولة الكاملة... الرجولة بكل معانيها من خلق ومروءة وفتوة وإيثار وكرم خصال.

وما كان محمد ﷺ ليقبل زواج خديجة ولو كانت تملك مال الأرض كله، ولو كانت أبهى نساء الدنيا جمالاً، لولا ما رآه محمد ﷺ فيها من رجاحة العقل وكياسته وما شهد به قومها لها من شريف الخصال، وحميد الفعال، وعفة المئزر، وسلامة الجوهر، وعراقة المنبت.

فلهذا كله وافقت رغبة خديجة رغبة محمد ﷺ في الاقتران بها.

وصدق ظن محمد ﷺ في خديجة فكانت نعم الزوجة، ونعم السند فلقد آلت بها رجاحة عقلها وفطنتها إلى الإيمان بما جاء به محمد ﷺ واتباعه في كل أفعال الإيمان، وأمور الطاعة،... عاد ﷺ ذات يوم إلى بيت خديجة رضي الله عنها، وقد علَّمه جبريل عليه السلام كيف يصلي، فأخبرها بذلك، فقالت: أرني كيف أراك! أي علمني كيف علمك جبريل الصلاة.

فأراها وعلمها فتوضأت كما توضأ ثم صلت معه وقالت: أشهد أنك رسول الله[1][2].

هذا هو الصادق الأمين

ولقد كانت أمنا خديجة رضي الله عنها تعلم أخلاق النبي ﷺ جيدًا وتسمع عن مكارمه وفضائله ما يملأ القلب بهجة وسرورًا... بل كانت تعلم مكانته بين قومه الذين كانوا يلقبونه بالصادق الأمين وكانوا يستعينون به لحل أعتى المشاكل التي كانت تحدث بينهم.

فها هي قبائل قريش قد اجتمعت لتعيد بناء الكعبة المشرفة فلقد كانت الكعبة قد أوشكت على الانهيار قيل: بحريق أصابها، وقيل: بسيل جارف، وكان ذلك قبل بعثة النبي ﷺ بخمس سنوات على الراجح، فلم تجد قريش بُدًا من إعادة بنائها.

وقد أشارت الأحاديث الصحيحة إلى ذلك... روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها: **«ألم ترى أن قومك لما بنوا الكعبة اقتصروا على قواعد إبراهيم»**. فقلت: يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم؟ قال: لولا حُدثان قومك بالكفر لفعلت. فقال عبد الله رضي الله عنه: لئن كانت عائشة رضي الله عنها سمعت هذا من رسول الله ﷺ ما أرى رسول الله ﷺ ترك استلام الركنين اللذين يليان الحِجْرَ، إلا أن البيت لم يُتَمَّمْ على قواعد إبراهيم[3].

وقصرت بقريش النفقة الطيبة لأنهم شرطوا على أنفسهم أن لا يدخل في بنائها إلا نفقة طيبة، ولا يدخلها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة لأحد.

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في الإصابة (٤/ ٢٧٤): وهذا أصرح ما وقفت عليه في نسبتها إلى الإسلام.

(٢) نقلًا من «رجال ونساء حول الرسول ﷺ» / د. عبد الحميد هنداوي.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٥٨٣) في الحج/ باب: فضل مكة وبنيانها، ومسلم (١٣٣٣) في الحج/ باب: نقض الكعبة وبنائها.

قال ابن إسحاق: ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها، حتى بلغ البنيان موضع الركن، فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوروا وتحالفوا وأعدوا للقتال، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب ابن لؤي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، فسموا «**لعقة الدم**» فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسًا، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد وتشاوروا وتناصفوا.

فقالوا: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه، ففعلوا. فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ؛ فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد؛ فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال ﷺ: «**هلم إليَّ ثوبًا**»، فأتى به، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده، ثم قال: «**لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعا**»، ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده، ثم بنى عليه[(١)].

السعادة ترفرف بأجنحتها على أعظم بيت

رفرفت السعادة بأجنحتها على بيت خديجة رضي الله عنها، فقد وجدت الطاهرة خديجة في الأمين محمد خير الأزواج، فهو لطيف المعشر، سابغ العطف، يحيط به كل إنسان وكل حي، وكل شيء؛ فأخلاق محمد ﷺ كانت تنبع من فطرته بنسب متفقة متكاملة، فصبره مثل شجاعته، وشجاعته مثل كرمه، وكرمه مثل حلمه، وحلمه مثل رحمته، ورحمته مثل مروءته، وخصائصه ﷺ كثيرة في الفضل.

بل إنه من وفائه ﷺ لم ينس أبدًا تلكم المرأة العظيمة التي كانت له أمًا بعد أمه أم أيمن رضي الله عنها فأخذها معه لما انتقل إلى دار الزوجية، وأكرمها وغمرها بحنانه، وفاض قلبه الكبير رقة مست قلوب أبناء خديجة، فكان هند ابن خديجة عند أمه بعد زواجها من محمد ﷺ، فكان ربيب النبي سعيدًا غاية السعادة أن يشب وينشأ في كنف أصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة.

لقد وسع حب محمد ﷺ زيد بن حارثة، ذلك الفتى الذي اشتراه حكيم بن حزام من سوق عكاظ، ووهبه لعمته خديجة، وقد تعلق محمد ﷺ بزيد، وأحب زيد محمدًا حبًا

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (١١٣)، والحاكم في «مستدركه» (١/٤٥٨)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وله شاهد صحيح على شرطه، ووافقه الذهبي.

لم يحب أحدًا مثله من قبل. وقد فطنت خديجة إلى هذا الحب الأبوي، فوهبت زيدًا لزوجها فأعتقه، ولم يكتف بأن رد إليه حريته السليبة، بل شرفه ورقاه بأن نسبه إلى نفسه فكان زيد بن محمد.

أحبت خديجة رضي الله عنها زوجها محمد ﷺ حبًا ملك عليها كل مشاعرها، حب الزوجة لزوجها الكريم الذي تمثلت فيه مكارم الأخلاق ومعالي المكارم، فقد كانت على مر الأيام وطول العشرة، تزداد يقينًا بأن الرجل الذي اختارته لنفسها هو أصلح أهل الأرض لأداء رسالته، والنهوض بأمته.

كانت خديجة رضي الله عنها تهيئ لرسول الله ﷺ كل أسباب الراحة وكل أطراف النعيم، إذا أشار لبت إشارته متهللة النفس، رضية القلب، كريمة اليد، فما كانت تبخل بأموالها أيضا، وكانت سخية بعواطفها ومشاعرها وأموالها، بل لم تكن تبخل بحبها على من يحب زوجها، وكانت تكرم من يحبه إكرامًا يملأ النفس رضًا وسرورًا[1].

صاحبة القلب الرحيم

في جلسة غمرتها أنوار ربانية كان محمد ﷺ يتحدث مع خديجة، فكان صوته الصحل يمس أوتار فؤادها وتلك الحكمة المتدفقة من بين شفتيه تغمر روحها بسعادة عارمة مجنحة تسمو بها فوق وجودها الملموس، وتعيش في أفق نوراني.

في تلك اللحظات جاءت مولاة خديجة وقالت: مولاتي: إن حليمة بنت عبد الله بن الحارث السعدية تود الدخول. ولما سمع رسول الله ﷺ بحليمة السعدية، خفق قلبه الشريف حنانًا، وراحت الذكريات الحبيبة والحانية الدافئة تطفو على سطح ذهنه، ذكريات حبيبة إلى نفسه، تذكَّر بيداء بني سعد ورضاعته هنالك، كانت لحظة مفعمة بالمشاعر الناعمة، لحظة أحيت - في مثل لمح البصر أو أسرع - أيام طفولته، وأيام نشأته بين ذراعي حليمة، وفي أحضانها.

قامت خديجة رضي الله عنها لتُدخل حليمة، فطالما حدثها عنها حديثًا يقطر حبًّا ورحمة ودفئًا وكرامة، وعندما وقع بصره الشريف عليها، مس سمع خديجة صوته اللطيف وهو ينادي في لهفة وحنان «**أمي، أمي**».

(١) نساء أهل البيت (ص: ٣٠ ، ٣١) بتصرف.

نظرت خديجة إلى رسول الله ﷺ فألفته قد فرش لها رداءه، ومرر يده عليها في حنان دافق، وقد ترقرقت في وجهه سعادة عارمة، وتألق في عينيه فرح فياض، لكأنما كان يحتوي في أحضانه أمه آمنة بنت وهب وقد بُعثت من مرقدها.

وفي غمرة اللقاء الحار بين رسول الله ﷺ وحليمة، سألها عن حالها، فراحت تشكو إليه قسوة الحياة والجدب الذي نزل ببادية بني سعد، ثم شكت ضيق العيش، ومرارة الفقر، فأفاض عليها من كرمه.

وبعد ذلك حدث النبي ﷺ زوجه خديجة - في تأثر واضح - بما ألمّ في مرضعته حليمة من ضيق، وما حاق بها وبقومها من كرب، فتدفقت كنوز فؤاد خديجة بالعطف والرحمة، وأعطتها عن طيب خاطر أربعين رأسًا من الغنم، كما وهبتها بعيرًا يحمل الماء، وزودتها بما تحتاجه في رجوعها إلى باديتها، وكانت خديجة رضي الله عنها متأهبة على الدوام لتجود بكل أموالها، إرضاءً لزوجها محمد ﷺ فشكر لها أريحيتها، ثم انطلق ليضع بين يدي مرضعته ما جادت به خديجة[1].

في رحاب الذرية المباركة

وهكذا كان هذا البيت المبارك قائمًا على المودة والرحمة والحب فلم تكن خديجة رضي الله عنها تدخر جهدًا في أن تُدخل السعادة والسرور على قلب الحبيب ﷺ. . . وفي يوم من الأيام عاد النبي ﷺ إلى البيت وكانت زوجه الحنون تحمل له بشرى عظيمة فلقد أخبرته بأنها حامل فاهتز قلب الحبيب ﷺ فرحًا بتلك البشرى الغالية.

وكانت خديجة في غاية البهجة والسعادة والسرور لأنها تشعر بل وتوقن بأن زوجها ﷺ سيكون له شأن عظيم فكانت تتمنى أن يرزقها الله منه بالولد وجاءت اللحظة السعيدة التي ولدت فيها خديجة أول مولودٍ للحبيب ﷺ وهو القاسم - الذي كان يُكنَّى به الحبيب ﷺ - ثم تتابعت بعد ذلك الذرية المباركة فولدت له بعد ذلك زينب وأم كلثوم وفاطمة وكان ذلك قبل النبوة ثم ولدت له بعد النبوة عبد الله - الذي كان يُسمى بالطيب والطاهر -.

وقد ذكر ابن عباس رضي الله عنهما أولاد رسول الله ﷺ من الطاهرة الولود خديجة فقال: ولدت خديجة لرسول الله ﷺ غلامين وأربعة نسوة، القاسم وعبد الله،

(١) نساء أهل البيت (ص: ٣١، ٣٢).

وفاطمة وأم كلثوم وزينب ورقية [١]. أما إبراهيم فهو من مارية القبطية رضي الله عنها ومات بنوه كلهم في صغرهم. أما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن، فرقية وأم كلثوم تزوجتا عثمان بن عفان رضي الله عنه وزينب زوجة أبي العاص بن الربيع بن عبد شمس، وفاطمة زوجة علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم أجمعين - [٢].

وقد أدركتهن الوفاة في حياة النبي ﷺ إلا ابنته فاطمة، فقد توفيت بعده بستة أشهر.

وكان النبي ﷺ ينظر إلى أسرته المباركة بصدر منشرح.. فقد كانوا جميعًا يعيشون حياة هادئة جميلة في غاية الصفاء والسعادة.

فخديجة رضي الله عنها زوجة مثالية علمت كيف تُدخل السعادة على قلب زوجها ﷺ وأولادها وكانت كلما طالت عشرتها مع الحبيب ﷺ ازدادت حبًا له وإعجابًا به فهو العابد الزاهد الذي تعلق قلبه وتعلقت جوارحه بالله ومن هذا البيت المبارك خرجت فاطمة التي أضحت فيما بعد سيدة نساء أهل الجنة وأم الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وزوجة واحدٍ من العشرة المبشرين بالجنة.. فيا له من بيت مبارك نشر البركة وعبير الإيمان على الكون كله.

كرم وإيثار

ولقد كانت خديجة رضي الله عنها في غاية الكرم والجود وكانت تحب كل ما يحبه زوجها ﷺ وتضحي بكل ما تملك من أجل إسعاد زوجها ﷺ فلما كفل الحبيبُ ﷺ ابن عمه علي ابن أبي طالب وجد في بيت الطاهرة الرحيمة (خديجة) قلبًا حانيًا وأمًّا عطوفًا جعلته يشعر أنه مع أمه التي ولدته فكانت تُحسن إليه غاية الإحسان.

وكذلك لما أحسَّت خديجة رضي الله عنها بأن الحبيب ﷺ يحب مولاه زيد بن حارثة وهبته له فازدادت بذلك منزلتها في نفس النبي ﷺ.

ما أنا بالذي أختار عليه أحدًا أبدًا

ولقد رأت خديجة من حب زيد للحبيب ﷺ موقفًا لا توازيه الدنيا بكل ما فيها من متاع زائل.

---

(١) «دلائل النبوة» للبيهقي (٢/٧٠).
(٢) «تهذيب الأسماء واللغات» (١/٢٦).

فلقد خرج زيد مع أمه وهو صغير في زيارة لقومها فأغارت عليهم الخيل فاحتملوا زيدًا وباعوه في سوق عكاظ فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بأربعمائة درهم فظل أبوه يبحث عنه في مشارق الأرض ومغاربها حتى تفطَّر قلبه حزنًا عليه وأخذ يصوغ حنينه إليه شعرًا حزينًا تتفطر له الأكباد حيث يقول:

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل ... أحَيٌّ فيرجى أم أتى دونه الأجل ؟
فوالله ما أدري وإني لسائل ... أغالك بعدي السهل أم غالك الجبل[١]
تذكرنيه الشمس عند طلوعها ... وتعرض ذكراه إذا غربها أفل[٢]
سأعمل نَصَّ العِيس في الأرض جاهدًا ... ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل[٣]
حياتي، أو تأتي عليَّ منيتي ... فكل امرِ فانٍ وإن غره الأمل

وفي موسم من مواسم الحج[٤] قصد البيت الحرام نفر من قوم زيد، وفيما كانوا يطوفون بالبيت العتيق، إذا هم بزيد وجهًا لوجه، فعرفوه وعرفهم وسألوه وسألهم، ولما قضوا مناسكهم وعادوا إلى ديارهم أخبروا حارثة بما رأوا وحدثوه بما سمعوا.

فما أسرع أن أعد حارثة راحلته، وحمل من المال ما يفدي به فلذة الكبد، وقرة العين، وصحب معه أخاه كعبًا، وانطلقا معا يغذان[٥] السير نحو مكة[٦].

فسألا عن النبي ﷺ فقيل: هو في المسجد فدخلا عليه فقالا: يا ابن هاشم، يا ابن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله وجيرانه، تفكون العاني، وتطعمون الأسير، جئناك في ابننا عندك فامنن علينا وأحسن إلينا في فدائه، فإنا سنرفع لك في الفداء. قال: ما هو ؟ قالوا: زيد بن حارثة. فقال رسول الله ﷺ: «**فهلا غير ذلك؟**» قالوا: ما هو ؟ قال: «**ادعوه فخيِّروه فإن اختاركم فهو لكما بغير فداء، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحدًا**». قالوا: قد زدتنا على النصف وأحسنت.

فدعاه فقال: «**هل تعرف هؤلاء؟**» قال: نعم، هذا أبي وهذا عمي. قال: «**فأنا من قد علمت، ورأيت محبتي لك فاخترني أو اخترهما**». فقال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك

(١) غالك: سرقك.
(٢) أفل: غاب.
(٣) سأعمل نص العيس: سأستحث النوق على السير في الأرض.
(٤) كان ذلك في الجاهلية.
(٥) يغذان السير: يسرعان في السير.
(٦) صور من حياة الصحابة/ د. عبد الرحمن الباشا (٢١٨ ، ٢١٩).

أحدًا. أنت مني بمنزلة الأب والعم. فقالا: ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك، وأهل بيتك ؟ قال: نعم. إني قد رأيت من هذا الرجل شيئًا ما أنا بالذي أختار عليه أحدًا أبدًا. فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحِجر فقال :**«يا من حضر اشهدوا أن زيدًا ابني يرثني وأرثه...»** فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا.

فدُعي زيد بن محمد حتى جاء الله بالإسلام، فزوَّجه رسول الله ﷺ زينب بنت جحش. فلما طلقها تزوجها النبي ﷺ. فتكلم المنافقون في ذلك وقالوا: تزوج امرأة ابنه فنزل :﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ الآية. وقال :﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ فدُعي يومئذ زيد بن حارثة.

سيد الأولين والآخرين

إن النبي ﷺ كان قد جمع في نشأته خير ما في طبقات الناس من ميزات، وكان طرازًا رفيعًا من الفكر الصائب، والنظر السديد، ونال حظًّا وافرًا من حسن الفطنة وأصالة الفكرة وسداد الوسيلة والهدف، وكان يستعين بصمته الطويل على طول التأمل وإدمان الفكرة واستنكاء الحق، وطالع بعقله الخصب وفطرته الصافية صحائف الحياة وشئون الناس وأحوال الجماعات، فعاف ما سواها من خرافة، ونأى عنها، ثم عايش الناس على بصيرة من أمره وأمرهم، فما وجد حسنًا شارك فيه، وإلا عاد إلى عزلته العتيدة، فكان لا يشرب الخمر، ولا يأكل مما ذُبح على النُصب، ولا يحضر للأوثان عيدًا، ولا احتفالاً، بل كان من أول نشأته نافرًا من هذه المعبودات الباطلة، حتى لم يكن شيء أبغض إليه منها، وحتى كان لا يصبر على سماع الحلف باللات والعزى[١].

ولا شك أن القدر حاطه بالحفظ.

روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما بُنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس ينقلان الحجارة، فقال عباس للنبي ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة، فخرَّ إلى الأرض، وطمحت عيناه إلى السماء، ثم أفاق؛ فقال: **«إزاري، إزاري»**، فشد عليه إزاره، وفي رواية: فما رؤيت له عورة بعد ذلك[٢].

وكان النبي ﷺ يمتاز في قومه بخلال عذبة وأخلاق فاضلة، وشمائل كريمة فكان

(١) يدل عليه كلامه مع بحيرا الراهب - انظر ابن هشام (١/ ١٢٨).
(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٨٢٩) في المناقب/ باب: بنيان الكعبة، ومسلم (٣٤٠) في الحيض/ باب: الاعتناء بحفظ العورة، وأحمد (١٣٧٢٧).

أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خُلقًا، وأعزهم جوارًا، وأعظمهم حلمًا، وأصدقهم حديثًا، وألينهم عريكة، وأعفهم نفسًا، وأكرمهم خيرًا، وأبرهم عملاً، وأوفاهم عهدًا، وآمنهم أمانة، حتى سماه قومه «الأمين»؛ لما جُمع فيه من الأحوال الصالحة والخصال المرضية، وكان كما قالت أم المؤمنين خديجة ﵂: يحمل الكَل، ويكسب المعدوم، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق(١).

ومن هنا كانت البداية

* كان محمد ﷺ يهجر مكة كل عام ليقضي شهر رمضان في غار حراء وهو غار على مسافة بضعة أميال من القرية الصاخبة، في رأس جبل من هذه الجبال المشرفة على مكة والتي ينقطع عندها لغو الناس وحديثهم الباطل، ويبدأ السكون الشامل المستغرق في هذه القمة السامقة المنزوية، كان محمد ﷺ يأخذ زاد الليالي الطوال ثم ينقطع عن العالمين متجهًا بفؤاده المشوق إلى رب العالمين! . . في هذا الغار المهيب المحجب، كانت نفسٌ كبيرة تطل من عليائها على ما تموج به الدنيا من فتن ومغارم واعتداء وانكسار ثم تتلوى حسرة وحيرة لأنها لا تدري من ذلك مخرجًا، ولا تعرف له علاجًا !!

وفي هذا الغار النائي كانت عين نفاذة محصية تستعرض تراث الهداة الأولين من رسل الله، فتجده كالمنجم المعتم لا يستخلص منه المعدن النفيس إلا بعد جهد جهيد، وقد يختلط التراب بالتبر فما يستطيع بشر فصله عنه.

في غار حراء كان محمد - عليه الصلاة والسلام - يتعبد، ويصقل قلبه، وينقي روحه ويقترب من الحق جهده ويبتعد عن الباطل وسعه حتى وصل من الصفاء إلى مرتبة عالية انعكست بها أشعة الغيوب على صفحته المجلوة، فأمسى لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح.

في هذا الغار اتصل محمد ﷺ بالملأ الأعلى.

ومن قبله شهد بطن الصحراء أخًا لمحمد - عليه الصلاة والسلام - يخرج من مصر فارًّا متوحشًا، ويجتاز القفار متلمسًا الأمن والسكينة والهدى لنفسه وقومه فبرقت له من شاطئ الوادي الأيمن نار مؤنسة، فلما تيممها إذا النداء الأقدس يغمر مسمعه ويتخلل مشاعره:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤) في بدء الوحي/ باب: بدء الوحي، ومسلم (١٦٠) في الإيمان/ باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه: الآية ١٤].

إن شعلة من هذه النار اجتازت القرون لتتقد مرة أخرى في جوانب الغار الذي حوى رجلًا يتحنث ويتطهر - نائيًا بجسمه وروحه - عن أرجاس الجاهلية ومساوئها، لكن الشعلة لم تكن نارًا تستدرج الناظر بل كانت نورًا ينبسط بين يدي وحي مبارك يسطع على القلب العاني بالإلهام والهداية، والتثبيت والعناية، فإذا محمد ﷺ يصغي في دهشة وانبهار إلى صوت الملك يقول له: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ [العلق: الآية ١] فيجيب مستفسرًا: «**ما أنا بقارئ**»، ويتكرر الطلب والرد لتنساب بعده الآيات الأولى من القرآن العزيز: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾.

إنها أعظم لحظة مرت بهذا الكون

قيل عن تلك اللحظة الخالدة التي تنزَّل فيها الوحي - لأول مرة - على رسول الله ﷺ:

وقفت هنا أمام هذا الحادث الذي طالما قرأناه في كتب السيرة وفي كتب التفسير، ثم مررنا به وتركناه، أو تلبثنا عنده قليل ثم جاوزناه!

إنه حادث ضخم. ضخم جدًا. ضخم إلى غير حد. ومهما حاولنا اليوم أن نحيط بضخامته، فإن جوانب كثيرة منه ستظل خارج تصورنا!

إنه حادث ضخم بحقيقته. وضخم بدلالته. وضخم بآثاره في حياة البشرية جميعًا.. وهذه اللحظة التي تم فيها هذا الحادث تُعد - بغير مبالغة - هي أعظم لحظة مرت بهذه الأرض في تاريخها الطويل.

ما حقيقة هذا الحادث الذي تم في هذه اللحظة؟

حقيقته أن الله ﷻ، العظيم الجبار القهار المتكبر، مالك الملك كله، قد تكرم - في عليائه - فالتفت إلى هذه الخليقة المسماة بالإنسان، القابعة في ركن من أركان الكون لا يكاد يُرى اسمه الأرض. وكرَّم هذه الخليقة باختيار واحد منها ليكون ملتقى نوره الإلهي، ومستودع حكمته، ومهبط كلماته.

وهذه حقيقة كبيرة. كبيرة إلى غير حد. تتكشف جوانب من عظمتها حين يتصور الإنسان - قدر طاقته - حقيقة الألوهية المطلقة الأزلية الباقية. ويتصور في ظلها حقيقة

العبودية المحدودة الحادثة الفانية. ثم يستشعر وقع هذه العناية الربانية بهذا المخلوق الإنساني؛ ويتذوق حلاوة هذا الشعور. ويتلقاه بالخشوع والشكر والفرح والابتهال.. وهو يتصور كلمات الله، تتجاوب بها جنبات الوجود كله، منزلة لهذا الإنسان في ذلك الركن المنزوي من أركان الوجود الضئيلة !

وما دلالة هذا الحادث ؟

دلالته - في جانب الله سبحانه - أنه ذو الفضل الواسع، والرحمة السابغة، الكريم الودود المنان. يفيض من عطائه ورحمته بلا سبب ولا علة، سوى أن الفيض والعطاء بعض صفاته الذاتية الكريمة.

ودلالته - في جانب الإنسان - أن الله - سبحانه - قد أكرمه كرامة لا يكاد يتصورها، ولا يملك أن يشكرها وأن هذه وحدها لا ينهض لها شكره ولو قضى عمره راكعًا ساجدًا.. هذه.. أن يذكره الله، ويلتفت إليه، ويصله به، ويختار من جنسه رسولاً يوحي إليه بكلماته. وأن تصبح الأرض.. مسكنه.. مهبطًا لهذه الكلمات التي تتجاوب بها جنبات الوجود في خشوع وابتهال. فأما آثار هذا الحادث الهائل في حياة البشرية كلها فقد بدأت منذ اللحظة الأولى. بدأت في تحويل خط التاريخ، منذ أن بدأت في تحويل خط الضمير الإنساني.. منذ أن تحددت الجهة التي يتطلع إليها الإنسان ويتلقى عنها تصوراته وقيمه وموازينه.. إنها ليست الأرض وليس الهوى.. إنما هي السماء والوحي الإلهي. ومنذ هذه اللحظة عاش أهل الأرض الذين استقرت في أرواحهم هذه الحقيقة.. في كنف الله ورعايته المباشرة الظاهرة. عاشوا يتطلعون إلى الله مباشرة في كل أمرهم. كبيره وصغيره. يحسون ويتحركون تحت عين الله.

وقوف في وجه العاصفة

عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله يتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى فجأه الحق وهو في غار حراء، فجاء الملك فقال :«**اقرأ قال: ما أنا بقارئ**»، قال :«**فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت :ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد**

ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝﴾.. إلخ.

فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره! حتى دخل على خديجة بنت خويلد فقال: «**زملوني، زملوني**» فزملوه حتى ذهب عنه الروع، ثم قال لخديجة: «**أي خديجة، مالي ؟**» وأخبرها الخبر: ثم قال: «**لقد خشيت على نفسي**» قالت له خديجة: كلا، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق(١).

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل - وهو ابن عم خديجة - وكان امرأً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت له خديجة: أي ابن عم: اسمع من ابن أخيك! فقال له ورقة: يا ابن أخي ما ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال ورقة له: هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيا إذ يُخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «**أوَ مخرجيَّ هم ؟**» قال: نعم! لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي. وإن يدركني يومك حيًا أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي(٢).

*لكأن الأربعين عامًا السابقة يوم واحد، وبدأ الوحي صبيحة يوم جديد!! إن العقل الجواب الباحث المستفسر أخذ يشيم أنوار الحق.

والصدر المحرج المثقل بالتشاؤم والارتباك أخذ يحس برد اليقين وفسحة الأمل، والنقلة الطارئة بعيدة المدى.. إنها النبوة.

---

(١) قال الإمام النووي - رحمه الله -: قال العلماء - رضي الله عنهم -: معنى كلام خديجة رضي الله عنها أنك لا يصيبك مكروه لما جعل الله فيك من مكارم الأخلاق، وكرم الشمائل، وذكرت ضروبًا من ذلك. وفي هذا: دلالة على أن مكارم الأخلاق، وخصال الخير سبب السلامة من مصارع السوء. وفيه: مدح الإنسان في وجهه في بعض الأحوال لمصلحة نظرا. وفيه: تأنيس من حصلت له مخافة من أمر وتبشيره وذكر أسباب السلامة له. وفيه: أعظم دليل وأبلغ حجة على كمال خديجة رضي الله عنها وجزالة رأيها وقوة نفسها وثبات قلبها وعظم فقهها، والله أعلم. قولها: (وكان امرأ تنصر في الجاهلية) معناه: صار نصرانيًا، و(الجاهلية) ما قبل رسالته ﷺ، سُموا بذلك لما كانوا عليه من فاحش الجهالة والله أعلم [مسلم بشرح النووي (٢/ ٢٦٥)].

(٢) متفق عليه: سبق تخريجه.

ألا ما أجمل هذا الفضل المقبل، وما أعظم ما يواجه محمدًا فيه من شئون وشجون !..

ولذلك سرعان ما تراجعت إليه نفسه، وكان موقف زوجه خديجة منه من أشرف المواقف التي تحمد لامرأة في الأولين والآخرين. طمأنته حين قلق، وأراحته حين جهد، وذكرته بما فيه من فضائل، مؤكدة له أن الأبرار أمثاله لا يُخذلون أبدا وإن الله إذ طبع رجلًا على المكارم الجزلة والمناقب السمحة فلكيما يجعله أهل إعزازه وإحسانه، وبهذا الرأي الراجح والقلب الصالح استحقت خديجة أن يحييها رب العالمين، فيرسل إليها بالسلام مع الروح الأمين.

* ومع ما سمعته أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها من أن قوم الرسول ﷺ سيحاربونه ويخرجونه وهي تعرف صلابة قريش وقوتها... مع هذا قررت الوقوف في وجه العاصفة المتوقعة وقبلت في سبيل الله أن تتحمل الأذى والمشقة وأن تقبل هذه المهمة الصعبة وهي الوقوف في وجه قريش فهذا من أعظم الأمثلة للمؤمنات الصادقات ليقتدين بأم المؤمنين رضي الله عنها في تحملها المشقة والأذى لتؤازر زوجها رسول الله ﷺ وتقف خلفه ليتمكن بفضل الله من نشر دعوة الإسلام بين قومه ثم في جميع أنحاء المعمورة وليقيم دولة الإسلام[١].

وقفات ندية

ونستطيع أن نقف وقفات ندية تحت ظلال تلك الكلمات النضرة.. كلمات النور التي قالتها خديجة، كلمات الحق والثبات واليقين التي زكت موقفها، وكأنها أرادت أن تقول: يا أبا القاسم، يا أكمل الكملة من الخلق، لن يقع لك ما تتخوفه على نفسك الزكية العلية من ضعف عن تحمل أعباء ما شرفك الله به من رسالة الخلود.

لن تعجز يا أبا القاسم عن القيام بموجبات تبليغ الأمر الإلهي، لأن الله تعالى هو الذي اختارك له وخصك به، وهو أعلم حيث يجعل رسالته.

إنك يا أبا القاسم، قد فطرك الله على أفضل ما فطر عليه أحدًا من خلقه، فلن يخزيك أبدًا، ولن يحزن قلبك الكبير السليم بوقوع شيء مما تشفق منه وتخافه على نفسك، لأن فيك من خصال الجبلّة الكمالية ومحاسن الأخلاق الرضية، وفضائل الشيم المرضية، وأشرف الشمائل العلية، وأعلى معالي المكارم، وأكرم مكارم المعالي ما

(١) إنها الجنة يا أختاه/ للمصنف (ص: ٧١).

يضمن لك الفوز، ويحقق لك الفلاح والصلاح والنجاح، وستظفر بطلبتك، وتؤدي رسالتك، ويخلد ذكرك، ففيك من الخصال الحميدة، والصفات الرشيدة ما يجعلك خالدًا أبد الدهر.

وفي ظلال الكلمة الأولى لخديجة رضي الله عنها تقول: وتصل الرحم، وأنت يا أبا القاسم، وصول للرحم، تقرب البعيد، وتدني القصي، وتغسل الأحقاد، وتزرع الألفة والمودات، وهذه فضيلة ومكرمة توثق عُرى المحبة بين ذوي القربى، وتجمع القلوب على الصفاء والود؛ وصلة الرحم هذه أصل من أصول مكارم الأخلاق التي من سجاياك.

وثانية الكلمات: إنك لتصدق الحديث، أرادت أن تقول: فأنت الصدوق المصدق، وأنت الصادق الأمين، فصدق الحديث عندك سجية، إذا قلت شيئا قالت الموجودات من حولك وهتفت الدنيا: صدقت.. أبا القاسم وصُدِّقت. وقومك - على الرغم من عُجرهم وبُجرهم - دعوك فيما بينهم «الأمين» وقد جهروا بهذا اللقب معترفين لك بهذه الخصلة النبيلة، خصلة الصدق في الحديث... شهدوا على أنفسهم فقالوا: ما جربنا عليك كذبًا.

وثالثة الكلمات تقول: وتحمل الكَلّ.

وأنت تحمل الكَلّ، حمل الضعيف الذي أعجزته الأيام والليالي، فنفسك الكريمة، وقلبك الرحيم، لا يرضيان أن يريا ضعيفًا أثقلت كاهله الحياة، فأنت تُحسن إليه بإحسان تنتعش من خلاله روحه وتحيي في نفسه الآمال.

ورابع الصفات من الكلمات الرائعات قولها: وتكسبُ المعدوم.

إنك يا أبا القاسم، تكسبُ المعدوم بجودك وإيثارك، فقد فطرك الله على مكارم الجود، فأنت أجود الناس، بل أنت أجود بالخير من الريح المرسلة.

يقول الإمام القسطلاني رحمه الله في كتابه النفيس: (المواهب اللدنية بالمنح المحمدية): وقد كان جوده ﷺ كله لله، وفي ابتغاء مرضاته، فإنه كان يبذل المال تارة لفقير أو محتاج، وتارة ينفقه في سبيل الله، وتارة يتألف به على الإسلام من يقوى الإسلام بإسلامه، وكان يؤثر على نفسه وأولاده، فيعطي عطاءً يعجز عنه الملوك مثل كسرى وقيصر، ويعيش في نفسه عيش الفقراء، فيأتي عليه الشهر والشهران لا توقد في بيته نار، وربما ربط الحجر على بطنه الشريف من الجوع[1].

---

(١) انظر «المواهب اللدنية» (٢/ ٣٧٢).

وخامسة أفياء كلمات خديجة قولها: وتقري الضيف.

أرادت خديجة أن تقول: إنك يا أبا القاسم لن يخزيك الله أبدًا، فإكرام الضيف من أعظم الفضائل الإنسانية، ففيه عظيم الأثر في قوة اجتذاب القلوب، وأسر النفوس، وخصوصًا في البيئة التي نهد فيها محمد ﷺ، تلك التي هي شحيحة بمطالب العيش ووسائل الحياة لوجود الصحاري والجبال والوديان والقفار.

وسادسة كلمات أم المؤمنين خديجة قولها: وتعين على النوائب.

كأن أم المؤمنين خديجة أرادت أن تقول: يا أبا القاسم، إن من أخص صفاتك أن تعين على نوائب الحق، إن ذلك فطرة فطرك الله عليها، وخليقة جبلك بها، والإعانة على النوائب أفضلية الفضائل، ومكرمة المكارم، فهي أجمع موارد الخير ومصادره، وهي منقبة البر والمعروف.

وعن هذا الموقف العطر لخديجة تحدثنا بنت الشاطئ - عائشة عبد الرحمن - فتقول: هل كان لأنثى غيرها أن تهيئ له الجو المسعف على التأمل، وأن تبذل له من نفسها - في إيثار نادر - ما أعده لتلقي رسالة السماء ؟

هل كان لزوج عداها أن تستقبل دعوته التاريخية من غار حراء بمثل ما استقبلته هي به من حنان مستثار، وعطف فياض، وإيمان راسخ، دون أن يساورها في صدقه أدنى ريب، أو يتخلى عنها يقينها في أن الله عز وجل غير مخزيه أبدًا ؟

هل كان في طاقة سيدة غير خديجة، غنية مترفة منعمة، أن تتخلى راضية عن كل ما ألفت من راحة ورخاء ونعمة لتقف إلى جانبه في أحلك أوقات المحنة، وتعينه على احتمال أفدح ألوان الأذى وصنوف الاضطهاد، في سبيل ما تؤمن بأنه الحق ؟ كلا . . . بل هي وحدها التي منَّ الله عليها بأن ملأت حياة الرجل الموعود بالنبوة، وكانت أول الناس إسلامًا، وجعلها الله عز وجل ملاذًا وسكنًا ووزيرًا لرسوله ﷺ [(١)(٢)].

---

(١) تراجم سيدات بيت النبوة (ص: ٢٣٧) طبعة دار الكتاب العربي.
(٢) هذا العنصر بتصرف من (نساء أهل البيت).

أول قلب خفق بالإسلام

لقد رفع الإسلام المرأة إلى أبعد مما يطمح خيالها، ويصبو أملها، وساق لها من آي الذكر الحكيم، ما بهر سناه بصرها، وملكت محجته نفسها، واستقادت بلاغته وحسن مساقه قلبها، وأنصتت لما وصف به الله رحمته وعزته، وناره وجنته، وما أعد للصابرات والمحسنات من جزيل الأجر، وسني المنزلة، فأثار ذلك عاطفتها، وأفاض وجدانها، وأنار بصيرتها، فكان حقًا لذلك أن يصيب حبه قلبها، ويجول في مجال دمها، ويتأشب بين أحناء ضلوعها.

كذلك كان أمر نساء العرب، فإن أول قلب خفق بالإسلام، وتألق بنوره قلب امرأة منهن، هي سيدة نساء العالمين في زمانها: أم القاسم خديجة بنت خويلد.

قال الإمام عز الدين بن الأثير - رحمه الله تعالى -: «خديجة أول خلق الله أسلم، بإجماع المسلمين»[١].

وما كانت تلك المرأة في سواء النساء، بل لقد هُيئ لها من جلال الحكمة، وبُعد الرأي، إلى زكاء الحسب، وذكاء القلب، ما عزَّ على الأكثرين من الرجال، فلم تأخذ الدين مشايعة، ولم تتلقه مجاملة، بل أخذته عن تأثر به وظمأ إليه[٢].

بيت مبارك

وهكذا كانت خديجة رضي الله عنها أول الناس إسلامًا وكذلك بناتها.. بل كل من كان في هذا البيت المبارك كانوا من المسارعين للدخول في الإسلام - مثل علي بن أبي طالب وزيد بن حارثة رضي الله عنهما.

فهذا البيت هو خير البيوت في هذا الكون كله... فمنه خرجت خديجة:- سيدة نساء العالمين - ومنه خرجت ابنتها فاطمة - سيدة نساء أهل الجنة - وقبل كل هذا فلقد نزل فيه الوحي على الحبيب محمد ﷺ وعاش فيه سيد الأولين والآخرين ﷺ.

ومنه خرج علي بن أبي طالب - أحد العشرة المبشرين بالجنة - ومنه خرج زيد ابن حارثة - الذي لم يذكر الله تعالى في كتابه اسم صحابي غيره - فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ

(١) أسد الغابة (٧/٧٨).
(٢) عودة الحجاب/ محمد إسماعيل (٢/ ٥٣٩).

زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: الآية ٣٧] .

* ذكر المحب الطبري أن دار خديجة رضي الله عنها أفضل الأماكن بمكة بعد المسجد الحرام. . . ولعل ذلك يرجع لطول سُكنى النبي ﷺ ونزول الوحي عليه فيها.

* وذكر الإمام الفاسي أن الدور المباركة بمكة دار خديجة بنت خويلد أم المؤمنين رضي الله عنها ، ففي هذه الدار وُلدت فاطمة سيدة نساء العالمين هي وأخواتها، وذكر أن النبي الكريم ﷺ بنى بخديجة فيها، وأنها توفيت فيها، ولم يزل النبي الكريم ﷺ ساكنًا فيها حتى هاجر إلى المدينة المنورة، فأخذها عقيل بن أبي طالب، ثم اشتراها معاوية بن أبي سفيان وهو خليفة فجعلها مسجدًا يُصلى فيه[١].

في رحاب الحبيب ﷺ

وظلت خديجة رضي الله عنها ملازمة للحبيب ﷺ مرحلة تقارب ربع قرن من الزمن فكانت تنهل من النبع الصافي مباشرة تأخذ من هديه ودلّه وأخلاقه وعلمه ورحمته فكانت في سعادة غامرة يعجز قلمي عن وصفها بل وتتوارى الكلمات أمامها خجلاً وحياءً.

وكانت تصلي مع النبي ﷺ الصلاة التي كانت في هذا الوقت وهي: ركعتان في الغداة، وركعتان في العشى وذلك قبل أن تُفرض الصلوات الخمس في ليلة الإسراء.

عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت: الصلاة أول ما فُرضت ركعتين فَأُقرت صلاة السفر، وأتمت صلاة الحضر[٢].

وذلك لأن خديجة رضي الله عنها ماتت قل أن تُفرض الفرائض. فعن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ سُئل عن خديجة: أنها ماتت قبل أن تنزل الفرائض والأحكام ؟ قال: «**أبصرتها على نهر من أنهار الجنة في بيت من قصب لا لغو فيه ولا نصب**».

وسُئل عن أبي طالب: هل نفعته؟ قال: «**أخرجته من جهنم إلى ضحضاح منها**»[٣].

وعن عفيف الكندي قال: كان العباس بن عبد المطلب لي صديقًا، وكان يختلف إلى

---

(١) كتاب «شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام» (١/٤٣٨).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٠٩٠) في الجمعة/ باب: يقصر إذا خرج من موضعه، ومسلم (٦٨٥) في صلاة المسافرين وقصرها/ باب: صلاة المسافرين وقصرها.

(٣) قال الهيثمي في «المجمع» (١٥٢٧٤): رواه الطبراني في «الأوسط» «والكبير» باختصار ورجالهما رجال الصحيح غير مجالد بن سعيد وقد وثق، وخصوصًا في أحاديث جابر.

اليمن يشتري العطر ويبيعه أيام الموسم، فبينا أنا عند العباس بمنى، أتاه رجل مجتمع - بلغ أشده - فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم قام يصلي، فخرجت امرأة فتوضأت ثم قامت تصلي، ثم خرج غلام قد راهق فتوضأ ثم قام إلى جنبه يصلي، فقلت: ويحك يا عباس ما هذا الدين ؟.

قال: هذا دين محمد بن عبد الله ابن أخي يزعم أن الله بعثه رسولاً، وهذا ابن أخي علي بن أبي طالب قد تابعه على دينه، وهذه امرأته خديجة قد تابعته على دينه.

قال عفيف بعد أن أسلم ورسخ في الإسلام: يا ليتني كنت رابعًا[1].

وانفجرت مكة بمشاعر الغضب

وبدأ النبي ﷺ يدعو قومه وعشيرته إلى الإسلام وإلى التوحيد.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما أنزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: الآية ٢١٤] دعا رسول الله ﷺ قريشًا فاجتمعوا فعمَّ وخصَّ فقال: **«يا بني كعب ابن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار... يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار... يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار... يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار... يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار... يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار... يا فاطمة أنقذي نفسك من النار... فإني لا أملك لكم من الله شيئًا غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها»**[2] (أي سأصلها بصلتها).

* هنا قرر المشركون ألا يألوا جهدًا في محاربة الإسلام وإيذاء الداخلين فيه والتعرض لهم بألوان النكال والإيلام. ومنذ جهر الرسول بالدعوة إلى الله، وعالن قومه بضلال ما ورثوه عن آبائهم. انفجرت مكة بمشاعر الغضب وظلت عشرة أعوام تعد المسلمين عصاة ثائرين، فزلزلت الأرض من تحت أقدامهم، واستباحت في الحرم الآمن من دمائهم وأموالهم وأعراضهم، وجعلت مقامهم تحملاً للضيم وتوقعًا للويل.

وصاحبت هذه السخائم المشتعلة حرب من السخرية والتحقير قُصد بها تخذيل المسلمين وتهوين قواهم المعنوية[3].

---

(١) عيون الأثر (١/١١٦)، والسيرة الحلبية (١/٤٣٦).
(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٧٥٣) في الوصايا/ باب: هل يدخل النساء والولد في الأقارب؟، ومسلم (٢٠٤) في الإيمان/ باب: في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، والترمذي (٣١٨٥) في تفسير القرآن/ باب: ومن سورة الشعراء.
(٣) «فقه السيرة» للغزالي (ص: ١٢٠).

صبر واحتساب

وكانت خديجة رضي الله عنها ترى ما كان يتعرض له الحبيب ﷺ من الإيذاء والسخرية فتواسيه وتثبته وتخفف عنه وتهوّن عليه أمر الناس... فكانت بذلك مثلاً عظيمًا وفريدًا بل وقدوة لكل أخت مسلمة - زوجها داعية إلى الله تعالى - لتخفف عنه ما يراه من الابتلاءات التي تجعل الحليم حيرانًا.

* فكان من بين الابتلاءات التي تعايشت خديجة رضي الله عنها مع أحداثها... ما كان من الإيذاء الذي سلطه المشركون على الحبيب ﷺ.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلى جزور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم فجاء به، فنظر حتى سجد النبي ﷺ وضعه على ظهره بين كتفيه وأنا أنظر لا أغني شيئًا لو كان لي منعة. قال: فجعلوا يضحكون ويحيل بعضهم على بعض، ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه، حتى جاءته فاطمة فطرحت عن ظهره، فرفع رسول الله ﷺ رأسه ثم قال: «**اللهم عليك بقريش**» ثلاث مرات، فشق عليهم إذ دعا عليهم. قال: وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة ثم سمى: «**اللهم عليك بأبي جهل، وعليك بعتبة ابن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط**» وعد السابع فلم يحفظه. قال: فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عدَّ رسول الله ﷺ صرعى في القليب، قليب بدر(١).

* وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم! فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته أو لأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال فقيل له: مالك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهولاً وأجنحة. فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٠) في الوضوء/ باب: إذا أُلقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته، ومسلم (١٧٩٤) في الجهاد والسير/ باب: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين.
والسلى: هي الجلدة التي يكون فيها الولد يقال لها ذلك من البهائم، وأما من الآدميات فالمشيمة.

«**لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا.**»[(١)].

* وعن عروة بن الزبير قال: سألت ابن عمرو بن العاص أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ. قال: بينا النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾[غافر: الآية ٢٨][(٢)].

* وكذلك تعرض أصحاب النبي ﷺ لأشد أنواع الأذى والابتلاء.

عن خباب بن الأرت أنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بُردة وهو في ظل الكعبة - وقد لقينا من المشركين شدة - فقلت: يا رسول الله ألا تدعو الله، فقعد وهو محمر وجهه فقال: «**لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيُشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت ما يخاف إلا الله**»[(٣)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: والمقصود أن الله سبحانه اقتضت حكمته أنه لابد أن يمتحن النفوس ويبتليها، فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها، ومن يصلح لموالاته وكرامته ومن لا يصلح، وليمحص النفوس التي تصلح له ويخلصها بكير الامتحان كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غشه إلا بالامتحان، إذ النفس في الأصل جاهلة ظالمة، وقد حصل لها من الجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية، فإن خرج في هذه الدار وإلا ففي كير جهنم، فإذا هُذِّب العبد ونُقي أُذن له في دخول الجنة[(٤)].

وقال الدكتور مصطفى السباعي: إن ثبات المؤمنين على عقيدتهم بعد أن يُنزل بهم الأشرار والضالون أنواع العذاب والاضطهاد دليل على صدق إيمانهم، وإخلاصهم في معتقداتهم، وسمو نفوسهم وأرواحهم، بحيث يرون ما هم عليه من راحة الضمير واطمئنان النفس والعقل، وما يأملونه من رضى الله جل شأنه، أعظم بكثير مما ينال أجسادهم من تعذيب وحرمان واضطهاد[(٥)].

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٧٩٧) في صفة القيامة والجنة والنار/ باب: قوله: إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى.
(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٨٥٦) في المناقب/ باب: ما لقي النبي ﷺ وأصحابه.
(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٨٥٢) في المناقب/ باب: ما لقي النبي ﷺ وأصحابه، وأحمد (١٠٩/٥).
(٤) زاد المعاد (١٨/٣)
(٥) السيرة النبوية دروس وعبر (ص: ٤٩).

سحائب الحزن ... والهجرة إلى الحبشة

ولما كان إيذاء المشركين للموحدين يزداد يومًا بعد يومٍ أذن النبي ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة.

فلقد كانت بداية الاضطهادات في أواسط أو أواخر السنة الرابعة من النبوة بدأت ضعيفة، ثم لم تزل يومًا فيومًا وشهرًا فشهرًا حتى اشتدت وتفاقمت في أواسط السنة الخامسة، حتى نبا بهم المقام في مكة وأوعزتهم أن يفكروا في حيلة تنجيهم من هذا العذاب الأليم، وفي هذه الساعة الضنكة الحالكة نزلت سورة الكهف، ردودًا على أسئلة أدلى بها المشركون إلى النبي ﷺ ولكنها اشتملت على ثلاث قصص فيها إشارات بليغة من الله تعالى إلى عباده المؤمنين، فقصة أصحاب الكهف ترشد إلى الهجرة من مراكز الكفر والعدوان حين مخافة الفتنة على الدين، متوكلًا على الله:

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف: الآية ١٦].

وقصة الخضر وموسى تفيد أن الظروف لا تجري ولا تنتج حسب الظاهر دائمًا، بل ربما يكون الأمر على عكس كامل بالنسبة إلى الظاهر، ففيها إشارة لطيفة إلى أن الحرب القائمة ضد المسلمين ستنعكس تمامًا، وسيصادر هؤلاء الطغاة المشركون - إن لم يؤمنوا - أمام هؤلاء الضعفاء المدحورين من المسلمين.

وقصة ذي القرنين تفيد أن الأرض لله يورثها من عباده من يشاء، وأن الفلاح إنما هو في سبيل الإيمان دون الكفر، وأن الله لا يزال يبعث منْ عباده - بين آونة وأخرى - من يقوم بإنجاء الضعفاء من يأجوج ذلك الزمان ومأجوجه، وأن الأحق بإرث الأرض إنما هو عباد الله الصالحون.

ثم نزلت سورة الزمر تشير إلى الهجرة، وتعلن بأن أرض الله ليست بضيقة ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: الآية ١٠]، وكان رسول الله ﷺ قد علم أن أصحمة النجاشي ملك الحبشة ملك عادل لا يُظلم عنده أحد، فأمر المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة فرارًا بدينهم من الفتن[(١)].

---

(١) ابن هشام (١/ ٢١٣).

وفي رجب سنة خمس من النبوة هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة، كان مكونًا من اثني عشر رجلاً وأربع نسوة، رئيسهم عثمان بن عفان، ومعه السيدة رقية بنت رسول الله ﷺ وقد قال النبي ﷺ فيهما: «**إنهما أول بيت هاجر في سبيل الله بعد إبراهيم ولوط - عليهما السلام -**»[(١)][(٢)].

ووقفت أمنا خديجة رضي الله عنها مع رسول الله ﷺ تودع ابنتها رقية وزوجها عثمان رضي الله عنهما ودموعها تقطر على وجنتيها... ولكنها مع كل هذا تصبر وتحتسب لأنها كانت تتمنى من أعماق قلبها أن تضحي بكل شيء في سبيل نصرة هذا الدين العظيم مهما كان الثمن. فكل شيء يهون ما دام في طلب مرضاة الله.

الصحيفة الظالمة والمقاطعة العامة

قال الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي: قال الأسود والزهري وموسى ابن عقبة وابن إسحاق: إن قريشًا لما رأت أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلدًا أصابوا فيه أمنًا وقرارًا، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم وكان رجلاً ذا شكيمة لا يرام ما وراء ظهره، امتنع به أصحاب رسول الله ﷺ، وبحمزة حتى عازوا قريشًا فكان هو وحمزة مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل الإسلام يفشو في القبائل، فأجمعوا رأيهم واتفق رأيهم على قتل رسول الله ﷺ، وقالوا: قد أفسد علينا أبناءنا ونساءنا، فقالوا لقومه: خذوا منا دية مضاعفة وليقتله رجل من غير قريش وتريحون أنفسكم، فأبى قومه بنو هاشم من ذلك، وظاهرهم بنو عبد المطلب بن عبد مناف.

فلما عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد منعه قومه، فأجمع المشركون من قريش على منابذتهم وإخراجهم من مكة إلى الشِعب، وأجمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتابًا يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب على ألا ينكحوهم ولا ينكحوا إليهم، ولا يبيعوهم شيئًا ولا يبتاعوا منهم، ولا يقبلوا منهم صلحًا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل.

فلما اجتمعوا لذلك كتبوا صحيفة ثم تعاهدوا وتعاقدوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدًا على أنفسهم، وقطعوا عنهم الأسواق، ولم يتركوا طعامًا ولا إدامًا ولا بيعًا إلا بادروا إليه واشتروه دونهم. فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم

---

(١) قال الهيثمي في «المجمع» (٨٤/٩): رواه الطبراني في «الكبير» وفيه الحسن بن زياد البرجمي ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات.
(٢) رحمة للعالمين (٦١/١) نقلاً من «الرحيق المختوم» (ص: ٩١ ، ٩٢).

وبنو المطلب إلى أبي طالب، فدخلوا معه في شِعبه مؤمنهم وكافرهم، فالمؤمن دينًا والكافر حميةً. وخرج من بني هاشم أبو لهب إلى قريش فظاهرهم.

واشتد الحصار، وقطعت عنهم الميرة والمادة، فلم يكن المشركون يتركون طعامًا يدخل مكة ولا بيعًا إلا بادروه فاشتروه، حتى بلغهم الجهد، والتجأوا إلى أكل الأوراق والجلود، حتى كان يُسمع من وراء الشعب أصوات نسائهم وصبيانهم يتضاغون من الجوع، وكان لا يصل إليهم شيء إلا سرًا وكانوا لا يخرجون من الشعب لاشتراء الحوائج إلا في الأشهر الحرم، وكانوا يشترون من العير التي ترد مكة من خارجها، ولكن أهل مكة كانوا يزيدون عليهم في السلعة قيمتها حتى لا يستطيعوا الاشتراء.

وكان حكيم بن حزام ربما يحمل قمحًا إلى عمته خديجة رضي الله عنها وقد تعرض له مرة أبو جهل فتعلق به ليمنعه، فتدخل بينهما أبو البختري، ومكّنه من حمل القمح إلى عمته.

وكان أبو طالب يخاف على رسول الله ﷺ فكان إذا أخذ الناس مضاجعهم يأمر رسول الله ﷺ أن يضطجع على فراشه، حتى يرى ذلك من أراد اغتياله، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوانه أو بني عمه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ وأمره أن يأتي بعض فرشهم.

وكان رسول الله ﷺ والمسلمون يخرجون في أيام الموسم، فيلقون الناس، ويدعونهم إلى الإسلام !.

قال ابن كثير رحمه الله: ثم سعى في نقض تلك الصحيفة أقوام من قريش، فكان القائم في أمر ذلك هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث بن حبيب بن جذيمة بن مالك بن حسل ابن عامر بن لؤي، مشى في ذلك إلى مطعم بن عدي وجماعة من قريش فأجابوه إلى ذلك، وأخبر رسول الله ﷺ قومه أن الله قد أرسل على تلك الصحيفة (الأرضَة) فأكلت جميع ما فيها إلا ذكر الله عز وجل، فكان كذلك، ثم رجع بنو هاشم وبنو المطلب إلى مكة، وحصل الصلح برغم من أبي جهل عمرو بن هشام[(١)].

وظلت الطاهرة أمنا خديجة - رضوان الله عليها - من وراء رسول الله ﷺ تشد أزره، وتشاركه في حمل الأذى من قومه بنفس راضية صابرة محتسبة، حتى قضى الله تعالى قضاءه في هذه المقاطعة الظالمة المريرة التي مكثت سيفًا مصلتًا على أعناق

---

(١) الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ للحافظ ابن كثير (٩٠-٩١) تحقيق وتعليق محمد العيد الخطراوي ومحيي الدين مستو.

المحاصرين المؤمنين برسالة محمد ﷺ.

انتهى الحصار، وخرجت الطاهرة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها من الحصار ظافرة بثمرة صبرها لتتابع مع رسول الله ﷺ سيرها في الحياة زوجة أمينة مستظلة بظل الوفاء وصدق الإيمان وحسن الصبر، وفي ثبات المسلمين على هذه الشدة الرهيبة جعلهم الله من أصحاب المقام الرفيع في الآخرة، وجعلهم سادة الأرض في الدنيا، وذاك جزاء الصابرين، وأجر الشاكرين.

وجزاهم في جنة الخلد فيما صبروا وهي منه خير جزاء[١]

الله سبحانه يُقرئ خديجة السلام

عن أنس قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ وعنده خديجة فقال: إن الله يقرئ خديجة السلام فقالت: إن الله هو السلام، وعلى جبريل السلام وعليك السلام ورحمة الله وبركاته[٢].

فيا لها من أم فقيهة ذكية تعلمت الأدب كله وتعايشت معه في بيت النبي ﷺ الذي جمع الله له كل الفضائل والمناقب والمكارم فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ④﴾ [القلم: الآية ٤].

والجزاء من جنس العمل

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال يا رسول الله، : هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب[٣].

فتعالوا بنا لنعرف لماذا جاءت البشرى ببيتٍ من قصب؟ ولماذا القصب بالذات؟.

قال ابن حجر: «قصب بفتح القاف: قال ابن التين: المراد به لؤلؤة مجوفة واسعة كالقصر المنيف. قلت: عند الطبراني في «الأوسط» من طريق أخرى عن ابن أبي أوفى؛ يعني: قصب اللؤلؤ. وعنده في «الكبير» من حديث أبي هريرة: **«بيت من لؤلؤة مجوفة»**.

---

(١) نساء مبشرات بالجنة (ص: ٢٦).
(٢) رواه النسائي في فضائل الصحابة (٢٥٤)، وإسناده حسن.
(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٨٢٠) في المناقب/ باب: تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها، ومسلم (٢٤٣٢) في فضائل الصحابة/ باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها.

وأصله في «مسلم»، وعنده في «الأوسط» من حديث فاطمة قالت: قلت: يا رسول الله، أين أمي خديجة ؟ قال: «**في بيت من قصب**». قلت: أمن هذا القصب ؟ قال: «**لا، من القصب المنظوم بالدر واللؤلؤ والياقوت**».

قال السهيلي: النكتة في قوله: «**من قصب**» ولم يقل: من لؤلؤ؛ أن في لفظ القصب مناسبة لكونها أحرزت قصب السبق بمبادرتها إلى الإيمان دون غيرها، ولذا وقعت هذه المناسبة في جميع ألفاظ هذا الحديث(١)» اهـ.

وفي القصب مناسبة أخرى من جهة استواء أكثر أنابيبه، وكذا كان لخديجة من الاستواء ما ليس لغيرها، إذ كانت حريصة على رضاه بكل ممكن، ولم يصدر منها ما يغضبه قط كما وقع لغيرها.

وأما قوله :«**ببيت**»، فقال أبو بكر الإسكاف في فوائد الأخبار: المراد به بيت زائد على ما أعد الله لها من ثواب عملها، ولهذا قال: «**لا نصب فيه**» أي لم تتعب بسببه.

قال السهيلي: لذكر البيت معنى لطيف؛ لأنها كانت ربة بيت في الإسلام منفردة به، فلم يكن على وجه الأرض في أول يوم بعث النبي ﷺ بيت إسلام إلا بيتها، وهي فضيلة ما شاركها فيها أيضًا غيرها.

قال: وجزاء الفعل يذكر غالبًا بلفظه، وإن كان أشرف منه، فلهذا جاء الحديث بلفظ البيت دون لفظ القصر. ا. هـ.

قال المناوي: البيت عبارة عن القصر، وتسميته الكل باسم الجزء معلوم في لسانهم. ويلوح الجزاء من جنس العمل في قول الرسول ﷺ: «**لا صخب فيه ولا نصب**»، فالصخب: الصياح والمنازعة برفع الصوت، والنصب: التعب.

قال السهيلي: مناسبة نفي هاتين الصفتين - أعني المنازعة والتعب - أنه ﷺ لما دعا إلى الإسلام أجابته خديجة طوعًا، فلم تحوجه إلى رفع صوت ولا منازعة ولا تعب في ذلك، بل أزالت عنه كل نصب، وآنسته من كل وحشة، وهونت عليه كل عسير، فناسب أن يكون منزلها الذي بشرها به ربها بالصفة المقابلة لفعلها. اهـ(٢).

---

(١) «فتح الباري» (٧/ ١٧١، ١٧٢).
(٢) «فتح الباري» (٧/ ١٧٢)، و «فيض القدير» للمناوي - نقلًا من «الجزاء من جنس العمل» / د. سيد حسين (٢/ ٦١، ٦٢).

عام الحزن

انطلق المسلمون من الشِعب يستأنفون نشاطهم القديم بعد ما قطع الإسلام في مكة قرابة عشرة أعوام مليئة بالأحداث الضخمة، وما إن تنفس المسلمون من الشدة التي لاقوها حتى أصيب الرسول ﷺ بوفاة زوجه خديجة ثم بوفاة عمه أبي طالب.

أي أنه نكب في حياته الخاصة والعامة معًا..

إن خديجة من نعم الله الجليلة على محمد - عليه الصلاة والسلام -، فقد آزرته في أحرج الأوقات، وأعانته على إبلاغ رسالته، وشاركته مغارم الجهد المر، وواسته بنفسها ومالها، وإنك لتحس قدر هذه النعمة عندما تعلم أن من زوجات الأنبياء من خُنَّ الرسالة وكفرن برجالهن، وكنَّ مع المشركين من قومهن وآلهن حربًا على الله ورسوله.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: الآية ١٠].

أما خديجة فهي صدِّيقة النساء، حَنَتْ على رَجُلها ساعة قلق، وكانت نسمة سلام وبر، رطبت جبينه المتصبب من آثار الوحي، وبقيت ربع قرن معه، تحترم قبل الرسالة تأمله وعزلته وشمائله، وتحمل بعد الرسالة كيد الخصوم وآلام الحصار ومتاعب الدعوة، وماتت والرسول ﷺ في الخمسين من عمره، وهي تجاوزت الخامسة والستين، وقد أخلص لذكراها طول حياته.

هكذا يكون الوفاء

وحزن النبي ﷺ لموتها حزنًا شديدًا فلقد كانت نِعم الزوجة الصابرة المخلصة التي آزرته طوال حياته وبذلت من أجل نُصرة هذا الدين كل غالٍ ونفيس فلم يستطع النبي ﷺ أن ينساها أبدًا وكان يحمل لها وفاءً يعجز القلم عن وصفه.

فها هو الحبيب ﷺ يُثني عليها ويقول: «**كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران - وخديجة بنت خويلد**(١) **- وإن فضل عائشة على النساء**

(١) هذه الزيادة عن ابن مردويه من حديث قرة بن إياس مرفوعًا: «وخديجة بنت خويلد» وإسناده صحيح كما قال ابن كثير في «البداية» (٣/ ١٢٩).

كفضل الثريد على سائر الطعام» [١].

وقد علّق أحد العلماء الأفاضل على هذا الحديث تعليقًا لطيفًا فقال: من الموافقات اللطيفة التي جمعت الثلاث في نسق واحد أن كل واحدة منهن كفلت نبيًا مرسلاً، وأحسنت صحبته وآمنت به، فآسيا ربّت موسى، وأحسنت إليه، وصدقت به حين بُعث، ومريم كفلت عيسى وربته، وصدقت به حين أُرسل، وخديجة رغبت في النبي وواسته بنفسها ومالها، وأحسنت صحبته، وكانت أول من صدقه حين نزل عليه الوحي.

ولم يتزوج النبي ﷺ امرأة قبلها أبدًا.. بل ولم يتزوج عليها حتى ماتت.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: **لم يتزوج النبي ﷺ على خديجة حتى ماتت** [٢].

وقضى معها أجمل أيام العمر في مودة ورحمة ومحبة وطاعة لله ودعوة لدين الله ولم تزده الأيام بعد وفاتها إلا حبًا ووفاءً لها فكان يثني عليها دائمًا ويحب مَن يحبها بل وكان يحب أن يرى أو يسمع من يذكّره بها وبأيامها العطرة المباركة.

وعن هشام بن عروة عن أبيه قال سمعت عبد الله بن جعفر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: **«خير نسائها مريم ابنة عمران، وخير نسائها خديجة»** [٣].

وعن ابن عباس قال: خط رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط قال: **«تدرون ما هذا؟»** فقالوا: الله ورسوله أعلم. فقال رسول الله ﷺ: **«أفضل نساء أهل الجنة خديجة**

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤١١) في أحاديث الأنبياء/ باب: قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم: الآية ١١] إلى قوله: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾، ومسلم (٢٤٣١) في فضائل الصحابة/ باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، وأحمد (١٩٠٢٩).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٤٣٦) في فضائل الصحابة/ باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، وعبد بن حميد (١٤٧٣).
قال الحافظ في «الفتح» (٧/ ١٣٧): وفيه دليل على عظم قدرها عنده وعلى مزيد فضلها لأنها أغنته عن غيرها واختصت به بقدر ما اشترك فيه غيرها مرتين لأنه ﷺ عاش بعد أن تزوجها ثمانية وثلاثين عامًا انفردت خديجة منها بخمسة وعشرين عامًا وهي نحو الثلثين من المجموع، ومع طول المدة فصان قلبها من الغيرة ومن نكد الضرائر الذي ربما حصل له هو منه ما يشوش عليه وهي فضيلة لم يشركها فيها غيرها.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٣٢) في أحاديث الأنبياء/ باب: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾، ومسلم (٢٤٣٠) في فضائل الصحابة/ باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، والترمذي (٣٨٧٧).

بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون ومريم ابنة عمران» - رضي الله عنهن أجمعين -[(١)].

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«حسبك من نساء العالمين مريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون»**[(٢)].

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«سيدات نساء أهل الجنة بعد مريم بنت عمران فاطمة وخديجة وآسية امرأة فرعون»**[(٣)].

ومن الدلائل الرائعة على وفائه ﷺ للطاهرة خديجة، ما حدث في غزوة بدر الكبرى، إذ أُسر أبو العاص بن الربيع صهر الرسول الحبيب ﷺ وزوج ابنته زينب ابنة زوجه الوفية الكريمة خديجة، فأرسلت الوفية زينب فداء لزوجها أبي العاص؛ ومن ضمن الفداء قلادة كانت قلدتها بها والدتها المعطاء خديجة رضي الله عنها ليلة زفافها، فلما رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها رقة شديدة، وتذكر زوجه المباركة الوفية خديجة، وقال لأصحابه: **«إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها قلادتها فافعلوا»**.

فما كان من أصحابه الكرام - رضوان الله عليهم - إلا أن سارعوا بالاستجابة للنبي الكريم ﷺ الذي حركته مشاعر الذكرى للصديقة الوفية الطاهرة - رضوان الله عليها - خديجة أم المؤمنين؛ فلله هذه الطاهرة المعطاء أُمنا خديجة التي لها دَين كبير في عنق كل مسلم ومسلمة - رضي الله عنها وأرضاها -[(٤)].

منقبة عظيمة

ذكر الإمام ابن كثير رحمه الله أوليّات الطاهرة خديجة رضي الله عنها فقال:

* أول من تزوج رسول الله ﷺ خديجة، وأول من آمن به على الصحيح خديجة[(٥)].

ومن أوليات الطاهرة خديجة رضي الله عنها أنها:

* أول من صلى مع رسول الله ﷺ.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣)، والطبراني (١١٩٢٨)، وإسناده صحيح.
(٢) رواه الترمذي (٣٨٧٨)، وأحمد (٣/ ١٣٥)، والحاكم (٣/ ١٥٧)، وإسناده صحيح.
(٣) رواه الطبراني في «الكبير» (١٢١٧٩)، وإسناده حسن.
(٤) نساء مبشرات بالجنة (ص: ٣١).
(٥) الفصول (ص: ٢٤٣).

* وأول من رُزق منها الأولاد.

* وأول من بشرها بالجنة من أزواجه.

* وأول من أقرأها ربها السلام.

* وأول صديقة من المؤمنات.

* وأول زوجات النبي ﷺ وفاة.

* وأول قبر نزل فيه النبي الكريم ﷺ قبرها بمكة.

* وقال الإمام الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ: كانت خديجة رضي الله عنها أول من آمن بالله، . . . وقَبِل الرسول رسالة ربه وانصرف إلى بيته، وجعل لا يمر على شجرة ولا صخرة إلا سلمت عليه، فلما دخل على خديجة قال: «**أرأيتك الذي كنت أحدثك أني رأيته في المنام، فإنه جبريل استعلن لي، أرسله إليَّ ربي**»، وأخبرها بالوحي فقالت: أبشر فوالله لا يفعل الله بك إلا خيرًا؛ فأقبل الذي جاءك من الله فإنه حق[(١)].

غيرة عائشة من خديجة رضي الله عنهما

وبعد وفاة خديجة رضي الله عنها تزوج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة ثم تزوج عائشة رضي الله عنها فكانت أمنا عائشة تشعر بشيء من الغيرة لكثرة ثناء النبي ﷺ على خديجة وذكره إياها - وذلك لفرط محبة أمنا عائشة لرسول الله ﷺ -.

وعن عائشة قالت: ما غرت على نساء النبي ﷺ إلا على خديجة وإني لم أدركها قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة فيقول: «**أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة**» قالت: فأغضبته يومًا فقلت: خديجة ! فقال رسول الله ﷺ: «**إني قد رُزقت حبها**»[(٢)].

وعن عائشة قالت: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة فارتاح لذلك فقال: «**اللهم هالة بنت خويلد**» فغرت فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر فأبدلك الله خيرًا منها[(٣)].

(١) «تاريخ الإسلام» للذهبي (١/ ١٢٨).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه مسلم (٢٤٣٥) في فضائل الصحابة/ باب: فضائل خديجة أم المؤمنين - رضي الله تعالى عنها - وأخرجه البخاري مختصرًا (٥٢٢٩) في النكاح/ باب: غيرة النساء ووجدهن.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٤٣٧) في فضائل الصحابة/ باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، وأخرجه البخاري معلقًا (٣٨٢١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما غرت على امرأة للنبي ﷺ ما غرت على خديجة هلكت قبل أن يتزوجني لما كنت أسمعه يذكرها وأمره الله أن يبشرها ببيت من قصب، وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن[(١)].

وفي رواية للبخاري[(٢)]. . . وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة ؟ فيقول: «**إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد**».

وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر خديجة أثنى فأحسن الثناء، قالت: فغرت يومًا فقلت: ما أكثر ما تذكر حمراء الشدقين، قد أبدلك الله خيرًا منها ؟ قال: «**أبدلني الله خيرًا منها !! قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله أولادها، وحرمني أولاد الناس**»[(٣)].

وعن عبد الله البهي، قال: قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر خديجة لم يكد يسأم من ثنائه عليها واستغفاره لها، فذكرها يومًا، فحملتني الغيرة، فقلت: لقد عوضك الله من كبيرة السن قالت: فرأيته غِضب غضبًا. أسقطت في خلدي[(٤)]، وقلت في نفسي: اللهم إن أذهبت غضب رسولك عني لم أعد أذكرها بسوء. فلما رأى النبي ﷺ ما لقيت، قال: «**كيف قلت ؟ والله لقد آمنت بي إذ كذبني الناس، وآوتني إذ رفضني الناس، ورُزقت منها الولد وحُرمتموه مني**» قالت: فغدا وراح عليَّ بها شهرًا[(٥)].

قال الإمام الذهبي: قلت: وهذا من أعجب شيء[(٦)].

أن تغار رضي الله عنها من امرأة عجوز توفيت قبل تزوج النبي ﷺ بعائشة، ثم يحميها الله من الغيرة من عدة نسوة يشاركنها في النبي ﷺ، فهذا من ألطاف الله بها وبالنبي ﷺ، لئلا

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٨١٦) في المناقب/ باب: تزوج النبي ﷺ خديجة، ومسلم (٢٤٣٥) في فضائل الصحابة/ باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، والترمذي (٣٨٧٥).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٨١٨) في المناقب/ باب: تزويج النبي ﷺ خديجة.

(٣) قال الهيثمي في «المجمع» (١٥٢٨١): رواه أحمد وإسناده حسن.

(٤) الخلد، بالتحريك: البال والقلب والنفس.

(٥) إسناده حسن، ونسبه الحافظ في «الإصابة»: (١٢/ ٢١٧، ٢١٨) إلى كتاب «الذرية الطاهرة» للدولابي.

(٦) علق الشوكاني - رحمه الله - على هذا الموطن فقال: سبب الغيرة ما كانت تسمعه من ثناء رسول الله ﷺ على خديجة، وتفخيمه لشأنها كما سبق في ترجمتها رضي الله عنها، فلا عجب إذن.

يتكدر عيشهما. ولعله إنما خفف أمر الغيرة عليها حب النبي ﷺ لها وميله إليها فرضي الله عنها وأرضاها.

* وفي بيت عائشة كرامات أخرى للطاهرة خديجة، فقد جاءت النبي ﷺ ذات يوم امرأة عجوز من صويحبات الطاهرة خديجة فأحسن لقاءها، وأكرم مثواها، وبسط لها رداءه فأجلسها عليه، وصار يسأل عن أحوالها وما صارت إليه، فقالت عائشة لما خرجت يا رسول الله، أقبلت على هذه السوداء هذا الإقبال! فقال: «**إنها كانت تدخل على خديجة، وإن حُسن العهد من الإيمان**»(١).

زاد المسير إلى طريق الطهر والعفاف

وهكذا صعدت تلك النفس المطمئنة إلى ربها حين جاء أجلها المحتوم بعد أن ضربت مثالاً رائعًا في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله، وقد عاشت مع الرسول الكريم خمسًا وعشرين سنة كانت فيها الزوجة الحكيمة العاقلة التي لم تبخل بشيء فيه مرضاة الله ورسوله، وقد استحقت أن تُبشَّر بالجنة.

هكذا رحلت أمنا الغالية خديجة ﵂ التي لا ينتهي أبدًا عبير سيرتها... فلو استطردنا في الكلام عنها لنفد القرطاس قبل أن نذكر نبذة يسيرة من مكارمها وفضائلها التي فاح عبيرها فملأ الكون كله.

وتالله إن لأمنا خديجة ﵂ فضلاً كبيرًا على كل مسلم ومسلمة إلى قيام الساعة... فهي التي آزرت الحبيب ﷺ في دعوته وساندته في محنته وواسته في كُربته وآنسته في وحدته.

وها نحن نقدم سيرتها لكل أخت مسلمة لتتعلم كيف تكون القدوة الحقيقية في زمن غابت فيه القدوات.

أختاه: ها هي أمنا خديجة ﵂ قدوة لا تتكرر عبر الزمان... إن سيرتها هي زاد المسير إلى طريق الطُهر والعفاف والبذل والتضحية والعطاء.

وأخيرًا فلا أملك ونحن نودع أمنا الغالية إلا أن أقرأ قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

---

(١) رواه أحمد، وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات [السير (٢/ ١٦٥)].

سودة بنت زمعة

الكريمة المباركة . . . صاحبة الهجرتين

ومازلنا نعيش في بستان الخير والبركة والعفاف والتُقى ففي كل يوم نرى زهرة جديدة فاح عبيرها على الكون كله.

ونحن اليوم على موعد مع صحابية جليلة مباركة كانت تبذل كل ما تستطيع لتُدخل السعادة والسرور والبهجة على قلب النبي ﷺ.

إنها من السابقات إلى الإسلام. . . إنها صاحبة الهجرتين إلى الحبشة وإلى المدينة المنورة. . . إنها التي آثرت رضى رسول الله ﷺ على حظوظ نفسها. . . إنها التي قالت عنها أم المؤمنين عائشة: «**ما رأيت امرأة أحب إليَّ أن أكون في مسلاخها من سودة بنت زمعة**».

إنها أم المؤمنين سودة بنت زمعة رضي الله عنها .

فتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا مع سيرتها العطرة التي تطيب بسماعها القلوب. . . فهيا إلى تلك الواحة المباركة.

من ظلمات الشرك والكفران إلى أنوار التوحيد والإيمان

لقد كانت البشرية تعيش في جاهلية وشرٍ فجاء الحبيب ﷺ بهذا الدين العظيم لينقل البشرية من أوحال الشرك والكُفران إلى أنوار التوحيد والإيمان فاستجاب لدعوته أصحاب الفِطر والقلوب النقية التقية فخلعوا ثوب الجاهلية على عتبة الأرقم بن أبي الأرقم، ولبسوا ثوب الإسلام، فانقادت قلوبهم وجوارحهم لطاعة الله ولخدمة دين الله عز وجل . إن هؤلاء الصحب الكرام الذين استجابوا لهذه الدعوة المباركة في مهدها هُم الذين حملوا هَمَّ هذا الدين ونشروا هذه الرسالة إلى أرجاء الكون على أشلائهم ولحومهم ودمائهم.

* وكان أول من أسلم من النساء خديجة رضي الله عنها التي كانت تؤازر الحبيب ﷺ في أعتى المواقف وتعينه على أمر الدعوة.

* وكان أول من أسلم من الرجال أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي لم يتردد لحظة واحدة عن قبول الدعوة فما إن عرض عليه النبي ﷺ دعوته حتى وجده يقول: أشهد أن لا إله إلا الله

وأشهد أن محمدًا رسول الله.

وما إن أسلم أبو بكر رضي الله عنه حتى حمل أمانة الدين على أعناقه وخرج يدعو الناس إلى دين الله فأسلم على يديه ستة من العشرة الذين بشرهم النبي ﷺ بالجنة فيما بعد.

فيأتي الصدّيق رضي الله عنه يوم القيامة وهم في ميزان حسناته.

بل وأسلم على يديه خلقٌ كثير غير هؤلاء الأطهار الأبرار.

وهكذا يجب أن يكون الداعية... يحمل همَّ الناس من حوله ويخشى عليهم من عذاب الله ويأخذ بأيديهم إلى مرضاة الله وجنته[١].

والسابقون الأولون

وكان من بين السابقين الذين استجابوا لدعوة الحق من أول وهلة - السكران ابن عمرو أخو الصحابي الجليل سُهيل بن عمرو - فلقد أسلم السكران رضي الله عنه ولامس الإيمان شغاف قلبه... بل وأسلمت معه زوجه وابنة عمه سودة بنت زمعة رضي الله عنها وعاشا سويًا في رحاب التوحيد والإيمان أجمل لحظات العمر.

نعم والله إن الحياة في ظل الإيمان هي الحياة الطيبة كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: الآية ٩٧].

وهكذا كانا من السابقين الذين أسلمت قلوبهم وجوارحهم لله فكانا من الذين كتب الله لهم السعادة في الدنيا والآخرة فقد قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: الآية ١٠٠].

صبر واحتساب

وما هي إلا ساعات معدودة حتى شاع خبرُ إسلامه رضي الله عنه وإذا بهؤلاء الذين نفخ الشيطان في عقولهم، فظنوا أنهم هم السادة مع أنهم عبيدٌ لشهوات بطونهم

(١) أصحاب الرسول/ للمصنف (١/ ٥٨ ، ٥٩).

وفروجهم. . . يعرفون خبر إسلام السكران بن عمرو رضي الله عنه فيصبون عليه العذاب صبًا، ولا يرقبون فيه إلًا ولا ذمة.

قال ابن إسحاق: ثم إنهم عَدَوْا على من أسلم، واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، من استضعفوا منهم، يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يُفتتن من شدة البلاء الذي يُصيبه، ومنهم من يصلب لهم، ويعصمه الله منهم.

فلما رأى رسول الله ﷺ ما يُصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، لمكانه من الله ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: «**لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحدٌ، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه**». فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة كانت في الإسلام[1].

وفي رواية عن أم سلمة، قالت: لما ضاقت علينا مكة وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفُتِنُوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان هو في مَنَعَةٍ من قومه وعمه، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه. فقال لهم رسول الله ﷺ: «**إن بأرض الحبشة ملكًا لا يُظلم أحدٌ عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا**»، فخرجنا إليه أرسالاً، حتى اجتمعنا فنزلنا بخير دار إلى خير جوار، وأمنًا على ديننا.

وفي رواية: أنها قالت: «لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا فيها خير جار (النجاشي)، أمِنا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نُؤذَى، ولا نسمع شيئًا نكرهه.

* وهاجرت سودة مع زوجها رضي الله عنهما وعاشا في رحاب النجاشي - ذلكم الملك العادل - أطيب حياة في ظل الإيمان والتوحيد.

وبعد ذلك عادوا إلى مكة المكرمة لينعما بصُحبة الحبيب ﷺ . . . فإن المؤمن

(١) ذكره ابن إسحاق كما ترى من غير إسناد، وابن كثير في «البداية» (٣/٦٦) من بلاغات ابن إسحاق - نقلاً من «السيرة النبوية» لابن هشام (١/٢٦٦).

يستعذب العذاب في جوار رسول الله ﷺ عن الراحة والنعيم بعيدًا عن الحبيب ﷺ.

فلما عادا إلى مكة وجدا أن قريشًا ما زالت تعلن العداء لدعوة النبي ﷺ وتسلط على أصحابه من العذاب ألوانًا ولكن النبي ﷺ كان يُطمئن قلوبهم بأن نصر الله قريب وأن العزة ستكون لأوليائه والخزي سيكون لأعدائه.

غاية جليلة

إن محمدًا صلوات الله وسلامه عليه لم يجمع أصحابه على مغنم عاجل آجل، إنه أزاح الغشاوة عن الأعين، فأبصرت الحق الذي حُجبت عنه دهرًا ومسح الران عن القلوب، فعرِفت اليقين الذي فُطرت عليه وحرمتها الجاهلية منه، إنه وصل البشر بربهم فربطهم بنسبهم العريق وسببهم الوثيق، وكانوا - قبلًا - حيَارى محسورين، إنه وازن للناس بين الخلود والفناء، فآثروا الدار الآخرة على الدار الزائلة، وخيرهم بين أصنام حقيرة وإله عظيم. فازدروا الأوثان المنحوتة، وتوجهوا للذي فطر السماوات والأرض.

حَسب محمد ﷺ أنْ قدَّم هذا الخير الجزيل، وحَسب أصحابه أن ساقته العناية لهم، فإذا أُوذوا فليحتسبوا، وإذا حاربهم عبيد الرجس من الأوثان فليلزموا ما عرفوا، والحرب القائمة بين الكفران والإيمان سينجلي غبارها يومًا ما، ثم تتكشف عن شهداء وعن هلكى، وعن مؤمنين قائمين بأمر الله ومشركين مدحورين بإذن الله.

فراق مؤلم

وتمر الأيام ومازال الزوجان يتعايشان في كل لحظة مع كتاب الله وسُنة رسول الله ﷺ إلى أن جاءت اللحظة التي نام فيها السكران على فراش الموت وفاضت روحه إلى بارئها فمات في مكة فحزنت عليه سودة حُزنًا شديدًا.

وأصبحت سودة رضي الله عنها وحيدة في هذه الدنيا ولكنها صبرت صبرًا جميلًا ورضيت بقضاء الله لأنها تعلم يقينًا أن الله أرحم بعباده من رحمة الأم بطفلها الرضيع.

وأن العبد إذا صبر واحتسب فإن الله يعوضه خيرًا ولكنها لم يكن يخطر ببالها أبدًا أنها ستكون في يوم من الأيام أماً للمؤمنين وزوجة لسيد الأولين والآخرين محمد ابن عبد الله ﷺ.

موعد مع السعادة

وكان النبي ﷺ في تلك الأيام حزينًا لموت خديجة رضي الله عنها التي كانت أحب الناس إلى قلب الحبيب ﷺ.

كانت خديجة رضي الله عنها بعد الرسالة، نبض الإسلام، وحاضنة الدعوة، والبلسم الشافي لكل الجراح، والنور المضيء لكل طريق، فما عاد إليها مثقلاً بالهموم والأحزان، إلا وأقبلت عليه تشجعه وتواسيه، ولا تقوم عنه حتى تمسح عن قلبه الكبير الأوصاب، وحتى يفترَّ ثغره الجميل الشريف بالابتسام، ويتألق في عينيه الشريفتين التصميم والعزم على احتمال الآلام كلها في سبيل الله عز وجل، حتى يؤدي الأمانة ويبلّغ ما أُنزل إليه من ربه.

لقد أذلَّت خديجة الدنيا بإدبارها عنها، وأعزّت الآخرة بإقبالها عليها، ولما توفيت بكاها رسول الله ﷺ وأولادها وصَحْبه بدمع هتون؛ لقد رحلت الطاهرة سيدة نساء قريش، وحاضنة الإسلام، وأم المؤمنين، وحبيبة رسول رب العالمين، فكان ذلك العام العاشر من البعثة عامًا مفعمًا بالأسى والحزن حتى سُمِّي عام الحزن.

وفي هذه الظروف الصعبة لسير الرسالة المحمدية، من المرأة التي تستطيع أن تملأ الفراغ الذي تركته صدِّيقة المؤمنات الأولى خديجة بنت خويلد - رضوان الله عليها-؟!

أعتقد أن مكان خديجة لا يملؤه إلا خديجة، وأن مكانها ومكانتها في قلب رسول الله ﷺ سيبقى لها وحدها، لا تشاركها واحدة من نسائه الأخريات فيما بعد (١).

ولكن سودة رضي الله عنها كانت على موعد مع سعادة الدنيا والآخرة فلقد شاء الملك أن يتزوجها الحبيب ﷺ... ولكن كيف كان ذلك ؟.

فتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا مع هذا الحدث المهيب.

هكذا أصبحت أمًا للمؤمنين وزوجة لسيد الأولين والآخرين ﷺ

لقد كان أصحاب الحبيب ﷺ يعرفون قدر خديجة رضي الله عنها عند النبي ﷺ فعندما ماتت

(١) نساء أهل البيت (ص: ٨٠ ، ٨١).

كانوا يرجون أن يرزقه الله عز وجل بما يخفف عنه من آلامه وأحزانه. . . ولكن لم يكن أي واحد منهم يجرؤ أبدًا أن يكلم النبي ﷺ في أمر الزواج فشاء الحق أن تتجرأ واحدة من فُضليات نساء الصحابة ألا وهي خولة بنت حكيم لتعرض هذا الأمر على رسول الله ﷺ من أجل إدخال الفرح والسرور على قلبه المحزون.

* وها هي أمنا عائشة رضي الله عنها تحكي لنا كيف استطاعت خولة رضي الله عنها أن تعرض هذا الأمر على رسول الله ﷺ.

عن عائشة قالت: لما توفيت خديجة، قالت خولة بنت حكيم بن الأوقص - امرأة عثمان بن مظعون، وذلك بمكة -: يا رسول الله ألا تزوج ؟ قال :**«من»** قالت: إن شئت بكرًا وإن شئت ثيبًا ؟ قال: **«فمن البكر ؟»** قالت: ابنة أحب خلق الله إليك عائشة بنت أبي بكر.

قال: **«فمن الثيب ؟»** قالت: سودة بنت زمعة، آمنت بك، واتبعتك على ما أنت عليه.

قال: **«فاذهبي فاذكريهما عليّ»**[(١)].

وفي رواية أحمد - بشيء من التصرف - قالت: فذهبتُ إلى سودة وأبيها زمعة - وكان شيخًا كبيرًا قد جلس عن المواسم - فقلت: ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة ؟

فقالت سودة في دهشة: وما ذاك يا خولة ؟

قلت: أرسلني رسول الله ﷺ إليك لأخطبك عليه.

غمر سودة سرورٌ عميقٌ، واستشعرت دموع الفرح تبلل وجهها وروحها، وتذكرت ما رأت في نومها منذ فترة، وها هي رؤياها قد جعلها ربها حقًّا، وما كانت تطمع في أن تكون زوجًا لرسول الله ﷺ بعد أن نالت منها السنون، وإنه لشرف عظيم لا يدانيه شرف أن تصبح أم المؤمنين. . .، ثم توجهت إلى خولة وقالت لها والبشر يملأ وجهها: وددتُ ذلك ولكن ادخلي على أبي فاذكري له ذلك.

قالت خولة: فدخلت على أبي سودة، وحييتهُ بتحية أهل الجاهلية وقلت: أنعم صباحًا.

---

(١) قال الهيثمي في «المجمع» (١٥٢٨٥): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير محمد ابن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث.

فقال: مَن أنتِ يا هذه ؟

فقلتُ: خولة ابنة حكيم بن أمية السُّلميُّ زوج عثمان بن مظعون الجمحيّ.

قالت خولة: فرحَّبَ بي والد سودة، وقال ما شاء الله أن يقول، فقد كان على علم بأني خرجت عن آلهة قومي، وآمنت وهاجرت إلى الحبشة، ثم عدت إلى مكة، وسألني عن حاجتي وقال: ما شأنك ؟!

فقلت: إن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب يذكر ابنتك سودة أم الأسود.

قال: إن محمدًا كفءٌ كريم، ولكن ما تقول صاحبتك سودة ؟

قلت: هي تحب ذلك.

قال: إذن ادعيها إليَّ.

فذهبتُ ودعوتها؛ فقال لسودة: أي بنية، إن خولة ابنة حكيم تزعم أن محمد ابن عبد الله قد أرسل يخطبك، وهو كفء كريم، أتحبين أن أزوجك منه؟

فقالت سودة في صوت يفصح عن رغبتها: نعم إن أحببت.

فالتفت زمعة إلى خولة وقال لها: قولي لمحمد فليأتنا.

قالت خولة: فجاء رسول الله ﷺ وعقد عليها وملكها فزوّجه إياها بعد أن أصدقها أربعمائة درهم[١].

وكان لأم المؤمنين سودة أخٌ يدعى عبد الله بن زمعة لا يزال على دين قريش، وكان خارج مكة، فلما قدم مكة، وجد أن أخته سودة قد تزوجها محمد ﷺ، فطارت نفسه شعاعًا، وتملكه الغيظ، وركبته حمى الجاهلية، وحثا بالتراب على رأسه أسفًا وحزنًا على هذا الزواج، ودخل على أبيه يرغي ويزبد، ويتوعّد ويهدّد.

ولما فتح الله عز وجل بصيرته وبصره على محاسن نور الإسلام وآمن بالله، وبمحمد رسولاً ونبيًا، قال محدِّثًا عن نفسه: إني لسفيه يوم أحثو التراب على رأسي، أن تزوج النبي ﷺ سودة[٢].

---

(١) قال الهيثمي في «المجمع» (١٥٧٨٦): رواه أحمد وبعضه صرح فيه بالاتصال عن عائشة وأكثره مرسل وفيه: محمد بن عمرو بن علقمة وثقه غير واحد وبقية رجاله رجال الصحيح.
(٢) قال الهيثمي في «المجمع» (١٥٣٤٠): رواه الطبراني ورجاله ثقات.

في رحاب بيت النبوة

ولقد كانت سودة ﵂ أول من تزوج بها النبي ﷺ بعد وفاة خديجة ﵂ ومكثت عنده وحدها نحوًا من ثلاث سنوات حتى تزوج عائشة ﵂ .

وكانت تعلم يقينًا أنها لن تستطيع أن تملأ الفراغ الذي تركته خديجة ﵂ .

لكنها كانت تحاول قدر طاقتها أن تملأ هذا البيت المبارك راحة وسعادة وسرورًا فكانت تخفف عن رسول الله ﷺ ما كان يلقاه من اضطهاد المشركين وكانت تحدثه عن ذكرياتها في بلاد الحبشة وتكثر من أخبار ابنته رقية وزوجها عثمان ﵄ لأنها تعلم أن النبي ﷺ كان يحب أن يعرف أخبارهما ويطمئن عليهما ويسعد بسيرتهما. . . هكذا كانت تبحث عن أي شيء يُدخل السعادة والسرور على قلب النبي ﷺ.

سعادة دائمة

وظلت سودة ﵂ ملازمة للحبيب ﷺ تقتبس من هديه وأخلاقه وعلمه وحلمه حتى أصبحت السعادة لا تفارق قلبها لحظة واحدة وحُق لها أن تسعد بجوار رسول الله ﷺ فوالله إن الواحد منا يتمنى أن يرى النبي ﷺ ولو مرة واحدة في منامه فكيف بمن يعيش معه ويكلمه في يقظته؟.

ولم يكن يخطر ببال سودة ﵂ أن تصبح في يوم من الأيام أمًّا للمؤمنين وزوجة لسيد الأولين والآخرين ولكن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

واستيقظت الذكريات

وفي البيت النبوي، كان لسودة ﵂ مواقف وضيئة، فقد قدِمت مكة رقية ابنة رسول الله ﷺ وزوجها عثمان بن عفان من هجرتهم من الحبشة، ووقعت عيناها على الدار الغالية، دار أمها الطاهرة خديجة ﵂ ، تلك الدار التي شهدت رقية فيها أحلى أيام عمرها، . . . دار الوحي والإيمان، ودار الصدق والوفاء، فانبجست في جوفها مشاعر متباينة كانت مزيجًا من اللهفة والرهبة، والفرح والحزن، والقلق، والهدوء.

وطرقت الباب، فانتشر الخبر أن قدمت رقية وعثمان، وراحت أم كلثوم وفاطمة ومن كان هناك يستبقون إليها، وتعانقت الأخوات، وسالت العبرات، واستيقظت الذكريات،

وأحس جميعهم غياب الأم الحنون، فانفجرن باكيات.

وجاءت سودة بنت زمعة ثقيلة في خطواتها، وراحت ترحب هي الأخرى برقية وعثمان رضي الله عنهما، وفي مثل لمح البصر، هبت ذكريات سودة عن هجرتها إلى الحبشة مع المهاجرين، وأخذت تسأل رقية وعثمان، عمَّن تركا خلفهما في الحبشة، فقد كانت سودة تقضي أغلب أوقاتها مع رقية وخولة بنت حكيم وبعض النسوة يتذاكرْن أمر الإسلام، وأمر رسول الله ﷺ.

وبلغ الحبيب المصطفى ﷺ أن رقية وعثمان رضي الله عنهما قد رجعا من الحبشة، فإذا بوجهه الشريف مسفرٌ ضاحكٌ مستبشرٌ، وإذا بالحنان يتدفق من قلبه الشريف، وضم رسول الله ﷺ ابنته رقية رضي الله عنها إليه، وغمرها بعطفه، وأخذ عثمان بين ذراعيه، ثم جلسوا يصغون إلى رقية وعثمان وهما يرويان حديث الهجرة والحبشة والمسلمين والنجاشي، وربما شاركت سودة

في الحديث عن الذكريات في أرض الحبشة(١).

الهجرة إلى المدينة المنورة

ولما اشتد إيذاء المشركين بأصحاب الحبيب ﷺ أذن لهم بالهجرة إلى المدينة حيث نزلوا في رحاب الأنصار الذين قال الله تعالى عنهم:

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: الآية ٩].

ثم هاجر النبي ﷺ بعد ذلك إلى المدينة ليقيم للإسلام دولة تكون منارة للكون كله... ولما استقر النبي ﷺ بالمدينة بعث زيدًا، وبعث معه أبا رافع مولاه، وأعطاهما بعيرين، وخمس مائة درهم. فخرجوا جميعًا. وخرج زيدٌ وأبو رافع بفاطمة، وأم كلثوم، وبسودة بنت زمعة، وبأم أيمن، وأسامة ابنه(٢).

---

(١) نساء أهل البيت (ص: ٨٩، ٩٠) بتصرف.
(٢) ابن سعد (١/ ٢٣٧، ٢٣٨).

وتوالت البركات

واستقرت سودة في بيت النبي ﷺ... وبعد ذلك بفترة يسيرة دخل النبي ﷺ بعائشة رضي الله عنها وكانت تحب سودة رضي الله عنها حُبًّا شديدًا وكان لها معها أخبار مشرقة.

ثم توالت الخيرات والبركات وتزوج النبي ﷺ بسائر أمهات المؤمنين ليكتمل هذا العقد الفريد.

إنه بيت كريم مبارك أذهب الله عن أهله الرجس وطهره تطهيرًا وأفاض عليه البركات والخيرات ليكون البيت وأهله شمسًا تضيء للناس جميعًا طريقهم إلى الله عز وجل.

ويؤثرون على أنفسهم

ولقد كانت سودة رضي الله عنها تجتهد قدر طاقتها لإرضاء الحبيب ﷺ حتى ولو كان ذلك على حساب سعادتها... وكانت تعلم يقينًا أن أحب نسائه إليه هي عائشة رضي الله عنها فأرادت أن تُدخل السعادة على قلب الحبيب ﷺ فوهبت يومها لعائشة تبتغي بذلك مرضاة رسول الله ﷺ.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، وكان يُقسِم لكل امرأة منهن يومها وليلتها غير أن سودة بنت زمعة وهبت يومها وليلتها لعائشة زوج النبي ﷺ تبتغي بذلك رضا رسول الله ﷺ»(١).

وعن عروة، قال: قالت عائشة: يا ابن أختي، كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في القسم، من مكثه عندنا، وكان قَلَّ يوم، إلا وهو يطوف علينا جميعًا، فيدنو من كل امرأة من غير مسيس حتى يبلغ إلى التي هو يومها، فيبيت عندها.

ولقد قالت سودة بنت زمعة حين أسنَّت وفَرِقت أن يفارقها رسول الله ﷺ: يا رسول الله، يومي لعائشة، فقبل ذلك رسول الله ﷺ منها. قالت: نقول في ذلك أنزل الله تعالى - وفي أشباهها - أراه قال: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ [النساء: الآية ١٢٨](٢).

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٥٩٣) في الهبة وفضلها والتحريض عليها/ باب: هبة المرأة لغير زوجها وعتقها إن كان لها زوج... ، وأبو داود (٢١٣٨)

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٢١٣٥)، وقال الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١٨٦٨): حسن صحيح.

عائشة تثني عليها رضي الله عنها

وهذا الموقف العظيم من الإيثار الذي يندر وجوده في دنيا النساء جعل عائشة رضي الله عنها في غاية الدهشة حتى أنها أثنت عليها ثناءً يعجز القلم عن وصفه.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت امرأة أَحَبَّ إليَّ أن أكون في مِسلاخِها من سودة بنت زمعة. من امرأة فيها حدَّةٌ. قالت: فلما كبرت جعلت يومها من رسول الله ﷺ لعائشة. قالت: يا رسول الله ! قد جعلت يومي منك لعائشة. فكان رسول الله ﷺ يَقْسِم لعائشة يومين: يومها، ويوم سودة(١)(٢).

موقف طريف

ولقد كانت الأُلفة والمحبة التي بين سودة وعائشة رضي الله عنهما سببًا في حدوث بعض المواقف الطريفة... ففي إحدى الجلسات كان هذا الموقف الطريف.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: أتيت النبي ﷺ بخزيرة قد طبختها له فقلت لسودة - والنبي ﷺ بيني وبينها -: كُلي. فأبت فقلت: لتأكلن أو لأُلطِخَنَّ وجهك، فأبت فوضعتُ يدي في الخزيرة فطليت وجهها، فضحك النبي ﷺ فوضع بيده لها وقال لها: **«الطخي وجهها»**، فضحك النبي ﷺ فمرَّ عمر فقال: يا عبد الله يا عبد الله فظن أنه سَيَدخُل فقَال: **«قوما فاغسلا وجوهكما»**. فقالت عائشة: فما زلت أهاب عُمر لهيبة رسول الله ﷺ(٣).

مودة ورحمة

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: الآية ٢١].

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٦٣) في الرضاع/ باب: جواز هبتها نوبتها لضرتها.

(٢) قال الإمام النووي: ولم تُرد عائشة عيب سودة بذلك، بل وصفتها بقوة النفس وجودة القريحة، وهي الحدة بكسر الحاء، قولها: (فلما كبرت جعلت يومها من رسول الله ﷺ لعائشة) فيه جواز هبتها نوبتها لضرتها؛ لأنه حقها، لكن يشترط رضا الزوج بذلك، لأن له حقًا في الواهبة، فلا يفوته إلا برضاه. ولا يجوز أن تأخذ على هذه الهبة عوضًا ويجوز أن تهب للزوج فيجعل الزوج نوبتها لمن شاء. وقيل: يلزمه توزيعها على الباقيات، ويجعل الواهبة كالمعدومة، والأول أصح. وللواهبة الرجوع متى شاءت فترجع في المستقبل دون الماضي؛ لأن الهبات يرجع فيما لم يقبض منها دون المقبوض. [مسلم بشرح النووي (١٠/ ٧١)].

(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٧/ ٤٤٩) وإسناده حسن.

ولقد كانت المودة والرحمة في بيت الحبيب ﷺ قد بلغت ذروتها فكان البيت قائمًا على المودة والرحمة وكان النبي ﷺ يداعب أزواجه أحيانًا ويمزح معهن ولكن كان لا يقول إلا حقًّا وصدقًا.

وكانت سودة رضي الله عنها تمازحه كثيرًا وتُضحكه وتُدخل عليه البهجة والسعادة والسرور.

قالت سَوْدَةُ: يا رسول الله، صليت خلفك البارحة، فركعت بي، حتى أمسكت بأنفي مخافة أن يقطر الدم. فضحك. وكانت تُضحكه الأحيان بالشيء[(١)].

فاستبقوا الخيرات

ولقد كانت سودة رضي الله عنها تسارع دائمًا إلى كل طاعة... فقد كانت هذه الخصلة المباركة متأصلة في قلوب الصحابة والصحابيات جميعًا... الكل يتسابق إلى مرضاة الله فهم يعلمون أن الدنيا مزرعة للآخرة وأن من زرع هنا فسوف يحصد هناك.

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦].

وها هي سودة رضي الله عنها عندما خرجت مع النبي ﷺ إلى الحج كانت تتسابق إلى كل طاعة لله عز وجل.

فعن عائشة قالت: نزلنا المزدلفة فاستأذنت النبي ﷺ سودة أن تدفع قبل حطمة الناس وكانت امرأة بطيئة فأذن لها فدفعت قبل حطمة الناس وأقمنا حتى أصبحنا نحن ثم دفعنا بدفعه، فلأن أكون استأذنت رسول الله ﷺ كما استأذنته سودة أحب إليَّ من مفروحٍ به[(٢)(٣)].

---

(١) ابن سعد(٨/٥٤).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٦٨١) في الحج/ باب: من قدم ضعفة أهله بليل فيقفون بالمزدلفة ويدعون ويقدم إذا غاب القمر، ومسلم (١٢٩٠) في الحج/ باب: استحباب تقديم دفع الضعفة من النساء وغيرهن، وأحمد (٦/ ١٦٤).

(٣) حطمة: الزحمة.. أي قبل أن يزدحموا ويحطم بعضهم بعضًا

مفروح به: أي ما يفرح به كل شيء.

هكذا كانت أمنا عائشة تغبطها على مسارعتها إلى طاعة الله . بل كانت سودة رضي الله عنها حريصة كل الحرص على طاعة الرسول ﷺ في حياته وبعد وفاته.

فعن صالح مولى التوأمة، عن أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «**هذه ثم ظُهور الحُصر**»(١).

قال صالح: فكانت سودة تقول: لا أحُجُّ بعدها.

هكذا كانت تحرص على طاعته ﷺ حيًا وميتًا.

كرم وسخاء

ولقد كانت رضي الله عنها كريمة سخية لا تميل نفسها إلى حطام الدنيا ومتاعها الزائل بل كلما جاءها مالٌ تؤثر به مَن حولها رغبة فيما عند الله من نعيم لا يفنى ولا يزول.

عن ابن سيرين: أن عمر بعث إلى سودة بغِرارَةِ دراهم. فقالت: ما هذه؟ قالوا: دراهم. قالت: في الغِرارة مثل التمر؛ يا جارية: بلِّغيني القنع، ففرَّقَتْها(٢) - القُنع: هو الطبق -.

يأتيها الإذن من فوق سبع سماوات

وها هي رضي الله عنها تقع في موقف يسبب لها حرجًا فترجع إلى النبي ﷺ لتخبره وإذا بالوحي يتنزل على النبي ﷺ من فوق سبع سماوات ليرفع عنها وعن غيرها الحرج بعد هذا اليوم.

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرجت سودة بنت زمعة رضي الله عنها ليلاً فرآها عمر فعرفها فقال: إنك والله يا سودة ما تخفين علينا، فرجعت إلى النبي ﷺ فذكرت ذلك له وهو في حُجرتي يتعشى، وإن في يده لعَرْقًا، فأنزل الله عليه فرُفِعَ عنه وهو يقول: «**قد أذن الله لكن أن تخرجن لحوائجكن**»(٣).

---

(١) ظهور الحصر: منصوب على تقدير: ثم الْزَمْنَ، والحصر: جمع حصير: وهو ما يفرش في البيوت، والمراد أن يلزمن بيوتهن ولا يخرجن منها. والحديث أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٨/٥٥)، وأحمد (٢/٤٤٦-٦/٣٢٤)، وسنده قوي.

(٢) أخرجه ابن سعد (٨/٥٦)، وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات.

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٢٣٧) في النكاح/ باب: خروج النساء لحوائجهن، ومسلم (٢١٧٠) في السلام/ باب: إباحة الخروج للنساء لقضاء حاجة الإنسان.

وجاء وقت الرحيل

وظلت سودة رضي الله عنها تتعايش مع كتاب الله وسُنة رسول الله ﷺ بقلبها وجوارحها فكانت السعادة ترفرف على سمائها والسكينة تتنزل على قلبها - ولكن دوام الحال من المحال -.

فلقد جاء اليوم الذي دخل فيه الحزن قلبها وسكن فيه، فلقد مات رسول الله ﷺ وهو صاحب القلب الرحيم الذي غمرها برحمته ومودته وحنانه وعلمه وأخلاقه... فها هي تفقد كل ذلك في لحظة واحدة.

فحزنت لموته حزنًا كاد أن يمزق قلبها ولكنها احتسبته عند الله لتنال ثواب الصابرين.

وحسبُها أن النبي ﷺ مات وهو راضٍ عنها... بل وحسبُها أنها ستكون زوجته أيضًا في جنة الرحمن التي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وظلت سودة رضي الله عنها على العهد الذي تركها عليه رسول الله ﷺ عابدة صائمة قائمة لله ... وامتدت بها الحياة إلى خلافة عمر رضي الله عنه فكان أبو بكر وعمر وسائر الصحابة - رضي الله عنهم - يعلمون قدرها ومكانتها ويُحسنون إليها غاية الإحسان.

وفي آخر خلافة عمر نامت أمنا سودة على فراش الموت وفاضت روحها الطاهرة إلى بارئها .

وإن كانت سيرتها العطرة قد انتهت عند هذا اليوم إلا أن عبير سيرتها مازال يملأ الدنيا كلها فهي قدوة لنسائنا وبناتنا وأخواتنا عبر العصور والأزمان.

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

* * *

عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما

المبرأة من فوق سبع سماوات

زوجة النبي ﷺ في الدنيا وفي الجنات

وها نحن نخطو بأقدامنا خطوة مباركة لندخل هذا البستان الذي غُرست فيه أبهى وأجمل وأعظم زهرة في الكون كله فلقد غُرست في بستان الإيمان وسُقيت بماء الوحي ففاح عبيرها وعطرها فملأ ما بين المشرق والمغرب.

إنها زهرة نبتت في شجرة مباركة رسخت جذورها في الأرض وارتفعت غصنها في السماء حتى كاد أن يعانق كواكب الجوزاء.

إننا اليوم نستأذن على تلكم الزهرة النقية التقية - التي ملأت الكون كله علمًا وفقهًا وزهدًا وورعًا - لنقرأ قصتها من على صفحات أوراقها.

إنها أحب الناس إلى قلب النبي ﷺ بعد أبيها... إنها التي رضعت لبان الصدق من أبويها وتغذَّت على مائدة النبوة المحمدية... إنها الطاهرة المطهرة التي أنزل الله براءتها من فوق سبع سماوات... إنها التقية النقية الورعة الزاهدة عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

في رحاب المكارم

وقبل أن نتعايش مع قصتها المباركة تعالوا بنا لنقف وقفة مع المكارم التي أحاطت بها من كل جانب.

* فزوجها هو سيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله ﷺ الذي أرسله الله رحمة للعالمين.

* وأبوها هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي لم تطلع الشمس على بشرٍ بعد الأنبياء والمرسلين أفضل منه... إنه ثاني اثنين... إنه أحب الناس إلى قلب رسول الله ﷺ.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ **«إن من أمنّ الناس عليَّ في صُحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذًا خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام**

ومودته، **لا يبقين في المسجد بابٌ إلا سُدَّ إلا باب أبي بكر»**[(١)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أرحم أمتي بأمتي أبو بكر** (أي أكثرهم رحمة) **وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان، وأقضاهم عليّ...»**[(٢)].

وفي رواية قال ﷺ: **«أرأف أمتي بأمتي أبو بكر ...»**[(٣)].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن أهل الدرجات العُلى ليرون مَن فوقهم كما ترون الكوكب الدّريّ في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما»**[(٤)].

وقال النبي ﷺ: **«ما لأحد عندنا يدٌ إلا وقد كافأناه بها إلا الصديق، فإن له عندنا يدًا يكافئه الله بها يوم القيامة، وما نفعني مالُ أحد قط ما نفعني مالُ أبي بكر، ولو كنت متخذًا من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن صاحبكم خليل الله»**[(٥)].

*وأمها هي الصحابية الجليلة أم رومان بنت عامر تلكم الصحابية الجليلة التي قدمت الكثير والكثير لخدمة هذا الدين العظيم.

* وأختها لأبيها أسماء بنت أبي بكر - ذات النطاقين رضي الله عنهما.

*وزوج أختها هو حواري رسول الله ﷺ وابن عمته وأحد العشرة المبشرين بالجنة وأول من سلّ سيفًا في سبيل الله... إنه الزبير بن العوام رضي الله عنه.

*وجدها لأبيها - أبو قحافة - الذي أسلم ونال شرف صحبةِ النبي ﷺ.

*وجدتها لأبيها - أم الخير - سلمى بنت صخر التي أسلمت ونالت شرف الصحبة.

* وأما عماتها الثلاث - من الصحابيات - وهن: أم عامر وقُريبة وأم فروة - بنات أبي قحافة -.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٥٤) في المناقب/ باب: قول النبي ﷺ سدوا الأبواب إلا باب أبي بكر، ومسلم (٢٣٨٢) في فضائل الصحابة/ باب: من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه.
(٢) رواه أحمد، والترمذي (٣٧٩٠)، وابن ماجه (١٥٥)، والنسائي عن أنس، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٨٩٥).
(٣) رواه أبو يعلى عن ابن عمر، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٨٦٨)
(٤) رواه أحمد، والترمذي (٣٦٥٨)، وابن ماجه (٩٦)، وابن حبان، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٠٣٠).
(٥) رواه الترمذي (٣٦٦١)، وصححه الألباني في «سنن الترمذي» (٢٨٩٤)

* وأما شقيقها - عبد الرحمن - فهو من الشجعان والرماة المذكورين.

* فتلك هي الشجرة المباركة التي خرجت عائشة من جذورها وعاشت بين أغصانها فكانت زهرة نادرة في دنيا الناس.

قدرها ومنزلتها

يقول الإمام الذهبي عنها: عائشة بنت الإمام الصِّديق الأكبر خليفة رسول الله ﷺ القرشية التيمية المكية النبوية أم المؤمنين زوجة النبي ﷺ، أفقه نساء الأمة على الإطلاق[(١)].

وكانت امرأة بيضاء جميلة. ومن ثم يقال لها: الحُميراء. ولم يتزوج النبي ﷺ بكرًا غيرها، ولا أحب امرأة حبها. ولا أعلم في أمة محمد ﷺ، بل ولا في النساء مطلقًا، امرأة أعلم منها. وذهب بعض العلماء إلى أنها أفضل من أبيها. وهذا مردود، وقد جعل الله لكل شيء قدرًا، بل نشهد أنها زوجة نبينا ﷺ في الدنيا والآخرة، فهل فوق ذلك مفخر[(٢)].

وكان الإمام مسروق بن عبد الرحمن الهمداني الكوفي رَحِمَهُ اللهُ وهو تابعي جليل من كبار التابعين إذا حدَّث عنها قال: حدثتني الصديقة بنت الصديق، حبيبة حبيب الله، المبرأة في كتاب الله.

وقال عنها أبو نعيم الأصبهاني في ترجمتها:

الصديقة بنت الصديق، العتيقة بنت العتيق، حبيبة الحبيب، وأليفة القريب، سيد المرسلين محمد الخطيب، المبرأة من العيوب، المعراة من ارتياب القلوب، لرؤيتها جبريل رسول علام الغيوب، عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها[(٣)].

شمس الإسلام تشرق على أرض الجزيرة

كان أبو بكر رضي الله عنه صديقًا للحبيب ﷺ قبل البعثة وكان يعرف أمانته وصدقه وأخلاقه

(١) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢/ ١٣٥).
(٢) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢/ ١٤٠).
(٣) «الحلية» لأبي نعيم (٢/٤٣).

العذبة المباركة. . . وما هي إلا سنوات حتى أشرقت شمس الإسلام على أرض الجزيرة وتنزَّل الوحي على الحبيب ﷺ فكانت خديجة ﵂ أول من أسلمت من النساء وكان أبو بكر أول من أسلم من الرجال. . . وما هي إلا لحظات حتى خرج أبو بكر يدعو الكون كله ليذوق طعم الإيمان الذي ذاقه.

- فإن من ذاق عرف ومن عرف اغترف - فاستجاب لدعوته ستة من العشرة الذي بُشِّروا فيما بعد بالجنة. . . بل وأسلم أهل بيته وأولاده كلهم.

فوُلدت عائشة ﵂ في الإسلام وخرجت إلى الدنيا فوجدت نفسها بين أبوين كريمين مؤمنين بل وجدت نفسها ابنة لخير الناس بعد رسول الله ﷺ.

تقول عائشة: لم أعقل أبويَّ إلا وهما يدينان الدِّين(١).

فنشأت في أحضان هذين الأبوين الكريمين وترعرعت في ظل هذا البستان الذي غُرست أشجاره في تربة الإيمان وسُقيت بماء الوحي فكان أبواها كالدوحة الباسقة التي يُستظل بظلها وكالشجرة المباركة ذات القطوف الدانية التي تؤتي أُكلها كل حين بإذن ربها.

وكان أبواها يلاحظان بركتها التي فاح عبيرها ولكن لم يخطر ببالهما أبدًا أنها ستصبح في يومٍ من الأيام زوجة سيد الأنام ﷺ وأمًّا للمؤمنين في كل زمان ومنارة للعلم في كل زمان ومكان.

ولكن الله ﷻ إذا أراد شيئًا فإنه يقول له: كُن فيكون.

ولقد أراد الله أن يصنعها على عينه وأن يختارها زوجة لحبيبه ﷺ فتعالوا بنا لنعيش بأرواحنا تلك اللحظات في رحاب سيرتها العطرة لنعرف قدر هذه الأم المباركة.

هذه زوجتك في الدنيا والآخرة

ولقد كان زواج النبي ﷺ بعائشة ﵂ بوحي من السماء فلقد رآها في منامه ثلاث ليالٍ وكان جبريل ﵇ يأتيه بصورتها ويقول له: هذه زوجتك في الدنيا والآخرة. . . ويا لها من كرامة عظيمة لأمنا عائشة ﵂.

عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**أُريتك في المنام ثلاث ليال، جاء بك الملك في**

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ١٣٩).

سرقة (من) حرير[١]، فيقول: هذه امرأتك. فأكشف عن وجهك فإذا أنت فيه. فأقول: إن يك هذا من عند الله يُمضه»[٢].

وعن ابن أبي مليكة عن عائشة: أن جبريل جاء بصورتها في خرقة حرير خضراء إلى النبي ﷺ فقال: **«هذه زوجتك في الدنيا والآخرة»**[٣].

قصة الزواج المبارك

عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما توفيت خديجة، قالت خولة بنت حكيم ابن الأوقص - امرأة عثمان بن مظعون، وذلك بمكة -: يا رسول الله ألا تزوج ؟ قال: **«من»** قالت: إن شئت بكرًا وإن شئت ثيبًا ؟ قال: **«فمن البكر؟»** قالت: ابنة أحب خلق الله إليك عائشة بنت أبي بكر.

قال: **«فمن الثيب ؟»** قالت: سودة بنت زمعة، آمنت بك، واتبعتك على ما أنت عليه.

قال: **«فاذهبي فاذكريهما عليّ»**.

فجاءت فدخلت بيت أبي بكر، فوجدت أم رومان أم عائشة فقالت: يا أم رومان، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة، أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة ! قالت: وددت، انتظري أبا بكر، فإنه آتٍ، فجاء أبو بكر فقالت: يا أبا بكر ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة !! أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة فقال: هل تصلح له، إنما هي بنت أخيه ؟ فرجعت إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: **«ارجعي إليه فقولي له: أنت أخي في الإسلام، وأنا أخوك، وابنتك تصلح لي»**.

فأتت أبا بكر فقال: ادعي لي رسول الله ﷺ فجاء فأنكحه (وأنا يومئذ ابنة ست سنين)[٤].

---

(١) السرقة بفتح السين والراء والقاف: هي القطعة، وفي مطبوعة دمشق «خرقة» وهي عند ابن حبان كما في «الفتح» (٩/ ١٥٦).

(٢) متفق عليه: أخرجه أحمد (٦/ ٤١ و١٢٨ و١٦١)، والبخاري (٣٨٩٥) في مناقب الأنصار/ باب: تزويج النبي ﷺ عائشة، و(٥١٢٥) في النكاح/ باب: النظر إلى المرأة قبل التزويج و(٧٠١١) في التعبير/ باب: كشف المرأة في المنام، وباب ثياب الحرير في المنام، ومسلم (٢٤٣٨) في فضائل الصحابة/ باب: فضل عائشة رضي الله تعالى عنها، من طرق عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٨٨٠)، وقال الأرناؤوط: ورجاله ثقات.

(٤) قال الهيثمي في «المجمع» (١٥٢٨٥): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير محمد ابن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث.

* لقد أدركت خولة - السيدة الأنثى صاحبة التجربة - حاجة البيت النبوي الشريف إلى من يملأ الفراغ، ويسد الثغرة، حنانًا وحبًا وإشفاقًا وكانت خولة بحكم نضوجها وبُعد نظرها وعمق إيمانها، تحيط بالظروف النفسية والاجتماعية والزمنية التي تستقطب صاحب الرسالة ﷺ فقالت بعد درس وتفكير لتعرض على رسول الله ﷺ الزواج:

ولعل خولة في عرضها هذا كانت تهدف إلى من يقوم على رعاية الأسرة وتدبير شئون البيت من خلال سودة وعلى رأب صدع القلب الشريف من خلال عائشة، وتوثيق العروة بالمصاهرة بين النبي ﷺ والصدِّيق رضي الله عنه .

* قال الإمام الذهبي: وكان تزويجه بها إثر وفاة خديجة فتزوج بها وبسودة في وقتٍ واحد ثم دخل بسودة فتفرَّد بها ثلاثة أعوام حتى بنى بعائشة في شوال بعد وقعة بدر فما تزوج بكرًا سواها[١].

ففروا إلى الله

هكذا جاء الوحي بصورتها إلى رسول الله ﷺ وأخبره بأنها زوجته في الدارين... وظلت عائشة رضي الله عنها على الرغم من صغر سنها - تحلم باللحظة الخالدة التي تدخل فيها بيت رسول الله ﷺ لتكون زوجة لسيد الأولين والآخرين وأمًّا للمؤمنين في كل وقتٍ وحين.

* وفي تلك المرحلة الصعبة اشتد إيذاء المشركين بأصحاب الحبيب ﷺ حتى أشار عليهم بالهجرة إلى المدينة المنورة فنزلوا في رحاب الأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان... وبعد فترة يسيرة أذن الله عز وجل لرسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة ليُقيم للإسلام دولة في تلك التربة المباركة.

الهجرة المباركة

ولما تم اتخاذ القرار الغاشم بقتل النبي ﷺ نزل إليه جبريل بوحي ربه - تبارك وتعالى-، فأخبره بمؤامرة قريش، وأن الله قد أذن له في الخروج، وحدد له وقت الهجرة قائلًا: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه[٢].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ١٤١ ، ١٤٢).
(٢) ابن هشام (١/ ٤٨٢)، وزاد المعاد(٢/٥٢).

وذهب النبي ﷺ في الهاجرة إلى أبي بكر رضي الله عنه ليبرم معه مراحل الهجرة، قالت عائشة: رضي الله عنها بينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعًا في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر.

قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فأذن له، فدخل، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «**أخرج مَن عندك**». فقال أبو بكر: إنما هم أهلك، بأبي أنت يا رسول الله ، قال رسول الله ﷺ: «**نعم**» (١).

وبعد إبرام خطة الهجرة رجع رسول الله ﷺ إلى بيته ينتظر مجيء الليل.

أما أكابر مجرمي قريش فقضوا نهارهم في الإعداد لتنفيذ الخطة المرسومة التي أبرمها برلمان مكة (دار الندوة) صباحًا.

وقد كان ميعاد تنفيذ تلك المؤامرة بعد منتصف الليل، فباتوا متيقظين ينتظرون ساعة الصفر، ولكن الله غالب على أمره، بيده ملكوت السموات والأرض، يفعل ما يشاء، وهو يجير ولا يجار عليه، فقد فعل ما خطب به الرسول ﷺ فيما بعد: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: الآية ٣٠]

ومع غاية استعداد قريش لتنفيذ خطتهم فقد فشلوا فشلاً فاحشًا، ففي هذه الساعة الحرجة قال رسول الله ﷺ لعليّ بن أبي طالب: «**نَم على فراشي وتسجَّ ببُردي هذا الحضرمي الأخضر، فنم فيه، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم، وكان رسول الله ﷺ ينام في بُرده ذلك إذا نام**» (٢).

ثم خرج رسول الله ﷺ واخترق صفوفهم، وأخذ حفنة من البطحاء فجعل يذره على رءوسهم، وقد أخذ الله أبصارهم عنه فلا يرونه، وهو يتلو: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [يس: الآية ٩] ، فلم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابا، ومضى إلى بيت أبي بكر، فخرجا من خوخة من دار أبي بكر

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٩٠٥) في المناقب/ باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه، وأبو داود (٤٠٨٣) مختصرًا، وأحمد (٢٥٧٣٤).
(٢) ابن هشام (١/ ٤٨٣).

ليلًا، حتى لحقا بغار ثور في اتجاه اليمن(١).

وبقي المحاصرون ينتظرون حلول ساعة الصفر، وقبيل حلولها تجلت لهم الخيبة والفشل، فقد جاءهم رجل ممن لم يكن معهم، ورآهم ببابه فقال: ما تنتظرون ؟!

قالوا: محمدًا، قال: خبتم وخسرتم، قد والله مرَّ بكم، وذرَّ على رءوسكم التراب، وانطلق لحاجته، قالوا: والله ما أبصرناه، وقاموا ينفضون التراب عن رءوسهم.

ولكنهم تطلعوا من صِير الباب فرأوا عليًّا، فقالوا: والله إن هذا لمحمد نائمٌ، عليه بُرده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، وقام عليّ عن الفراش، فسُقط في أيديهم، وسألوه عن رسول الله ﷺ فقال: لا علم لي به(٢).

وكمنا في الغار ثلاث ليال، ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد(٣). وكان عبد الله ابن أبي بكر يبيت عندهما. قالت عائشة: وهو غلام شاب ثقف لقن، فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمرًا يكتادان به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام. وكان يرعى عليهما عامر ابن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم، فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسل - وهو لبن منحتهما ورضيفهما - حتى ينعق بهما عامر ابن فهيرة بغلس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، وكان عامر ابن فهيرة يتبع بغنمه أثر عبد الله بن أبي بكر بعد ذهابه إلى مكة ليعفي عليه(٤)(٥).

أما قريش فقد جن جنونها حينما تأكد لديها إفلات رسول الله ﷺ صباح ليلة تنفيذ المؤامرة، فأول ما فعلوه بهذا الصدد أنهم ضربوا عليًّا، وسحبوه إلى الكعبة، وحبسوه ساعة، علهم يظفرون بخبرهما(٦).

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٧٦)، من طريق الواقدي. وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٥/ ٣٨٩)، وعنه أحمد في «المسند» (١/ ٣٤٨) من طريق عثمان بن عمرو الجزري أن مقسمًا مولى ابن عباس أخبره عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: الآية ٣٠] فذكر الحديث، وحسن إسناده ابن كثير في «البداية والنهاية» (٣/ ٢٢١)، وابن حجر في «الفتح» (٧/ ٢٣٦).

(٢) ابن هشام (١/ ٤٨٣)، وزاد المعاد (٢/٥٢)

(٣) فتح الباري (٧/ ٣٣٦).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) ابن هشام (١/ ٤٨٦).

(٦) رحمة للعالمين (١/٩٦)

ولما لم يحصلوا من (عليّ) على جدوى جاءوا إلي بيت أبي بكر، وقرعوا بابه، فخرجت إليهم أسماء بنت أبي بكر، فقالوا لها: أين أبوك ؟ قالت: لا أدري والله أين أبي؟ فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشًا خبيثًا - فلطم خدها لطمة طرح منها قرطها(١).

وقررت قريش في جلسة طارئة مستعجلة استخدام جميع الوسائل التي يمكن بها القبض على الرجلين، فوضعت جميع الطرق النافذة من مكة في جميع الجهات تحت المراقبة المسلحة الشديدة، كما قررت إعطاء مكافأة ضخمة قدرها مائة ناقة بدل كل واحد منهما لمن يعيدهما إلى قريش حيين أو ميتين، كائنًا من كان(٢).

وحينئذ جدَّت الفرسان والمشاة وقُصاص الأثر في الطلب، وانتشروا في الجبال والوديان، والوهاد والهضاب، لكن من دون جدوى وبغير فائدة.

وقد وصل المطاردون إلى باب الغار، ولكن الله غالب على أمره.

روى البخاري عن أنس، عن أبي بكر؛ قال: كنت مع النبي ﷺ في الغار فرفعت رأسي، فإذا أنا بأقدام القوم، فقلت: يا نبي الله لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا. . . قال: **«اسكت يا أبا بكر، اثنان الله ثالثهما!»**، وفي لفظ: **«ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»**(٣).

وقد كانت معجزة أكرم الله بها نبيه ﷺ فقد رجع المطاردون حين لم يبق بينه وبينهم إلا خطوات معدودة.

وحين خمدت نار الطلب، وتوقفت أعمال دوريات التفتيش، وهدأت ثائرات قريش بعد استمرار المطاردة الحثيثة ثلاث أيام بدون جدوى، تهيأ رسول الله ﷺ وصاحبه للخروج إلى المدينة.

وأتتهما أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما بسفرتهما، ونسيت أن تجعل لها عصامًا، فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة فإذا ليس لها عصام فشقت نطاقها باثنين، فعلقت السفرة بواحد، وانتطقت بالآخر، فسُميت ذات النطاقين(٤).

---

(١) ابن هشام (١/ ٤٨٧).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٩٠٦) في المناقب/ باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه، وأحمد (١٧٦٤١) (٤/ ١٧٥).
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري في المناقب/ باب: مناقب المهاجرين وفضلهم منهم أبو بكر، ومسلم (٢٣٨١) في فضائل الصحابة/ باب: من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، والترمذي (٣٠٩٥).
(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٣٩٠٥) في المناقب/ باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه، وابن هشام (١/ ٤٨٦).

ثم ارتحل رسول الله ﷺ وأبو بكر ﷺ، وارتحل معهم عامر بن فهيرة، وأخذ بهم الدليل - عبد الله بن أريقط - على طريق السواحل.

وفي يوم الإثنين ٨ ربيع الأول سنة ١٤ من النبوة - وهي السنة الأولى من الهجرة - الموافق ٢٣ سبتمبر سنة ٦٢٢م، نزل رسول الله ﷺ بقباء(١).

قال عروة بن الزبير: سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة، فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يومًا بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أُطم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب، هذا جدكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح(٢).

قال ابن القيم: وسُمعت الوجبة والتكبير في بني عمرو بن عوف، وكبر المسلمون فرحًا بقدومه، وخرجوا للقائه، فتلقوه وحيوه بتحية النبوة، فأحدقوا به مطيفين حوله، والسكينة تغشاه، والوحي نزل عليه :﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: الآية ٤] (٣).

وكانت المدينة كلها قد زحفت للاستقبال، وكان يومًا مشهودًا لم تشهد المدينة مثله في تاريخها، وقد رأى اليهود صدق بشارة حبقوق النبي: إن الله جاء من التيمان والقدوس من جبال فاران(٤).

وبعد الجمعة دخل النبي ﷺ المدينة ومن ذلك اليوم سُميت بلدة يثرب بمدينة رسول الله ﷺ . . . ونزل النبي ﷺ في دار أبي أيوب الأنصاري ﷺ.

فعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال:«**أي بيوت أهلنا أقرب ؟**».

فقال أبو أيوب: أنا يا رسول الله، هذه داري، وهذا بابي، قال: «**فانطلق فهيئ لنا مقيلًا**»، قال: قوما على بركة الله(٥).

---

(١) رحمة للعالمين (١/ ١٠٢).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٩٠٦) في المناقب/ باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه.

(٣) زاد المعاد (٢/ ٥٤).

(٤) صحيفة حبقوق (٣/٣).

(٥) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٩١١) في المناقب/ باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه، وأحمد (١٢٢٥٥) (٣/ ١٢٢).

وبعد أيام وصلت إليه زوجته سودة، وبنتاه فاطمة وأم كلثوم، وأسامة بن زيد، وأم أيمن، وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر ومنهم عائشة، وبقيت زينب عند أبي العاص، لم يمكنها من الخروج حتى هاجرت بعد بدر[(١)].

قالت عائشة: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال، فدخلت عليهما، فقلت: يا أبَتِ كيف تجدك، ويا بلال كيف تجدك ؟ قالت: فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرئ مصبَّح في أهله   والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة   بوادٍ وحولي إذخر وجليل
وهل أرِدَن يومًا مياه مجنة   وُهل يبدون لي شامة وطفيل

قالت عائشة: فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «**اللهم حبِّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وَصَحِّحْهَا، وبارك في صاعها ومُدِّها، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة**»[(٢)(٣)].

وهكذا اكتملت السعادة

وتأتي موقعة بدر التي كتب الله فيها النصر للموحدين فكانت الفرحة تغمر قلب النبي ﷺ وأصحابه... وما إن مضى شهر رمضان وجاء شهر شوال حتى تجددت الفرحة في قلوب المسلمين فلقد بنى النبي ﷺ بعائشة لتكتمل السعادة في قلوب الموحدين ولتصبح عائشة رضي الله عنها زوجة لسيد المرسلين ﷺ وأُمًّا للمؤمنين... ويا لها من منقبة لا توازيها الدنيا بكل ما فيها من متاعٍ زائل.

وفي هذا اليوم السعيد اجتمع الناس في بيت أبي بكر رضي الله عنه وكانت الفرحة تعلو وجوههم وتملأ قلوبهم.

وأما عن تفاصيل تلك المناسبة التاريخية السعيدة فنترك الحديث لأمنا رضي الله عنها.

لتصف لنا هذه الليلة المباركة.

---

(١) زاد المعاد (٢/٥٥)

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٨٨٩) في الحج/ باب: كراهية النبي ﷺ أن تُعْرَى المدينة، ومسلم (١٣٧٦) في الحج/ باب: الترغيب في سكنى المدينة والصبر على لأوائها.

(٣) بتصرف من «الرحيق المختوم».

عن عائشة ﵂ قالت: «تزوجني النبي ﷺ وأنا بنت ست سنين، فقدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن خزرج، فوعكت فتمزق شعري، فوفى جُميمة، فأتتني أمي أم رومان، وإني لفي أُرجوحة ومعي صواحب لي فصرخت بي فأتيتها، لا أدري ما تريد بي، فأخذت بيدي حتى أوقفتني على باب الدار، وإني لأنهج حتى سكن بعض نَفسي. ثم أخذت شيئا من ماء فمسحت به وجهي ورأسي، ثم أدخلتني الدار، فإذا نسوة من الأنصار في البيت، فقلن: على الخير والبركة، وعلى خير طائر. فأسلمتني إليهن، فأصلحن من شأني، فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ ضُحى، فأسلمتني إليه، وأنا يومئذ بنت تسع سنين»(١).

النبي ﷺ لم يتزوج بكرًا غير عائشة

عن عائشة ﵂ قالت: قلت يا رسول الله: أرأيت لو نزلت واديًا وفيه شجرة قد أُكل منها، ووجدت شجرًا لم يؤكل منها في أيها كنت تُرتع بعيرك ؟ قال: «**في الذي لم يُرتع منها**». تعني أن رسول الله ﷺ لم يتزوج بكرًا غيرها(٢).

وهكذا دخلت عائشة ﵂ بيت النبوة - وهو خير بيت في هذا الكون الفسيح على الرغم من تواضعه - إنها حجرة صغيرة إلا أن صاحبها ﷺ مؤيِّد بالوحي من السماء... إنها ليست مجهزة بمتاع الدنيا الزائل إلا أن صاحبها ﷺ نشر عبير القرآن والسُنة على الأرض كلها فكانت الهداية التي منحها الله لمن شاء من عباده تخرج من هذه الحجرة المباركة.

لقد عاشت أمنا عائشة ﵂ في رحاب الحبيب ﷺ تنهل من أخلاقه وعلمه وورعه وحلمه وهديه، فكانت شمسًا في دنيا الناس لا يستغني عنها القريب ولا البعيد.

السعادة ترفرف على هذا البيت المبارك

والآن تعالوا بنا لنستأذن على أمنا الحبيبة عائشة ﵂ لنعيش بعض اللحظات في رحاب البيت النبوي المبارك - على صاحبه أفضل الصلاة والسلام -.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٨٩٤) في المناقب/ باب: تزويج النبي ﷺ عائشة، ومسلم (١٤٢٢) في النكاح/ باب: تزويج الأب البكر الصغيرة.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠٧٧) في النكاح/ باب: نكاح الأبكار.

كانت السعادة ترفرف على بيوت النبي ﷺ على الرغم من حياة التقشف التي عاشها النبي وأهله، فقد كانت تمر الأيام والأسابيع ولا تُوقد في بيوت النبي ﷺ نار، وإنما كانوا يأكلون الأسودين: التمر والماء.

حياة سعيدة؛ ما دام القلب موصولاً بالله، حياة رقيقة مع الشظف والفاقة، سعيدة بالعطف الذي يغمر به الحبيب المصطفى (صاحب القلب الكبير) أهله وأحبابه، حتى صار حطام الدنيا عند أهله ومن لاذ به لا يساوي مثقال ذرة من هباء.

وهذا ما جعل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها سيدة في كل مكرمة، ولكل مكرمة؛ سيدة في السخاء، وفي الزهد، وفي كل فضيلة، وإن تاريخها الوضيء ليحكي تلك المكارم التي اقتبستها من البيت النبوي، واحتضنتها حتى آخر نفس من حياتها.

لندخل أعماق السيدة الأم العظيمة أمنا عائشة رضي الله عنها، ولندخل معها - إن أذنت - بيتها الطاهر الموفق وكيف لا وقد أطلق عليها رسول الله ﷺ اسم موفقة... لندخل الحجرة النبوية التي خُصصت لعائشة رضي الله عنها.

منذ الأيام الأولى لزواج عائشة رضي الله عنها، أحبت أن تحتل مكان خديجة في البيت المحمدي الطاهر، وأن تأخذ مكان الطاهرة خديجة في قلبه الشريف ﷺ منذ أول أيامها.

لكن أوفى الأوفياء الرسول الكريم ﷺ كان مخلصًا لخديجة رضي الله عنها، فمقامها ومكانتها لم ولن تشارك فيه امرأة أخرى مهما علا شأنها ومهما ومهما... ولقد سبق عائشة إلى البيت النبوي زوجة أخرى هي سودة بنت زمعة العامرية، وكانت قد جاوزت مرحلة الصبا، وكان زواجه ﷺ منها - بالإضافة إلى أنه وحي - زواج عطف ومودة ومواساة، وحكمة محمدية تنضح بالرحمة التي أرسلها الله للعالمين.

كانت عائشة رضي الله عنها تحب رسول الله ﷺ، وترجو أن يكون لها ولد منه، كما كان لخديجة، ولكن الأيام مرت دون أن تنجب، إلا أن رسول الله ﷺ قال لها:

«اكتني بابن أختك عبد الله بن الزبير» فكانت كنيتها أم عبد الله(١).

---

(١) نساء أهل البيت (ص: ١١٩-١٢٠).

اقدروا قدر الجارية الحديثة السن

وكان الحبيب ﷺ يعلم ويقدر تمامًا صغر سنها ﵂ فكان يغذيها بالعلم والحكمة والأخلاق ولا يحرمها أبدًا من أن تتعايش مع متطلبات سنها الصغير فكان يتركها تلعب بالعرائس بل كان يرسل إليها أترابها لكي يلعبن معها لتشعر بالسعادة والسرور في بيت الحبيب ﷺ.

عن عائشة، قالت: لقد رأيت رسول الله ﷺ يقوم على باب حجرتي، والحبشة يلعبون بالحراب في المسجد، وإنه ليسترني بردائه لكي أنظر إلى لعبهم، ثم يقف من أجلي حتى أكون أنا التي أنصرف. فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو.

وفي لفظ معمر، عن الزهري: فما زلت أنظر حتى كنت أنا أنصرف، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن التي تسمع اللهو.

ولفظ الأوزاعي عن الزهري في هذا الحديث قالت: رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا التي أسأم فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو(١).

وعن عائشة؛ أنها كانت تلعب بالبنات عند رسول الله ﷺ. قالت: وكانت تأتيني صواحبي. فكن ينقمعن من رسول الله ﷺ. قالت: فكان رسول الله ﷺ يسربهن إليَّ(٢).

أما سمعت أن لسليمان خيلًا لها أجنحة

لقد كان رسول الله ﷺ يملك من العطف والرحمة ما يُغني زوجه الصغير عن عطف أبويها... وكانت لا تنسى أبدًا هذه الذكريات الجميلة فكانت تذكرها دائمًا وهي في

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١/ ٤٥٧) (٥٢٣٦) في النكاح/ باب: نظر المرأة إلى الحبش ونحوهم من غير ريبة، ومسلم (٨٩٢) في صلاة العيدين/ باب: الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦١٣٠) في الأدب/ باب: الانبساط إلى الناس، ومسلم(٢٤٤٠) في فضائل الصحابة/ باب: في فضل عائشة رضي الله تعالى عنها.

غاية النشوة والسعادة.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر، وفي سهوتها سِتر، فهبت ريح فكشفت ناحية الستر من بنات لعائشة - لُعَب - فقال: «**ما هذا يا عائشة؟**» قالت: بناتي. ورأى بينهن فرسًا له جناحان من رقاع، فقال: «**ما هذا الذي أرى وسطهن؟**» قالت: فرس. قال: «**وما هذا الذي عليه؟**» قالت: جناحان. قال: «**فرس له جناحان؟**»، قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة ؟ قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه(١).

هذه بتلك

بل وصل الأمر إلى درجة رفيعة من الحلم والتواضع حتى إن النبي ﷺ كان يسابق أمنا عائشة رضي الله عنها لتعلم يقينًا أن النبي ﷺ لن يحرمها من اللطف والعطف والرعاية، فهي صفات راسخة في قلب الحبيب ﷺ الذي ما أرسله الله إلا رحمة للعالمين.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، وكنت جارية لم أحمل اللحم ولم أبدن.

فقال رسول الله ﷺ للناس: «**تقدموا، تقدموا**» فتقدموا. ثم قال: «**يا عائشة تعالي حتى أسابقك**» فسابقته فسبقته، فسكت، حتى إذا حملت اللحم ونسيت خرجت معه في بعض أسفاره. فقال للناس: «**تقدموا**»، فتقدموا، ثم قال لي: «**تعالي أسابقك**»، فسابقته فسبقني، فجعل يضحك ويقول: «**هذه بتلك**»(٢).

أشركاني في سلمكما كما أشركتماني في حربكما

وكان ﷺ يأتي إليها دائمًا بكل ما يُدخل عليها السعادة والسرور... وكان أحيانًا الصدِّيق رضي الله عنه يحضر معهما بعض المواقف الطريفة ويشاركهما في تلك السعادة التي كانت ترفرف على هذا البيت المبارك.

عن النعمان بن بشير، قال: استأذن أبو بكر على النبي ﷺ، فإذا عائشة ترفع صوتها عليه، فقال: يا بنت فلانة، ترفعين صوتك على رسول الله ﷺ ! فحال النبي ﷺ بينه

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٣٢) والسياق له، والنسائي في «الكبرى»، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح.
(٢) أخرجه أحمد (٣٩/٦)، والنسائي في «الكبرى» وإسناده صحيح.

وبينها. ثم خرج أبو بكر، فجعل النبي ﷺ يترضاها، وقال: **«ألم تَريني حُلت بين الرجل وبينك»**. ثم استأذن أبو بكر مرة أخرى، فسمع تضاحكهما، فقال: أشركاني في سلمكما كما أشركتماني في حربكما[(١)].

وإنك لعلى خلق عظيم

وكانت عائشة رضي الله عنها ترى أخلاق النبي ﷺ التي يعجز القلم عن وصفها... وحسبه قول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: الآية ٤].

عن عائشة، قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ شيئًا قط بيده، ولا امرأة. ولا خادمًا، إلا أن يجاهد في سبيل الله. وما نيل منه شيء قط فانتقم من صاحبه، إلا أن يُنتهك شيء من محارم الله، فينتقم لله عز وجل[(٢)].

وكان ﷺ على الرغم من كثرة انشغاله بالعبادة وبهموم الأمة المسلمة إلا أنه كان زوجًا مثاليًا، مُحالٌ أن نجد له مثيلًا في الدنيا كلها... فلقد كان يساعد أهله في عمل البيت - في الوقت الذي يستنكف فيه أحدنا أن يُحضر لزوجه كوبًا من الماء أثناء مرضها -.

سُئلت عائشة رضي الله عنها: ما كان النبي ﷺ يصنع في البيت؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله فإذا سمع الأذان خرج[(٣)].

دروس غالية

وها هو ﷺ يتعهدها بالتربية والرعاية والتعليم... فكان يعلمها دائمًا أن الرفق والرحمة سبب في كل خير.

عن شريح بن هانيء قال: ركبت عائشة بعيرًا، فكانت فيه صعوبة فجعلت تردده، فقال لها رسول الله ﷺ: **«عليك بالرفق فإن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا يُنزع من شيء إلا شانه»**[(٤)]. وعن عروة بن الزبير رضي الله عنه أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: دخل

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٩٩) الأدب، وقال الأرنؤوط: إسناده قوي.
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣٢٨) الفضائل/ باب: مباعدته ﷺ للآثام.
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٥٣٦٣) في النفقات/ باب: خدمة الرجل في أهله.
(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٩٤) في البر والصلة والأدب/ باب: فضل الرفق، وأحمد (٦/ ١١٢)، وأبو داود (٢٤٧٨).

رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم. قالت: عائشة: ففهمتها فقلت: وعليكم السام(١) واللعنة. قالت: فقال رسول الله ﷺ: **«مهلًا يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله»** فقلت: يا رسول الله، أَوَ لم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: **«قد قلت: وعليكم»**(٢).

تجرد و إنصاف

وكان الحبيب ﷺ لا يجامل أحدًا في دين الله عز وجل بل كان لا تمنعه محبته لأي شخص من أن يكون منصفًا.

وها هي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول لرسول الله ﷺ مشيرة إلى قِصر أم المؤمنين صفية بنت حُيي رضي الله عنها . . . حسبُك من صفية هكذا (تعني أنها قصيرة)، فماذا قال رسول الله ﷺ لعائشة أحب امرأة إليه ؟! قال ﷺ: **«لقد قلت كلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجته»**(٣).

فمع محبته لها ﷺ لم يتركها تخوض في عرض أختها المسلمة وتغتابها وتأكل من لحم أختها.

ولما رأى(٤) النبي ﷺ النمرقة في بيت عائشة ورأى التصاوير فيها اشتد على أم المؤمنين عائشة وقام على الباب فلم يدخل حتى نزعتها.

---

(١) السام: الموت، وقيل: هو الموت العاجل.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠٢٤) في الأدب/ باب: الرفق في الأمر كله، ومسلم (٢١٦٥) في السلام/ باب: النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم.

(٣) أخرج الترمذي بإسناد صحيح (٢٥٠٥) عن عائشة قالت: . . فقلت: يا رسول الله إن صفية امرأة، وقالت بيدها هكذا كأنها تعني قصيرة فقال: **«لقد مزجت بكلمة لو مَزَجْتِ بها ماء البحر لمُزج»**.

(٤) أخرج البخاري (٢١٠٥) في البيوع/ باب: التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء، ومسلم (٢١٠٧) في اللباس والزينة/ باب: تحريم تصوير صورة الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة بالفرش ونحوه من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها اشترت نمرقة فيها تصاوير فلما رآها رسول الله ﷺ قام على الباب فلم يَدْخُلْهُ فعرفت في وجهه الكراهية فقلت: يا رسول الله أتوب إلى الله وإلى رسوله ﷺ ماذا أذنبت ؟ فقال رسول الله ﷺ: **«ما بال هذه النمرقة ؟»** قلت: اشتريتها لك لتقعد عليها وتوسدها فقال رسول الله ﷺ: **«إن أصحاب هذه الصور يوم القيامة يعذبون فيقال لهم: أحيوا ما خلقتم»** وقال: **«إن البيت الذي فيه الصور لا تدخله الملائكة»**.

ولا تمنعه محبته ﷺ لعائشة من أن يكون منصفًا معها مقتصًا منها لغيرها إن احتاج الأمر إلى قصاص.

غيرتها على الحبيب ﷺ

وكانت رضي الله عنها تحب النبي ﷺ وتغار عليه غيرة شديدة.

فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً قالت: فغرت عليه، فجاء فرأى ما أصنع، فقال: «**مالك يا عائشة ! أغرت؟**»، فقلت: ومالي لا يغار مثلي على مثلك ؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أقد جاءك شيطانك؟**»، فقلت: يا رسول الله ! أوَ معي شيطان ؟ قال :«**نعم**»، قلت: ومع كل إنسان ؟ قال :«**نعم**»، قلت: ومعك يا رسول الله ؟ قال: «**نعم ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم**»[1].

وعن عائشة : رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يستأذن في يوم المرأة منا[2] بعد أن أُنزلت هذه الآية :﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ۖ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ﴾ [الأحزاب: الآية ٥١] . فقلت لها[3]: ما كنت تقولين، قالت: كنت أقول له: إن كان ذاك إليَّ فإني لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحدًا»[4].

غارت أمكم

وها هو درسٌ تربوي يوضح لنا كيف كان الحبيب ﷺ يتعامل مع أي مشكلة - مهما عظمت - بحكمة ورحمة.

أخرج البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه قال: كان النبي ﷺ عند بعض نسائه فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام فضربت التي النبي ﷺ في بيتها يد الخادم

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨١٥) في صفة القيامة والجنة والنار/ باب: تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، وأحمد (٦/ ١١٥).

(٢) أي: الذي يكون في نوبتها إذا أراد أن يتوجه إلى الأخرى؛ قاله ابن حجر (٨/ ٣٨٦).

(٣) القائلة هي: مُعَاذة - رحمها الله - وهي بنت عبد الله العدوية البصرية راوية الحديث عن عائشة رضي الله عنها.

(٤) (متفق عليه): رواه البخاري (٤٧٨٩) في تفسير القرآن/ باب: قوله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ [الأحزاب: الآية ٥١]، والسياق له، ومسلم (١٤٧٦)، في الطلاق/ باب: بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقًا إلا بالنية.

فسقطت الصحفة فانفلقت فجمع النبي ﷺ فِلَقَ الصحفة ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة ويقول: «**غارت أمكم**» ثم حبس الخادم حتى أتى بصحفة من عند التي هو في بيتها فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كُسرت صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كَسَرَتْ(١).

ونحوه عند النسائي بإسنادٍ صحيح من حديث أم سلمة ﵂ أنها أتت بطعام في صحفة لها إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فجاءت عائشة متزرة بكساء ومعها فهر(٢) ففلقت به الصحفة، فجمع النبي ﷺ بين فلقتي الصحفة ويقول: «**كلوا، غارت أمكم**» مرتين، ثم أخذ رسول الله ﷺ صحفة عائشة فبعث بها إلى أم سلمة، وأعطى صحفة أم سلمة عائشة(٣).

وأخرج أبو يعلي الموصلي بإسناد حسن من حديث عائشة ﵂ قالت: أتيت النبي ﷺ بخزيرة قد طبختها له فقلت لسودة - والنبي ﷺ بيني وبينها -: كُلي. فأبت فقلت: لتأكلين أو لألطخن وجهك، فأبت فوضعت يدي في الخزيرة فطليت وجهها، فضحك النبي ﷺ فوضع بيده لها وقال لها: «**ألطخي وجهها**»، فضحك النبي ﷺ فمر عمر فقال: يا عبد الله يا عبد الله فظن أنه سيدخل فقال: «**قوما فاغسلا وجوهكما**». فقالت عائشة: فمازلت أهاب عمر لهيبة رسول الله ﷺ(٤).

ما أرى ربك إلا يسارع لك في هواك

عن عائشة ﵂ قالت: كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول: أتهب المرأة نفسها ؟ فلما أنزل الله تعالى :﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ﴾ [الأحزاب: الآية ٥١] .

قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك(٥).

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٢٢٥) في النكاح/ باب: الغيرة.
(٢) فِهر: أي حجر.
(٣) النسائي (٧/ ٧٠)
(٤) «مسند أبي يعلي» (٧/ ٤٤٩).
(٥) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٧٨٨) في تفسير القرآن/ باب: قوله ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾، ومسلم (١٤٦٤) في الرضاع/ باب: جواز هبتها نوبتها لضرتها، والنسائي في «المُجتَبي» (٣١٩٩) وفي «التفسير» (٤٣٤)، من رواية هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة به.
ومعنى ﴿تُرْجِى﴾: أي تُؤَخِّر، و﴿وَتُـْٔوِىٓ﴾: أي تُقَرِّب وتضم، وهذا تخيير للنبي ﷺ أن يتزوج =

فطنة وذكاء

عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما كانت ليلتي التي كان النبي ﷺ فيها عندي، انقلب فوضع رداءه، وخلع نعليه، فوضعهما عند رجليه وبسط طرف إزاره على فراشه فاضطجع فلم يلبث إلا ريثما[(١)] ظن أن قد رقدت، فأخذ رداءه رويدًا، وانتعل رويدًا، وفتح الباب فخرج ثم أجافه[(٢)] رويدًا ، فجعلت درعي في رأسي، واختمرت، وتقنعت إزاري، ثم انطلقت على إثره. حتى جاء البقيع فقام، فأطال القيام، ثم رفع يديه ثلاث مرات، ثم انحرف فانحرفت. فأسرع فأسرعت فهرول فهرولت، فأحضر فأحضرت[(٣)] ، فسبقته فدخلت. فليس إلا أن اضطجعت فدخل، فقال ﷺ: **«مالك ؟ يا عائش حَشْيَا رَابِيَةً[(٤)] ؟!»**. قالت:

قلت: لا شيء، قال: **«لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير»**.

قلت: يا رسول الله - بأبي أنت وأمي - فأخبرته، فقال: **«فأنت السواد الذي رأيت أمامي؟»** قلت: نعم، فلهذني (ضربني: بجمع الكف في الصدر) في صدري لَهْدَةً أوجعتني، ثم قال: **«أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله ؟»**، قالت: مهما يكتم الناس يعلمه الله، نعم. قال: **«فإن جبريل أتاني حين رأيت، فناداني فأخفاه منك، فأجبته. فأخفيته منك، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك، وظننت أن قد رقدت. فكرهت أن أوقظك، وخشيت أن تستوحشي، فقال: إن ربَكَ يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم»**. قالت: قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله ؟. قال: **«قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين**

= منهن من شاء ويترك من شاء، ويُمسك من شاء ويُفارق من شاء، ويقسم لمن شاء ويدع من شاء . . . إلخ.
وفي «فتح الباري» قال ابن حجر (٥/ ٣٨٦): «والمحفوظ أنه ﷺ لم يدخل بأحدٍ من الواهبات» اهـ. ومعنى قول عائشة: (ما أرى ربك إلا يسارع في هواك) أي: ما أرى الله إلا مُوجدًا لما تريد بلا تأخير، منزلاً لما تحب وتختار؛ قاله ابن حجر.

(١) ريثما: أي قدر ما.

(٢) أي: أغلقه. وفي «شرح مسلم»: (وإنما فعل ذلك ﷺ في خفية لئلا يوقظها ويخرج عنها، فربما لحقتها وحشة في انفرادها في ظلمة الليل) ا.هـ. وسيأتي ذلك في نص الرواية.

(٣) الإحضار: العدو. أي فعدا فعدوت، فهو فوق الهرولة. ا.هـ.

(٤) عائش: ترخيم عائشة، وحشيا: معناه قد وقع عليك الحشا، وهو الربو والتهييج الذي يعرض للمسرع في مشيه، والمحتد في كلامه، من ارتفاع النفس وتواتره، يقال: امرأة حشياء وحشية. ورجل حشيان وحشش. قيل: أصله من أصاب الربو حشاه. رابية أي: مرتفعة البطن ا.هـ.

والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون»[١].

فيا له من ذكاء... ويا لها من فطنة حينما علمت عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قد غضب فحوَّلت كلامها إلى سؤال بعيد عن سبب غضبه ﷺ. ألا فلتتعلم الأخت المؤمنة أنها إذا وجدت زوجها قد غضب من أمرٍ بعينه أن تحوِّل الكلام عن أمرٍ آخر حتى لا توغر صدره... وحتى تستمر الحياة ويسودها الحب والوئام والمودة والرحمة.

قصة العسل

وها هي حيلة ودعابة لطيفة قامت بها أمنا عائشة وسودة رضي الله عنهما.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يحب العسل والحلواء، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من إحداهن، فدخل على حفصة بنت عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما، فاحتبس عندها أكثر ما كان يحتبس فغِرت، فسألت عن ذلك فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عكة من عسل[٢] فسقت النبي ﷺ منه شربة. فقلت: أما والله لنحتالن له، فقلت لسودة بنت زمعة: إنه سيدنو منك، فإذا دنا منك فقولي له أكلت مغافير[٣]؟ فإنه سيقول لك لا. فقولي له: ما هذه الريح التي أجد منك؟ فإنه سيقول لك: سقتني حفصة شربة عسل، فقولي له: جرست نحلة العرفط[٤] وسأقول ذلك، وقولي أنت يا صفية ذاك. قالت: تقول سودة: فوالله ما هو إلا أن قام على الباب فأردت أن أبادئه بما أمرتني به فرقًا منك[٥]، فلما دنا منها قالت له سودة: يا رسول الله أكلت مغافير؟ قال: **«لا»**. قالت: فما هذه الريح التي أجد منك[٦]؟ قال: **«سقتني حفصة شربة عسل»**. فقالت: جرست نحلة العرفط، فلما دار إليَّ قلت له نحو ذلك، فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك، فلما دار إلى حفصة قالت: يا رسول الله ألا أسقيك منه؟ قال:

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٩٧٤) في الجنائز/ باب: ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، والنسائي (٣٩٧٣)

(٢) في «مختار الصحاح» (مادة/ عكك): العُكَّة بالضم آنية السَّمن.
وفي مقدمة «فتح الباري» - هدي الساري - (ص/ ١٦٧) فسَّرها ابن حجر بكونها: قِرْبة صغيرة.

(٣) واحدها: مغفور، وهو صمغ حُلو له رائحة كريهة. راجع: «فتح الباري» (٩/ ٢٩٠).

(٤) قال ابن قتيبة: هو نبات مُرٌ له ورقة عريضة وهو خبيث الرائحة.

(٥) أي: خوفًا منك.

(٦) زاد أبو أسامة: عن هشام عن أبيه عن عائشة: (وكان رسول الله ﷺ يشتدُّ عليه أن يُجَدَ منه الريح).

« **لا حاجة لي فيه** »، قالت: تقول سودة: والله [(١)] لقد حرمناه [(٢)]، قلت لها: اسكتي» [(٣)].

غيرة عائشة من خديجة رضي الله عنهما

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان رسول الله ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة ؟ فيقول: «**إنها كانت وكانت . . . وكان لي منها ولد**» [(٤)].

وعن عائشة رضي الله عنها أيضا - أنها قالت: «استئذنت هالة بنت خويلد - أخت خديجة على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة، فارتاع لذلك فقال: «**اللهم هالة**». قالت: فغرت. فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر، قد أبدلك الله خيرًا منها» [(٥)].

وعن عائشة رضي الله عنها أيضا - أنها قالت: ما غرت على نساء النبي ﷺ إلا على خديجة. وإني لم أدركها. قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة فيقول: «**أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة**». قالت: فأغضبته يومًا فقلت: خديجة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إني رُزقت حبها**» [(٦)].

قال الإمام الذهبي: قلت: وهذا من أعجب شيء [(٧)] أن تغار - رضى الله عنها - من

---

(١) زاد أبو أسامة في روايته: «قالت: تقول سودة: سبحان الله ! والله ! . . .».
(٢) حرمناه: أي منعناه منه.
(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٢٦٨) في الطلاق/ باب: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾، ومسلم (١٤٧٤) في الطلاق/ باب: وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق.
(٤) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٨١٨) في المناقب/ باب: تزويج النبي ﷺ خديجة، واللفظ له، ومسلم (٢٤٣٥) في فضائل الصحابة/ باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، بنحوه، وغيرهما.
وهو عند البخاري في مواضع راجعها عند (رقم/ ٣٨١٦).
(٥) رواه البخاري (٣٨٢١) في المناقب/ باب: تزويج النبي ﷺ خديجة، واللفظ له، ومسلم (٢٤٣٧) في فضائل الصحابة/ باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، وغيرهما.
(٦) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٤٣٥) في فضائل الصحابة/ باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها.
(٧) علق الشوكاني - رحمه الله - على هذا الموطن قال: سبب الغيرة ما كانت تسمعه من ثناء رسول الله ﷺ على خديجة، وتفخيمه لشأنها كما سبق في ترجمتها رضي الله عنها، فلا عجب إذن.

امرأة عجوز توفيت قبل تزوج النبي ﷺ بعائشة بمديدة، ثم يحميها الله من الغيرة من عدة نسوة يشاركنها في النبي ﷺ، فهذا من ألطاف الله بها وبالنبي ﷺ لئلا يتكدر عيشهما. ولعله إنما خفف أمر الغيرة عليها حب النبي ﷺ لها وميله إليها. فرضي الله عنها وأرضاها.

وعن عائشة قالت: دخلت امرأة سوداء على النبي ﷺ، فأقبل عليها. قالت: فقلت: يا رسول الله، أقبلت على هذه السوداء هذا الإقبال! فقال: «**إنها كانت تدخل على خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان**»[1].

إنها ابنة أبي بكر

عن عائشة رضي الله عنها قالت: أرسل أزواج رسول الله ﷺ فاطمة بنت رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ، فاستأذنت عليه وهو مضطجع معي في مِرطي، فأذن لها. فقالت: يا رسول الله! إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة[2]... وأنا ساكتة... قالت: فقال لها رسول الله ﷺ «**أي بنية! ألست تحبين ما أحب؟**» فقالت: بلى... قال: «**فأحبي هذه**»... قالت: فقامت فاطمة حين سمعت ذلك من رسول الله ﷺ فرجعت إلى أزواج النبي ﷺ فأخبرتهن بالذي قالت، وبالذي قال لها رسول الله ﷺ.

فقلن لها: ما نراك أغنيت عنا من شيء فارجعي إلى رسول الله ﷺ فقولي له: أن نساءك ينشدنك[3] العدل في ابنة أبي قحافة. فقالت فاطمة: والله لا أكلمه فيها أبدا... قالت عائشة رضي الله عنها: فأرسل أزواج النبي ﷺ زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ، وهي التي كانت تساميني منهن في المنزلة عند رسول الله ﷺ. ولم أر امرأة قط خيرًا في الدين من زينب. وأتقى لله عز وجل. وأصدق حديثا. وأوصل للرحم. وأعظم صدقة. وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدق به وتقرب به إلى الله تعالى. ما عدا سورة[4]

---

(1) رواه أحمد، وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات [السير (2/ 165)].

(2) قال الإمام النووي: قولها: (يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة) معناه: يسألنك التسوية بينهن في محبة القلب، وكان ﷺ يسوي بينهن في الأفعال والمبيت ونحوه، وأما محبة القلب فكان يحب عائشة أكثر منهن، وأجمع المسلمون على أن محبتهن لا تكليف فيها ولا يلزمه التسوية فيها لأنه لا قدرة لأحد عليها إلا الله - سبحانه وتعالى -، وإنما يؤمر بالعدل في الأفعال. [مسلم بشرح النووي (15/ 295)].

(3) أي: يسألنك.

(4) السَّوْرَةُ: الثوران وعجلة الغضب.

من حد[١] كانت فيها... تسرع منها الفيئة[٢].

فاستأذنت على رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ مع عائشة في مرطها، على الحالة التي دخلت فاطمة عليها وهو بها... فأذن لها رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله! إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة.

قالت[٣]: ثم وقعت بي... فاستطالت عليَّ. وأنا أرقب رسول الله ﷺ وأرقب طرفه هل يأذن لي فيها، قالت: فلم تبرح زينب حتى عرفت أن رسول الله ﷺ لا يكره أن أنتصر.

قالت: فلما وقعت بها لم أنشبها[٤] حين أنحيت عليها[٥] فقال رسول الله ﷺ وتبسم: **«إنها ابنة أبي بكر»**[٦].

عائشة ونساء النبي ﷺ

يخترن الله ورسوله والدار الآخرة

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «لم أزل حريصًا على أن أسأل عمر رضي الله عنه عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله لهما ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: الآية ٤]، فحججت معه، فعدل وعدلت معه بالإداوة، فتبرز، ثم جاء فسكبت على يديه من الإداوة فتوضأ. فقلت: يا أمير المؤمنين، من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله عز وجل لهما ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: الآية ٤] فقال: واعجبا

---

(١) هكذا في معظم النسخ: «سورة من حَدٍّ»، وفي بعضها: «مِن حِدَّةٍ» وهي: شدة الخُلُق وثورانه. انتهى من «حاشية مسلم».

(٢) أي: الرجوع، والمراد أنها تسارع إلى الرجوع إذا وقع شيء من حِدَّةٍ أو سرعة غضب.

(٣) يعني: عائشة رضي الله عنها، والمراد: أن زينب وقعت في عائشة رضي الله عنها، أي نالت منها، وعند البخاري (٢٥٨١): «فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة وهي قاعدة فَسَبَّتْهَا».

(٤) أي: لم أُمهلها.

(٥) أي: حين قَصدتها بالمعارضة، وفي بعض الروايات لمسلم، وغيره: «لم أَنْشَبْهَا أن أَثْخَنْتُها». أي: قمعتها وقهرتها وفي رواية البخاري «فتكلمت عائشة ترد على زينب حتى أسكتتها».

(٦) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٥٨١) في الهبة وفضلها والتحريض عليها/ باب: من أهدى إلى صاحبه وتحرى بعض نسائه دون بعض، ومسلم (٢٤٤٢) في فضائل الصحابة / باب: في فضل عائشة رضي الله تعالى عنها، وأحمد (٦/ ١٥٠-١٥١)، والنسائي (٣٩٥٦).

لك يا ابن عباس، عائشة وحفصة. ثم استقبل عمر الحديث يسوقه فقال: إني كنت وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد - وهي من عوالي المدينة - وكنا نتناوب النزول على النبي ﷺ، فينزل يومًا وأنزل يومًا، فإذا نزلت جئته من خبر ذلك اليوم من الأمر وغيره، وإذا نزل فعل مثله. وكنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذ هم قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار، فصحت على امرأتي، فراجعتني، فأنكرت أن تراجعني فقالت: ولِمَ تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل. فأفزعتني. فقلت: خابت من فعلت منهن بعظيم. ثم جمعت عليَّ ثيابي فدخلت على حفصة فقلت: أي حفصة، أتغاضب إحداكن رسول الله ﷺ اليوم حتى الليل ؟ فقالت: نعم. فقلت: خابت وخسرت. أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسوله فتهلكين ؟ لا تستكثري على رسول الله ﷺ، ولا تراجعيه في شيء، ولا تهجريه، وسليني ما بدا لك. ولا يغرنَّك أن كانت جارتك هي أوضأ منك وأحب إلى رسول الله ﷺ (يريد عائشة). وكنا تحدثنا أن غسان تنعل النعال لغزونا، فنزل صاحبي يوم نوبته، فرجع عشاء فضرب بابي ضربًا شديدًا وقال: أثَم هو ؟ ففزعت فخرجت إليه، وقال: حدث أمر عظيم، قلت: ما هو، أجاءت غسان ؟ قال: لا، بل أعظم منه وأطول، طلق رسول الله ﷺ نساءه قال: قد خابت حفصة وخسرت. كنت أظن أن هذا يوشك أن يكون فجمعت عليَّ ثيابي، فصليت صلاة الفجر مع النبي ﷺ فدخل مشربة له فاعتزل فيها. فدخلت على حفصة، فإذا هي تبكي. قلت ما يبكيك، أوَ لم أكن حذرتك ؟ أطلقكن رسول الله ﷺ ؟ قالت: لا أدري، هو ذا في المشربة. فخرجت فجئت المنبر، فإذا حوله رهط يبكي بعضهم، فجلست معهم قليلاً. ثم غلبني ما أجد فجئت المشربة التي هو فيها، فقلت لغلام له أسود: استأذن لعمر. فدخل فكلم النبي ﷺ، ثم خرج فقال: ذكرتك له فصمت. فانصرفت حتى جلست مع الرهط الذين عند المنبر. ثم غلبني ما أجد، فجئت - فذكر مثله - فجلست مع الرهط الذين عند المنبر. ثم غلبني ما أجد فجئت الغلام فقلت: استأذن لعمر فذكر مثله، فلما وليت منصرفًا فإذا الغلام يدعوني قال: أذن لك رسول الله ﷺ، فدخلت عليه، فإذا هو مضطجع على رمال حصير، ليس بينه وبينه فراش، قد أثر الرمال بجنبه، متكئ على وسادة من أدم حشوها ليف، فسلمت

عليه، ثم قلت وأنا قائم: طلقت نساءك؟ فرفع بصره إليَّ فقال: لا، ثم قلت وأنا قائم أستأنس: يا رسول الله، لو رأيتني وكنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على قوم تغلبهم نسائهم. . . فذكره. فتبسم النبي ﷺ ثم قلت: لو رأيتني ودخلت على حفصة فقلت لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوضأ منك وأحب إلى النبي ﷺ (يريد عائشة)، فتبسم أخرى. فجلست حين رأيته تبسم. ثم رفعت بصري في بيته، فوالله ما رأيت فيه شيئا يرد البصر غير أهبة ثلاث، فقلت: ادع الله فليوسع على أمتك، فإن فارس والروم وسع عليهم وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله. وكان متكئا فقال: «**أَوَ في شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عُجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا**». فقلت: يا رسول الله استغفر لي.

فاعتزل النبي ﷺ من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة إلى عائشة، وكان قد قال: ما أنا بداخل عليهن شهرًا، ومن شدة موجدته عليهن حين عاتبه الله. فلما مضت تسع وعشرون دخل على عائشة فبدأ بها، فقالت له عائشة: أنك أقسمت أن لا تدخل علينا شهرًا، وإنا أصبحنا بتسع وعشرين ليلة أعدها عدًّا، فقال النبي ﷺ: الشهر تسع وعشرون، وكان ذلك الشهر تسعًا وعشرين. قالت عائشة: فأُنزلت آية التخيير، فبدأ بي أول امرأة فقال: «**إني ذاكر لك أمرًا، ولا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك**». قالت: قد أعلم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقك -. ثم قال: إن الله قال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ - إلى قوله - ﴿عَظِيمًا﴾ قلت: أفي هذا أستأمر أبوي، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. ثم خَيّر نساءه. فقلن مثل ما قالت عائشة»[(١)].

وعن جابر بن عبد الله قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ فوجد الناس جلوسًا ببابه لم يؤذن لأحد منهم قال: فأذن لأبي بكر فدخل، ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له فوجد النبي ﷺ جالسًا حوله نساؤه واجمًا ساكتًا قال فقال: لأقولن شيئًا أضحك النبي ﷺ فقال: يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها؟ فضحك رسول الله ﷺ وقال: «**هن حولي كما ترى يسألنني النفقة**» فقام أبو بكر إلى عائشة

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٦٨) في المظالم والغضب/ باب: العزفة والعلية المشرفة وغير المشرفة، ومسلم (١٤٧٩) في الطلاق/ باب: في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن، والترمذي (٣٣١٨)، وأحمد (٢٢٢)، والنسائي مختصرًا.

يجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها كلاهما يقول: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئا أبدا ليس عنده. ثم اعتزلهن شهرًا أو تسع وعشرين ثم نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ - حتى بلغ - ﴿لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ قال فبدأ بعائشة فقال: «**يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمرًا أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك**» قالت: وما هو يا رسول الله ﷺ فتلا عليها الآية قالت أفيك يا رسول الله أستشير أبوي ؟! بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت قال: «**لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها. إن الله لم يبعثني معنتًا ولا متعنتًا، ولكن بعثني معلمًا ميسرًا**»(١).

قلوب ترتفع إلى هذا الأفق السامي

وفي حادث التخيير نقف أمام الرغبة الطبيعية في نفوس نساء النبي ﷺ في المتاع؛ كما نقف أمام صورة الحياة البيتية للنبي ﷺ ونسائه - رضي الله عنهن - وهن أزواج يراجعن زوجهن في أمر النفقة ! فيؤذيه هذا، ولكنه لا يقبل من أبي بكر وعمر ﵄ أن يضربا عائشة وحفصة على هذه المراجعة. فالمسألة مسألة مشاعر وميول بشرية، تُصفى وتُرفع، ولكنها لا تخمد ولا تكبت ! ويظل الأمر كذلك حتى يأتيه أمر الله بتخيير نسائه. فيخترن الله ورسوله والدار الآخرة، اختيارًا لا إكراه فيه ولا كبت ولا ضغط، فيفرح قلب رسول الله ﷺ بارتفاع قلوب أزواجه إلى هذا الأفق السامي الوضيء.

ونقف كذلك أمام تلك العاطفة البشرية الحلوة في قلب رسول الله ﷺ وهو يحب عائشة حبًا ظاهرًا؛ ويحب لها أن ترتفع إلى مستوى القيم التي يريدها الله له ولأهل بيته فيبدأ بها في التخيير؛ ويريد أن يساعدها على الارتفاع والتجرد؛ فيطلب إليها ألا تعجل في الأمر حتى تستشير أبويها - وقد علم أنهما لم يكونا يأمرانها بفراقه كما قالت - وهذه العاطفة الحلوة في قلب النبي ﷺ لا تخطئ عائشة ﵂ من جانبها في إدراكها؛ فتسرها وتحفل بتسجيلها في حديثها.

ومن خلال هذا الحديث يبدو النبي ﷺ إنسانًا يحب زوجه الصغيرة، فيحب لها أن ترتفع

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٧٨) في الطلاق/ باب: بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقًا إلا بالنية، وأحمد (٣/ ٣٢٨)، والبيهقي (٧/ ٣٨).

إلى أفقه الذي يعيش فيه؛ وتبقى معه على هذا الأفق، تشاركه الشعور بالقيم الأصيلة في حسه، والتي يريدها له ربه ولأهل بيته. كذلك تبدو عائشة رضي الله عنها.

إنسانة يسرها أن تكون مكينة في قلب زوجها؛ فتسجل بفرح حرصه عليها، وحبه لها، ورغبته في أن تستعين بأبويها على اختيار الأفق الأعلى فتبقى معه على هذا الأفق الوضيء. ثم نلمح الأنثوية كذلك، وهي تطلب إليه ألا يخبر أزواجه الأخريات أنها اختارته حين يخبرهن! وما في هذا الطلب من رغبة في أن يظهر تفردها في هذا الاختيار، وميزتها على بقية نسائه، أو على بعضهن في هذا المقام!

وهنا نلمح عظمة النبوة من جانب آخر في رد رسول الله ﷺ وهو يقول لها: «**إن الله تعالى لم يبعثني معنفًا، ولكن بعثني معلمًا ميسرًا. لا تسألني واحدة منهن عما اخترت إلا أخبرتها**» .. فهو لا يود أن يحجب عن إحدى نسائه ما قد يعينها على الخير؛ ولا يمتحنها امتحان التعمية والتعسير؛ بل يقدم العون لكل من تريد العون. كي ترتفع على نفسها، وتتخلص من جواذب الأرض ومغريات المتاع!

هذه الملامح البشرية العزيزة ينبغي لنا - ونحن نعرض السيرة - ألا نطمسها، وألا نهملها، وألا نقلل من قيمتها. فإدراكها على حقيقتها هو الذي يربط بيننا وبين شخصية الرسول ﷺ وشخصيات أصحابه - رضي الله عنهم - برباط حي، فيه من التعاطف والتجاوب ما يستجيش القلب إلى التأسي العملي والاقتداء الواقعي.

مكانتها في قلب النبي ﷺ

لقد كانت عائشة رضي الله عنها تحتل مكانة عالية في قلب الحبيب ﷺ. يقول الإمام الذهبي عن مكانتها ومنزلتها عند النبي ﷺ:

فما تزوج بكرًا سواها، وأحبها حبًا شديدًا كان يتظاهر به، بحيث إن عمرو ابن العاص، وهو ممن أسلم سنة ثمانٍ من الهجرة، سأل النبي ﷺ: أي الناس أحب إليك يا رسول الله؟ قال: «**عائشة**» قال: فمن الرجال؟ قال: «**أبوها**»[١].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٩/٧) (٣٦٦٢) في المناقب/ باب: قول النبي ﷺ: لو كنت متخذًا خليلًا، ومسلم (٢٣٨٤) في فضائل الصحابة/ باب: من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وهذا خبر ثابت على رغم أنوف الروافض، وما كان ﷺ ليحب إلا طيبًا. وقد قال: **«لو كنت متخذًا خليلاً من هذه الأمة، لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام أفضل»** فأحب أفضل رجل من أمته وأفضل امرأة من أمته، فمن أبغض حبيبي رسول الله ﷺ، فهو حري أن يكون بغيضًا إلى الله ورسوله.

وحبه ﷺ لعائشة كان أمرًا مستفيضًا، ألا تراهم كيف كانوا يتحرون بهداياهم يومها تقربًا إلى مرضاته(١).

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قلت - يا رسول الله، مَنْ مِنْ أزواجك في الجنة ؟ قال: **«أما إنك منهن»** قالت: فخُيل إليَّ أن ذاك لأنه لم يتزوج بكرًا غيري(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قلت: يا رسول الله، من أحب الناس إليك ؟ قال: **«ولِمَ ؟»** قلت: لأحب ما تحب، قال: **«عائشة»**(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا أبكي فقال: **«ما يبكيك؟»** قلت: سبتني فاطمة فدعا فاطمة فقال: **«يا فاطمة سبيت عائشة ؟»** قالت: نعم يا رسول الله، قال: **«أليس تحبين من أحب ؟»** قالت: نعم قال: **«وتبغضين من أبغض ؟»** قالت: بلى، قال: **«فإني أحب عائشة فأحبيها»** قالت فاطمة: لا أقول لعائشة شيئًا يؤذيها أبدًا(٤).

وعن عمرو بن الحارث بن المصطلق قال: بعث زياد إلى أزواج النبي ﷺ بمال وفضَّل عائشة، فجعل الرسول يعتذر إلى أم سلمة فقالت: يعتذر إلينا زياد فقد كان يفضلها من كان أعظم علينا تفضيلاً من زياد (رسول الله ﷺ)(٥).

وعن عائشة -رضي الله عنها -، قالت: كنت أشرب وأنا حائض ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فيَّ فيشرب وأتعرق العرق وأنا حائض ثم أناوله النبي ﷺ فيضع

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ١٤٢).
(٢) أخرجه الحاكم (١٣/٤)، وصححه، ووافقه الذهبي.
(٣) قال الهيثمي في «المجمع» (١٥٣٠٩): رواه الطبراني، وإسناده حسن.
(٤) قال الهيثمي في «المجمع» (١٥٣١١): رواه أبو يعلي والبزار باختصار وفيه: مجالد وهو حسن الحديث وبقية رجاله رجال الصحيح.
(٥) قال الهيثمي في «المجمع» (١٥٣١٤): رواه الطبراني في «الأوسط»، وإسناده حسن.

فاه على موضع فيَّ(١).

وعن أبي موسى أن النبي ﷺ قال: «**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران(٢)، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**»(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ ذكر فاطمة رضي الله عنها قالت: فتكلمت أنا فقال: «**أما ترضين أن تكوني زوجتي في الدنيا والآخرة**» قلت: بلى والله قال: «**فأنت زوجتي في الدنيا والآخرة**»(٤).

وعن أبي عثمان أن رسول الله ﷺ بعث عمرو بن العاص على جيش ذات السلاسل قال: فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك ؟ قال: «**عائشة**». قلت: من الرجال ؟ قال: «**أبوها**» قلت ثم من ؟ قال عمرو. فعَدّ رجالاً فسكتُّ مخافة أن يجعلني في آخرهم(٥).

وعن عائشة قالت: دخل عليّ النبي ﷺ بأسير فلهوت عنه فذهب فجاء النبي ﷺ فقال: «**ما فعل الأسير ؟**» قالت: لهوت عنه مع النسوة فخرج. فقال: «**مالك؟ قطع الله يدك أو يديك**» فخرج فآذن به الناس فطلبوه فجاءوا به فدخل عليَّ وأنا أقلب يدي فقال: «**مالك أجننت ؟**» قلت: دعوت عليَّ فأنا أقلب يدي أنظر أيهما يقطعان، فحمد الله وأثنى عليه ورفع يديه مدًّا وقال: «**اللهم إني بشر أغضب كما يغضب البشر فأيما مؤمن أو مؤمنة دعوت عليه فاجعله له زكاة وطهورًا**»(٦).

وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا خرج أقرع بين نسائه فطارت القرعة على

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٣٠٠) في الحيض/ باب: جواز غسل الحائض رأس زوجها وترجيله.

(٢) زاد ابن مردويه من حديث قرة بن إياس مرفوعًا: «وخديجة بنت خويلد» وإسناده صحيح كما قال ابن كثير في «البداية» (٣/ ١٢٩).

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٤١١) في أحاديث الأنبياء/ باب: قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم: الآية ١١] إلى قوله: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾، ومسلم (٢٤٣١) في فضائل الصحابة/ باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، والترمذي (١٨٣٤)، وابن ماجه (٣٢٨٠)، وأحمد.

(٤) أخرجه الحاكم (٤/ ١٠) وقال: الحديث صحيح ولم يُخرجاه ووافقه الذهبي - وهو صحيح لشواهده -.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) رواه أحمد (٦/ ٥٢) وإسناده صحيح.

عائشة وحفصة فخرجتا معه جميعًا، وكان رسول الله ﷺ إذا كان بالليل سار مع عائشة يتحدث معها فقالت حفصة لعائشة: ألا تركبين الليلة بعيري وأركب بعيرك فتنظرين وأنظر؟ قالت: بلى فركبت عائشة على بعير حفصة، وركبت حفصة على بعير عائشة فجاء رسول الله ﷺ إلى جمل عائشة وعليه حفصة فسلم ثم سار معها حتى نزلوا فافتقدته عائشة فغارت، فلما نزلوا جعلت رجلها بين الإذخر وتقول: يا رب سلِّط عليَّ عقربًا أو حية تلدغني. رسولك ولا أستطيع أن أقول له شيئا [(١)].

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ ذكر أن يعتكف العشر الأواخر من رمضان فاستأذنته عائشة فأذن لها، وسألت حفصة عائشة أن تستأذن لها [(٢)] ففعلت فلما رأت ذلك زينب بنت جحش أمرت ببناء فبُني لها. قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا صلى انصرف إلى بنائه فبصر بالأبنية فقال: ما هذا ؟ قالوا: بناء عائشة وحفصة وزينب فقال رسول الله ﷺ: **«آلْبِر أردن بهذا ؟! ما أنا بمعتكف، فرجع فلما أفطر اعتكف عشرًا من شوال»** [(٣)].

ما أهجر إلا اسمك

ويا لها من صفحة مباركة ترسم لنا أدب الصدِّيقة بنت الصدِّيق

وتوضح لنا مدى حُبها للحبيب ﷺ.

عن عائشة، قالت: قال لي رسول الله ﷺ: **«إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت عليَّ غَضْبَى»** قالت: فقلت: ومن أين تعرف ذلك ؟ فقال: **«أما إذا كنت عني راضية، فإنك تقولين: لا. ورب محمد ! وإذا كنت غضبى، قلت: لا. ورب إبراهيم !»** قالت: قلت: أجل. والله يا رسول الله ! ما أهجر إلا اسمك [(٤)(٥)].

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٤٤٥) في فضائل الصحابة/ باب: في فضل عائشة رضي الله تعالى عنها.

(٢) فيه فضيلة لعائشة من جهة أن حفصة سألتها أن تستأذن لها، وذلك يشعر بمكانتها عند رسول الله ﷺ.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٢٠٤٥) في الاعتكاف/ باب: من أراد أن يعتكف ثم بدا له أن يخرج، وأحمد (٦/٨٤).

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢٢٨) في النكاح/ باب: غيرة النساء ووجدهن، ومسلم (٨٠) (٢٤٣٩) في فضائل الصحابة/ باب: في فضل عائشة رضي الله تعالى عنها.

(٥) قال الإمام النووي: قوله ﷺ لعائشة: **«إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت علي غضبى»** إلى قولها يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك» قال القاضي: مغاضبة عائشة للنبي ﷺ هي مما =

جبريل يُقرئ عائشة السلام

وها هي منقبة عظيمة تُضاف إلى مناقبها الغزيرة... فلقد سلَّم عليها جبريل (عليه السلام) فيا لها من منزلة سامية.

عن ابن شهاب قال أبو سلمة: إن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ يومًا: «**يا عائشُ هذا جبريل يقرئك السلام**». فقلت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته. ترى مالا أرى، تريد رسول الله ﷺ [(١)].

نزول الوحي

على رسول الله ﷺ في لحاف عائشة

عن هشام عن أبيه قال: كان الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة قالت عائشة: فاجتمع صواحبي إلى أم سلمة فقلن يا أم سلمة، والله إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة وإنا نريد الخير كما تريده عائشة، فمري رسول الله ﷺ أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيث كان، أو حيث دار. قالت: فذكرت ذلك أم سلمة للنبي ﷺ قالت: فأعرض عني، فلما عاد إليَّ ذكرت له ذاك فأعرض عني، فلما كان في الثالثة ذكرت له فقال: «**يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة فإنه والله ما نزل عليَّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها**» [(٢)].

= سبق من الغيرة التي عُفي عنها للنساء في كثير من الأحكام كما سبق لعدم انفكاكهن منها حتى قال مالك وغيره من علماء المدينة يسقط عنها الحد إذا قذفت زوجها بالفاحشة على جهة الغيرة، قال: واحتج بما روى عن النبي ﷺ أنه قال: «ما تدري الغيراء أعلى الوادي من أسفله» ولولا ذلك لكان على عائشة في ذلك من الحرج ما فيه لأن الغضب على النبي ﷺ وهجره كبيرة عظيمة ولهذا قالت: لا أهجر إلا اسمك فدل على أن قلبها وحبها كما كان وإنما الغيرة في النساء لفرط المحبة. [مسلم بشرح النووي (١٥/ ٢٩٢ - ٢٩٣)].

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٧٦٨) في المناقب/ باب: فضل عائشة رضي الله عنها، ومسلم (٢٤٤٧) في فضائل الصحابة/ باب: في فضل عائشة رضي الله عنها، والترمذي (٣٣٨٨١).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٧٧٥) في المناقب/ باب: فضل عائشة رضي الله تعالى عنها، والترمذي (٣٨٧٩).

خلال لم تكن لأحد غيرها

وعن عائشة قالت: خلال فيَّ سبع لم تكن في أحد من النساء إلا ما آتى الله مريم بنت عمران والله ما أقول هذا فخرًا على أحد من صواحبي، فقال لها عبد الله بن صفوان: وما هن يا أم المؤمنين ؟ قالت: نزل الملك بصورتي، وتزوجني رسول الله ﷺ لسبع سنين، وأُهديت إليه لتسع سنين، وتزوجني بكرًا، ولم يشركه فيَّ أحد من الناس، وكان الوحي يأتيه وأنا وهو في لحاف واحد.

قالت: وكنت أحب الناس إليه، وبنت أحب الناس إليه وقد نزل فيَّ آيات من القرآن وقد كادت الأمة تهلك فيَّ، ورأيت جبريل ولم يره أحد من نسائه غيري وقُبض في بيتي ولم يله أحد غيري وقوي الملك(١).

وعن عبد الرحمن بن الضحاك أن عبد الله بن صفوان أتى عائشة، فقالت: لي خلال تسع، لم تكن لأحد، إلا ما آتى الله مريم - عليها السلام -. والله ما أقول هذا فخرًا على صواحباتي، فقال ابن صفوان: وما هن ؟ قالت: جاء الملك بصورتي إلى رسول الله، فتزوجني؛ وتزوجني بكرًا؛ وكان يأتيه الوحي، وأنا وهو في لحاف واحد؛ وكنت من أحب الناس إليه، ونزل فيَّ آيات كادت الأمة تهلك فيها؛ ورأيت جبريل - ولم يره أحد من نسائه غيري - وقبض في بيتي، ولم يله أحد - غير الملك - إلا أنا(٢).

زهد عائشة رضي الله عنها وإنفاقها

لقد نشأت عائشة في بيت أبيها الصدِّيق رضي الله عنه فتعلمت الزهد منه... نعم والله فهو الذي جعل ماله كله لله ولم يتعلق قلبه لحظة واحدة بحطام الدنيا الزائل.

فلما تزوجها رسول الله ﷺ - سيد الزاهدين - بلغت عنده درجة الكمال في الزهد لأنها كانت ترى الزهد في حياة النبي ﷺ في كل لحظة ورأت بعينيها كيف ترك رسول الله ﷺ زهرة الحياة الدنيا واختار ما عند الله .

---

(١) قال الهيثمي في «المجمع» (١٥٣٠٨): قلت: هو في الصحيح باختصار. رواه الطبراني، ورجال أحد أسانيد الطبراني رجال الصحيح.

(٢) أخرجه الحاكم (١٠/٤) وصححه ووافقه الذهبي.

ولقد عُرضت على نبينا محمد ﷺ مفاتيحها وخزائنها[(١)]، لا ينقصه عند الله جناح بعوضه، فأبى أن يقبلها، وكره أن يحب ما أبغض خالقه، أو يرفع ما وضع مليكه، زواها الله عن الصالحين اختيارًا، وبسطها لأعدائه اغترارًا، أفيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أُكرم بها ؟ ونسي ما صنع الله بمحمد ﷺ حين شد على بطنه الحجر، والله ما أحد من الناس بسط له في الدنيا، فلم يخف أن يكون قد مُكر به إلا كان قد نقص عقله، وعجز رأيه وما أمسك عن عبد فلم يظن أن قد خير له فيها، إلا كان قد نقص عقله وعجز رأيه[(٢)].

وعن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «**لو كان لي مثل أُحُدٍ ذَهَبًا، لَسرَّني ألا تَمُرَّ عَلَي ثَلاثُ لَيَالٍ وَعِنِدي منه شَيءٌ إلا شَيئًا أُرْصُدهُ لِدَينٍ**»[(٣)].

وعن عائشة ﷺ، قالت: تُوفِّيَ رسولُ الله ﷺ، وما في بَيْتي مِنْ شيء يأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إلَّا شَطْرُ شَعيرٍ في رَفٍّ لي، فأَكَلْتُ مِنْهُ حَتَّى طَال علَيَّ، فَكِلته فَفَنِيَ[(٤)].

وعن عمرو بنِ الحارِث أخي جُوَيْرِية بنْت الحَارث أُمِّ المُؤمِنينَ ﷺ، قال: مَا تَرَكَ رسولُ الله ﷺ، عِنْدَ مَوْتِهِ دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا، ولا عَبْدًا، وَلا أَمَةً، وَلا شَيْئًا إلَّا بَغْلَتَهُ الْبَيْضَاءَ الَّتي كَان يَرْكَبُهَا، وَسِلاحُهُ، وَأَرْضًا جَعَلَهَا لابنِ السَّبِيلِ صَدَقَةً[(٥)].

وعن عبد الله بن مَسْعُودٍ ﷺ، قال: نَامَ رسولُ الله ﷺ على حَصيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ في جَنْبِهِ، فقُلْنَا: يا رَسُولَ الله لو اتَّخَذْنَا لكَ وطَاءً، فقال: « **مَا لي وما لِلدُّنْيَا؟ مَا أنَا في**

---

(١) والحديث عن أبي مويهبة في حديث خروج النبي ﷺ في المرض الذي توفي فيه واستغفاره لأهل البقيع وفيه: «**إني أعطيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة . . .**» والحديث أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٤٨٩)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٥٥-٥٦) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ١٦٢-١٦٣)، والدارمي في «سننه» (١/ ٧٨) وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٢٤): رواه أحمد والطبراني بإسنادين ورجال أحدهما صحيح.

(٢) «مختصر منهاج القاصدين» (ص: ٢٣٧-٢٣٨).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٣٨٩) في الاستقراض/ باب: أداء الدين، ومسلم (٩٩١) في الزكاة/ باب: تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة.

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٥١) في الرقاق/ باب: فضل الفقر، ومسلم (٢٩٧٣) في الزهد والرقائق.

شطر شعير: أي شيء من شعير.

(٥) صحيح: أخرجه البخاري (٤٤٦١) في المغازي/ باب: مرض النبي ﷺ ووفاته.

الدُّنْيا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»[(١)].

وعن عائشةَ رضي الله عنها، قالت: ما شَبِعَ آلُ مُحمَّدٍ ﷺ مِنْ خُبْزِ شَعِيرٍ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ حَتَّى قُبِضَ[(٢)].

وفي رواية: مَا شَبِعَ آلُ مُحمَّد ﷺ مُنْذ قَدِمَ المَدِينةَ مِنْ طَعامِ البُرِّ ثَلاثَ لَيَال تِباعًا حَتَّى قُبِض.

وعن عُرْوَةَ عَنْ عائشة رضي الله عنها، أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ: وَالله يا ابنَ أُخْتِي إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إلى الهِلالِ ثُمَّ الهِلالِ ثلاثَ أهِلَّةٍ في شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَت في أَبْيَاتِ رسولِ الله ﷺ نارٌ. فقُلْتُ: يَا خَالَةُ فَمَا كَانَ يُعيِّشُكُمْ؟ قالتْ: الأَسْوَدَانِ: التَّمْرُ وَالمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لرسول الله ﷺ جِيرانٌ مِنَ الأَنْصَارِ كَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ وَكَانُوا يمنحون إلى رسول الله مِنْ أَلبانها فَيَسْقِينَا[(٣)].

وعن جابر رضي الله عنه قال: لمَّا حفر رسول الله ﷺ الخندق، أصابهم جهدٌ شديد، حتى ربط النبيُّ ﷺ على بطنه حجرًا من الجوع[(٤)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلتْ عليَّ امرأةٌ من الأنصار، فرأت فراشَ رسول الله ﷺ عباءة مثنيَّة، فرجعت إلى منزلها، فبعثت إليَّ بفراش حشوهُ الصوفُ، فدخل عليّ رسول الله ﷺ، فقال: «**ما هذا؟**» فقلتُ: فلانةٌ الأنصارية دخلت عليّ، فرأت فراشك، فبعثت إليّ بهذا. فقال: «**رُدّيه**» فلم أردّه، وأعجبني أن يكون في بيتي، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فقال: «**يا عائشة، رُدِّيه، واللهِ لو شئت، لأجرى اللهُ معي جبال الذهبِ والفضة**»[(٥)].

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٧٧) في الزهد/ باب: ما جاء في أخذ المال بحقه، وابن ماجه (٤١٠٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٥٦٦٨)، و«السلسلة الصحيحة» (٤٣٨) و«صحيح سنن الترمذي» (١٩٣٦).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٤١٦) بنحوه، في الأطعمة/ باب: ما كان النبي ﷺ وأصحابه يأكلون، ومسلم (٢٩٧٠) في الزهد والرقائق.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٢٥٦٧) في الهبة/ باب: من استوهب من أصحابه شيئًا، ومسلم (٢٩٧٢) في الزهد والرقائق.

(٤) أخرجه أحمد في «المسند» بإسنادٍ صحيح.

(٥) رواه الإمام أحمد بإسنادٍ صحيح.

فلما تعايشت بقلبها وجوارحها مع زهد أبيها ﷺ وزهد زوجها الحبيب ﷺ كانت حياتها كلها صفحة ناصعة من الزهد في متاع الدنيا وزينتها وأصبح قلبها لا يتطلع إلا إلى رضوان الله عز وجل وجنته.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما شبعت بعد النبي ﷺ من طعام إلا ولو شئت أن أبكي لبكيت وما شبع آل محمد ﷺ حتى قُبض.

وعن عروة عن عائشة رضي الله عنها قال: رأيتها تقسم سبعين ألفًا وهي ترقع درعها(١).

وعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: ما رأيت امرأتين قطُّ أجود من عائشة وأسماء، وجودُهما مختلف: أما عائشة فكانت تجمع الشيء حتى إذا اجتمع عندها قسمت، وأما أسماء فكانت لا تمسك شيئًا لغد(٢).

وعن عروة قال: كانت عائشة رضي الله عنها لا تمسك شيئًا مما جاءها من رزق الله تعالى إلا تصدقت به(٣).

وقال عروة: بعث معاوية مرة إلى عائشة بمائة ألف درهم، فقسمتها، لم تترك منها شيئًا، فقالت بريرة: أنت صائمة، فهلا ابتعت لنا منها بدرهم لحمًا قالت: لو ذكرتني لفعلت(٤)، وعنه أيضًا قال: وإن عائشة تصدقت بسبعين ألف درهم، وإنها لترقع جانب درعها - رضي الله تعالى عنها -(٥).

وعن محمد بن المنكدر عن أم ذرة وكانت تغشى عائشة رضي الله عنها قالت: بعث إليها ابن الزبير بمال في غرارتين، قالت: أراه ثمانين ومائة ألف، فدعت بطبق، وهي صائمة يومئذ، فجلست تقسمه بين الناس، فأمست وما عندها من ذلك درهم، فلما أمست قالت: يا جارية هلمي فطوري، فجاءتها بخبز وزيت، فقالت لها أم ذرة: أما استطعت مما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحمًا نفطر عليه ؟ فقالت: لا تعنفيني، لو كنت

(١) الزهد/ للإمام أحمد (ص: ٢٠٥-٢٠٦).
(٢) أحكام النساء/ لابن الجوزي (ص: ١٢٥).
(٣) السمط الثمين (ص: ٨٨).
(٤) أخرجه أبو نعيم «الحلية» (٢/٤٧)، والحاكم (٤/١٣).
(٥) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٨/٤٥).

أذكرتني لفعلت[1].

وعن ابن يمن المكي قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها وعليها درع قطري ثمنه خمسة دراهم، فقالت: ارفع بصرك إلى جاريتي، فانظر إليها، فإنها تزهى[2] أن تلبسه في البيت، وقد كان منهن درع على عهد رسول الله ﷺ فما كانت امرأة تُقيَّن[3] في المدينة إلا أرسلت إليَّ تستعيره[4].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءتني امرأة معها ابنتان تسألني فلم تجد عندي غير تمرة واحدة فأعطيتها فقسمتها بين ابنتيها ثم قامت فخرجت، فدخل النبي ﷺ فحدثته فقال: «**من يلي من هذه البنات شيئًا فأحسن إليهن كن له سترًا من النار**»[5].

وفي رواية لمسلم[6] من حديث عائشة قالت: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها فأطعمتها ثلاث تمرات فأعطت كل واحدة منهما تمرة ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها فاستطعمتها ابنتاها فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها فذكرت الذي صنعت لرسول الله ﷺ فقال: «**إن الله قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النار**».

فيا لها من صفحة غالية من زهدها تعجز الكلمات عن وصفها بل وتتوارى منها خجلًا وحياءً لأن الكلمات كلها لو اجتمعت فلن نستطيع أن نعبر بها عن عظمة تلك الصفحة التي سطَّرتها أمنا عائشة رضي الله عنها على جبين التاريخ بسطورٍ من النور.

الصائمة العابدة

فقهت المرأة المسلمة عن الله أمره، وتدبرت في حقيقة الدنيا، ومصيرها إلى

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٤٦/٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤٧/٢)، ورجاله ثقات.
(٢) تزهى أن تلبسه في البيت: أي تترفع عنه، ولا ترضاه.
(٣) تقين بالمدينة: أي تُزين لزفافها - والتقين: التزين.
(٤) السمط السمين (ص: ٨٧) - والحديث أخرجه البخاري (٥/ ٢٤١-٢٤٢).
(٥) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٩٩٥) في الأدب/ باب: رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، ومسلم (٢٦٢٩) في البر والصلة والأدب/ باب: فضل الإحسان إلى البنات.
(٦) **صحيح**: رواه مسلم في البر والصلة والأدب/ باب: فضل الإحسان إلى البنات.

الآخرة، فاستوحشت من فتنتها، وتجافى جنبها عن مضجعها، وتناءى قلبها من المطامع، وارتفعت همتها عن السفاسف، فلا تراها إلا صائمة قائمة، باكية والهة، وحفل التاريخ بالخيِّرات الصالحات اللواتي نهجن طريق الزهد عن فرط علم، ورسوخ عقيدة، لا عن حماقة وجهالة كما تجد في كثير ممن عُرفن بالنسك والتصوف من أشتات البلاد (١).

ويتصدر هؤلاء العابدات نساء الصحابة - رضي الله عنهم وعنهن -، ويتصدر نساء الصحابة أمهات المؤمنين وآل بيت النبي ﷺ، وعلى رأس هؤلاء: أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما.

قال القاسم: كانت عائشة تصوم الدهر (٢).

وعن عروة أن عائشة رضي الله عنها كانت تسرد الصوم، وعن القاسم أنها كانت تصوم الدهر، لا تفطر إلا يوم أضحى أو يوم فطر.

وعنه قال: كنت إذا غدوت أبدأ ببيت عائشة رضي الله عنها، فأسلم عليها، فغدوت يومًا، فإذا هي قائمة تسبح، وتقرأ: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الطور: الآية ٢٧]، وتدعو، وتبكي، وترددها، فقمت حتى مللت القيام، فذهبت إلى السوق لحاجتي، ثم رجعت، فإذا هي قائمة كما هي تصلي وتبكي (٣).

إن هذا أمر كتبه الله على بنات آدم

ولقد كانت رضي الله عنها حريصة كل الحرص على ألا يفوتها أي طاعة تتقرب بها إلى الله عز وجل.

عن جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام رضي الله عنهما قال: أقبلنا مهلين بالحج، وأقبلت عائشة رضي الله عنها، فدخل رسول الله ﷺ فوجدها تبكي، فقال: «**ما يبكيك ؟**» قالت: شأني أني قد حضت. . . قال: «**إن هذا أمر كتبه الله على بنات آدم، فاغتسلي ثم أهلي بالحج**».

(١) عودة الحجاب/ الشيخ الحبيب: محمد إسماعيل (٢/ ٦٠٠).

(٢) أخرجه ابن سعد (٨/٤٧)، ورجاله ثقات، والمعنى أنها كانت تصوم غير الأيام المنهي عنها كالعيدين وأيام التشريق، والحيض.

(٣) «السمط الثمين» (ص: ٩٠).

ففعلت ووقفت المواقف كلها، حتى إذا طهرت طافت بالكعبة وبالصفا والمروة. ثم قال: «**قد حللت من حجك وعمرتك جميعًا**». فقالت: يا رسول الله إني لأجد في نفسي أني لم أطف بالبيت حتى حججت وكان رسول الله ﷺ رجلًا سهلًا، إذا هويت الشيء تابعها عليه - فأرسلها مع عبد الرحمن (عبد الرحمن بن أبي بكر أخي عائشة) فأهلت بعمرة من التنعيم[١].

جهادكن الحج

وبلغ حرصها على كل ما يقربها من الله عز وجل أن استأذنت من الرسول ﷺ لكي يأذن لها بالجهاد في سبيل الله - من كثرة ما سمعت عن فضائل الجهاد والمجاهدين -.

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: استأذنت النبي ﷺ في الجهاد فقال: «**جهادكن الحج**»[٢].

وفي رواية عن عائشة رضي الله عنها: سأله نساؤه عن الجهاد فقال: «**نعم الجهاد الحج**»[٣].

وفي لفظ ثالث عنها رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله، نرى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد ؟ قال: «**لا، لكن أفضل الجهاد حج مبرور**»[٤].

وعلى الرغم من ذلك كانت تصر على أن تشارك المجاهدين في أرض الشرف والجهاد وأن تبذل ما في وسعها لنُصرة هذا الدين العظيم.

صفحة من أرض الشرف والجهاد

من البركات التي تُضم إلى سيرة أم المؤمنين عائشة؛ تلك الصفحات ذات الأريج المعطار التي خطتها في ساحات الجهاد مع رسول الله ﷺ.

ومما يدعو إلى الوقوف وقفة إعجاب، أن أمنا عائشة كانت تشارك في الجهاد كأي امرأة دون تمييز، وذلك ضمن الحدود التي وضعها الشرع من سقاية الماء، وتمريض الجرحى، وإعداد الطعام...

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٢١١) في الحج/ باب: بيان وجوه الإحرام وأنه يجوز إفراد الحج.
(٢) صحيح: رواه البخاري (٢٨٧٥) في الجهاد والسير/ باب: جهاد النساء.
(٣) صحيح: رواه البخاري (٢٨٧٦) في الجهاد والسير/ باب: جهاد النساء.
(٤) صحيح: رواه البخاري (١٥٢٠) في الحج/ باب: فضل الحج المبرور.

ففي أُحُد كانت عائشة ﵂ تشارك في حمل الماء على عاتقها لسقاية المجاهدين، وكانت ما تزال صغيرة السن، ولكنها شاركت للمرة الأولى في هذه الغزوة؛ . . . روى سيدنا أنس بن مالك ﵁ مهمة أم المؤمنين في هذه الغزوة فقال:

ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر، وأم سليم، وإنهما لمشمرتان؛ أرى خدم - خلخال - سوقهما، تنقلان القرب على متونهما ثم تفرغانه في أفواههم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان تفرغانه في أفواه القوم(١).

وفي غزوة الخندق، كانت لأم المؤمنين عائشة ﵂ شجاعة نادرة وجرأة مشهورة، حتى إن سيدنا عمر بن الخطاب أنكر جرأتها لما رآها تقترب من الصفوف الأولى للمجاهدين، وقد تحدثت عائشة عن هذا فقالت: خرجت يوم الخندق أقفو الناس، فسمعت وئيد الأرض ورائي، فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مجنة، فجلست إلى الأرض، فمر سعد وعليه درع من حديد قد خرجت منها أطرافه، فأنا أتخوف على أطراف سعد، وكان من أعظم الناس وأطولهم، فمر وهو يرتجز ويقول:

لبث قليلاً يدرك الهيجا جمل ... ما أحسن الموت إذا حان الأجل

فقمت فاقتحمت حديقة فإذا نفر من المسلمين، وإذا فيها عمر بن الخطاب وفيهم رجل عليه سبغة له - تعني المغفر - فقال عمر: ما جاء بك والله إنك لجريئة وما يؤمنك أن يكون بلاء أو يكون تحوّز، فمازال يلومني حتى تمنيت أن الأرض فُتحت ساعتئذ فدخلت فيها، فرفع الرجل السبغة عن وجهه فإذا هو طلحة ابن عبيد الله فقال: يا عمر ويحك إنك قد أكثرت منذ اليوم وأين التحوز أو الفرار إلا إلى الله تعالى(٢) ؟!.

وعندما خرج النبي ﷺ إلى غزوة بني المصطلق، كانت عائشة ممن خرج سهمها، فخرجت لتؤدي واجبها، وفي هذه الغزوة امتحنت أمنا عائشة محنة من أشد وأقسى المحن، ولكن الله سبحانه أدركها بعنايته، وخرجت من المحنة بشهادة ربانية مباركة، تُتلى إلى يوم الدين في بيوت أذن الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه، وفي كل

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٤٠٦٤) في المغازي/ باب: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾، ومسلم (١٨١١) في الجهاد والسير/ باب: غزوة النساء مع الرجال.

(٢) «البداية والنهاية» (٤/ ١٢٣) و «تاريخ الإسلام» للذهبي (٢/ ٣٢١-٣٢٢).

مكان وبيت عِلم على وجه الأرض[١].

هكذا فلتكن بيوت المسلمين

عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء عمي من الرضاعة يستأذن عليَّ فأبيت أن آذن له حتى أستأمر رسول الله ﷺ، فلما جاء رسول الله ﷺ قلت: إن عمي من الرضاعة استأذن عليَّ فأبيت أن آذن له: فقال رسول الله ﷺ: «**فليلج عليك عمك**»، فقلت: إنما أرضعتني المرأة!! ولم يرضعني الرجل، فقال: «**إنه عمك فليلج عليك**»[٢].

وهكذا فلتكن بيوت المسلمين فإننا نسمع عن المآسي والجرائم التي تحدث في بيوت كثيرٍ من المسلمين بسبب عدم الالتزام بتعاليم هذا الدين العظيم الذي يوفر لنا حياة نظيفة طاهرة بعيدة عن الحرام والشبهات لكي يصبح المجتمع آمنًا طاهرًا نظيفًا.

وتم تأويل الرؤيا

ومن أجلّ وأعظم المكرمات التي حظيت بها أمنا عائشة رضي الله عنها أن حجرتها دُفن فيها أعظم ثلاثة في تاريخ الأمة الإسلامية: فكان أعظمهم جميعًا رسول الله ﷺ الذي دُفن في حجرتها ثم دُفن أبو بكر ثم دُفن عمر. - رضي الله عنهم جميعا -.

ولقد رأت عائشة ذلك الفضل من قبل، فقد قالت لأبي بكر الصديق رضي الله عنهما: رأيت كأن ثلاثة أقمار سقطن في حجري، فقال لها: إن صدقت رؤياك دُفن في بيتك ثلاثة من خير أهل الأرض، فلما دفُن النبي ﷺ، قال أبو بكر هذا أحد أقمارك وهو خيرها[٣]، ثم دفن القمر الثاني فكان أبو بكر نفسه، ثم القمر الثالث، فكان عمر رضي الله عنه، وبهذا تم تأويل رؤيا عائشة من قبل وقد جعلها الله حقًا.

---

(١) «نساء مبشرات بالجنة» (ص: ١٧٩-١٨٠).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٦٤٤) في الشهادات/ باب: الشهادة على الأنساب والرضاع المستفيض والموت القديم، ومسلم (١٤٤٥) في الرضاع/ باب: تحريم الرضاعة من ماء الفحل، وأحمد (٦/٣٦).

(٣) «بهجة المجالس» للقرطبي (٢/٢٤٩).

عائشة رضي الله عنها وحياء يعجز القلم عن وصفه

إن المرأة المؤمنة بفطرتها التقية تستحي من أي رجل حتى ولو كان زوجها. فما ظنك بمن لا تستحي من الأحياء فحسب بل تستحي من الأموات!!!.

إنها أمنا الطاهرة التقية عائشة رضي الله عنها وعن أبيها -.

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أدخل البيت الذي دُفن فيه رسول الله ﷺ وأبي رضي الله عنه واضعة ثوبي، وأقول: إنما هو زوجي وأبي، فلما دُفن عمر رضي الله عنه، والله ما دخلتهُ إلا مشدودة عليَّ ثيابي حياءً من عمر رضي الله عنه[(١)]

خوفها من المظالم

عن عائشة بنت طلحة، عن عائشة: رضي الله عنها أنها قتلت جانًا، فَأُتيت في منامها: والله لقد قتلت مسلمًا. قالت: لو كان مسلما لم يدخل على أزواج النبي ﷺ.

فقيل: أَوَ كان يدخل عليك إلا وعليك ثيابك.

فأصبحت فزعة، فأمرت باثني عشر ألف درهم، فجعلته في سبيل الله[(٢)].

فيا لها من صفحة غالية تعبر عن رقة قلبها وخشيتها من الله عز وجل وخوفها من الوقوع في المظالم... فلقد سمعت رسول الله ﷺ كثيرًا وهو يحذر أمته من الظلم ويقول: **«اتقوا الظلم فإن الظلم ظُلمات يوم القيامة»**[(٣)].

وقال ﷺ: **«اتقوا دعوة المظلوم فإنها تُحمل على الغمام يقول الله: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين»**[(٤)].

وقال ﷺ: **«اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرًا فإنه ليس دونها حجاب»**[(٥)].

---

(١) رواه بنحوه الحاكم في «المستدرك» (٤/٧)، وصححه على شرط الشيخين، وسكت عنه الذهبي.
(٢) قال الأرناؤوط: رجاله ثقات [السير (٢/ ١٩٦)].
(٣) صحيح: أخرجه أحمد ومسلم (٢٥٧٨) في البر والصلة والآداب/ باب: تحريم الظلم، عن جابر، «صحيح الجامع» (١٠٢).
(٤) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير»، والضياء عن خزيمة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١١٧).
(٥) حسن: رواه أحمد، وأبو يعلى، والضياء عن أنس، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١١٩).

حديث الإفك

إن الابتلاء سُنة ثابتة لا تتبدل ولا تتغير... ولكن الابتلاء الذي تعرضت له أمنا عائشة رضي الله عنها كان ابتلاءً يفتت الصخور والجبال ويعصف بالقلوب، فلقد اتُهمت في أعز شيء تملكه المرأة - اتُهمت في عرضها -!!!. إن هذا لهو البلاء العظيم.. عائشة رضي الله عنها تُتهم في عرضها، وهي الزهرة التقية النقية التي نبتت في حقل الإسلام وسُقيت بماء الوحي... ورسول الله ﷺ يُتهم في عرضه وهو القائم على صيانة حُرمات الأمة وأعراض المسلمين... والصدِّيق رضي الله عنه يُتهم في عرض ابنته الغالية !!!.

وكان لحديث الإفك وقع أليم على قلب أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - ومرت عليها وعلى البيت النبوي الطاهر والبيت البكري الصادق أوقات قاسية حرجة، امتدت إلى شهر من الزمن، حتى نزل القرآن الكريم بالبراءة للعفيفة الصديقة بنت الصديق، وتحمل هذه البراءة شهادة مباركة للمؤمن صفوان بن المعطل الذي رُمي بالحديث الآثم، كما وسمت المنافقين بميسم الزور والبهتان الذي ظل يلاحقهم إلى النهاية.

لم تسترح نفوس المنافقين الذين رأوا انتصارات الإسلام تتوسع يومًا بعد يوم، ووجدوا أن مكانتهم بدأت تنحسر وتتلاشى إلى أن مقتهم مجتمعهم، فأرادوا - بزعمهم- أن يوجهوا ضربة قاصمة إلى النبي الكريم ﷺ، فرموا أمنا الطاهرة الصديقة بنت الصديق بالبهتان العظيم.

وكان عبد الله بن أبي بن سلول قد تولد النفاق والحسد في قلبه من أول يوم سمع فيه بالإسلام، وطفق يكيد للنبي ﷺ وللإسلام المكيدة تلو الأخرى، ولكن حكمة الله سبحانه كانت له وللمنافقين بالمرصاد، فكانت تلجمهم وتكبتهم(١).

الصديقة وشدة البلاء

في حادثة الإفك كادت تكون فتنة عمياء، فقد أصابت المسلمين بهزة عنيفة زلزلت كيانهم، ولم يكن الناس فيها سواسية، ولكنهم كانوا مختلفين في آرائهم تجاه حادثة

(١) نساء مبشرات بالجنة (ص: ١٨٠) بتصرف.

الافتراء والظلم.

فقد سكت بعضهم، فلم يدر من شدة الدهش والذهول ما يقول، وأفصح بعضهم بعظيمة العظائم، وقبيحة القبائح، وكعَّ أناس عن الإفصاح بالحق في تنزيه حليلة النبي ﷺ الطاهرة المطهرة عائشة ﵂ . وأنزل الله ﷿ عقابه على من جبن وسكت ولم يدفع الإفك والبهتان عن ساحة الطهر والكمال، الساحة النبوية البكرية، وادَّخر للمنافقين الذين صرحوا وكذبوا جهنم كلما خبت زادها سعيرًا وتوقدًا.

أجل لقد كان في هذا الحدث الجلل من خطر الحديث، وشدة البلاء لرسول الله ﷺ ما لم يعلم مداه إلا العليم الخبير، ولكنَّ رسول الله ﷺ كان إمام الصابرين، صبر أجمل الصبر، وعالج الأمر بحكمة هادئة، فقد كان همه أن يقي المجتمع المسلم من عواصف الفتن، وهزات المحن، وقواصم المكائد النفاقية المنبثقة عن بعض الرواسب الجاهلية.

كان هذا الحدث الخطير، لأم المؤمنين ﵂ ، زوجة سيد الخلق وأحب الناس إليه، وأبويها وآلها، وخاصة المسلمين ما أقضَّ مضاجعهم، ونشف الدمع في مآقيهم، وخصوصًا عائشة ﵂ ، حتى منَّ الله عليها وعلى المؤمنين، فكشف الغمة، وفرج الكربة، وأنزل وحيه بالقرآن المجيد على رسوله الكريم محمد ﷺ بما لم يكن لأحدٍ في الحسبان، حيث كان يُظن أن يرى الرسول ﷺ رؤيا منامية في تبرئة أطهر الطاهرات، وأفقه الفقيهات، أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق ﵄ .

لكن الله ﷿ أراد أن يجعل منها خصيصة ليرفع من شأن عائشة ﵂ .

إظهارًا لشرفها الذاتي والاجتماعي، وإنافة لمكانتها في أهل البيت طهرًا وفضلاً وشرفًا، وثقلاً في ميزان الفضائل والمكارم الإنسانية والإيمانية لمكانتها من قلب رسول الله ﷺ [(١)].

المبرأة من فوق سبع سماوات

فتعالوا بنا لنعرف القصة كاملة، ونرى مكانة أمنا عائشة عند الله ﷿ الذي أنزل براءتها من فوق سبع سماوات.

فعن عائشة ﵂ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه،

(١) نساء أهل البيت (ص: ١٢٨-١٢٩).

فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه. قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما نزل الحجاب فأنا أُحمل في هودجي وأنزل فيه. فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع، فالتمست عقدي وحبسني ابتغاؤه.

وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت ركبت وهم يحسبون أني فيه وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يثقلن اللحم إنما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فأممت منزلي الذي كنت به وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليَّ، فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش فأدلج، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك، وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبي ابن سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمت شهرًا، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليَّ رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول :«كيف تيكم»، ثم ينصرف، فذاك الذي يريبني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نقهت، فخرجت معي أم مسطح قبل المناصع، وهو متبرزنا وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن تتخذ الكُنف قريبًا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط، فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا.

فانطلقت أنا وأم مسطح - وهي ابنة أبي رهم بن عبد مناف، وأمها بنت صخر ابن

عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة - فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي وقد فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها، فقالت: تعس مسطح. فقلت لها: بئس ما قلت، أتسبين رجلاً شهد بدرًا ؟، قالت أي هنتاه أَوَلم تسمعي ما قال ؟ قالت: قلت: وما قال ؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضًا على مرضي. فلما رجعت إلى بيتي ودخل عليَّ رسول الله ﷺ تعني سلَّم ثم قال :«**كيف تيكم ؟**» فقلت: أتأذن لي أن آتي أبوي قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ.

هموم وأحزان تفتت الجبال

قالت: فجئت أبوي، فقلت لأمي: يا أمتاه ما يتحدث الناس ؟ قالت: يا بُنية هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها. قالت: فقلت: سبحان الله، أو لقد تحدث الناس بهذا ؟ قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي.

فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد رضي الله عنهما حين استلبث الوحي يستأمرهما في فراق أهله. قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود فقال: يا رسول الله، أهلك، وما نعلم إلا خيرًا.

وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله، لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك. قالت فدعا رسول الله ﷺ بريرة. فقال: «**أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك ؟**» قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت عليها أمرًا أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله فقام رسول الله ﷺ فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبي ابن سلول.

والله ما علمت على أهلي إلا خيرًا

قال رسول الله ﷺ وهو على المنبر :«**يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي ؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيرًا وما كان يدخل على أهلي إلا معي**» فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله

أنا أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. قالت: فقام سعد بن عبادة - وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحًا ولكن احتملته الحمية - فقال لسعد: كذبت لعمر الله، لا تقتله ولا تقدر على قتله.

فقام أسيد بن حضير - وهو ابن عم سعد بن معاذ - فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فتساور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

قالت: فمكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم.

قالت: فأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويومًا لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع يظنان أن البكاء فالق كبدي. قالت: بينما هما جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنت عليَّ امرأة من الأنصار فأذنت لها، فجلست تبكي معي.

كلمات تجعل القلب

يبكي الدماء بدل الدموع

قالت: فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس، قالت ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهرًا لا يوحى إليه في شأني قالت: فتشهد رسول الله ﷺ وسلم حين جلس ثم قال: **«أما بعد، يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرؤك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه»**.

فصبر جميل

قالت: فلما قضى رسول الله مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ فيما قال. قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ قالت ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. قالت فقلت - وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرًا من القرآن -: إني والله لقد سمعت هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة - والله يعلم أني منه بريئة - لا

تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم أني منه بريئة - لتصدقني. والله ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف، قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: الآية ١٨].

هكذا نزلت براءتها من فوق سبع سماوات

قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي قالت وأنا حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله مُنزلٌ في شأني وحيًا يُتلى، وَلَشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يُتلى ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرؤني الله بها. قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أُنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو في يومٍ شاتٍ من ثقل القول الذي ينزل عليه.

قالت: فلما سُرّي عن رسول الله ﷺ سري عنه وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها: «**يا عائشة، أما الله** ﷻ **فقد برأك**». فقالت أمي: قومي إليه قالت فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله ﷻ. وأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ﴾ [النور: الآية ١١] العشر الآيات كلها. فلما أنزل الله في براءتي قال أبو بكر الصديق ﷺ وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال فأنزل الله ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: الآية ٢٢] قال أبو بكر: بلى والله، إني أحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى النفقة التي كان ينفق عليه وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا. قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب ابنة جحش عن أمري فقال: يا زينب، ماذا عملت أو رأيت ؟ فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، ما علمت إلا خيرًا. قالت - وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله ﷺ فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمنة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك»[1].

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٤٧٥٠) في التفسير/ باب: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، ومسلم (٢٧٧٠) في التوبة/ باب: في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، وأحمد (٦/ ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧).

ساعات المحنة

عندما يقف الإنسان يتدبر معاني الآيات الكريمة التي برأت عائشة رضي الله عنها، تجول في خاطره تلك الساعات التي مر بها البيت النبوي، والبيت البكري، وكيف تلقى النبي ﷺ هذا الخبر، وكيف صبر رسول الله ﷺ وآل أبي بكر تحت وطأة بلاء حديث الإفك ؟!!

نعم لقد آذى رسول الله ﷺ ما بلغه عن عائشة أطهر الصادقات وأصدق الطاهرات، من أحبها مع أبيها حبًّا يفوق تصور المتصورين، فهو لا يعلم عن زوجه عائشة إلا خيرًا، ولكن ما بال الناس يقولون عليها ؟

لقد لبث رسول الله ﷺ تحت وطأة بلاء هذه المحنة القاسية صابرًا صبرًا لم يعرف في تاريخ النوازل والبلايا والخطوب لأحد من قبله، ولا لأحد من بعده، حتى نزلت آيات براءة عائشة بعد سبع وثلاثين ليلة من بداية المحنة، فقد بلغه ﷺ حديث الإفك عند وصوله إلى المدينة، بعد ظفره ببني المصطلق، تحدث به أهل النفاق ومرضى القلوب. ولاكته ألسنتهم وهم يعلمون أنهم كاذبون مفترون، يحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم.

وما بالك بحال آل أبي بكر ؟!

لم يكن حالهم أقل حزنًا من حزن رسول الله ﷺ، فإنهم منذ بلغهم الإفك، وما تحدث به المنافقون وأتباعهم، وهم يرزحون تحت فجيعة هذا البلاء العاصف، لا يدرون ما يقولون، ولا ما يفعلون، تلاحقهم النظرات المتنوعة من كل مكان، وفي كل مكان.

ولك أن تتخيل تلك اللحظات الحرجة، بل الساعات والأيام التي قضوها، وهم يعيشون مرارة المحنة، ولكنهم استسلموا لقضاء العزيز الحميد الذي له ملك السماوات والأرض، منتظرين حكمه بكشف الغمة التي أحاطت أثقالها بأكنافهم، وكان أمر النبي ﷺ أهم لديهم من أمر أنفسهم.

وصفت أم المؤمنين عائشة حالها، وحال أبويها في أحرج لحظات البلاء التي أذابت فيهم عناصر الحركة النفسية والفكرية .. تقول عائشة: والله ما أعلم أهل بيتٍ دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام[1].

---

(١) نساء أهل البيت (ص: ١٣٧-١٣٨).

وقفة غالية

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ : فما بال رسول الله ﷺ توقف في أمرها وسأل عنها واستشار. وهو أعرف بالله وبمنزلته عنده وبما يليق به، وهلا قال: سبحانك هذا بهتان عظيم كما قاله فضلاء الصحابة. فالجواب: أن هذا من تمام الحكم الباهرة التي جعل الله هذه القصة سببًا لها وامتحانًا وابتلاء لرسوله ﷺ ولجميع الأمة إلى يوم القيامة، ليرفع بهذه القصة أقوامًا، ويضع بها آخرين، ويزيد الله الذين اهتدوا هدى وإيمانًا، ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا، واقتضى تمام الامتحان والابتلاء أن حبس عن رسول الله ﷺ الوحي شهرًا في شأنها ولا يوحى إليه في ذلك شيء لتتم حكمته التي قدرها وقضاها وتظهر على أكمل الوجوه، ويزداد المؤمنون الصادقون إيمانًا وثباتًا على العدل والصدق وحسن الظن بالله ورسوله وأهل بيته والصديقين من عباده، ويزداد المنافقون إفكًا ونفاقًا، ويظهر لرسوله وللمؤمنين سرائرهم، ولتتم العبودية المرادة من الصديقة وأبويها، وتتم نعمة الله عليهم ولتشتد الفاقة والرغبة منها ومن أبويها والافتقار إلى الله، والذل له، وحسن الظن به، والرجاء له، ولينقطع رجاؤها من المخلوقين، وتيأس من حصول النصرة والفرج على يد أحد من الخلق، ولهذا وفَّت هذا المقام حقه، لما قال لها أبواها: قومي إليه وقد أنزل الله عليه براءتها، فقالت: والله لا أقوم ولا أحمد إلا الله هو الذي أنزل براءتي.

وأيضا فكان من حكمة حبس الوحي شهرًا أن القضية مُحصت وتمحصت، واستشرفت قلوب المؤمنين أعظم استشراف إلى ما يوحيه الله إلى رسوله فيها، وتطلعت إلى ذلك غاية التطلع، فوافى الوحي أحوج ما كان إليه رسول الله ﷺ وأهل بيته والصديق وأهله وأصحابه والمؤمنون، فورد عليهم ورود الغيث على الأرض أحوج ما كانت إليه، فوقع منهم أعظم موقع وألطفه، وسُرّوا به أتم السرور، وحصل لهم به غاية الهناء، فلو أطلع الله رسوله على حقيقة الحال من أول وهلة، وأنزل الوحي على الفور بذلك لفاتت هذه الحكم وأضعافها، بل أضعاف أضعافها. وأيضا فإن الله ﷻ أحب أن يُظهر منزلة رسوله وأهل بيته عنده وكرامتهم عليه، وأن يخرج رسوله عن هذه القضية ويتولى هو بنفسه الدفاع والمنافحة

عنه والرد على أعدائه وذمهم وعيبهم بأمر لا يكون له فيه عمل، ولا ينسب إليه بل لا يكون له فيه عمل، ولا يُنسب إليه بل يكون هو وحدهُ المتولي لذلك الدفاع، الثائر لرسوله وأهل بيته[١].

والذي تولى كبره منهم له عذابٌ عظيم

هي اختيار العظيم العلي للنبي ﷺ، ومنذ طفولتها تُعرف بالعز الأبي، ولها عقل الكبار في سن الصبى، وهل يضرها قول الجهول الغبيّ، أو يقدح في ريح المسك الذكي إلا بهيم ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: الآية ١١].

ما تزوج الرسول ﷺ بكرًا سواها، ولا أحب زوجة كحبه إياها، جاء بها الملك في سرقة فجلاها، وتكلم الله ببراءتها سبحان من أعطاها، وما يرمي الأصحاء بالسُقم إلا سقيم ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: الآية ١١].

واعجبًا لمبغضيها من هم ؟ إن فهمت قولي قلت: إن هم، ضرهم والله ما صدر عنهم، خفَّت والله عقولهم، والآفة تهيم ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: الآية ١١].

ما خفي على حُسَّادها طهارة ذيلها غير أن الطباع الردية في ميلها هجمت عليها الأحزان برَجلها وخيلها فكانت طول نهارها وليلها تبكي بكاء اليتيم

﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: الآية ١١].

مّدوا أبواعهم إلى عرضها فما نالوا، وأكثروا القول ظاهرًا وباطنًا واحتالوا. ونوعوا أسباب القذف وتكلموا وأطالوا، وهي على طهارتها مما قالوا، في مقعد مقيم ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: الآية ١١].

تكلموا فيها بترهات، وراموا ذم السماء وهيهات، يا عائبها إن عرفت عيبًا فهات، كفانا الله شر عقوق الأمهات، فإنه قبيح ذميم ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: الآية ١١]

ما كان سوى غيم ثم تجلى، وانصرف الحزن وتولى بالفرح الذي تولى، ولبس الممدوح أحسن الحلي وتحلى، وحمل القاذف إثمًا وكلا، أيقدح العقلاء في أمهاتهم القادحون كلا

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٦١-٢٦٣).

هي منهم عقيم ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: الآية ١١].

حوشيت من ريب أو فجور، إنما زيدت بما جرى في الأجور، تنزهت أم العدول أن تجور، إنما وقعت في أغباش ليل ظلام ديجور، ثم بان النور في سورة النور، فنزل في الكلام العظيم: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: الآية ١١] (١).

إن الله يدافع عن الذين آمنوا

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: الآية ٣٨].

فلما لم تدافع عائشة رضي الله عنها عن نفسها دافع الله - تعالى - عنها.

ولما تواضعت لله فقالت: وَلَشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر... فتكلم الله ببراءتها من فوق سبع سماوات «ومن تواضع لله رفعه الله».

ولما سكتت عن القول ببراءتها نزلت الآيات لتشهد بطهارتها.

يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه واصفًا طُهر الطاهرة المطهرة:

حصان رزان ما تزن بريبة ... وتصبح غرثي من لحوم الغوافلِ
عقيلة أصل من لؤي بن غالب ... كرام المساعي مجدهم غير زائلِ
مهذبة قد طيب الله خيمها ... وطهرها من كل بغي وباطلِ
فإن كان ما قد قيل عني قلته ... فلا رفعت سوطي إلى أناملي
وإن الذي قد قيل ليس بلائط ... بها الدهر بل قول امرئ متماحلِ
فكيف وودي ما حييت ونصرتي ... لآل رسول الله زين المحافلِ
رأيتك - وليغفر لك الله - حرة ... من المحصنات غير ذات الغوائلِ

إنها أعظم براءة

إن الله عز وجل أبى أن يجعل براءتها مجرد بُشرى يعرفها النبي ﷺ ويبلغها للأمة ولكنه جعل براءتها قرآنا يُتلى إلى يوم القيامة ليعلم الكون كله قدر أمنا الغالية عائشة رضي الله عنها.

(١) التبصرة/ لابن الجوزي (١/ ٥٥٣-٥٥٤).

قال الإمام القرطبي في «تفسيره»:

قال بعض أهل التحقيق: إن يوسف عليه السلام لما رُمي بالفاحشة برَّأه الله على لسان صبي في المهد؛ وإن مريم لما رميت بالفاحشة برأها الله على لسان ابنها عيسى - صلوات الله عليه -؛ وإن عائشة لما رميت بالفاحشة برأها الله تعالى بالقرآن، فما رضي لها ببراءة صبي، ولا نبي، حتى برأها الله بكلامه من القذف والبهتان[١].

نعمة عظيمة

وكان من أجلِّ النعم الإلهية على البيت النبوي، وعلى المسلمين، أن الله عز وجل قد حمى أمهات المؤمنين الطاهرات كلهن عن التكلم في محنة هذا البهتان الخبيث، فلم يؤثر عن واحدة منهن في عائشة كلمة واحدة، بل إشارة خفية، وهن ضرائرها وشريكاتها في القرب الداني من رسول الله ﷺ؛ وكان من الطبيعي أن يكنَّ هن اللاتي يُخشى عليهن من بواعث الغيرة أن تدفعهن أو بعضهن إلى التحدث فيما يحوم حول ذلك.

لكن الله ذو الفضل العظيم والخير العميم، قد حفظهن جميعًا حفظًا مباركًا لمقام حرم رسوله ﷺ أن تظل عروش بيوتهن في خلوتهن أو جلوتهن معه ﷺ بما يعصمهن عن الانزلاق إلى مزالق الباطل، والتقول على من يعرفن أنها أحب الناس إليه ﷺ، وأعزهن عنده، وأعرفهن بمطارح أنظاره، وأسرعهن إلى التعلق بأسباب رضاه في كل ما تقر به عينه ﷺ.

هذا، وقد خص الله عز وجل أم المؤمنين السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها، بموقف نبيل كريم من عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك، وهي التي تناصيها عند رسول الله ﷺ مما كان يخاف منه العثرة، ذلك أن رسول الله ﷺ خصها بالسؤال عن عائشة قبل أن ينزل الوحي ببراءتها وطهارة ذيلها من رجس الإفك، وافتراء البهتان، فقال لها: «**يا زينب، ماذا علمت أو رأيت**»؟

فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيرا[٢].

(١) تفسير القرطبي (١٢/ ٢١٢).
(٢) قطعة من حديث رواه البخاري (٤٧٥٠).

قالت عائشة رضي الله عنها - تُثني على زينب، وتعرف لها فضلها في دينها وأدبها وجودها ومعروفها-: وهي التي تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع[1].

ورحم الله من قال عن أمنا عائشة:

إني أقول مبينًا عن فضلها	ومترجمًا عن قولها بلساني
يا مبغضي لا تأت قبر محمد	فالبيت بيتي والمكان مكاني
إني خصصت على لسان محمد	بصفات برٍّ تحتهن معاني
وسبقتهن إلى الفضائل كلها	فالسبق سبقي والعنان عناني
زوجي رسول الله لم أر غيره	الله زوَّجني به وحباني
وأتاه جبريل الأمين بصورتي	فأحبني المختار حين رآني
وأنا ابنة الصديق صاحب أحمد	وحبيبه في السر والإعلانِ
وتكلم الله العظيم بحجتي	وبراءتي في مُحكم القرآنِ
والله فضلني وعظَّم حُرمتي	وعلى لسان نبيه برَّاني
والله في القرآن قد لعن الذي	بعد البراءة بالقبيح رماني
والله وبَّخ من أراد تنقصي	إفكًا وسبّح نفسه في شاني

بركة عائشة ... ونزول آية التيمم

ومن بركات أمنا الغالية (عائشة) رضي الله عنها أن الله عز وجل أنزل بسببها آية التيمم تيسيرًا على المسلمين ففرح المسلمون لذلك فرحًا شديدًا... فيا لها من أمٍ مباركة فاح عبير بركتها على كل من حولها من المسلمين.

عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء - أو بذات الجيش - انقطع عُقد لي فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه وليسوا على ماء، فأتى النَّاس إلى أبي بكر الصديق فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة ؟ أقامت برسول الله ﷺ والناس ليسوا على ماء وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام فقال: حبست رسول الله ﷺ والناس

(١) نساء أهل البيت (ص: ١٤٣).

ليسوا على ماء وليسوا معهم ماء فقالت عائشة: فعاتبني أبو بكر ما شاء الله أن يقول وجعل يطعنني بيده في خاصرتي، فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي، فقام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء فأنزل الله آية التيمم فتيمموا فقال أسيد بن حضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر[١]. قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه فأصبنا العقد تحته[٢].

الإرهاصات والعلامات

التي تشير إلى قرب وفاة الرسول ﷺ

إن الأحداث العظيمة يسبقها من الإرهاصات والعلامات التي تشير إلى قُرب وقوعها، وقد تم للمسلمين فتح مكة أم القرى في السنة الثامنة من الهجرة المباركة، وفي السنة التاسعة أقبلت الوفود تُقِرُّ بالإسلام أو تعطي الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، وأرهب جيش العُسرةَ الذي خرج به النبي ﷺ جحافلَ الروم حتى فروا من مواجهته، ودانت جزيرة العرب بالإسلام، وكان ذلك بعد عشر سنين من جهاد النبي ﷺ المتواصل وصحابته الكرام - رضي الله عنهم -، فكل العلامات تشير إلى انتهاء مهمة رسول الله ﷺ، فقد بلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح للأمة، وكشف الغمة، وأصبح الناس على محجّة بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فكان النبي ﷺ يُعرّض بقرب أجله:

فمن ذلك ما رواه أحمد عن معاذ قال: لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن، خرج معه رسول الله ﷺ يوصيه، ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، فلما فرغ قال: **«يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، أو لعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري**، فبكى معاذ جشعًا لفراق رسول الله ﷺ ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال: **«إن أولى**

(١) في رواية البخاري (٣٧٧٣): .. فقال أسيد بن حضير: جزاك الله خيرًا فوالله ما نزل بك أمر قط إلا جعل الله لك منه مخرجا وجعل فيه للمسلمين بركة.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٣٤) في التيمم / باب: وقول الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ [النساء: الآية ٤٣]، ومسلم (٣٦٧) في الحيض/ باب: التيمم، وأحمد (٦/ ١٧٩).

الناس بي المتقون مَن كانوا وحيث كانوا»(١).

ومن ذلك أنه ﷺ كان يعتكف كل سنة عشرًا في رمضان، فاعتكف في السنة الأخيرة عشرين ليلة، وكان جبريل يعارضه القرآن مرة في رمضان فعارضه في السنة الأخيرة مرتين.

وخرج النبي ﷺ للحج في السنة العاشرة، وقال: «**خذوا عني مناسككم لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا وطفق يودع الناس»**(٢).

ونزل عليه بعرفة: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: الآية ٣].

ومن هذه الإشارات القوية ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خطب النبي ﷺ وقال: «**إن الله خَيّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله**» قال: فبكى أبو بكر فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خُيّر. فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا..»(٣).

وتروي لنا أمنا عائشة رضي الله عنها كيف بدأت شكوى رسول الله ﷺ قالت: رجع النبي ﷺ ذات يوم من جنازة من البقيع فوجدني، وأنا أجد صداعًا وأنا أقول: وا رأساه، قال: «**بل أنا يا عائشة وا رأساه**» قال: «**وما ضرك لو مِتّ قبلي فغسّلتك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك**» فقلت: كأني بك والله لو فعلت ذلك لرجعت إلى بيتي فعرّست فيه ببعض نسائك. قالت: فتبسم رسول الله ﷺ ثم بُدئ في وجعه الذي مات فيه»(٤).

ما ظن محمد لو لقي الله عز وجل وهذه عنده ؟!!

عن عائشة رضي الله عنها قالت: أمرني نبي الله ﷺ أن أتصدق بذهب كانت عندنا في مرضه، قالت: فأفاق فقال: «**ما فعلت ؟**» قالت: لقد شغلني ما رأيت منك، قال: «**فهلميها**».

---

(١) رواه أحمد عن معاذ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٠١٢).
(٢) صحيح: رواه مسلم (١٢٩٧) في الحج/ باب: استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبًا.
(٣) رواه أحمد (١٨/٣)، وابن أبي شيبة (٦/١٢)، وهو في الصحيحين من طرق أخرى.
(٤) حسن: رواه ابن ماجة (١٤٦٥) الجنائز، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجة» (١١٩٧).

قال: فجاءت بها إليه سبعة أو تسعة دنانير، فقال حين جاءت بها: «**ما ظن محمد أن لو لقي الله** ﷻ وهذه عنده، وما تبقى هذه من محمد لو لقي الله ﷻ وهذه عنده؟»(١).

تمسح بيده رجاء بركتها

عن عائشة : ﵂ «أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات(٢). وينفث(٣)، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه. وأمسح عنه بيده. رجاء بركتها»(٤).

مُرُوا أبا بكر فليصل بالناس

عن أبي موسى الأشعري ﵁ قال: مرض النبي ﷺ فاشتد مرضه، فقال:«**مروا أبا بكر فليصل بالناس**». قالت عائشة: إنه رجل رقيق، إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس. قال: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**»، فعادت. فقال: «**مري أبا بكر فليصل بالناس، فإنكن صواحب يوسف**». فأتاه الرسول(٥)، فصلى بالناس في حياة النبي ﷺ (٦).

اللحظات الأخيرة من حياة النبي ﷺ

وخرج النبي ﷺ في صبح اليوم الذي لحق فيه بالرفيق الأعلى ينظر إلى ثمرة جهاده وصبره، فألقى على أصحابه الذين أحبوه وأحبهم نظرة وداع، فكادوا يُفتنون من الفرحة به ﷺ ظنًّا منهم أنه ﷺ قد عوفي من مرضه، ولم يظنوا أنه ينظر إليهم نظرة الوداع حتى يلتقي بهم على حوضه، وفي جنة الله ﷻ ،... ولو علموا ذلك لتفطرت قلوبهم.

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٤٩، ٨٦، ١٨٢)، وابن سعد (٢/ ١٨٣)، وابن حبان (٣٢١٢) بإسناد صحيح.

(٢) المعوذات هي ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾.

(٣) النفث: نفخ لطيف بلا ريق.
قال الزهري: «كان ينفث على يديه ثم يمسح» رواه البخاري (٥٧٣٥).
وراجع: «فتح الباري» (١٠/ ٢٠٨).

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٤٣٩) في المغازي/ باب: مرض النبي ﷺ ووفاته، ومسلم (٢١٩٢) في السلام/ باب: رقية المريض بالمعوذات والنفث.

(٥) يعني أتى رسولُ رسولِ الله ﷺ إلى أبي بكر ﵁.

(٦) متفق عليه: رواه البخاري (٦٧٨) في الأذان/ باب: أهل العلم والفضل أحق بالإمامة، ومسلم (٤٢٠) في الصلاة/ باب: استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما من يصلي بالناس، وغيرهما.

عن عائشة، زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ يقول وهو صحيح: «**إنه لم يُقبض نبي قط، حتى يرى مقعده في الجنة، ثم يُخير**» قالت عائشة: فلما نزل برسول الله ﷺ، ورأسه على فخذي، غشي عليه ساعة ثم أفاق. فأشخص بصره إلى السقف. ثم قال: «**اللهم ! الرفيق الأعلى**». قالت عائشة: قلت: إذًا لا يختارنا. قالت عائشة: وعرفت الحديث الذي كان يحدثنا به وهو صحيح في قوله: «**إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير**». قالت عائشة: فكانت تلك آخر كلمة تكلم بها رسول الله ﷺ قوله: «**اللهم! الرفيق الأعلى**»[(١)].

وفي رواية: عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يسأل في مرضه الذي مات فيه يقول: أين أنا غدًا، أين أنا غدًا ؟ يريد يوم عائشة فأذن له أزواجه يكون حيث شاء، فكان في بيت عائشة حتى مات عندها قالت عائشة: فمات في اليوم الذي كان يدور عليَّ فيه في بيتي، فقبضه الله وإن رأسه لبين نحري وسحري وخالط ريقه ريقي. ثم قالت: دخل عبد الرحمن بن أبي بكر ومعه سواك يستن به فنظر إليه رسول الله ﷺ فقلت له: أعطني هذا السواك يا عبد الرحمن، فأعطانيه فقضمته فأعطيته رسول الله ﷺ فاستن به وهو مستند إلى صدري[(٢)].

وفي رواية: قالت عائشة: توفي رسول الله ﷺ في بيتي، وفي يومي وليلتي، وبين سحري ونحري. ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر، ومعه سواك رطب، فنظر إليه، حتى ظننت أنه يريده، فأخذته، فمضغته ونفضته وطيبته، ثم دفعته إليه. فاستن به كأحسن ما رأيته مستنًا قط؛ ثم ذهب يرفعه إليَّ، فسقطت يده، فأخذت أدعو له بدعاء كان يدعو به له جبريل، وكان هو يدعو به إذا مرض، فلم يدع به في مرضه ذاك. فرفع بصره إلى السماء، وقال: «**الرفيق الأعلى**» وفاضت نفسه. فالحمد لله الذي جمع بين ريقي وريقه في آخر يوم من الدنيا»[(٣)].

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٨) (٢٤٤٤) في فضائل الصحابة/ باب: في فضل عائشة - رضي الله تعالى عنها -.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٤٥٠) في المغازي / باب: مرض النبي ﷺ ووفاته، وأخرجه مسلم مختصرًا (٢٤٤٣) في فضائل الصحابة / باب: في فضل عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه أحمد (٤٨/٦)، وصححه الحاكم (٧/٤) ووافقه الذهبي.
والسحر: الرئة - النحر: أعلى الصدر - استن: استاك.

وعن أنس قال: لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه، فقالت فاطمة : ﵂ وا كرب أبتاه، فقال لها: ليس على أبيك كرب بعد اليوم، فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب ربًا دعاه، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه، فلما دُفن قالت فاطمة ﵂ يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب»(١).

وعن أنس ﵁ قال: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما نفضنا عن النبي ﷺ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا»(٢).

وقال الحافظ ابن رجب : ﵀ لما توفى ﷺ اضطرب ايمسلمون فمنهم من دهش فخولط، ومنهم من أُقعد فلم يطق القيام، ومنهم من اعتقل لسانه فلم يطق الكلام، ومنهم من أنكر موته بالكلية وقال: إنما بُعث إليه(٣).

موقف الصديق .. ﵁

عن عائشة ﵂ قالت: إن رسول الله ﷺ مات، وأبو بكر بالسُّنْح - قال إسماعيل: تعني بالعالية - فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ، قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك، وليبعثنه الله فيقطعنّ أيدي رجال وأرجلهم. فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ فقبّله فقال: بأبي أنت طبت حيًا وميتًا والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبدًا، ثم خرج، فقال: أيها الحالف على رسلك، فلما تكلم أبو بكر جلس عمر فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه وقال: ألا من كان يعبد محمدًا ﷺ فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. وقال :﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزُّمَر: الآية ٣٠]، وقال :﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٤٤] قال: فنشج الناس يبكون.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٤٦٢) في المغازي / باب: مرض النبي ﷺ ووفاته، وابن ماجة (١٦٣٠) في ما جاء في الجنائز.

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٣٦١٨) في المناقب - وصححه الألباني في «مختصر الشمائل».

(٣) «لطائف المعارف» (١١٣-١١٤) باختصار.

تجهيز جسد النبي ﷺ

عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما أرادوا غسل النبي ﷺ قالوا: والله لا ندري أنجرد رسول الله ﷺ من ثيابه كما نجرد موتانا، أم نغسله وعليه ثيابه ؟ فلما اختلفوا ألقى الله تبارك وتعالى عليهم النوم حتى ما منهم رجل إلا وذقنه في صدره، ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت - لا يُدرى من هو: أن اغسلوا النبي ﷺ وعليه ثيابه، فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسلوه وعليه قميصه يصبون الماء فوق القميص، ويدلكون بالقميص دون أيديهم، وكانت عائشة تقول: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غَسَله إلا نساؤه»[(١)]. وكُفن ﷺ في ثلاثة أثواب سحولية بيضاء.

وقد أجمع أهل العلم أنه ﷺ توفي عن ثلاثة وستين عامًا قضى منها أربعين قبل البعثة وثلاثة عشر عامًا بعد البعثة بمكة وعشر سنين في المدينة بعد الهجرة، وكانت وفاته في ربيع من السنة الحادية عشرة من الهجرة وما ترك دينارًا ولا درهمًا ولا عبدًا ولا أَمَة إلا بغلته التي كان يركبها وسلاحه وأرضًا جعلها لابن السبيل صدقة فصلى الله عليه وآله وسلم تسليمًا[(٢)].

الفقيهة الربانية

التي حُمل عنها ربع الشريعة

قال عز وجل مخاطبًا أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن -: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٤].

وقال ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»[(٣)].

وقال الحافظ السخاوي: (قد ألحق بعض المصنفين بآخر هذا الحديث: «**ومسلمة**»

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٢٦٧)، وأبو داود (٣١٤١) في الجنائز - وقال محقق الإحسان في «تقريب صحيح ابن حبان»: إسناده قوي.

(٢) كتاب حياة محمد ﷺ للمصنف (ص: ٥٤-٦١) بتصرف.

(٣) رواه ابن عدي والطبراني في «الكبير» عن أنس - ورواه الطبراني في «الصغير» والخطيب البغدادي عن الحسين بن علي - ورواه الطبراني في «الأوسط» عن ابن عباس - ورواه تمام عن ابن عمر - ورواه البيهقي عن أبي سعيد وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٩١٣).

وليس لها ذكر في شيء من طرقه وإن كان معناها صحيحًا)[1] ا هـ.

وقال ﷺ: «**أيما رجل كانت عنده وليدة، فعلَّمها، فأحسن تعليمها وأدَّبها، فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران**»[2].

وقد أحست المرأة نتيجة لهذا الحث بحاجتها إلى العلم، فذهبت إلى النبي ﷺ تطلب منه مجلسًا خاصًا بالنساء، . . . فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: «يا رسول الله ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يومًا نأتيك فيه تعلمنا مما علمك الله»، فقال ﷺ: «**اجتمعن في يوم كذا وكذا في مكان كذا**»، فاجتمعن، فأتاهن، فعلمهن مما علمه الله»[3].

لقد بلغ حرص النساء المسلمات على العلم غايته حتى تطلبن المجالس الخاصة بهن للتعليم مع أنهن يستمعن في المسجد لتعليمه ومواعظه ﷺ.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «**نعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين**»[4].

لقد أقبلت المرأة المسلمة على العلم منذ أكرمها الله تعالى بالإسلام، فنهلت من معينه، وأخذت منه بسهمٍ وافر.

فهذه أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديقة بنت الصديق - رضي الله عنه وعنها - حبيبة رسول الله ﷺ، الفقيهة الربانية، المبرأة من فوق سبع سماوات.

لحق النبي ﷺ بربه وهي لم تخط بعد إلى التاسعة عشرة، على أنها ملأت أرجاء الأرض علمًا، فهي في رواية الحديث نسيج وحدها، ولم يكن بين أصحاب النبي ﷺ من كان أروى منها ومن أبي هريرة رضي الله عنهما، على أنها كانت أدق منه وأوثق.

قال الزهري: «لو جُمع علم عائشة إلى علم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل».

---

(١) المقاصد الحسنة (ص: ٢٧٧).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٩٧) في العلم / باب: تعليم الرجل أمته وأهله، ومسلم بنحوه (١٥٤) في الإيمان / باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ.

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٧٣١٠) في الاعتصام بالكتاب والسنة / باب: تعليم النبي ﷺ أمته، ومسلم (٢٦٣٤) في البر والصلة والأدب / باب: فضل من يموت له ولد فيحتسبه.

(٤) **صحيح**: أخرجه مسلم (٣٣٢) في الحيض / باب: استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة من مسك في موضع الدم.

وقال عطاء: «كانت عائشة أفقه الناس، وأحسن الناس رأيًا في العامة».

وعن عروة بن الزبير قال: «ما رأيت أحدًا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة رضي الله عنها»[(١)].

قال أبو موسى الأشعري: رضي الله عنه «ما أشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ حديث قط، فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علمًا»[(٢)].

وقال مسروق: «رأيت مشيخة أصحاب محمد ﷺ يسألونها عن الفرائض»[(٣)]. وقيل لمسروق: «كانت عائشة تحسن الفرائض ؟» قال: «والله لقد رأيت الأحبار من أصحاب محمد ﷺ يسألونها عن الفرائض»[(٤)].

وقال الحافظ أبو حفص عمر بن عبد المجيد القرشي الميانشي في كتاب «إيضاح مالا يسع المحدث جهله»: «اشتمل كتاب البخاري ومسلم على ألف حديث ومائتي حديث من الأحكام فروت عائشة من جملة الكتابين مائتين ونيفًا وتسعين حديثًا لم يخرج عن الأحكام منها إلا يسير».

قال الحاكم أبو عبد الله: «فحُمل عنها ربع الشريعة»[(٥)].

لقد كانت رضي الله عنها إحدى المجتهدات وكانت من أنفذ الناس رأيًا في أصول الدين ودقائق الكتاب المبين، وكانت رضي الله عنها تحسن أن تقرأ، ولم يكن يعرف ذلك إلا عدد محدود من أصحاب رسول الله ﷺ، وكم كان لها رضي الله عنها من استدراكات على الصحابة وملاحظات، فإذا علموا بذلك منها رجعوا إلى قولها[(٦)].

وكانت تزورها النساء في بيتها فتعلمهن، . . . وهذه المرأة المخزومية التي قُطعت يدها تقول عنها الرواية: « . . فكانت تأتي بعد ذلك إلى بيت عائشة تتفقه في دينها»[(٧)].

(١) طبقات ابن سعد (٧/ ٣٩-٥٦).
(٢) أخرجه الترمذي (٣٨٨٣)، وقال: «حسن صحيح غريب».
(٣) «الإجابة» للزركشي (ص: ٥٧).
(٤) «من أخلاق العلماء» لمحمد بن سليمان (ص: ٦١).
(٥) «الإجابة» للزركشي (ص: ٥٩).
(٦) انظر «الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة» للزركشي، و «السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين» للإمام المحب الطبري (ص: ٣٣-٣٤).
(٧) كتاب مواقف من حياة الأنبياء والصحابة والتابعين/ للمصنف (١/ ٥٢٧-٥٣٠) بتصرف.

وكانت زوجات رسول الله ﷺ جميعًا قسيمات عائشة ﵄ في إذاعة العلم وإفاضة الدين على المسلمين، مما يؤكد أن المرأة المسلمة أقبلت على العلم منذ أكرمها الله تعالى بالإسلام، كثيرة تلك الأحاديث التي روتها أمهات المؤمنين عنه ﷺ، وكثيرة تلك الأقوال المنسوبة إليهن في التفسير وفقه الحديث، وكثيرات هن النساء اللاتي حفظن كتاب الله تعالى أو حفظن كثيره، وحفظن الكثير من حديث رسول الله ﷺ، وكن يبلغن ذلك الرجال من وراء حجاب كما أمر الله تعالى :﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٣].

ولقد وُجد على مر القرون نساء تجاوزن علوم فرض العين إلى فروض الكفاية، فكانت منهن المحدثات العظيمات، والراويات الثقات، وهذا الإمام محمد بن سعد صاحب الطبقات يعقد جزءًا من كتاب «الطبقات الكبير» لراويات الحديث من النساء أتى فيه على نيف وسبعمائة امرأة روين عن رسول الله ﷺ أو عن صحابته - رضي الله عنهم-، وروى عنهم أعلام الدين وأئمة المسلمين، وكذا فعل غيره من الأئمة في مصنفاتهم.

وهل تجد موطنًا أوثق، ومُرتقى أسمق، ومنزلة أوثق من أن علي بن أبي طالب ﵁ و هو العلم الأشم الذي لا يدانيه أحد في علمه وحكمته، وقربه من رسول الله ﷺ وقرابته - يتلقى الحديث على مولاة لرسول الله ﷺ كانت تقوم على خدمته، وهي ميمونة بنت سعد ؟ فكيف بمن دون علي ﵁ ؟! [(١)].

ويروى عن أم الدرداء الفقيهة الزاهدة قولها: «لقد طلبت العبادة في كل شيء، فما أصبت لنفسي شيئًا أشفى من مجالسة العلماء ومذاكرتهم» [(٢)].

لقد تصدت المرأة لفنون العلم وشئون الأدب، وأمعنت في كل ذلك إمعانا أعيا على الرجل دركه في مواطن كثيرة، وكان لها مظهر خلقي كريم في العلم والتعليم فقد امتازت «العالمة المسلمة» بالصدق في العلم، والأمانة في الرواية، . . . واستمع إلى هذه الشهادة يشهدها واحد من عظماء العلماء ألا وهو الحافظ الذهبي وقد ألَّف كتابه «ميزان الاعتدال» في نقد رجال الحديث، خرج فيه عدة آلاف متهم من المحدثين، ثم أتبع قوله بتلك الجملة التي كتبها بخطه الواضح وقلمه العريض فقال: «وما علمت من

(١) «المرأة العربية» (٣/ ١٤١-١٤٢) بتصرف.

(٢) «الأخت المسلمة» للجوهري (ص: ٧٤)، وانظر: «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٧٧).

النساء من اتهمت ولا من تركوها»[١].

ولعل قائلًا يقول: «وما للنساء ورواية الحديث ؟ وهل تركهن الذهبي إلا من قلة أو ذلة؟»، والجواب: أن حديث رسول الله ﷺ منذ عهد عائشة ﵂ حتى عهد الذهبي ما حُفظ ولا روي بمثل ما حفظ في قلوب النساء، وروي على ألسنتهن[٢].

ما ظنكم بأدب النبوة

لئن حلّقت أم المؤمنين عائشة ﵂ عاليًا في سماء العلم ورواية الحديث، وفي الزهد والورع، لقد حلقت في سماوات البلاغة والفصاحة، وبلغت ما لم تبلغه امرأة قط في عصر النبوة، ولا في العصور بعدها.

وقد شهد بكمال وجمال وتمام فصاحة أم المؤمنين عائشة ﵂ الإمام الذهبي ﵀ فقال: ولها حظ وافر من الفصاحة والبلاغة، مع ما لها من المناقب ﵂[٣].

ولا شك بأن أمنا عائشة عليها سحائب الرضوان، قد أُسست على أساس متين من الفصاحة في البيت البكري، فقد كان أبو بكر ﵁ معروفًا بفصاحته ومعرفته الأنساب وأيام الناس؛ ثم انتقلت من بيت أبيها إلى كنف الرسول ﷺ، وصُنعت على عينه، فغدت تتأدب بأدبه، وترد موارد البيان القرآني، تنهل منه، وتعبّ عبًّا حتى أضحت كلماتها كأنها فيض من نور النبوة، فلا تكاد تقف على كلامها إلا ويتملكك العجب، ويستولي عليك الإعجاب بروعته وبيانه، ولا أدل على ذلك من رواياتها حديث الإفك الذي مر معنا، فإنه قطعة أدبية نادرة في دنيا الأدب.

والذي يبدو، أن بلاغة عائشة ﵂ كانت مضرب المثل.

وذكر أبو عمر بن عبد البر ﵀: «أنها كانت وحيدة عصرها في ثلاث علوم: علم الفقه، وعلم الطب، وعلم الشعر»[٤].

وروي عن ابن شهاب قال: حدثنا القاسم بن محمد: أن معاوية دخل على عائشة،

---

(١) ميزان الاعتدال (٤/ ٦٠٤).

(٢) بتصرف من «عودة الحجاب»/ لمحمد إسماعيل.

(٣) «تاريخ الإسلام» للذهبي (عهد معاوية - ص: ٢٤٩).

(٤) «الاستيعاب» (٤/ ١٨٨١).

فكلمها، قال: فلما قام معاوية، اتكأ على يد مولاها ذكوان، فقال: «والله، ما سمعت قط أبلغ من عائشة، ليس رسول الله ﷺ»[١].

وعن موسى بن طلحة قال: ما رأيت أحدًا أفصح من عائشة[٢].

وعن هشام عن أبيه قال: ربما روت عائشة القصيدة ستين بيتًا وأكثر[٣].

وعن أبي الزناد؛ قال: ما رأيت أحدا أروى لشعر من عروة، فقيل له: «**ما أرواك!**»، فقال: «ما روايتي في رواية عائشة ؟ ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعرًا»[٤].

وروي عن ابن سيرين عن الأحنف، قال: «سمعت خطبة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والخلفاء بعدهم، فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن منه من في عائشة[٥].

وعن الشعبي: أن عائشة قالت: رويت للبيد نحوًا من ألف بيت، وكان الشعبي يذكرها، فيتعجب من فقهها وعلمها، ثم يقول: ما ظنكم بأدب النبوة![٦].

ولعل أدب أم المؤمنين عائشة وبلاغتها له رافد أيضًا من خطب وشعر وفود العرب، فقد كانت حجرتها ملاصقة للمسجد النبوي الذي تأتيه وفود العرب من كل مكان، فتسمع ما تجود به قرائحهم، وتعي أحاديث رسول الله ﷺ لهم، وخطبه فيهم، فلا عجب، أن تحوز قصب السبق في ميدان البلاغة والفصاحة، ولهذا لم يجد زياد بن أبيه حرجًا في الإفصاح عن رأيه بأفصح الناس، عندما سأله معاوية بن أبي سفيان وعزم عليه بقوله: أي الناس أبلغ يا زياد ؟ قال زياد: أما إذا عزمت عليَّ يا أمير المؤمنين فعائشة ابنة أبي بكر أم المؤمنين رضي الله عنهما .

فقال معاوية رضي الله عنه معلقًا وموثقًا قول زياد: أي والله، ما فتحت بابًا تريد أن تغلقه إلا

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ١٨٣).
(٢) رواه الترمذي (٣٨٨٤)، وقال: حسن صحيح غريب.
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ١٨٩).
(٤) «الإصابة» (٨/ ١٨)
(٥) «المستدرك» (٤/ ١١).
(٦) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ١٩٧).

أغلقته، ولا أغلقت بابا تريد أن تفتحه إلا فتحته[(١)].

والحقيقة، فهذه قمة الإعجاز البياني في مقدرة عائشة رضي الله عنها على صوغ الكلام والمعاني والألفاظ، فكأن مقاليد البلاغة قد ذللت قطوفها لعائشة كيما تجود بأنفس نفائس الكلام، وأجود أنواع المعاني، وأحلى معاني الكلام[(٢)].

علمها بالطب

كان عروة يقول لعائشة: يا أمتاه، لا أعجب من فقهك؛ أقول: زوجة نبي الله، وابنة أبي بكر. ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس؛ أقول: ابنة أبي بكر، وكان أعلم الناس. ولكن أعجب من علمك بالطب كيف هو ومن أين هو، أو ما هو!

قال: فضربت على منكبه، وقالت: أي عرية، إن رسول الله ﷺ كان يسقم عند آخر عمره - أو في آخر عمره - وكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه، فتنعت له الأنعات، وكنت أعالجها له، فمن ثم[(٣)].

وعن هشام، عن أبيه، قال: لقد صحبت عائشة، فما رأيت أحدًا قط كان أعلم بآية أُنزلت، ولا بفريضة، ولا بسنة، ولا بشعر، ولا أروى له، ولا بيوم من أيام العرب، ولا بنسب، ولا بكذا، ولا بكذا، ولا بقضاء، ولا طب منها. قلت لها: يا خالة، الطب، من أين علمته ؟ فقالت: كنت أمرض فينعت لي الشيء، ويمرض المريض فينعت له، وأسمع الناس ينعت بعضهم لبعض، فأحفظه[(٤)].

في ظل الخلافة الإسلامية

وظلت أمنا عائشة رضي الله عنها بعد وفاة الحبيب ﷺ - على العهد صائمة قائمة عالمة بالكتاب والسُنة، يأتيها من كل حدبٍ وصَوب أهل العلم يقصدون أخذ العلم من نبعه

(١) عن «صفة الصفوة» بشيء من التصرف.

(٢) «نساء أهل البيت» (ص: ١٥٩).

(٣) رواه أحمد (٦٧/٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥٠/٢).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤٩/٢) وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات.

الصافي، فلقد كانت موسوعة نادرة لحديث النبي ﷺ فكانت تُعلم الجاهل وتهدي الحائر وتُرشد الناس إلى الفضائل ومكارم الأخلاق.

وعاشت في ظل الخلافة الإسلامية الراشدة وكانوا جميعا يعلمون قدرها ومكانتها الغالية السامقة... فهي حبيبة الحبيب ﷺ وأم المؤمنين ومنارة العلم التي فاح عبيرها على الكون كله فملأت الدنيا علمًا ودينًا وأدبًا ومعرفة وزهدًا وورعًا.

فكيف لو رأوا زماننا هذا ؟!!!

وكانت تحزن كل الحزن لموت الصالحين وظهور الفتن التي تجعل القلوب تعتصر من الألم والحزن على رحيل أهل الفضل والإيمان والتقوى.

وعن هشام بن عروة، عن أبيه: أنها أنشدت بيت لبيد:

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجرب(١)

فقالت: رحم الله لبيدًا، فكيف لو رأى زماننا هذا !.

قال عروة: رحم الله أم المؤمنين ؟ فكيف لو أدركت زماننا هذا.

قال هشام: رحم الله أبي، فكيف لو رأى زماننا هذا !

قال كاتبه: سمعناه مسلسلاً بهذا القول بإسناد مقارب(٢).

وأنا أقول: رحمهم الله جميعًا فكيف لو رأوا أهل زماننا هذا ؟!!!.

وجاءت سكرة الموت بالحق

وها هي الأحزان تتجدد مرة أخرى بموت الصدِّيق رضي الله عنه.

قالت عائشة رضي الله عنها: لما مرض أبو بكر مرضه الذي مات فيه، دخلت عليه وهو يعالج

---

(١) وبعده: يتأكلون مغالة وملاذة ويعاب قائلهم وإن لم يشغب
وهما في ديوانه ص: ١٥٣ من قصيدة يرثى بها أخاه أربد.
والأكناف: الجوانب والنواحي، والخلف: ما جاء من بعد، يقال: هو خلف سوء من أبيه بتسكين اللام، وخلف صدق من أبيه بتحريكها: إذا قام مقامه.
والملاذة مصدر: ملذه ملذًا وملاذة، والملوذ: الذي لا يصدق في مودته.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ١٩٧-١٩٨).

ما يعالج الميت ونفسه في صدره فتمثلت هذا البيت:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

فنظر إليَّ كالغضبان، ثم قال: ليس كذلك يا أم المؤمنين، ولكن قول الله أصدق: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩﴾ [ق: الآية ١٩].

ثم قال: يا عائشة: إنه ليس أحدٌ من أهلي أحب إليَّ منك، وقد كنت نحلتك حائطًا، وإن في نفسي منه شيئًا فردِّيه إلى الميراث.

قالت: نعم فرددته.

واستمر مرض أبو بكر مدة خمسة عشر يومًا حتى كان يوم الإثنين ليلة الثلاثاء في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاثة عشرة للهجرة، قالت عائشة رضي الله عنها: إن أبا بكر قال لها: في أي يوم مات رسول الله ﷺ؟ قالت: في يوم الاثنين، قال: ما شاء إني لأرجو فيما بيني وبين الليل، قال: ففيم كفنتموه؟

قالت: في ثلاثة أثواب بيض سحولية يمانية ليس فيها قميص، ولا عمامة.

فقال أبو بكر: انظري ثوبي هذا فيه ردعُ زعفران أو مشقٍ فاغسليه واجعلي معه ثوبين آخرين.

فقالت عائشة: يا أبت هذا خَلِقٌ قديم فقال: إن الحي أحق بالجديد، وإنما هو للمُهلة [١]. يعني: فترة القبر.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن أبا بكر لما حضرته الوفاة، قال: أي يوم هذا؟ قالوا: يوم الاثنين، قال: فإن مت من ليلتي فلا تنتظروا بي الغد، فإن أحبَّ الأيام والليالي إليّ أقربُها من رسول الله ﷺ [٢].

وتوفي رحمه الله وهو ابن ثلاثة وستين سنة... مُجمعٌ على ذلك في الروايات كلها، استوفى سن رسول الله ﷺ.

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٣/ ١٥٠)، ورجاله ثقات.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» رقم (١٥٠/٣)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

إيثار يفوق الخيال

وبعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه تولى عمر رضي الله عنه الإمارة فأصبح أمير المؤمنين... وعاش المسلمون في عهده في ظل العدل والرحمة وكانوا ينتقلون من نصرٍ إلى نصرٍ. وتمر الأيام ويُقتل عمر رضي الله عنه ليموت شهيدًا كما أخبره بذلك الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ.

وفي اللحظات الأخيرة من حياة الفاروق رضي الله عنه قال لابنه: يا عبد الله بن عمر انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل: يقرأ عليك عمر السلام - ولا تقل أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميرًا - وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يُدفن مع صاحبيه،... فسلم فاستأذن، ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي. فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام، ويستأذن أن يُدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي، ولأوثرنه به اليوم على نفسي.

فيا له من إيثار يفوق الخيال... إنها تؤثره بأعز ما كانت تتمناه... فرضي الله عنها وأرضاها..

حضورها يوم الجمل

ولما حدثت الفتنة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما خرجت أمنا عائشة رضي الله عنها تريد الإصلاح بين الناس والمطالبة بالقصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه.

لما أقبلت عائشة، فلما بلغت مياه بني عامر ليلًا نبحت الكلاب. فقالت: أي ماء هذا؟ قالوا: ماء الحوأب. قالت: ما أظنني إلا أنني راجعة. قال بعض من كان معها: بل تقدمين فيراك المسلمون، فيصلح الله ذات بينهم. قالت: إن رسول الله ﷺ قال ذات يوم: «**كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوأب**»[1].

قال الإمام الذهبي: ولا ريب أن عائشة ندمت ندامة كلية على مسيرها إلى البصرة وحضورها يوم الجمل، وما ظنت أن الأمر يبلغ ما بلغ[2].

---

(١) رواه أحمد (٦/٥٢)، وصححه ابن حبان (١٨٣١)، والحاكم (٣/ ١٢٠) ووافقه الذهبي.
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ١٧٧).

وعن عبد الله بن زياد الأسدي قال: «لما سار طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة بعث عليٌّ عمار بن ياسر وحسن بن علي فقدما علينا الكوفة فصعدا المنبر فكان الحسن بن علي فوق المنبر في أعلاه، وقام عمار أسفل من الحسن فاجتمعنا إليه فسمعت عمارًا يقول: إن عائشة قد سارت إلى البصرة، ووالله إنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة، ولكن الله تبارك وتعالى ابتلاكم ليعلم إياه تطيعون أم هي»[(١)][(٢)].

وحان وقت الرحيل

وبعد هذه الرحلة الطويلة من العبادة والعلم والبذل والعطاء والتضحية لدين الله ﷺ نامت الصدِّيقة الطاهرة على فراش الموت بعدما ملأت الدنيا علمًا وفقهًا وزهدًا وورعًا... فلقد آن الآوان لأمنا الغالية أن تستريح وأن تبدأ رحلتها مع النعيم المقيم فهي زوجة الحبيب ﷺ في الدنيا وفي الآخرة. فهنيئا لها ثم هنيئا لها ثم هنيئا لها.

ابن عباس رضي الله عنهما يُثني عليها عند موتها

عن عمر بن سعيد بن أبي حسين قال: حدثني ابن أبي مليكة قال: استأذن ابن عباس قبيل موتها - على عائشة وهي مغلوبة[(٣)] قالت: أخشى أن يُثني عليَّ، فقيل ابن عم رسول الله ﷺ ومن وجوه المسلمين، قالت ائذنوا له. فقال كيف تجدينك؟ قالت: بخير إن اتقيت. قال: فأنت بخير إن شاء الله تعالى، زوجة رسول الله ﷺ، ولم ينكح بكرًا غيرك، ونزل عذرك من السماء، ودخل ابن الزبير خلافه فقالت: دخل ابن عباس فأثنى

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧١٠٠) في الفتن / باب: الفتنة التي تموج كموج البحر.

(٢) في بعض الروايات: «لتتبعوه أو إياها» قال الحافظ في «الفتح» (١٠٨/٧): قيل الضمير لعلي لأنه الذي كان عمار يدعو إليه، والذي يظهر أنه لله والمراد باتباع الله اتباع حكمه الشرعي في طاعة الإمام وعدم الخروج عليه، ولعله أشار إلى قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٣] فإنه أمر حقيقي خوطب به أزواج النبي ﷺ. ولهذا كانت أم سلمة تقول: «لا يحركني ظهر بعير حتى ألقى النبي ﷺ». والعذر في ذلك عن عائشة أنها كانت متأولة هي وطلحة والزبير، وكان مرادهم إيقاع الإصلاح بين الناس وأخذ القصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه، وكان رأي علي الاجتماع على الطاعة وطلب أولياء المقتول مما يثبت عليه بشروطه.

(٣) في رواية البخاري (٣٧٧١): إن عائشة اشتكت فجاء ابن عباس فقال: يا أم المؤمنين تقدمين على فرط صدق، على رسول الله ﷺ وعلى أبي بكر.

عليَّ، وددت أني كنت نسيًا منسيًا.(١)(٢).

إلى الرفيق الأعلى

عن قيس، قال: قالت عائشة، وكانت تحدث نفسها أن تدفن في بيتها، فقالت: إني أحدثت بعد رسول الله ﷺ حدثًا، ادفنوني مع أزواجه. فدُفنت بالبقيع رضي الله عنها(٣).

قالت: تعني بالحدث: مسيرها يوم الجمل، فإنها ندمت ندامة كلية وتابت من ذلك: على أنها ما فعلت ذلك إلا متأولة قاصدة للخير، كما اجتهد طلحة بن عبيد الله، والزبير ابن العوام، وجماعة من الكبار، - رضي الله عن الجميع -.

وفي شهر رمضان من السنة الثامنة والخمسين للهجرة، ألَمَّ المرض بأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وكانت وصيتها أن تدفن بالبقيع مع صواحبها أمهات المؤمنين وآل بيت رسول الله ﷺ.

وفي ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شهر رمضان، توفيت أم المؤمنين عائشة، وصعدت روحها إلى ربها راضية مرضية، ولما سمعت أم المؤمنين أم سلمة الصرخة على عائشة قالت: والله لقد كانت أحب الناس إلى رسول الله ﷺ إلا أباها.

ودفنت من ليلتها بعد صلاة الوتر(٤).

وقدم أبو هريرة رضي الله عنه فصلى عليها، فاجتمع الناس، ونزل أهل العوالي، وحضروا جنازتها، فلم تر ليلة أكثر ناسا منها(٥).

ولا نملك ونحن نودع أمنا الغالية إلا أن نتلو قوله تعالى:

---

(١) في بعض روايات الحديث عند أحمد (١/ ٢٧٦)، وفي فضائل الصحابة (١٦٣٩)من الزيادة: وأنزل الله براءتك من السماء جاء به الروح الأمين فأصبح ليس لله مسجد من مساجد الله يذكر الله إلا يتلى فيه آناء الليل وآناء النهار. وإسناده حسن.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٧٥٣) في تفسير القرآن / باب: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾، وأحمد في فضائل الصحابة (١٦٤٤).

(٣) رواه ابن سعد (٨/ ٧٤)، والحاكم (٤/ ٦) وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) «طبقات ابن سعد» (٨/ ٧٦)

(٥) «نساء أهل البيت» (ص: ١٦٦).

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥]

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

* * *

حفصة بنت عمر رضي الله عنها

إنها صوامة قوّامة وهي زوجتك في الجنة

وها نحن نقترب أكثر وأكثر لنستنشق عبير زهرة من بستان العائلة العُمرية.

إننا على موعد مع أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب - رضي الله عنها وعن أبيها -... تلكم الزهرة التي جمع الله فيها من المكارم والفضائل ما يعجز قلمي أن يصفها أو يذكرها مجرد ذكرٍ.

فأبوها هو فاروق هذه الأمة.

إنه الرجل الكبير في بساطة... البسيط في قوة... القوي في عدل ورحمة.

إنه الرجل الذي أنجبته أرض الجزيرة، ورباه الإسلام.

إنه الناسك الورع الذي تفجر نُسكه حركةً، وذكاءً، وعملاً وبناءً.

إنه الأستاذ المعلم الذي صحح كثيرًا من مفاهيم الحياة، وكساها عظمة وروعة من خُلقه وسلوكه، وكان للمتقين إمامًا.

إنه الرجل الذي أعطى دنيا الناس كافة قدوة لا تبلى.. قدوة تتمثل في عاهل قد بركت الدنيا على عتبة داره مُثقلة بالغنائم والطيبات، فسرَّحها سراحًا جميلاً، وساقها إلى الناس سوقًا كريمًا.. يقدم إليهم طيباتها ويدرأ عنهم مضلاتها، حتى إذا نفض يديه من علائق هذا المتاع الزائل ... استأنف سيره، ومسراه مهرولاً في فترة الظهيرة الحارقة، وراء بعير من أموال الصدقة يخشى عليه الضياع، أو منحنيًا فوق قدر ليطبخ فيه طُعمة طيبة لامرأة غريبةٍ أدركها كَرْب المخاض أو لأطفال يتضورون جوعًا في ظلام الليل الدامس!!

إنه الرجل الذي تنزَّل القرآن أكثر من مرة موافقًا لرأيه، وقوله.

إنه الرجل الذي كان إسلامه فتحًا، وكانت هجرته نصرًا، وكانت ولايته عدلاً.

إنه فاروق الأمة الأواب عمر بن الخطاب(١).

(١) «أئمة الهدى ومصابيح الدجى» للشيخ محمد حسان وعوض الجزار (ص: ٢٢٩).

* وعمها هو زيد بن الخطاب الذي شهد بدرًا والمشاهد - واستُشهد في يوم اليمامة- إنه الرجل الذي قال عنه عمر رضي الله عنه: سبقني إلى الحُسنيين أسلم قبلي واستُشهد قبلي... وقال عنه: ما هبَّت الصبا إلا ذكَّرتني زيد بن الخطاب.

* وأمها زينب بنت مظعون أخت الصحابي الجليل عثمان بن مظعون رضي الله عنه الذي لما مات جاء إليه الحبيب ﷺ وقبَّله وسالت دموعه على خدّ عثمان[1]... وهو أول من دُفن بالبقيع... وهو الذي لما ماتت بنت رسول الله ﷺ قال لها: **«الحقي بسلفنا الخيِّر عثمان بن مظعون»**[2].

* وعمتها هي فاطمة بنت الخطاب رضي الله عنها وهي إحدى السابقات إلى الإسلام هي وزوجها سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة.

* وأخوها هو العابد الزاهد التقي الورع العالم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما الذي قال عنه الحبيب ﷺ: **«إن عبد الله رجلٌ صالح»**[3].

وقالت عنه أمنا عائشة رضي الله عنها: ما رأيت أحدًا ألزم للأمر الأول من ابن عمر[4].

فهل يستطيع أحدٌ أن يعبِّر بقلمه أو بلسانه عن عظمة تلك المناقب والمكارم؟!!!.

النشأة المباركة

وبعد هذه المقدمة عن تلكم العائلة العمرية التي نشأت فيها أمنا حفصة رضي الله عنها فلنا أن نتخيل كيف أنها نشأت نشأة مباركة وعاشت في ظل بيئة يندر أن نجد لها مثيلاً.

وُلدت حفصة رضي الله عنها عندما كانت قريش تجدد بناء الكعبة وذلك قبل مبعث النبي ﷺ بخمس سنين... وكان ذلك عندما حسم النبي ﷺ الخلاف بينهم على وضع الحجر الأسود مكانه، وذلك بحكمته ورأيه السديد وبصيرته الثاقبة ﷺ.

---

(١) رواه الترمذي (٩٨٩) وقال: حديث حسن صحيح، وأحمد (٦/ ٣/ ٤): وهو حسن بشاهده عند البزار.

(٢) رواه أحمد وابن سعد والحاكم وسكت عنه وقال الذهبي: سنده صالح.

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٧٤١) في المناقب / باب: مناقب عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنهما -، ومسلم (٢٤٧٨) في فضائل الصحابة / باب: فقه فضائل عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -.

(٤) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٣/ ٢١١).

ولقد كانت تحب العلم والأدب فتعلمت الكتابة من الشفاء بنت عبد الله القرشية العدوية، وظلت تطلب العلم حتى أصبحت إحدى فصيحات النساء في قريش.

إن إسلام عمر كان فتحًا

ولما أشرقت شمس الإسلام على أرض الجزيرة وكان عمر رضي الله عنه مازال على الشرك فكان الحبيب ﷺ يتمنى أن يُسلم عمر ليكونَ شوكة في ظهور المشركين فكان ﷺ يقول: **«اللهم أعزَّ الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل بن هشام، أو بعمر بن الخطاب، قال: وكان أحبهما إليه عمر»**(١).

ولقد كان إسلامه سببًا عظيمًا في ظهور الإسلام وقوته، وذلك لما كان يتميز به من القوة والشجاعة فكان لا يخاف في الله لومة لائمٍ.

قال عبد الله بن مسعود: إن إسلام عمر كان فتحًا، وإن هجرته كانت نصرًا، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتلَ قريشًا حتى صلى عند الكعبة وصلّينا معه(٢).

وهكذا دخل الإسلام إلى هذا البيت المبارك ليكون حصنًا حصينًا يذود عن الإسلام وأهله.

وهكذا عاشت تلك الأسرة العمرية المباركة في ظل هذا الدين العظيم وفي جوار هذا النبي الكريم ﷺ ينهلون من النبع الصافي ويتعلمون من هدي النبي ﷺ وأخلاقه وعبادته وسلوكه ورحمته.

زواجها من خُنيس رضي الله عنه

ولما اكتملت أنوثتها رضي الله عنها تقدَّم لها أحد السابقين إلى الإسلام (خُنيس بن حُذافة) وهو أخو (عبد الله بن حذافة رضي الله عنهما) فتزوجها خُنيس وعاشت معه في سعادة غامرة في ظل الإيمان والطاعة.

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٨٣)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٩٠٧)

(٢) أخرجه ابن سعد (١/ ٢٧٠)، والحاكم (٣/ ٨٣، ٨٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخرجاه ووافقه الذهبي.

وكان خُنيس قد أسلم قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم وكان إسلامه على يدي أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

ففروا إلى الله

واشتد إيذاء المشركين لأصحاب الحبيب ﷺ فأشار النبي ﷺ على أصحابه بالهجرة إلى أرض الحبشة فكان خُنيس ممن هاجر إلى الحبشة ثم عاد إلى مكة فلما رأى أن الإيذاء والتعذيب يزداد يومًا بعد يومٍ أخذ زوجه حفصة وهاجرا إلى يثرب (المدينة المنورة) بعدما أذن الحبيب ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة. وهناك عاش الزوجان في رحاب الأنصار وازدادت سعادتهما بهجرة النبي ﷺ إلى المدينة - الذي لما دخل المدينة أضاء منها كل شيء - وما أجملها والله من حياة مع الحبيب ﷺ.

فراق مؤلم

ولما كانت غزوة بدر التي كتب الله فيها النصر والعزة للمسلمين. . . كان خُنيس رضي الله عنه من أبطال تلك الغزوة فقد كان يشتهي ويتمنى الشهادة من أعماق قلبه فلما شارك في تلك الغزوة أصيب بجراحات كثيرة في جسده ومع ذلك ظل يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السُفلى. ولما انتهت غزوة بدر عاد خُنيس إلى المدينة متأثرًا بجراحه.

ومات هذا الصحابي الجليل الذي بذل نفسه للهوفاز بأعظم منقبة فقد صلَّى عليه الحبيب ﷺ ودفنه بالبقيع إلى جانب قبر الصحابي الجليل عثمان بن مظعون رضي الله عنه .

وهكذا كان الفراق المؤلم. . . وهكذا ترمّلت حفصة رضي الله عنها وهي في سن مبكرة وحزنت لموته حزنًا كاد أن يمزق قلبها، لكنها كانت في قمة سعادتها لأنه مات ميتة كريمة وسوف تشهد له جراحه التي كانت كلها في سبيل الله .

هكذا أصبحت أمًا المؤمنين

وتألم عمر لابنته الشابة التي ترملت في الثامنة عشرة من عمرها.

وأوجعه أن يلمح الترمل يغتال شبابها، ويمتص حيويتها، ويخنق صباها، وبدأ يشعر

بانقباض أليم كلما دخل بيته، ورأى ابنته في حزنها، فبدا له - بعد تفكير طويل - أن يختار لها زوجًا، قد تأنس إلى صحبته(١).

فعرضها أبوها على أبي بكر، فلم يُجبه بشيء؛ وعرضها على عثمان، فقال: بدا لي ألا أتزوج اليوم. فوجد عليهما، وانكسر، وشكا حاله إلى النبي ﷺ. فقال: «**يتزوج حفصة من هو خير من عثمان؛ ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة**» ثم خطبها، فزوجه عمر(٢).

وزوَّج رسول الله ﷺ عثمان بابنته أم كلثوم بعد وفاة أختها رقية.

ولما أن زوَّجها عمر، لقيه أبو بكر، فاعتذر، وقال: لا تجد عليَّ، فإن رسول الله ﷺ، كان قد ذكر حفصة؛ فلم أكن لأفشي سره، ولو تركها لتزوجتها(٣).

وتزوج رسول الله ﷺ حفصة سنة ثلاث من الهجرة قبل غزوة أحد وأصدقها أربعمائة درهم، وكان ذلك أعظم إكرام ومنةٍ وإحسان لحفصة وأبيها رضي الله عنهما.

مكانتها العالية

وكانت حفصة رضي الله عنها تحتل مكانة عالية في قلب النبي ﷺ بل وكانت منزلتها بين أزواجه أيضًا عالية.

حتى كانت أمنا عائشة رضي الله عنها تقول عنها: هي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ(٤).

غير أن حياة أزواجه الطاهرات - رضي الله عنهن - لم تخل من بعض المشاعر البشرية التي تعتريها الغيرة أو التنافس أو ما شابه ذلك، ولذا فقد كان النبي الحبيب ﷺ يعالج أموره بالتربية الإلهية في بيته مع زوجاته ومع أصحابه وأمته، ويأخذ بيد الجميع إلى جادة الصواب(٥).

---

(١) «صور من سير الصحابيات» (ص: ١١٣).
(٢) أخرجه البخاري (٩/ ١٥٢ : ١٥٣) النكاح، وابن سعد في «الطبقات» (٨٢/٨).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٥١٢٢) في النكاح / باب: عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير، وهو قطعة من الحديث السابق.
(٤) «السير» للذهبي (٢/ ٢٢٧).
(٥) «نساء مبشرات بالجنة» (ص: ٣٣٠).

وبالمثال يتضح المقال

وها هو موقف يوضح لنا كيف كانت الغيرة تظهر أحيانًا بين أزواج الحبيب ﷺ. . وكيف كان النبي ﷺ يعالج تلك الأمور بحكمة وروية ورحمة.

ففي «**الصحيحين**» من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ويمكث عندها فواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له أكلت مغافير؟ إني أجد منك ريح مغافير، قال: «**لا ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش فلن أعود وقد حلفت لا تخبري بذلك أحدًا**»[(١)].

وأخرج النسائي والحاكم[(٢)] من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى جعلها على نفسه حرامًا فأنزل الله هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١﴾ [التحريم: الآية ١][(٣)].

تسابق إلى مرضاة الحبيب ﷺ

ولقد عاشت حفصة رضي الله عنها مع الحبيب ﷺ أجمل أيام عمرها فكانت كل يوم تزداد علمًا وفقهًا وطاعة لله . . . ولِمَ لا؟ وهي التي تنهل من النبع والمعين الصافي.

ولقد كانت تتسابق مع أزواج النبي ﷺ إلى مرضاة رسول الله ﷺ فكانت لا تدخر جهدًا في إدخال السعادة والسرور عليه ﷺ فكانت كل لحظة تمر عليها وهي بجوار النبي ﷺ تجعلها تقترب من الله أكثر وأكثر، فلقد تعلمت من الحبيب ﷺ كل طاعة تُقربها من الله عز وجل.

---

(١) (متفق عليه): أخرجه البخاري (٤٩١٢) في تفسير القرآن / باب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ [التحريم: الآية ١]، ومسلم (١٤٧٤) في الطلاق / باب: وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق.

(٢) الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٩٣)، وصحح الحافظ ابن حجر في «الفتح» إسناده بعد أن عزاه إلى النسائي، قلت: وهو عند النسائي في «التفسير» حديث (٦٢٧).

(٣) ولا يمتنع أن تتعدد أسباب النزول للآية الواحدة، فتحدث جملة أمور فتنزل الآية فيها جميعًا.

وهكذا تكون الحياة الزوجية التي تجعل السعادة ترفرف على البيت.

إنها زوجة النبي ﷺ في الجنة

وفي يوم من الأيام طلَّق الحبيب ﷺ حفصة رضي الله عنها فانكسر قلبها وأظلمت الدنيا كلها في عينيها وهي لا تصدق أن زوجها وحبيبها ونبيها ﷺ قد طلَّقها... وإذا بالأمين جبريل عليه السلام ينزل بأمر من الملك عز وجل يشق السبع الطباق ليأمر الحبيب ﷺ بأن يراجعها ويردَّها مرة أخرى.

فقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ، طلق حفصة تطليقة، ثم راجعها[1] بأمر جبريل عليه السلام له بذلك، وقال: «**إنها صوامة، قوامة، وهي زوجتك في الجنة**».

ويالها من منقبة تتوارى أمامها كل المناقب خجلاً وحياءً... فهذا هو قدر أمنا حفصة رضي الله عنها عند الله عز وجل

علمها وفقهها

عُرفت أمُّنا حفصة رضي الله عنها بالعلم والفقه والتقوى، وهذه الصفات أحلتها محلاً كريمًا لدى رسول الله الكريم ﷺ، وظلت تحتفظ بالمكانة نفسها في عهد الخلافة الراشدة وخصوصًا في خلافة والدها، فكثيرًا ما كان يركن إلى آرائها وأحكامها الفقهية،... من ذلك سؤاله إياها: كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت رضي الله عنها: ستة أو أربعة أشهر[2].

وكانت أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها مرجعًا لكثير من الصحابة في مجال الحديث النبوي الشريف والعبادة، وقد كان أخوها عبد الله بن عمر المؤتسي برسول الله ﷺ يتلقى عنها ما رأته في بيت رسول الله ﷺ، أضف إلى ذلك أن سيدنا أبا بكر الصديق قد اختار أم المؤمنين حفصة من بين زوجات النبي ﷺ لتكون حافظة القرآن الذي جمعه،... ولعل اختيار سيدنا أبي بكر لها لتلك الصفات التي اجتمعت فيها من التُقى والعلم والصَّوم؛ ناهيك أنها كانت تتقن القراءة في عهدها، فقد كان قليلٌ من الرجال من يعرف القراءة والكتابة فكيف بالنساء؟ لذا فقد كانت أم المؤمنين حفصة التلميذة النبوية النجيبة التي

(١) رواه أبو داود (٢٢٨٣)، وابن ماجه (٢٠١٦)، وقال الأرنؤوط: حديث صحيح.
(٢) «حياة الصحابة» (١/٤٧٦) و «الدر المنثور» (١/٦٥٢).

نقلت كثيرًا من الأحكام النبوية إلى الناس[١].

وفاة الحبيب ﷺ

وظلت حفصة رضي الله عنها مثالاً للزوجة الوفية الصادقة التي لا تدخر جهدًا في إسعاد زوجها ﷺ.

وما زالت السعادة تخيم على هذا البيت المبارك إلى أن جاء اليوم الذي أظلم فيه الكون كله لما توفي الحبيب ﷺ فاعتصر قلبها من الحزن على وفاة النبي ﷺ الذي كان زوجها وحبيبها ونبيها ﷺ.

وظلت رضي الله عنها بعد وفاة الحبيب ﷺ على عهدها عابدة لله حتى كانت يشهد لها القريب والبعيد بفضلها في الصلاة والعبادة.

الفاروق يتولى الخلافة

ولما تولى الفاروق رضي الله عنه خلافة المسلمين لم تتغير حفصة رضي الله عنها بل ظلت تعيش حياة الزهد والتقشف تتقرب إلى الله تعالى يومًا بعد يوم بكثرة الصيام والقيام لأنها تعلم يقينا أنه لا ينفعها سلطان والدها وإنما ينفعها عملها الصالح الذي تقف به بين يدي الله عز وجل.

مقتل الفاروق رضي الله عنه

وكانت حفصة رضي الله عنها تشهد أمجاد أبيها ومآثره وزهده وورعه وعدله وفتوحاته إلى أن جاء اليوم الذي قُتل فيه بطعنات غادرة من خنجر أبي لؤلؤة المجوسي - عليه من الله ما يستحقه - ونام الفاروق في اللحظات الأخيرة من عمره المليء بالبذل والعطاء والتضحية والفداء فدخلت عليه ابنته حفصة رضي الله عنها وبكت ساعة لموته ثم خرجت وهي تحتسب أباها عند الله عز وجل.

قيل لعبد الله بن عباس: ما تقول في عمر ؟

---

(١) «نساء مبشرات بالجنة» (ص: ٣٣٦).

قال: رحمة الله على أبي حفص، كان والله حليف الإسلام، ومأوى الأيتام، ومحل الإيمان، ومنتهى الإحسان، ونادي الضعفاء، ومعقل الخلفاء، كان للحق حصنًا، وللناس عونًا، قام بحق الله صابرًا محتسبًا حتى أظهر الدين، وفتح الديار، وذُكِرَ الله عز وجل على التلال والبقاع، وقورًا لله في الرخاء والشدة، شكورًا له في كل وقت، فأعقب الله من يبغضه الندامة إلى يوم القيامة(١).

حملت أمانة القرآن على أعناقها

لقد حملت أمنا حفصة رضي الله عنها أمانة القرآن على أعناقها فهي التي اختارها أبو بكر رضي الله عنه ليحفظ عندها القرآن الذي جمعه زيد بن ثابت.. وظلت الصحف التي جُمع فيها القرآن عندها إلى عهد عثمان رضي الله عنه حتى جمعها في مصحفٍ واحدٍ.

وها هي قصة جمع القرآن

جهّز أبو بكر رضي الله عنه جيشًا بقيادة خالد بن الوليد في جمعٍ كثير من الصحابة لمحاربة (مسيلمة الكذاب) عليه من الله ما يستحقه، فحاربوه أشد محاربة إلى أن خذله الله، وقتله... وقُتل في غضون ذلك من الصحابة جماعة كثيرة من حَمَلة القرآن، قيل: سبعمائة، وقيل: أكثر وذلك في موقعة اليمامة، فبدأ التفكير في جمع القرآن قبل أن يُقتل الباقون.

ولنستمع القصة من كاتب وحي رسول الله ﷺ زيد بن ثابت رضي الله عنه(٢).

يقول زيد: أرسل إليَّ أبو بكر الصديق مقتل أهل اليمامة (أي عقب مقتل اليمامة)، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر الصديق: رضي الله عنه إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقُراء القرآن، وإني أخشى إن استحرَّ القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن.

قلت لعمر: كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟!

(١) الرياض النضرة (٣٥/١).
(٢) «أئمة الهدى ومصابيح الدجى» (٢٠٣ - ٢٠٥) للشيخ محمد حسان وعوض الجزار.

قال عمر: هذا والله خير.

فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر.

وفي رواية: يقول زيد: فقال لي أبو بكر: «**إن هذا دعاني إلى أمر، وأنت كاتب الوحي فإن تك معه اتبعتكما، وإن توافقني لا أفعل**» فاقتضى قول عمر فنفرت من ذلك[(١)]، فقال عمر كلمة: وما عليكما لو فعلتما ؟ قال: فنظرنا فقلنا: لا شيء والله ما علينا.

قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه.

فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن... قلت: كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال: هو والله خير.

ولم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُبِ[(٢)] واللِّخاف[(٣)]، وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع أحد غيره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: الآية ١٢٨]، حتى خاتمة براءة.

فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته - أي طوال حياته - ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهما[(٤)].

وفي عهد عثمان رضي الله عنه أرسل إليها ليأخذ الصحف من عندها ليجمع القرآن في مصحف واحد.

---

(١) قال ابن بطال: إنما نفر أبو بكر أولاً، ثم زيد بن ثابت ثانيًا لأنهما لم يجدا رسول الله ﷺ فعله فكرها أن يحلا أنفسهما محل من يزيد احتياطه للدين على احتياط الرسول ﷺ، فلما نبههما عمر على فائدة ذلك وأنه خشية أن يتغير الحال في المستقبل إذا لم يجمع القرآن، فيصير إلى حالة الخفاء بعد الشهرة، رجعا إليه... «فتح الباري» (٨/ ٦٣٠).

(٢) العسب: جمع عسيب، وهو جريد النخل، كانوا يكشطون الخوص ويكتبون في الطرف العريض.

(٣) اللخاف: قيل: هي الحجارة الرقاق، وقيل: هي صحائف الحجارة الرقاق.

(٤) صحيح: رواه البخاري (٤٩٨٦) في فضائل القرآن / باب: جمع القرآن، والترمذي (٣١٠٣) في التفسير، والنسائي (٥/ ٢٩٣) في المناقب.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرِك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى.

فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك.

فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق[1].

وحان وقت الرحيل

في سنة إحدى وأربعين من الهجرة النبوية، شعرت أم المؤمنين حفصة بقرب اللقاء مع الله عز وجل ومع الأحبة، ولم تمض بضعة أيام من شهر شعبان من تلك السنة حتى لحقت بالرفيق الأعلى[2].

وطار الخبر في أرجاء المدينة أن توفيت حارسة القرآن زوج النبي ﷺ، وأقبل الصحابة الكرام لتشييع جنازتها وفي مقدمتهم سيدنا أبو هريرة وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهما، وصلى عليها والي المدينة آنذاك مروان بن الحكم، ودُفنت في البقيع، ونزل في قبرها أخوها عبد الله وعاصم، وسالم وعبد الله وحمزة بنو أخيها عبد الله بن عمر - رضي الله عنهم جميعًا - . . . وكان عمرها عندما توفيت ثلاثًا وستين سنة رضي الله عنها، وكانت قد أوصت إلى أخيها عبد الله بمال وصدقة.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٩٧٨) في فضائل القرآن / باب: جمع القرآن عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) «صفة الصفوة» (٢/٤٠)، و «الطبقات» (٨/٨٦).

وهكذا رحلت أمنا حفصة رضي الله عنها بعد حياة طويلة مليئة بالعبادة والبذل والتضحية والفداء... رحلت أمنا التي قال عنها أبو نعيم: الصَّوامة القوامة المزرية بنفسها اللوامة حفصة بنت عمر بن الخطاب ورَّاثة الصحيفة الجامعة للكتاب رضي الله عنها[1].

رحلت لتلحق بزوجها وحبيبها ونبيها محمد ﷺ في جنة الرحمن... نعم فهي التي قال عنها جبريل عليه السلام للنبي ﷺ: «**إنها صوامة قوامة وهي زوجتك في الجنة**».

فرضي الله عنها وأرضاها وجعلها في صحبة الحبيب ﷺ في جنته ومستقر رحمته إنه ولي ذلك والقادر عليه.

* * *

(١) الحلية (٢/٥٠).

زينب بنت خزيمة رضي الله عنها

أم المساكين

إن الإنسان الذي يحب الخير لأخيه المسلم ويطيب نفسًا ببذل المال عند الحاجة، وبذل الروح عند الضرورة، ويضحي بمصلحته الخاصة في سبيل المصلحة العامة، ويرضى بالتقشف والشظف والحرمان، إذا كان فيه انتصار لحقٍ أو خير، بل يستمرئ المر ويستعذب العذاب، ويرحب بالموت الزؤام في سبيل ما يؤمن به من الهُدى والحق.

فليت شِعري أين يوجد هذا الإنسان ؟ ومن أي مدرسة يتخرج ؟

لعَمري أن المدرسة الفذة التي تُخَرِّج هذا الصنف من الناس هي مدرسة الإيمان.

الإيمان هو الذي يُهوِّن على الإنسان شهواته ومطالب دنياه، فإذا هو يكتفي بما يسد الجوعة من الطعام. وما يستر العورة من اللباس. وإذا هو يرضى بالقليل من المال، والمتواضع من المسكن، بل يهون على الإنسان ماله فينفقه، ومسكنه فيهجره، وأهله فيرحل عنهم، بل يهون عليه حياته نفسها.

إن كل جهد - مادي أو أدبي، نفسي أو بدني - يبذله المؤمن في سبيل الله مهما يبلغ من ضآلة حجمه فهو محسوب له في رصيد حسناته عند الله، لا يضيع منه مثقال ذرة، حتى الخطوة التي تمشيها قدمه، وحتى الفلس يُنفقه، وحتى الإحساس بالجوع أو العطش أو التعب:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة]

فلا عجب أن نرى دينًا كالإسلام يُقدم لنا - في مرحلة قوّته وازدهاره - نماذج رائعة للتضحية والبذل والكفاح والجهاد، وبأعداد هائلة، تُقدم ما تملك من نفس ومال في سبيل الله وهي قريرة العين.

وها نحن نحلّق في سماء تلكم الزهرة النقية التقية التي لم تكن أمًّا للمؤمنين فحسب... بل كانت أمًّا للمساكين. إنها الكريمة التي حُبِّب إليها الجود والإنفاق فكانت لا يأتيها درهم ولا دينار إلا أنفقته على الفقراء والمساكين حتى لُقبت بأم المساكين.

فتعالوا بنا لنفتح تلك الصفحة المباركة التي نتعرف من خلالها على أمنا الحبيبة زينب بنت خزيمة رضي الله عنها.

هكذا كانت بدايتها المباركة

لقد وُلدت ضيفتنا المباركة رضي الله عنها في مكة قبل البعثة النبوية بثلاث عشرة سنة تقريبًا وكانت رحيمة بالفقراء والمساكين... ولما أشرقت شمس الإسلام على أرض الجزيرة وجاء النبي ﷺ بهذا الدين العظيم كانت من السابقات إلى الدخول في الإسلام فكانت ممن قال الله تعالى فيهم:

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)﴾ [التوبة: الآية ١٠٠].

فعاشت في رحاب الإسلام من مهده، ورأت كيف كان المسلمون يضحون بكل شيء من أجل أن يظفروا بنعمة التوحيد، فازدادت ثباتًا واستمساكًا بدينها، فكانت صائمة قائمة عابدة لله لا تفتر لحظة عن ذكر الله ولا عن الإنفاق على الفقراء والمساكين حتى لُقبت بأم المساكين - وهي أخت أم المؤمنين ميمونة لأمها -.

زواجها قبل أن تدخل بيت النبي ﷺ

ولقد اختلف أهل العلم في أمر زواجها قبل رسول الله ﷺ... فمنهم من قال: إنها كانت زوجة لعبد الله بن جحش رضي الله عنه ومنهم من قال: إنها كانت زوجة للطفيل ابن الحارث.

عن محمد بن إسحاق قال: تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية أم المساكين، كانت قبله عند الحصين - أو عند الطفيل بن الحارث - مات بالمدينة، أول

نسائه موتًا(١).

وقال الإمام الذهبي: قُتِلَ زوجها عبد الله بن جحش يوم أُحد، فتزوجها رسول الله ﷺ؛ ولكن لم تمكث عنده إلا شهرين أو أكثر، وتوفيت ﵂. وقيل: كانت أولاً عند الطفيل بن الحارث. وما روت شيئًا.

وقال النَّسابة عليُّ بن عبد العزيز الجرجاني: كانت عند الطُّفيل، ثم خلف عليها أخوه الشَّهيد: عُبيد بن الحارث المطلبي(٢).

وهكذا أصبحت أمًا للمؤمنين

ولما استشهد زوجها في سبيل الله ما كان منها إلا أن احتسبته عند الله ورضيت بقضاء الله ﷿ فهي صاحبة القلب الذي امتلأ إيمانًا وتوكلاً ويقينًا وثقة في الله ﷿.

لقد كانت تشعر في قرارة نفسها بأن الله سيعوضها خيرًا وسيرزقها زوجًا هو خير من زوجها الأول ولكن يا تُرى من هو هذا الزوج الكريم؟!.

إنها لم يخطر ببالها لحظة واحدة أنها ستكون زوجة لسيد الأولين والآخرين ﷺ ولكن الله إذا أراد شيئًا فإنما يقول له: كُن فيكون... فما إن انقضت عدتها وإذا برسول الله ﷺ يتقدم لخطبتها وإذا بها تتساءل مع نفسها: يا تُرى من الرجل الذي يتولى أمر زواجي؟ وما هي إلا لحظات حتى قالت في نفسها: وهل هناك خيرٌ من رسول الله ﷺ فجعلت أمرها إليه فالرسول ﷺ هو خير من يتولى أمرها ويرعى شأنها.

ولقد أصدقها رسول الله ﷺ أربعمائة درهم وبنى لها حجرة متواضعة بجوار حجرة عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر - رضي الله عنهم جميعًا -.

وهكذا أصبحت زينب ﵂ أمًا للمؤمنين وزوجة لسيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله ﷺ.

هكذا ازدادت رأفة ورحمة بالمساكين

ولقد كانت أمنا زينب ﵂ رحيمة بالمساكين حتى قبل البعثة فلما أسلمت ازدادت

---

(١) قال الهيثمي في «المجمع» (١٥٣٥٨): رواه الطبراني ورجاله ثقات.
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٢١٨).

رحمة ورأفة بهم... ولما أصبحت زوجة للحبيب ﷺ ازدادت رأفة ورحمة بالمساكين فلقد كانت ترى في كل لحظة ينابيع الرحمة تتدفق من قلب الحبيب ﷺ بل كانت ترى إحسانه وعطفه على فقراء المؤمنين وكانت تسمع النبي ﷺ وهو يحضّ المسلمين على الإنفاق على الفقراء والمساكين ويرتفع بقلوبهم وأرواحهم إلى درجة الإيثار.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ما من يوم يُصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا**»(١).

وعنه عن النبي ﷺ قال: «**اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غِنى، ومن يستعفف يُعفه الله، ومن يستغنِ يُغنه الله**»(٢).

وقال ﷺ: «**صنائع المعروف تقي مصارع السوء والآفات والهلكات، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة**»(٣).

وقال رسول الله ﷺ: «**أفضل الأعمال أن تُدخل على أخيك المؤمن سرورًا، أو تقضي عنه دينًا، أو تطعمه خبزًا**»(٤).

وقال رسول الله ﷺ: «**أيما مسلم كسا مسلمًا ثوبًا على عري، كساه الله تعالى من خُضر الجنة، وأيما مسلم أطعم مسلمًا على جوعٍ، أطعمه الله تعالى يوم القيامة من ثمار الجنة، وأيما مسلم سقى مسلمًا على ظمأ، سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق المختوم**»(٥).

وقال رسول الله ﷺ: «**أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الأعمال إلى الله** عز وجل **سرورٌ**

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٤٢) في الزكاة / باب: قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾، ومسلم (١٠١٠) في الزكاة / باب: في المنفق والممسك.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٣٥٥) في النفقات / باب: وجوب النفقة على الأهل والعيال، بلفظ: «**أفضل الصدقة ما ترك غِنىً، واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول**»، تقول المرأة: إما أن تطعمني وإما أن تطلقني ويقول العبد أطعمني واستعملني ويقول الابن أطعمني إلى من تدعني فقالوا يا أبا هريرة سمعت هذا من رسول الله ﷺ قال: لا هذا من كِيسِ أبي هريرة.

وهو عن حكيم بن حزام عند البخاري (١٤٢٨) في الزكاة / باب: لا صدقة إلا عن ظهر غنى.

(٣) صحيح: رواه الحاكم عن أنس، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٦٨٩).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج»، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي هريرة، وابن عدي في «الكامل» عن ابن عمر، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٠٩٦).

(٥) رواه أحمد وأبو داود (١٦٨٢) والترمذي (٢٤٤٩) عن أبي سعيد الخدري، وقال المنذري: رواه أبو داود والترمذي من رواية أبي خالد بن يزيد الدالاني وحديثه حسن. ا.هـ.

تُدخله على مسلم، أو تكشف عنه كُربة، أو تقضي عنه دينًا، أو تطرد عنه جوعًا، ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة، أحبُّ إليَّ من أن أعتكف في المسجد شهرًا، ومن كف غضبهُ، ستر الله عورته، ومن كظم غيظًا ولو شاء أن يُمضيهُ أمضاه؛ ملأ الله قلبه رضًا يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له، أثبت الله تعالى قدمه يوم تزل الأقدام، وإن سُوء الخُلق ليُفسد العمل، كما يُفسد الخل العسل» [١].

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة غُرفًا يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام، وأفشى السلام، وصلى بالليل والناس نيام**» [٢].

فكانت تسمع هذا الكلام المبارك فتسمو نفسها ويتطلع قلبها إلى النعيم الدائم في جنة الرحمن التي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فكانت لا تدخر درهمًا ولا دينارًا. . . فهي التي كانت تُسمى في الجاهلية «**أم المساكين**» فكيف بحالها وقد أصبحت أمًا للمؤمنين؟.

جعلت وقتها كله لله

كانت السيدتان النبيلتان عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر رضي الله عنهما، أسبق من زينب أم المساكين إلى دخول البيت النبوي الطاهر الكريم؛ وكان لهاتين الكريمتين: عائشة وحفصة، مكانة كبرى، ومنزلة عظمى عند رسول الله ﷺ، ولذلك لم تستشعر عائشة، ولا حفصة، نحو الوافدة الجديدة زينب بنت خزيمة أية غيرة، أو أي شيء من دوافع الغضب الأنثوي.

وأما زينب بنت خزيمة أم المساكين، فلم تكن راغبة هي الأخرى في منافسة عائشة وحفصة اللتين سبقتاها إلى بيت النبي الكريم ﷺ.

كانت زينب بنت خزيمة عليها سحابات الرضوان، تعيش في عالم العطف والمودة والحنان، وتعيش في دفء الإسلام وعظمته، فكانت تحسّ سعادة عظيمة في رحمة

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج»، والطبراني في «الكبير» عن ابن عمر، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٦).

(٢) رواه ابن حبان في «صحيحه» وحسنهُ الألباني في «صحيح الترغيب» (١/٣٩٦).

المساكين، وفي رقّتها عليهم، ورفْقها بهم، والإحسان إليهم، فجعلت وقتها كله في عبادة الله ﷻ، ثم في رعاية ثلّة المساكين وإطعامهم، والتصدق عليهم، ولهذا غلب عليها تسمية أم المساكين، وناهيك بهذه التسمية الفضلى الفوّاحة بأريج الحنان !

نعم لقد كانت أمنا زينب بنت خزيمة رضي الله عنها خيرة من الخِيرات، طيبة من ذوي النفوس الطيبة، وما كان يخرج من حجرتها إلا الصدقات، وإلا الطاعات، فأكرم وأعظم بذلك ![1].

في رحاب الحبيب ﷺ

وعاشت أمنا زينب رضي الله عنها في رحاب الحبيب ﷺ أجمل أيام عمرها فكانت ملازمة للنبي ﷺ تأخذ من هديه ودلّه وعلمه وأخلاقه ورحمته فكانت تزداد إيمانًا يومًا بعد يوم حتى كانت لا تطمح نفسها في أي شيء من حُطام الدنيا الزائل بل كانت تشتاق إلى رضوان الله وإلى جنته التي أعدها لعباده الصالحين.

وحان وقت الرحيل

وظلت خلال هذه الفترة اليسيرة التي عاشتها في بيت النبي ﷺ عابدة صائمة قائمة لله ... ولكنها لم يطل مقامها عند رسول الله ﷺ كثيرًا فما هي إلا شهور قليلة حتى جاءت اللحظة التي نامت فيها أمنا زينب رضي الله عنها على فراش الموت لتكون أول زوجة للنبي ﷺ تموت في المدينة.

فلما ماتت تجددت الأحزان في قلب رسول الله ﷺ فتذكَّر بموتها موت خديجة رضي الله عنها سيدة نساء العالمين .

وهكذا دخلت زينب بنت خزيمة رضي الله عنها بيت رسول الله ﷺ في هدوء الأبرار وصمت العابدين، وخرجت في صمت الخاشعين لتُدفن في البقيع وتفوز بصلاة رسول الله ﷺ عليها والدعاء لها.

لقد توفيت أم المساكين، ولم تَرْوِ شيئًا عن النبي ﷺ.

(١) نساء أهل البيت (ص: ٢١٦-٢١٧) بتصرف.

قال الذهبي رحمه الله: وما رَوَتْ شيئًا[١].

وقال ابن الجوزي رحمه الله: وما نعلمها أسندت شيئًا[٢].

ولعل هذا يعود إلى انشغالها بأحوال المساكين، وإلى قلة مكثها في بيت رسول الله ﷺ.

روى الطبراني رحمه الله قال: وتوفيت - أم المساكين - ورسول الله ﷺ حيٌّ، لم تلبث معه إلا يسيرًا[٣].

وهكذا رحلت أم المساكين التي لم تبخل لحظة واحدة عليهم، بل جاءت بكل ما تملك لتجد ذلك كله عند الله الذي لا تضيع عنده الودائع... فلقد كانت تنقل عيشها من دنياها لأُخراها لتسعد في الجنة بالنعيم الذي لا ينقطع ولا يزول.

قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾[الزخرف: ٦٨-٧٣].

ولا نملك ونحن نودع أُمَّنا الغالية إلا أن نتلوا قول الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾[القمر: ٥٤-٥٥].

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

* * *

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢/٢١٨).
(٢) «المجتبى» (ص: ٩٥).
(٣) قال الهيثمي في «المجمع» (١٥٣٥٧): رواه الطبراني ورجاله ثقات.

أم سلمة رضي الله عنها

صبرٌ واحتساب ... ومكافأة من الرحيم التواب

وها نحن نطوي الصفحات الناصعات لنقف وقفة إيمانية مع تلك الصفحة البيضاء التي تجعل القلب يزداد إيمانًا ويقينًا وسعادةً وسرورًا بسيرة هذا الجيل العظيم الذي تربّى بين يدي الحبيب محمدٍ ﷺ.

ونحن على موعد مع أمنا الغالية (أم سلمة) رضي الله عنها .

قال عنها الإمام الذهبي: السيدة المحجبة الطاهرة هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مَخزوم بن يَقظة بن مُرَّة، المخزوميَّة، بنت عم خالد بن الوليد، سيف الله؛ وبنت عَمِّ أبي جَهل بن هشام.

من المهاجرات الأُول. كانت قبل النبي ﷺ عند أخيه من الرَّضاعة: أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي، الرجل الصالح[(١)].

ونحن لو ألقينا الأضواءَ على حياة أمِّ سلمة قبيل الإسلام، لألفينا أنَّها امرأة ذات شَرَفٍ وطهْرٍ في أهلها، وذات نَسَب مُعْرِقٍ في المعالي، ومَنْبَتٍ كريم حسيب في قومها بني مخزوم، ثم هي بعد ذلك كلّه ابنة واحدٍ من كرماء قريش، وأنداهم كفًّا، وأجودهم عطاء، فأبوها زادُ الرّاكب أحد الأجواد الذين سارت الأمثال والركبان بالحديث عن جودهم، فكانوا إذا سافروا، وخرج معهم النَّاس، لم يتخذوا زَادًا معهم، ولم يوقدوا نارًا لهم، فيكفونهم ويغنونهم.

ولا ريب أنَّ هند بنت أبي أميّة، قد تأثرت بهذه البيئة الكريمة التي عاشتها في مطلع فجر حياتها، ورأت ما رأت من مكانة أبيها وكرامته بين الناس، فلا عجب أن تكون هي الأخرى، ذات يد معطاء، ونفس صافية، تعرف مكامن الرحمة، فتفجر البر في نفوس الناس تفجيرًا[(٢)].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢/ ٢٠١-٢٠٢).

(٢) «نساء أهل البيت» / أحمد خليل جمعة (ص: ٢٢٥-٢٢٦) بتصرف.

نشأة عريقة ... وزيجة مباركة

نشأت هند في بيت عريق أصيل، يجمع المجد من طرفي الجودِ والشجاعة، وكانت منذ صباها وفتوتها ذات شخصية قوية تفرض احترامها، وكانت من أجمل النساء.

وحين بلغت أشدها واستوى عودها، تقدم لخطبتها أحد فتيان قريش المعدودين، وفرسانها المشهورين، وشجعانها الأبطال: عبد الله بن عبد الأسد ابن هلال بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم (أبو سلمة)، وأمه برة بنت عبد المطلب ابن هاشم عمة النبي ﷺ، وكان أبو سلمة أخًا للنبي ﷺ من الرضاع، أرضعتهما ثويبة مولاة أبي لهب، وتم الزواج، فسعدا بذلك سعادة كبرى[١].

وكانت أمّ سلمة تعيشُ حياة النَّعيمِ والرَّخاءِ، والسَّعةِ والدَّعةِ، وخفْضِ العيش، ينفق عليها زوجها ويرعاها، ويحنو عليها حُنوَّ المرضعات على الفطيم، فقد عُرفت بين أترابها بكمال طلعتها، وجمالِ روحها، ورقّةِ طبعها، ناهيك بكرم والدها الذي غطى رجال مكة وما حولها.

لكنها، وفي غضون أيام، تترك هذا النَّعيم كلّه، لتنتقل إلى نعيم رُوحي آخر، عبقت مكة كلها بأريجه، إنه عبقُ الإسلام الذي يدعو إليه محمد ﷺ، وسارعت أمُّ سلمة وزوجها إلى الإيمان بالله، فكانا من السعداء[٢].

وهكذا انتظم الزوجان في ركب الإيمان منذ المراحل الأولى.

الهجرة إلى الحبشة

وفي إحدىَ الجلسات المباركة، راحت أم المؤمنين أم سلمة تروي ذكريات الهجرة الحبشية... وحديث الهجرة إلى الحبشة - عزيزي القارئ - طويل الذيول، عريض الأكناف، ولكني أحب أن أشير إلى أنها كانت - كذلك - هجرة تبليغ، ونشر للدعوة المحمدية، تلك التي تركت أثرها وآثارها بالحوار الصدوق، الذي تولاه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه باسم سائر المسلمين المهاجرين، واستجاب لها النجاشي، وأحباره ورهبانه الذين فاضت أعينهم بالدمع مما سمعوا من الحق، وأنزل الله عز وجل فيهم قرآنا

(١) «صور من سير الصحابيات» / السحيباني (ص: ١٧٧).
(٢) «نساء أهل البيت» (ص: ٢٢٧).

يُتلى إلى أن يرث الأرض ومن عليها: ولنعد إلى مائدة أم سلمة الإيمانية، نغذي الأرواح، ونمتع الأسماع بفقرات رطبة من شذى قصة الهجرة.. لاحظ معي رقة الألفاظ، ودقة التعبير، وحسن التأليف، وسمو القصد، وكمال الرؤية السليمة للأحداث(١).

قالت أم سلمة عليها سحائب الرضوان: لما ضاقت علينا مكة وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفُتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان هو في مَنَعَةٍ من قومه وعمه، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينالُ أصحابه. فقال لهم رسول الله ﷺ: «**إن بأرض الحبشة ملكًا لا يُظلم أحدٌ عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا**»، فخرجنا إليه أرسالاً، حتى اجتمعنا فنزلنا بخير دار إلى خير جار، وأَمِنَّا على ديننا(٢). وفي رواية: أنها قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا فيها خير جار النجاشي، أَمِنَّا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نُؤذَى، ولا نسمع شيئًا نكرهه....

صبرٌ واحتساب

ولقد تحملت أم سلمة رضي الله عنها الإيذاء الشديد عند هجرتها مع زوجها إلى المدينة المنورة فصبرت واحتسبت ذلك كله عند الله .

والآن، دعونا نعيش ثانيةً رحلة الهجرة إلى المدينة المنورة مع الأسرة الصابرة، وتعالوا نستنشق عبير تلك الأحاديث العطرة التي تصل القلوب ببارئها، وتمتد إلى أغوار النفس فتربطها وشائج الحب مع الحبيب المصطفى ﷺ، ولأصحابه الكرام.

عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: لما أجمع أبو سلمة رضي الله عنه الخروج إلى المدينة، أي في الهجرة، رَحَّل لي بعيره، ثم حملني عليه، وجعل معي ابني «**سلمة بن أبي سلمة**» في حجري، ثم خرج يقود بي بعيره. فلما رأته رجال بني المغيرة قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه، علام نتركك تسير بها في البلاد ؟

(١) «نساء أهل البيت» (ص: ٢٣١).

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١١٥)، وابن هشام (١/ ٣٣٤) مطولاً. وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، وأخذوني منه. قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة، وقالوا: والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا.

قالت: فتجاذبوا ابني «سلمة» بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة.

قالت: ففُرّق بيني وبين ابني وبين زوجي.

قالت: فكنت أخرج كل غداة، فأجلس في الأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسي سنة أو قريبًا منها، حتى مَرّ بي رجل من بني عمي أحد بني المغيرة فرأى ما بي، فرحمني.

فقال لبني المغيرة: ألا تحرجون من هذه المسكينة، فرّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها ؟

قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت.

قالت: فردَّ بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني.

قالت: فارتحلتُ بعيري، ثم أخذت ابني، فوضعته في حجْري، ثم خرجتُ أريد زوجي بالمدينة.

قالت: وما معي أحد من خلق الله حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة ابن أبي طلحة أخا بني عبد الدار. فقال: إلى أين يا ابنة أبي أمية ؟ قلت: أريد زوجي بالمدينة قال: أَوَمَا معك أحد ؟ قلت: ما معي إلا الله وبني هذا.

فقال: والله ! ما لك من مترك، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوي بي، فوالله ! ما صحبتُ رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه. وكان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني حتى إذا نزلت استأخر بعيري، فحط عنه، ثم قيّده في الشجر، ثم تنحى إلى شجرة، فاضطجع تحتها.

فإذا دنا الرواح، قام إلى بعيري فقدمه فرحّله، ثم استأخر عني، وقال: اركبي، فإذا ركبت فاستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقادني حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة.

فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء، قال: زوجك في هذه القرية،

- وكان أبو سلمة بها نازلاً - فادخليها على بركة الله.. ثم انصرف راجعًا إلى مكة.

فكانت تقول: ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة؛ وما رأيتُ صاحبًا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة(١).

في رحاب الحبيب ﷺ

ولما نزلت أم سلمة مع زوجها رضي الله عنهما في رحاب الأنصار بالمدينة المنورة امتلأ قلبها بالسعادة والسرور... فلما أذن الله لرسوله ﷺ بالهجرة إلى المدينة وإذا بالسعادة تكتمل في قلب أم سلمة وزوجها رضي الله عنهما.

وفي ربوع المدينة المنورة عاش الزوجان يعبدان الله تعالى ويتزودان بزاد التقوى ويتعلمان الخير كله بين يدي الحبيب ﷺ. وعكفت أم سلمة على رعاية وتربية أولادها على حُب الله ورسوله ﷺ حتى أصبح أولادها من خيرة الصحابة الذين حازوا شرف الصُحبة وهم: زينب وعمر وسلمة ودرّة.

صفحة من أرض الشرف والبطولة

وعلى الرغم من انشغالها بعبادة ربها عز وجل ومعرفة سنة نبيها ﷺ وتربية أبنائها إلا أنها كانت تشجع زوجها دائمًا على الخروج للجهاد في سبيل إعلاء كلمة (لا إله إلا الله).

وحين قامت الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، وأُعلن الجهاد ضد أعداء الملة والدين انخرط أبو سلمة في صفوف المجاهدين في سبيل الله تحت راية رسول الله ﷺ يخوض غمار المعارك، ويبلى فيها أحسن البلاء، فكان له في بدر صولات وجولات.

ومضى عام، فإذا المشركون يتجهزون لقتال المسلمين وخرج المسلمون إلى أُحُد وهناك التقوا مع المشركين، وكان أبو سلمة رضي الله عنه من الجنود الأوفياء في الجيش المحمدي، وفي أُحُد رماه أبو أسامة الجشمي بسهم في عضده، ولما عاد المسلمون إلى المدينة مكث أبو سلمة شهرًا يداوي جرحه ويعالجه، وبجانبه زوجه الوفية أم سلمة، تقوم على رعايته وخدمته إلى أن برأ جرحه(٢).

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/ ١٦٩)، ابن هشام (٢/ ٧٥، ٧٦) وفي سنده مسلمة بن عبد الله ابن عمر بن أبي سلمة «لم يوثقه غير ابن حبان»، وقال الحافظ في «التقريب» (١/ ٣١٧): مقبول.

(٢) «تهذيب الأسماء واللغات» (٢/ ٣٦٢) بتصرف.

وهكذا عرفته أرض أُحد إذ بلّل ثراها بدمه الزكي الطاهر.

سرية أبي سلمة

ولما تجرأت بعض القبائل على المسلمين بعد غزوة أُحد أرسل النبي ﷺ سرية أبي سلمة.

وأول من قام ضد المسلمين بعد نكسة أُحُد هم بنو أسد بن خزيمة.

فقد نقلت استخبارات المدينة أن طلحة وسلمة ابني خويلد قد سارا في قومهما ومن أطاعهما، يدعون بني أسد بن خزيمة إلى حرب رسول الله ﷺ فسارع رسول الله ﷺ إلى بعث سرية قوامها مائة وخمسون مقاتلًا من المهاجرين والأنصار، وأمّر عليهم «أبا سلمة» وعقد له لواء، وباغت أبو سلمة بني أسد ابن خزيمة في ديارهم قبل أن يقوموا بغارتهم، فتشتتوا في الأمر، وأصاب المسلمون إبلًا وشاءً لهم، فاستاقوها، وعادوا إلى المدينة سالمين غانمين لم يلقوا حربًا.

كان مبعث هذه السرية حين استهل هلال المحرم سنة ٤هـ، وعاد أبو سلمة وقد نغر عليه جرح كان قد أصابه في أُحُد، فلم يلبث حتى مات[(١)].

وفاءٌ لا مثيل له

ولما نام أبو سلمة على فراش الموت دار بينه وبين زوجه أم سلمة رضي الله عنهما هذا الحوار الروحاني.

عن زياد بن أبي مريم قال: قالت أم سلمة لأبي سلمة: بلغني أنه ليس امرأة يموت زوجها، وهو من أهل الجنة، ثم لم تُزوج، إلا جمع الله بينهما في الجنة. فتعال أعاهدك ألا تزوج بعدي، ولا أتزوج بعدك. قال: أتطيعينني؟ قالت: نعم. قال: إذا مت تزوجي. اللهم ارزق أم سلمة بعدي رجلًا خيرًا مني، لا يحزنها ولا يؤذيها. فلما مات، قلت: من خير من أبي سلمة؟ فما لبثت وجاء رسول الله ﷺ، فقام على الباب فذكر الخطبة إلى ابن أخيها، أو ابنها. فقالت: أراد على رسول الله ﷺ، أو أتقدم عليه بعيالي. ثم جاء

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٢٤٣) ط. دار الريان.

الغد فخطب[(١)].

وعن عبيد بن عمير رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: قالت أم سلمة: لما مات أبو سلمة قلت: غريب وفي أرض غربة. لأبكينه بكاء يتحدث عنه. فكنت قد تهيأت للبكاء عليه إذ أقبلت امرأة من الصعيد[(٢)] تريد أن تسعدني[(٣)]. فاستقبلها رسول الله ﷺ وقال: «**أتريدين أن تُدخلي الشيطان بيتًا أخرجه الله منه ؟**» مرتين. فكففت عن البكاء فلم أبك[(٤)].

وعن أم سلمة قالت: دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شق بصره فأغمضه ثم قال: «**إن الروح إذا قُبض تبعه البصر**» فضج ناس من أهله فقال: «**لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يُؤمنون على ما تقولون**» ثم قال: «**اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يارب العالمين، وافسح له في قبره ونور له فيه**»[(٥)].

وعن أم سلمة، قالت: لما تُوفي أبو سلمة، أتيت النبي ﷺ، فقلت: كيف أقول؟ قال: «**قولي: اللهم اغفر لنا وله، وأعقبني منه عقبى صالحة**» فقلتها، فأعقبني الله محمدًا ﷺ[(٦)].

الزواج المبارك

وتأتي المنحة الربانية لتتنزل على أم سلمة فتصبح - بفضل الله - إحدى أمهات المؤمنين لتغدو من البيت الطاهر الكريم... ويا لها من منقبة لا توازيها الدنيا بكل ما فيها من متاعٍ زائل.

عن أم سلمة أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من مُسلم تُصيبه مُصيبةٌ فيقول ما أمره الله: (إنا لله وإنا إليه راجعون) اللهم أجُرني في مُصيبتي وأخلف لي خيرًا منها، إلا**

(١) رجاله ثقات وأخرجه ابن سعد (٨٨/٨) وفيه: ثم جاء الغد، فذكر الخطبة، فقلت مثل ذلك، ثم قالت لوليها: إن عاد رسول الله ﷺ، فزوِّج، فعاد رسول الله ﷺ، فتزوجها.
(٢) المراد بالصعيد هنا: عَوالي المدينة.
(٣) أي: تُساعدني في البكاء.
(٤) صحيح: رواه أحمد (٦/ ٢٨٩)، ومسلم (٩٢٢) في الجنائز / باب: البكاء على الميت.
(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٩٢٠) في الجنائز/ باب: في إغماض الميت والدعاء له إذا حُضِرَ.
(٦) صحيح: أخرجه مسلم (٩١٩) في الجنائز / باب: ما يقال عند المريض والميت، وأحمد (٦/ ٢٩١).

أخلف الله له خيرًا منها».

قالت: فلما مات أبو سلمة قلت: أي المسلمين خيرٌ من أبي سلمة ؟ وأول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ. . . ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ. قالت: أرسل رسولُ الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له فقلت: إن لي بنتًا وأنا غيورٌ قال: «**أما ابنتها فندعو الله أن يغنيها عنها، وأدعو الله أن يُذهب بالغيرة**»(١).

وفي رواية أخرى عند مسلم: فلما احُتضرَ أبو سلمة، قلت ذلك، وأردت أن أقول: «**وأبدلني خيرًا منها**» فقلت: ومن خير من أبي سلمة ؟ فلم أزل حتى قلتها، فلما انقضت عدتها، خطبها أبو بكر، فردّته، وخطبها عمر، فردته، فبعث إليها النبي ﷺ، فقالت: مرحبًا برسول الله ﷺ ! وبرسوله.

وعن عمر بن أبي سلمة: أن أم سلمة لما انقضت عدتها، خطبها أبو بكر، فردته؛ ثم عمر، فردته. فبعث إليها رسول الله. فقالت: مرحبًا، أخبر رسول الله أني غَيْرَى(٢)، وأني مُصْبية(٣)، وليس أحد من أوليائي شاهدًا.

فبعث إليها: «**أما قولك: إني مصبية؛ فإن الله سيكفيك صبيانك. وأما قولك: إني غيرى، فأدعو الله أن يذهب غيرتك، وأما الأولياء؛ فليس أحد منهم إلا سيرضى بي**».

قالت: يا عمر، قم فزوج رسول الله.

وقال رسول الله: «**أما إني لا أنقصك مما أعطيت فلانة**» رحيين وجرتين ووسادة من أدم حشوها ليف. قال: وكان رسول الله ﷺ يأتيها، فإذا جاء أخذت زينب فوضعتها في حجرها لترضعها، وكان رسول الله ﷺ حييًا كريمًا يستحيي فيرجع، فعل ذلك مرارا ففطن عمار بن ياسر لما تصنع، قال: فأقبل ذات يوم وجاء عمار، وكان أخاها لأمها، فدخل عليها، فانتشطها من حجرها وقال: دعي هذه المقبوحة المشقوحة التي آذيت بها رسول الله، فدخل، فجعل يقلب بصره في البيت يقول: «**أين زناب ؟ ما فعلت زناب ؟**» قالت: جاء عمار، فذهب بها. قال: فبنى رسول الله بأهله، ثم قال: «**إن شئت أن أسبع**

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٩١٨) في الجنائز / باب: ما يقال عند المصيبة.
(٢) غَيْرَى: كثيرة الغيرة.
(٣) مُصْبية: ذات صبيان وأولاد صغار.

لكِ سبعت للنساء»(١).

قال الإمام الذهبي: دخل بها النبي ﷺ في سنة أربع من الهجرة وكانت من أجمل النساء وأشرفهن نسبًا(٢).

في بيت الزوجية

ومن أول لحظة دخلت فيها (أم سلمة) بيت الزوجية فإذا بها تقوم بأعباء المنزل وتدبر شئونه على أفضل وجه.

عن المطلب بن عبد الله بن حنطب، قال: دخلت أيم العرب على سيد المسلمين أول العشاء عروسًا، وقامت آخر الليل تطحن - يعني: أم سلمة(٣).

وكانت عاقلة لبيبة حسنة الرأي والفهم... بل كانت تسعى دائمًا لإدخال السعادة والسرور على رسول الله ﷺ.

مكانتها عند رسول الله ﷺ

عن زينب ابنة أبي سلمة أن أم سلمة قالت: حضت وأنا مع النبي ﷺ في الخميلة(٤)، فانسللت(٥) فخرجت منها فأخذت ثياب حيضتي فلبستها، فقال لي رسول الله ﷺ: «**أنفست ؟**»(٦). قلت: نعم. فدعاني فأدخلني معه في الخميلة. قالت(٧): وحدثتني أن النبي ﷺ كان يقبلها وهو صائم. وكنت(٨) اغتسل أنا والنبي ﷺ

---

(١) أخرجه ابن سعد (٨/٩٠)، وأحمد (٦/ ٣١٣، ٣١٤، ٣١٧)، والنسائي (٦/ ٨١، ٨٢) في النكاح: باب إنكاح الابن لأمه، وإسناده صحيح كما قال الحافظ في «الإصابة» (١٣/ ٢٢٣) وصححه ابن حبان (١٢٨٢)، والحاكم (٤/١٧)، ووافقه الذهبي.
(٢) «سير أعلام النبلاء» / للذهبي (٢/ ٢٠٢).
(٣) «سير أعلام النبلاء» / للذهبي (٢/ ٢٠٥).
(٤) الخميلة: القطيفة.
(٥) أي: ذهبت في خفة.
(٦) قال الخطابي: أصل هذه الكلمة من النفس وهو الدم، إلا أنهم فرقوا بين بناء الفعل من الحيض والنفاس، فقالوا في الحيض: نفست بفتح النون، وفي الولادة بضمها... انتهى.
(٧) يعني: زينب ابنة أبي سلمة.
(٨) الكلام لأم سلمة (رضي الله عنها).

من إناء واحد من الجنابة .(١)

رجاحة عقلها

وكان لأم سلمة من المواقف التي تُظهر رجاحة عقلها الكثير والكثير وكان من بين تلك المواقف في يوم الحديبية.

قال الحافظ ابن حجر في الإصابة: وكانت أم سلمة موصوفة بالجمال البارع، والعقل البالغ، والرأي الصائب، وإشارتها على النبي ﷺ يوم الحديبية تدل على وفور عقلها وصواب رأيها.

فإنه لما صالح النبي ﷺ أهل مكة وجاءه سهيل بن عمرو ليكتب معه كتاب الهدنة والصلح، وكان من بنود هذا الصلح أنه إذا جاء رجل من المشركين يريد أن يُسلم فعلى النبي ﷺ أن يرده إلى المشركين، وإذا ذهب رجل مسلم يريد أن يلحق بالمشركين فعلى المشركين أن يقبلوه. فحزن أصحاب الحبيب ﷺ حزنًا شديدًا حتى قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال للحبيب ﷺ: «ألست نبي الله حقًّا؟ قال :«**بلى**». قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال :«**بلى**». قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذًا؟ قال: «**إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري**». قلت: أو ليس كنت تحدثنا أنَّا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال: «**بلى، أفأخبرتك أنا نأتيه العام**» ؟ قال قلت: لا. قال «**فإنك آتيه ومطوف به**». قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقا ؟ قال بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذًا ؟ قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق. قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به... قال الزهري قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**قوموا فانحروا ثم احلقوا**». قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٢) في الحيض / باب: النوم مع الحائض وهي في ثيابها، ومسلم (٢٩٦) في الحيض / باب: الاضطجاع مع الحائض في لحاف واحد والسياق للبخاري.

ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس.

وهنا جاء دور (أم سلمة) العاقلة اللبيبة التي أنقذت الصحابة - بفضل الله وحده - من الوقوع في معصية رسول الله ﷺ.

فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك ؟ اخرج، ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك: نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًا[(١)].

وبهذا نجا الصحابة الكرام من مخالفة الحبيب المصطفى ﷺ، وذلك ببركة رأي أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها التي تذكرنا بمواقف أم المؤمنين خديجة عليها سحائب الرضوان وإن نسى التاريخ فلا ينسى مواقف أم سلمة رضي الله عنها، وخصوصًا ذلك اليوم الذي يُقرن باسمها كلما ذُكر يوم الحديبية.

صاحبة القلب الرحيم

وكانت رضي الله عنها رحيمة بكل من حولها تحب أن تحمل لهم البُشرى دائمًا لتُدخل السعادة على قلوب الناس.

فهي التي حملت خبر توبة الله تعالى على (أبي لبابة) وذلك عندما أرسله الحبيب ﷺ إلى بني قريظة وكان أبو لبابة رضي الله عنه حليفًا ليهود بني قريظة في الجاهلية، فلما خانوا عهدهم مع رسول الله ﷺ في غزوة الخندق فقرر النبي ﷺ أن ينزلوا على حُكمه فيهم فأرسلوا إلى أبي لبابة فأرادوا أن يستشيروه في أمرهم وسألوه: هل ترى أن ننزل على حكم محمد ﷺ ؟ فقال لهم أبو لبابة: نعم فانزلوا وأومأ إلى حلقه بالذبح - أي أنكم إذا نزلتم على حكمه فلن يكون لكم إلا الذبح - فأحس أبو لبابة أنه قد خان الله ورسوله ﷺ فندم وعاد، فربط نفسه في عمود المسجد وقال: والله لا أذوق طعامًا ولا شرابًا حتى أموت أو يتوب الله عليَّ مما صنعت. فنزلت توبة أبي لبابة على رسول الله ﷺ وهو في بيت أم سلمة فاستأذنت النبي ﷺ في أن تبشره بتوبة الله عليه فأذن لها فقالت: يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢) في الشروط / باب: الشروط في الجهاد.

قالت أم سلمة: فثار الناس، وأسرعوا إليه ليطلقوه، ولكنَّ أبا لبابة أبَى وقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده الشريفة.

وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فلما مر عليه خارجًا إلى صلاة الصبح أطلقه، وغمر السرور أبا لبابة بأن تجاوز الله عما أسرف.

وكانت سببًا في أن يسامح النبي ﷺ ابن عمه (أبو سفيان بن الحارث) وابن عمته (عبد الله بن أبي أمية) فقد لقيا رسول الله ﷺ بالأبواء فالتمسا الدخول عليه فأعرض عنهما لما كان يلقاه منهما من شدة الأذى والهجو. وهنا تدخلت أم سلمة رضي الله عنها وكلمت الحبيب ﷺ ليسامحهما ويعفو عن زلتهما فيما مضى فقالت: يا رسول الله! لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك، وقال (علي) لأبي سفيان فيما حكاه أبو عمر: ائت رسول الله ﷺ من قبل وجهه، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ [يوسف: الآية ٩١]. فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولا. ففعل ذلك أبو سفيان، فقال له رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: الآية ٩٢] (١).

منقبة عظيمة لأم سلمة رضي الله عنها

وها هي منقبة عظيمة من مناقب أم سلمة رضي الله عنها ألا وهي أنها رأت جبريل عليه السلام.

عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: أُنبئت أن جبريل عليه السلام أتى نبي الله ﷺ وعنده أم سلمة. قال: فجعل يتحدث ثم قام. فقال نبي الله ﷺ لأم سلمة: «**من هذا ؟**» أو كما قال. قالت: هذا دحية. قال: فقالت أم سلمة: ايم الله ما حسبته إلا إياه. حتى سمعت خطبة نبي الله ﷺ يخبر خبرنا. أو كما قال: قال: فقلت لأبي عثمان: ممن سمعت هذا ؟ قال: من أسامة بن زيد(٢).

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/٤٤)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٦٣٤) في المناقب / باب: علامات النبوة في الإسلام، ومسلم (١٠٠) (٢٤٥١) في فضائل الصحابة/ باب: من فضائل أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها

قال الإمام النووي: «قوله: (إن أم سلمة رأت جبريل في صورة دحية) هو بفتح الدال وكسرها، وفيه منقبة لأم سلمة رضي الله عنها، وفيه جواز رؤية البشر الملائكة، ووقوع ذلك، ويرونهم على صورة الآدميين، لأنهم لا يقدرون على رؤيتهم على صورهم. وكان النبي ﷺ يرى جبريل على صورة دحية غالبا ورآه مرتين على صورته الأصلية[١]».

كانت تعدُّ من فقهاء الصحابيات

قال الإمام الذهبي عنها: وكانت تُعدُّ من فُقهاء الصحابيات[٢].

وكيف لا تصل إلى تلك المرتبة والمنزلة العالية وهي التي سمعت القرآن الكريم والسُنة المطهرة من فم الحبيب ﷺ.

لقد كانت ممن يُرجع إليها في بعض الأحكام والفتاوى وبخاصة فيما يخص فقه المرأة المسلمة حتى كان حَبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يرسل فيسألها عن بعض الأحكام[٣].

وأما الثروة الحديثية التي أثرت عن أم المؤمنين أم سلمة فتبلغ ثلاثمائة وثمانية وسبعين حديثًا، حفظتها عن رسول الله ﷺ.

وقد أخرج لها منها في الصحيحين (٢٩ حديثًا) والمتفق عليه (١٣ حديثا). انفرد البخاري بثلاثة أحاديث ومسلم بثلاثة عشر[٤].

جاء وقت الرحيل

كانت أم سلمة رضي الله عنها من المعمرات فقد عاشت نحوًا من تسعين سنة وعاشت الخلافة الراشدة وامتدت بها الحياة إلى عهد يزيد بن معاوية.

قال الإمام الذهبي: وكانت آخر من مات من أمهات المؤمنين.

عمرت حتى بلغها مقتل الحسين، الشهيد، فوجمت لذلك، وغشي عليها، وحزنت

---

(١) مسلم بشرح النووي (١٦/ ١١).
(٢) «السير» (٢/ ٢٠٣).
(٣) «زاد المعاد» (٢/ ٧٨).
(٤) «المجتبى من المجتنى» لابن الجوزي (ص: ٩٣).

عليه كثيرًا. لم تلبث بعده إلا يسيرًا، وانتقلت إلى الله[١]. وكان ذلك سنة إحدى وستين - على الراجح من أقوال أهل العلم -. وهكذا رحلت أم المؤمنين لتكون زوجًا للنبي ﷺ في جنة الرحمن التي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

* * *

(١) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢/ ٢٠٢).

زينب بنت جحش رضي الله عنها

أمر الله بزواجها من فوق سبع سماوات

لقد توقفت كثيرًا قبل أن أكتب ترجمة لهذه الصحابية الجليلة التي جمعت كل أنواع الفضل والبر والصلاح... فمناقبها تجعل الإنسان حائرًا لا يدري كيف يبدأ الحديث وأي المناقب يسلط عليها أضواء الكلام إذا كانت المناقب هي التي تضيء تلك الصفحات من روعتها وجمالها.

إننا على موعد مع زينب بنت جحش رضي الله عنها التي قال عنها الإمام الذهبي: وكانت من سادة النساء دينًا وورعًا وجودًا ومعروفًا(١).

وقال عنها الإمام أبو نعيم: الخاشعة الراضية الأوَّاهة الداعية(٢).

فتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا مع سيرة هذه الصحابية الجليلة أم المؤمنين عسى أن تعرف كل أخت مسلمة من خلال تلك السطور كيف تكون القدوة والأسوة.

هذا هو الفخر الحقيقي

لقد ترعرعت زينب رضي الله عنها في ربوع مكة فوجدت نفسها من علية النساء ومن فُضليات نساء مكة ومن حولها فهي التي جمعت بين النسب الأصيل والحسب الرفيع والجمال الوفير وجمع الله لها أطراف الفضل والبر... فابن خالها هو سيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله ﷺ... وجدّهما واحد هو: عبد المطلب سيد قريش في زمانه... وأخوها هو أول من دُعي بأمير المؤمنين وصاحب أول راية عُقدت في الإسلام وأحد الشهداء ألا وهو: عبد الله بن جحش رضي الله عنه... وأخوها الآخر هو أحد شعراء الإسلام أبو أحمد بن جحش رضي الله عنه.

ومن أخوالها: حمزة والعباس رضي الله عنهما فحمزة هو أسد الله وسيد الشهداء... والعباس هو الذي يبذل المال ويمنع الجار ويعين على النوائب... وأختها إحدى السابقات إلى

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٢١٢).
(٢) «الحلية» (٢/ ٥١).

الإسلام (حمنة بنت جحش) ﵂ . . . وأمها هي عمة النبي ﷺ (أميمة بنت عبد المطلب) ﵂ .

بل وهي المرأة الوحيدة التي زوجها الله ﷿ من فوق سبع سماوات.

من هنا كانت البداية

وُلدت زينب ﵂ في مكة قبل البعثة بثلاثٍ وثلاثين سنة ونشأت في بيت شرف وحسب ونسب.

وكانت نفسها تتوق إلى حياة طاهرة نظيفة بعيدة عن أدران الشرك والجاهلية. . . وبدأت نسمات الإسلام تفوح بأريجها العطر الفواح في مكة المكرمة وبدأت شمس الإسلام تضيء أرجاء الكون كله وإذا بالقلوب الطاهرة تفتح أبوابها على مصراعيها لتستقبل هذا النور الذي جاء به الحبيب ﷺ من عند ربه ﷿ .

وكان عبد الله بن جحش شقيقها يرى النبي ﷺ قبل مبعثه فكان يعجب كل العجب من رجاحة عقله وأمانته وصدقه وحُسن عشرته، ولذلك فقد كان يحمل له في قلبه قدرًا عظيمًا من المحبة والتقدير والاحترام.

ومن هنا فإنه ما إن بُعث الحبيب ﷺ حتى أسلم (عبد الله) ولم يتلكأ أو يتلعثم. . . وكان إسلامه قبل أن يدخل الحبيب ﷺ دار الأرقم، فكان من السابقين إلى الإسلام[(١)].

وقام يحمل أمانة هذا الدين ليدعو الناس من حوله إلى جنة الدنيا والآخرة فدعا أخويه فأسلما ودعا أختيه (زينب وحمنة) فأسلمتا ودخلوا جميعًا في دين الله لتكتمل السعادة في قلوبهم

هجرة وصبر واحتساب

فلما لامس الإيمان شغاف قلبها أخذت تنهل من معين القرآن والسُنة ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً وأخذت تتقرب إلى الله يومًا بعد يوم حتى أحست بأنها تعيش في جنة حقيقية - ولكن الجنة لا بد لها من الصبر والتضحية-.

فما أن علم كفار قريش بانتشار الإسلام حتى قاموا ليصبوا العذاب صبًا على أصحاب

(١) « أصحاب الرسول ﷺ» للمصنف (٢/ ٤٧٨-٤٧٩).

الحبيب ﷺ. . . ولقد تحملت زينب ونساء قومها نصيبًا من أذى قريش.

ولما أذن الله بالهجرة إلى المدينة، هاجر بنو جحش بقيادة سيدنا عبد الله بن جحش ومعه أخوه أبو أحمد بن جحش، وكان أبو أحمد هذا شاعرًا ضرير البصر، وكان معهما محمد بن عبد الله بن جحش، وهاجر معهم نساؤهم: زينب بنت جحش بطلة ترجمتنا اليوم، وحمنة بنت جحش - زوج مصعب بن عمَير - وأم حبيب بنت جحش - زوج عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنهن -.

ولما خرج بنو جحش بن رئاب من دارهم، عدا عليها أبو سفيان بن حرب، فباعها من عمرو بن عَلقمة، فلما بلغ بني جحش ما صنع أبو سفيان بدارهم، ذكر ذلك عبد الله ابن جحش لرسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «**ألا ترضى يا عبد الله أن يعطيك الله بها دارًا خيرًا منها في الجنة ؟**».

قال: بلى، قال: «**فذلك لك**»، فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة كلَّمه أبو أحمد- أخو عبد الله بن جحش - في دارهم، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال الناس لأبي أحمد: يا أبا أحمد، إن رسول الله ﷺ يكره أن ترجعوا في شيء من أموالكم أُصيب منكم في الله عز وجل، فأمسك عن كلام رسول الله ﷺ، وقال لأبي سفيان:

أبلغ أبا سفيان عن ... أمرٍ عواقبه ندامة
دار ابن عمك بعتها ... تقضي بها عنك الغرامة
وحليفكم بالله رب ... الناس مجتهد القَسامة
إذهب بها، إذهب بها ... طُوقتها طوق الحمامة[1]

في رحاب الأنصار

وعاشت زينب رضي الله عنها أجمل أيام حياتها في رحاب أخواتها من نساء الأنصار. . وماذا نقول نحن عن الأنصار بعد قول الله عز وجل عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾ [الحشر: الآية ٩].

واحتلت زينب مكانة عالية بين النساء فقد كانت كهفًا وملاذًا للمساكين والمحتاجين

(١) «السيرة» لابن هشام (٢/١٠٧-١٠٨) بتصرف.

تجود عليهم بالمال والمتاع لأنها علمت يقينًا أن المؤمن لابد أن يغرس الخير في الدنيا ليجني النعيم في الآخرة.

وكانت صوامة قوامة تصوم النهار وتقوم الليل تناجي ربها وتبكي بين يديه ﷻ وكانت بارة بمن حولها تحب الخير لكل الناس وكأن الله عز وجل يؤهلها لتكون بعد ذلك أمًّا للمؤمنين.

وما كان لمؤمن ولا مؤمنة

قال تعالى :﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٣٦]

روي أن هذه الآية نزلت في زينب بت جحش رضي الله عنها حينما أراد النبي ﷺ أن يحطم الفوارق الطبقية الموروثة في الجماعة المسلمة، فيرد الناس سواسية كأسنان المشط. لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى. وكان الموالي - وهم الرقيق المحرر - طبقة أدنى من طبقة السادة. ومن هؤلاء كان زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ الذي تبناه. فأراد رسول الله ﷺ أن يحقق المساواة الكاملة بتزويجه من شريفة من بني هاشم، قريبته ﷺ زينب بنت جحش، لُيسقط تلك الفوارق الطبقية بنفسه، في أسرته. وكانت هذه الفوارق من العمق والعنف بحيث لا يحطمها إلا فعل واقعي من رسول الله ﷺ تتخذ منه الجماعة المسلمة أسوة، وتسير البشرية كلها على هُداه في هذا الطريق.

روى ابن كثير في التفسير قال العوفي عن ابن عباس : رضي الله عنهما «**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة**»، الآية. وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة رضي الله عنه فدخل على زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها فخطبها، فقالت: لست بناكحته ! فقال رسول الله ﷺ: «**بلى فانكحيه**». قالت: يا رسول الله. أؤامر في نفسي ؟ فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله ﷺ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ [الأحزاب: الآية ٣٦] الآية. قالت: قد رضيته لي يا رسول الله منكحًا ؟ قال رسول الله ﷺ :«**نعم**»! قالت: إذن لا أعصي رسول الله ﷺ ، قد أنكحته نفسي !.

وساق زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى بني جحش عشرة دنانير وستين درهمًا، ودرعًا، وخمارا، وملحفة وإزارًا، وخمسين مُدًا من الطعام، وعشرة أمداد من التمر، أعطاه

ذلك كله الحبيب المصطفى ﷺ.

واستمرت الحياة الزوجية بينهما قرابة سنة ثم بدأت الخلافات الزوجية تنشأ بينهما مما جعل هذا الزواج يخلو من المحبة والصفاء والمودة.

وكان (زيد) يشكوها للحبيب ﷺ فكان يقول له: «**أمسك عليك زوجك واتق الله**» فكان ﷺ ينصحه بإمساكها ولكن الله يريد خلاف ذلك «والله غالب على أمره» فالله عز وجل يريد أن تكون (زينب) زوجة للحبيب ﷺ ليبطل عادة التبني ولأن العرب قبل الإسلام كانوا لا يتزوجون أزواج أدعيائهم(١) إذا قضوا منهن وطرًا فكان لابد من القضاء على تلك العادة الجاهلية.

وازدادت الفجوة بين زيد وزينب رضي الله عنهما يومًا بعد يوم حتى وصلت الحياة بينهما إلى طريق مسدود فكان لابد من الطلاق فجاء أمر الله عز وجل فأذن بطلاقها وأمر رسول الله ﷺ بزواجها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٣٧].

قال الحافظ ابن حجر في الفتح:

«وقد أخرج ابن أبي حاتم هذه القصة من طريق السُّدي فساقها سياقًا واضحًا حسنًا ولفظه «بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش، وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ أراد أن يزوجها زيد ابن حارثة مولاه فكرهت ذلك، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله ﷺ فزوجها إياه، ثم أعلم الله عز وجل نبيه ﷺ بعد أنها من أزواجه فكان يستحي أن يأمر بطلاقها، وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس، فأمره رسول الله ﷺ أن يمسك عليه زوجه وأن يتقي الله، وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا تزوج امرأة ابنه، وكان قد تبنى زيدًا».

(١) الدعي: هو من يُدعى لغير أبيه.

وعنده من طريق علي بن زيد عن علي بن الحسين بن علي قال: أعلم الله نبيه ﷺ أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد يشكوها إليه وقال له اتق الله وأمسك عليك زوجك قال الله: قد أخبرتك أني مزوجكها، وتخفي في نفسك ما الله مبديه[(١)]».

وهكذا أصبحت أمًا للمؤمنين

فلما طلق (زيد) (زينب) رضي الله عنهما وانقضت عدتها تزوجها رسول الله ﷺ لتنال أعظم منقبة في الكون كله فتكون زوجة لسيد الأولين والآخرين ﷺ ولتكون أمًا للمؤمنين.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن هذه الآية ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٧] نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة[(٢)].

وعن أنس رضي الله عنه قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد: «**فاذكرك عليَّ**» قال: فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمر عجينها قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها أن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي فقلت: يا زينب أرسل رسول الله ﷺ يذكرها قالت: ما أنا بصانعة شيئًا حتى أؤامر ربي فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن، قال: فقال: ولقد رأيتنا أن رسول الله ﷺ أطعمنا الخبز واللحم حين امتد النهار، فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام فخرج رسول الله ﷺ واتبعته فجعل يتتبع حُجر نسائه يسلم عليهن ويقلن: يا رسول الله ﷺ كيف وجدت أهلك ؟ قال: فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبرني قال: فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه فألقي الستر بيني وبينه ونزل الحجاب. قال ووعظ القوم بما وعظوا به.

زاد ابن رافع في حديثه ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٣][(٣)].

---

(١) «فتح الباري» (٨/ ٣٨٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٧٨٧) في تفسير القرآن / باب: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٧]، والترمذي (٣٢١٢)، والحاكم (٢/ ٤١٧).

(٣) أخرجه مسلم (١٤٢٨)، والنسائي (٦/ ٨٠٧٩)، وأحمد (٣/ ١٩٥-١٩٦).

فكان من بركات زينب رضي الله عنها ومن فضائلها نزول آية الحجاب بسببها وذلك في صبيحة عُرسها.

الله يأمر بزواجها من فوق سبع سماوات

والله لكأني أجد الكلمات تتوارى خجلاً وحياءً أمام تلك المنقبة العظيمة... فالله هو الذي أمر بزواجها من فوق سبع سماوات ولذلك كانت تفتخر أمنا زينب رضي الله عنها بهذه المنقبة التي لا توازيها الدنيا بكل ما فيها.

عن أنس قال جاء زيد بن حارثة يشكو فجعل النبي ﷺ يقول: «**اتق الله وأمسك عليك زوجك**». قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتمًا شيئًا لكتم هذه قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول زوّجكن أهاليكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات[(١)].

وعن عيسى بن طهمان قال: سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: نزلت آية الحجاب في زينب بنت جحش، وأطعم عليها يومئذ خبزًا ولحمًا، وكانت تفخر على نساء النبي ﷺ وكانت تقول: إن الله أنكحني في السماء[(٢)].

منزلتها عند رسول الله ﷺ

وكانت رضي الله عنها تحتل منزلة عالية في قلب رسول الله ﷺ بعد عائشة رضي الله عنها ولذلك كانت أمنا عائشة تقول عنها: «**وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ** »[(٣)].

لقد حلّقت أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها عاليًا في سماء المجد، ونالت أعلى مقامات القرب والشرف منذ دخولها البيت الطاهر، وحظيت بالمكانة العظمى عند النبي الكريم ﷺ، فقد حباها الله عز وجل من كريم الصفات، وجميل المآثر ما جعلها فريدة بين النساء.

واقتبست زينب أم المؤمنين رضي الله عنها كثيرًا من أخلاق رسول الله ﷺ، فكانت تحذو

(١) أخرجه البخاري (٧٤٢٠)، والترمذي (٣٢١٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٢١)، وأحمد (٣/٢٢٦).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠).

حذوه في طرق الخير، وخصوصًا الزهد في زخرف الدنيا، فالآخرة خير وأبقى، لذلك كانت كريمة اليد، سخية النفس، لها أخبار عطرة في الجود وفي الزهد.

وكان رسول الله ﷺ يدرك هذه الخصلة الحميدة في زوجه زينب، فكان يحلها من نفسه مكانًا عظيمًا، وقد أثنى عليها بأنها من أصحاب المعروف فكان ﷺ يقول لأزواجه، بأنها أطولهن يدًا في المعروف.

وكانت زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها كثيرة الصلاة، خاشعة القلب، موصولة دائمًا بالله عز وجل، وكان رسول الله ﷺ يحب هذه الصفات العالية فيها، وتعجبه صلاتها وصلتها بربها عز وجل [1].

وعن ثابت قال: ذكر تزويج زينب بنت جحش عند أنس فقال: ما رأيت النبي ﷺ أولم على أحد من نسائه ما أولم عليها... أولم بشاة[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يشرب عسلاً عند زينب ابنة جحش ويمكث عندها فواطأت أنا وحفصة عن أيتنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغافير؟ إني أجد منك ريح مغافير قال: **«لا ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب ابنة جحش فلن أعود وقد حلفت لا تخبري بذلك أحدًا»**[3][4].

ولهذا فقد كانت زينب -رضوان الله عليها - تعرف مكانتها، وحظوتها عند النبي الكريم ﷺ، فكانت تفتخر على نسائه بثلاث خصال.

فعن الشعبي رحمه الله قال: كانت زينب تقول للنبي ﷺ: إني لأدل عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدل بهن، إن جدي وجدك واحد، وإني أنكحنيك الله عز وجل من السماء، وإن السفير جبريل عليه السلام[5].

وهذه أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها تشير إلى مكانة ضرتها زينب عند رسول الله ﷺ فتقول: كانت زينب لرسول الله ﷺ معجبة، وكان يستكثر منها وكانت امرأة صالحة

---

(١) «نساء أهل البيت» أحمد خليل جمعة (٣٠٠ ، ٣٠١) بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري (٥١٧١)، ومسلم (١٠٤٩)، وأبو داود (٣٧٤٧).

(٣) عند البخاري (٥٢٦٧) من الزيادة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ إلى ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ﴾ لعائشة وحفصة ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾لقوله بل شربت عسلا.

(٤) أخرجه البخاري (٤٩١٢)، ومسلم (١٤٧٤)، وأبو داود (٢٧١٤).

(٥) «البداية والنهاية» (٤/ ١٤٦)، «وأنساب الأشراف» (١/ ٤٣٥).

صوامة قوامة[١].

مكانتها في قلب عائشة رضي الله عنها

ولما كانت حادثة (الإفك) التي كادت أن تعصف بقلب أمنا عائشة رضي الله عنها وإذا بأمنا زينب رضي الله عنها تقف موقفًا عظيمًا جعلها تحتل مكانًا عاليًا في قلب أمنا عائشة رضي الله عنها.

ففي الحديث الذي رواه البخاري في حادثة الإفك - وفيه -:

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب ابنة جحش عن أمري فقال: «**يا زينب ماذا علمت أو رأيت ؟**» فقالت: يا رسول الله ﷺ أَحمي سمعي وبصري ما علمت إلا خيرًا. قالت: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع[٢].

وفي الحديث الذي رواه مسلم - في جزء من حديث - قالت عائشة رضي الله عنها: «... فأرسل أزواج النبي ﷺ زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ هي التي كانت تساميني منهن في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أر امرأة قط خيرًا في الدين من زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثًا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدق به وتقرب به إلى الله تعالى ما عدا سَورة من حدٍ كانت فيها تسرع منها الفيئة»[٣].

زهدها في الدنيا وزينتها الفانية

لم تكن أم المؤمنين زينب رضي الله عنها تحفل بالمال أو بشيء من زخرف الدنيا، بل كانت تعمل بيدها، فكانت تدبغ وتخرز وتبيع ما تصنعه، وتتصدق به في سبيل الله عز وجل، ومما يشير إلى كرامتها عند الله واستجابة دعائها، ويشير أيضا إلى زهدها في المال مهما كثر ما روته شاهدة عيان عن ذلك،... لنستمع من برزة بنت رافع تحدثُنا عن هذا فتقول: لما خرج العطاء، أرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى زينب بنت جحش رضي الله عنها بالذي لها، فلما أُدخل عليها قالت: غفر الله لعمر، غيري من أخواتي كان أقوى على قسم هذا مني.

---

(١) «تهذيب الأسماء واللغات» (٢/ ٣٤٥).
(٢) أخرجه البخاري (٤٧٥٠).
(٣) أخرجه مسلم (٢٤٤٢).

قالوا: هذا كله لك، قالت: سبحان الله ! واستترت منه بثوب وقالت: صبوه واطرحوا عليه ثوبًا، ثم قالت لي: أدخلي يدك فاقبضي منه قبضة فاذهبي بها إلى بني فلان وبني فلان - من أهل رحمها وأيتامها - حتى بقيت بقية تحت الثوب، فقالت لها برزة بنت رافع: غفر الله لك يا أم المؤمنين، والله لقد كان لنا في هذا حق، فقالت: فلكم ما تحت الثوب فوجدنا تحته خمسة وثمانين درهمًا. ثم رفعت يدها إلى السماء فقالت: اللهم لا يدركني عطاء لعمر بعد عامي هذا. قال: فماتت(١).

وروى ابن سعد أنه لما حُمل إلى زينب المال جعلت تقول: اللهم لا يدركني قابل هذا المال فإنه فتنة، ثم قسمته في أهل رحمها وفي أهل الحاجة حتى أتت عليه، فبلغ ذلك عمر ﷺ فقال: هذه امرأة يُراد بها خير، فوقف على بابها وأرسل بالسلام وقال: قد بلغني ما فرقت، فأرسل إليها بألف درهم تستبقيها، فسلكت بها طريق ذلك المال - رضي الله عنها وأرضاها -(٢).

ومما يضاف إلى زهدها في الدنيا ما رواه ابن سعد في طبقاته قال: ما تركت زينب بنت جحش ﷺ درهما ولا دينارًا، كانت تتصدق بكل ما قدرت عليه، وكانت مأوى المساكين(٣).

أسرعكن لحاقًا بي أطولكن يدًا

وها هي إشارة عظيمة في حق زينب ﷺ من الحبيب الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ - وهي منقبة عظيمة لها -.

عن عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين قالت: قال رسول الله ﷺ: «**أسرعكن لحاقًا بي أطولكن يدًا**».

---

(١) «الطبقات» لابن سعد (٨/١٠٩-١١٠)، و «صفة الصفوة» (٢/٤٨-٤٩)، و «السير» (٢/٢١٢).

(٢) «حياة الصحابة» (٢/٢٣٦).

(٣) من «نساء مبشرات بالجنة» (ص: ١٦٦-١٦٧) بتصرف.

قالت: فكن يتطالون أيتهن أطول يدًا.

قالت: فكانت أطولنا يدًا زينب لأنها كانت تعمل بيدها وتَصَدَّقُ(١).

وعن عائشة: قال النبي ﷺ لأزواجه: «**يتبعني أطولكن يدًا**» فكنا إذا اجتمعنا بعده نمد أيدينا في الجدار، نتطاول، فلم نزل نفعله حتى توفيت زينب، وكانت امرأة قصيرة، لم تكن - رحمها الله - أطولنا، فعرفنا أنما أراد الصدقة. وكانت صناع اليد، فكانت تدبغ، وتخرز، وتصدق(٢).

وحان وقت الرحيل

وفي سنة عشرين من الهجرة التي توافق (٦٤١) من الميلاد، شعرت أم المؤمنين زينب - رضوان الله عليها - بقرب اللقاء مع الله، وكانت على استعداد دائم لهذا اللقاء المبارك، وقالت حين حضرتها الوفاة: إني قد أعددت كفني، ولعل عمر سيبعث إليَّ بكفن، فإن بعث بكفن فتصدقوا بأحدهما، إن استطعتم إذا دليتموني أن تصدقوا بحقوي - إزاري - فافعلوا(٣).

عن عبد الرحمن بن أبزى أنه صلى مع عمر على زينب بنت جحش فكانت أول نساء رسول الله ﷺ موتًا بعده فكبر عليها أربعا ثم أرسل إلى أزواج النبي ﷺ: من تأمرنني أن يدخلها قبرها ؟ قال: وكان يعجبه أن يكون هو يلي ذلك فأرسلن إليه من كان يراها في حياتها فيدخلها في قبرها فقال عمر بن الخطاب: صدقن(٤).

وذكر الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ أنها دُفنت بالبقيع، وصلى عليها سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ونزل في قبرها أسامة بن زيد، ومحمد بن عبد الله بن جحش، وعبد الله ابن أبي أحمد بن جحش، ومحمد بن طلحة بن عبيد الله وهو ابن أختها حمنة، فكلهم محارم رضي الله عنها(٥). وأختم تلك الترجمة بقول أمنا عائشة رضي الله عنها.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٥٢).
(٢) رواه ابن سعد (٨/١٠٨) وسنده قوي، وصححه الحاكم (٤/٢٥) ووافقه الذهبي.
(٣) طبقات ابن سعد (٨/١٠٩).
(٤) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٨/٨٨) وإسناده صحيح.
(٥) «تهذيب الأسماء واللغات» (٢/ ٣٤٥-٣٤٦).

حيث قالت: يرحم الله زينب، لقد نالت في الدنيا الشرف الذي لا يبلغه شرف، إن الله زَوَّجها، ونطق به القرآن. وإن رسول الله قال لنا: «**أسرعكن بي لحاقًا أطولكن باعًا**». فبشرها بسرعة لحوقها به، وهي زوجته في الجنة[١].

وتوفيت رضي الله عنها سنة عشرين من الهجرة وخرجت من الدنيا أمنا الحبيبة التي زَوَّجها الله من فوق سبع سماوات لتدخل جنة الرحمن التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

* * *

(١) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢/ ٢١٥).

جويرية بنت الحارث رضي الله عنها

ما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها

إن الإنسان قد يعيش زمانًا طويلاً بعيدًا عن مصدر النور والهدى فإذا قدر الله له الهداية فإنه يسلك طريق الهدى ليسلم لله بقلبه وجوارحه فيكون إيمانه سببًا في حصول الخير له في دينه ودنياه.. لكننا اليوم على موعد مع صحابية جليلة كان إسلامها سببًا في حصول الخير لمائة أهل بيت من قبيلتها.

إننا على موعد مع أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها التي كتب الله لها السعادة في الدارين وكانت مفتاحًا للخير الذي حصل لقومها.

وهكذا تكون المسلمة - التي لامس الإيمان شغاف قلبها - سببًا في حصول الخير لأمتها.

وهذا يذكرني بقصة ابنة بائعة اللبن في عهد عمر رضي الله عنه التي لما راقبت الله عز وجل جعلها الله سببًا لحصول الخير للأمة وها هي قصتها مختصرة.

أصدر عمر رضي الله عنه قانونًا يمنع غش اللبن بخلطه بالماء، ولكن هل تستطيع عين القانون أن ترى كل مخالف، وأن تقبض على كل خائن وغشاش ؟!

القانون أعجز من هذا؛ فإن عين الإنسان لها حدود لا تتجاوزها.. أما عين الله فلا يعجزها شيء.. فالإيمان بالله والمراقبة له هو الذي يعمل عمله في هذا المجال.

وهنا تُحكى القصة المشهورة حكاية الأم وابنتها: الأم تريد أن تخلط اللبن طمعًا في زيادة الربح، والبنت المؤمنة تذكرها بمنع أمير المؤمنين لهذا الأمر، فتقول الأم: وهل أمير المؤمنين يرانا ؟ فترد الابنة بهذا الجواب الذي نبع من قلب مؤمن بالله، ويعلم أن الله مطلع عليه، قالت: إن كان أمير المؤمنين لا يرانا، فرب أمير المؤمنين يرانا، فما كان من عمر الذي سمع تلك المقالة من هذه الفتاة الصالحة المراقبة لله عز وجل إلا أن قام إلى أولاده، وقال: ليذهب أحدكم إلى تلك الفتاة فليتزوجها، فإني لأرجو الله أن يُخرج من أصلابها رجلاً يوحد الله به كلمة المسلمين،... وكان الذي توقعه عمر رضي الله عنه، فقد تزوجها ابنه عاصم، فأنجبت له بنتًا سموها ليلى وكنوها بأم عاصم، ثم تزوجت ليلى

بعبد العزيز بن مروان، فأنجبت له الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز الذي قاد المسلمين إلى كل خير.. وهكذا تكون نتيجة المراقبة لله.

وقد اجتهد في مدة ولايته - مع قصرها - حتى رد المظالم، وصرف إلى كل ذي حق حقه، وكان مناديه ينادي في كل يوم: أين الغارمون ؟ أين الراغبون في الزواج؟ أين اليتامى؟ أين المساكين؟ حتى أغنى كلاً من هؤلاء ومع عدله وزهده، ورده للمظالم، وشدته على نفسه وأقاربه كان يناجي ربه فيقول: اللهم إن عمر ليس أهلاً أن تناله رحمتك، ولكن رحمتك أهل أن تنال عمر.

وأثنى عليه رجل فقال له: جزاك الله عن الإسلام خيرًا يا أمير المؤمنين فقال جزى الله الإسلام عني خيرًا[(١)].

إنه عمر الإمام العادل الذي يخرج متنكرًا ومعه غلامه مزاحم إلى مفارق طرق بعيدة تعبرها قوافل المسافرين يسأل الغادين والرائحين عن بلادهم..

يقول لرجل: «كيف تركت الناس في بلدك» ؟

فقال الرجل: إن شئت جمعت لك خبري، وإن شئت بعَّضته تبعيضًا.

فقال عمر: بل اجمعه، فقال الرجل: «تركت البلاد الظالم بها مقهور والمظلوم منصور، والغني موفور، والفقير مجبور...».

وتحدرت الدموع من عيني عمر وهو يقول لمزاحم: «والله لأن تكون البلاد كلها على ما وصف هذا الرجل، لأحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس».

قال مالك بن دينار: «لما ولي عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ قالت رعاة الشاة في ذروة الجبال: من هذا الخليفة الصالح الذي قد قام على الناس ؟

فقيل لهم: وما علمكم بذلك ؟ قالوا: إنا إذا قام على الناس خليفة صالح، كفَّت الذئاب والأُسد عن شأننا[(٢)].

وفي رواية: أنه دخل عليه راعي غنم فقال له: يا أمير المؤمنين لقد حدث عندي شيء

(١) مواقف من حياة الأنبياء والصحابة والتابعين/ للمصنف (١/ ٢٩٦ ، ٢٩٧).
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز/ لابن الجوزي (ص٩٧).

عجيب. قال له: وما ذاك ؟ فقال الراعي: إن الذئب يأتي كل ليلة لينام في حضن الغنم. فقال: «لا عجب في ذلك فلقد أصلحت ما بيني وبين ربي فأصلح الله ما بين الذئب والغنم».

وكل ذلك ثمرة من ثمرات مراقبة جدته لله . . ألا وهي (ابنة بائعة اللبن).

نشأة في أحضان النعيم

والآن بعد هذه الوقفة العابرة تعالوا بنا لنطوف في بستان هذه الصحابية الجليلة التي جمع الله لها خصال البر والخير والفضل.

ولدت جويرية ﵄ قبل الهجرة بأربعة عشر عامًا ونشأت نشأة عريقة مترفة فهي ابنة سيد قومه وزعيم قبيلته (بني المصطلق) فأبوها هو الحارث بن أبي ضرار زعيم قبيلته (بني المصطلق) وكان سيدًا مطاعًا.

وظلت ﵄ في هذا النعيم وفي تلك الرفاهية زمانًا حتى اكتملت حيويتها ونضجت أنوثتها فكانت مضربًا للأمثال في جمالها وحُسن خُلقها وأدبها حتى كان يتمناها البعيد والقريب والغني والشريف فتزوجها أحد فتيان خزاعة ألا وهو (مُسافع بن صفوان).

ولم يخطر ببالها في يوم من الأيام أن الله ﷿ سيختارها ويصطفيها لتكون مؤمنة بل ولتكون أمًّا للمؤمنين بزواجها من سيد الأولين والآخرين ﷺ.

شمس الإسلام تشرق على أرض الجزيرة

ولما أشرقت شمس الإسلام على أرض الجزيرة وبُعث النبي ﷺ وقام يدعو الناس إلى عبادة الله فاستجاب أصحاب القلوب الطاهرة وأعرض أصحاب القلوب المريضة الذين لا يريدون إلا هذا الحطام الزائل الفاني.

وبدأت قريش تصب العذاب صبًا على من أسلم من أصحاب الحبيب ﷺ فلما رأى النبي ﷺ ذلك أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة فهاجروا وعاشوا في رحاب النجاشي ذلك الملك العادل.

ولما اشتد الإيذاء بأصحاب الحبيب ﷺ أمرهم بالهجرة إلى المدينة المنورة ثم هاجر بعدهم بزمن يسير لما أذن الله له بالهجرة. . فنزل الحبيب ﷺ وأصحابه في رحاب الأنصار الذين بذلوا كل شيء لخدمة دين الملك - جل جلاله - وأراد النبي ﷺ أن

يُرسي دعائم الدولة المسلمة في المدينة المنورة لتكون قلعة للإسلام والمسلمين فتنشر عبير الإسلام وعطره على الكون كله.

ترسيخ دعائم الدولة المسلمة

ليست الأمة الإسلامية جماعة من الناس، همها أن تعيش بأي أسلوب، أو تخط طريقها في الحياة إلى أي جهة، ومادامت تجد القوت واللذة، فقد أراحت واستراحت.

كلا كلا، فالمسلمون أصحاب عقيدة تحدد صلتهم بالله، وتوضح نظرتهم إلى الحياة، وتنظم شئونهم في الداخل على أنحاء خاصة، وتسوق صلاتهم بالخارج إلى غايات معينة.

وفرق بين امرئ يقول لك: همي في الدنيا أن أحيا فحسب ! وآخر يقول لك: إذا لم أحرس الشرف، وأصن الحقوق، وأرض الله، وأغضب من أجله، فلا سعت بي قدم، ولا طرفت لي عين..

والمهاجرون إلى المدينة، لم يتحولوا عن بلدهم ابتغاء ثراء أو استعلاء.

والأنصار الذين استقبلوهم وناصبوا قومهم العداء. وأهدفوا أعناقهم للقاصي والداني، لم يفعلوا ذلك ليعيشوا كيفما اتفق..

إنهم - جميعًا - يريدون أن يستضيئوا بالوحي، وأن يحصلوا على رضوان الله وأن يحققوا الحكمة العليا التي من أجلها خُلق الناس، وقامت الحياة.

من هنا شُغل رسول الله ﷺ - أول مستقره - بالمدينة بوضع الدعائم التي لابد منها لقيام رسالته. وتبين معالمها في الشئون الآتية:

١- صلة الأمة بالله.

٢- صلة الأمة بعضها بالبعض الآخر.

٣- صلة الأمة بالأجانب عنها، ممن لا يدينون دينها.

* ففي الأمر الأول بادر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى بناء المسجد، لتظهر فيه شعائر الإسلام التي طالما حُوربت، ولتقام فيه الصلوات التي تربط المرء برب العالمين، وتنقي القلب من أدران الأرض، ودسائس الحياة الدنيا.

* أما عن الأمر الثاني - وهو صلة الأمة بعضها بالبعض الآخر - فقد أقامه

الرسولﷺ على الإخاء الكامل. الإخاء الذي تُمحى فيه كلمة «أنا» ويتحرك الفرد فيه بروح الجماعة ومصلحتها وآمالها، فلا يرى لنفسه كيانًا دونها، ولا امتدادًا إلا فيها..

ومعنى هذا الإخاء أن تذوب عصبيات الجاهلية، فلا حمية إلا للإسلام.

وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن. فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بمروءته وتقواه.

وقد جعل الرسول ﷺ هذه الأخوة عقدًا نافذًا. لا لفظًا فارغًا، وعملًا يرتبط بالدماء والأموال لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر ..!!

وكانت عواطف الإيثار والمساواة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة. وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال.

*أما الأمر الثالث، وهو صلة الأمة بالأجانب عنها، الذين لا يدينون بدينها، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام قد سن في ذلك قوانين السماح والتجاوز التي لم تعهد في عالم مليء بالتعصب والتغالي، والذي يظن أن الإسلام دين لا يقبل جوار دين آخر. وأن المسلمين قوم لا يستريحون إلا إذا انفردوا في العالم بالبقاء والتسلط هو رجل مخطئ بل متحامل جريء!.

عندما جاء النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، وجد بها يهودًا توطنوا ومشركين مستقرين.

فلم يتجه فكره إلى رسم سياسة للإبعاد أو المصادرة والخصام، بل قبل - عن طيب خاطر - وجود اليهودية والوثنية، وعرض على الفريقين أن يعاهدهم معاهدة الند للند، على أن لهم دينهم وله دينه.

واتفق المسلمون واليهود على الدفاع عن يثرب إذا هاجمها عدو. وأقرت حرية الخروج من المدينة لمن يبتغي تركها، والقعود فيها لمن يحفظ حرمتها.

نور ساطع ... وخفافيش تعبث في الظلام

وبعد أن أرسى النبي ﷺ دعائم الدولة المسلمة بدأ يفكر في القبائل التي تعيش خارج المدينة ليدعوهم إلى الإسلام فلقد بعث الله حبيبه ﷺ ليُعبَد الكون كله لله. وكان النبي ﷺ ينتقل - بإذن الله - من نصر إلى نصر حتى سمع الكون كله بالإسلام والمسلمين.

لقد عمَّ نور الإسلام الدنيا، وتساقط رذاذه على الجزيرة العربية، إلا أن بني المصطلق كانوا لا يزالون يغطون في نوم الرواسب الجاهلية، بزعامة رئيسهم الحارث بن أبي ضرار، وكانت تصك آذانهم أخبار الحروب التي نشبت بين المسلمين، وبين الأعداء الذين أقضَّ مضاجعهم صدى انتصاراتهم المدوية هنا وهناك، فتثير في نفوسهم السقيمة نعرة الطيش المتهور.

وكان بنو المصطلق من بقايا الغثاء المتخلف في الجزيرة العربية، وقد استولى عليهم الرعب، وخافوا إن هم ظلوا في موقفهم الاعتزالي المتردد المتحير، أن تدور عليهم الدائرة، وتقضي عليهم كتائب المجاهدين الموحدين، وهم في غفلتهم يترددون، أو هم ساهون أو نائمون.

بدأ الشيطان يتسلل إلى نفوسهم. ويلعب بهم، ويزين لهم أنهم أقوياء، وإذ ذاك تحركوا ليهاجموا المجتمع المسلم بقيادة قائده الأعظم الحبيب المصطفى ﷺ وأخذوا يعدون العدة لذلك، ويتأهبون بكل ما قدروا؛ وما يقدرون عليه من الرجال، والعدة، والسلاح، والمؤن، كيما يهاجموا قوة هذا المجتمع المنتصر.

ومشى زعيمهم ورجالهم الذين أخذتهم العزة بالإثم، مشوا في أحياء بقايا غسالات القبائل، ونفايات العشائر، يجمعونها معهم لتجربة حظهم في رد السيل الجارف الذي اكتسح أمامه كل قوى الجاهلية الوثنية المعتمدة، وأزال كل العقبات من طريق دعوته، وأضاء الدنيا بتبليغ رسالته، رسالة الحق والعدل، والنور والهدى[(١)].

غزوة بني المصطلق

كانت هذه الغزوة في شعبان سنة ستة من الهجرة على أصح الاقوال وسببها: أنه بلغه ﷺ أن رئيس بني المصطلق الحارث بن أبي ضرار سار في قومه ومن قدر عليه من العرب يريدون حرب رسول الله ﷺ فبعث بريدة بن الحصيب الأسلمي، لتحقيق الخبر، فأتاهم، ولقي الحارث بن أبي ضرار وكلمه ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر.

(١) نساء أهل البيت/ أحمد خليل جمعة (ص ٣١٩).

وبعد أن تأكد لديه ﷺ صحة الخبر ندب الصحابة، وأسرع في الخروج، وكان خروجه لليلتين خلتا من شعبان، وخرج معه جماعة من المنافقين لم يخرجوا في غزاة قبلها واستعمل على المدينة زيد بن حارثة، وقيل أبا ذر، وقيل نميلة بن عبد الله الليثي، وكان الحارث بن أبي ضرار قد وجه عينا ليأتيه بخبر الجيش الإسلامي، فألقى المسلمون عليه القبض وقتلوه.

ولما بلغ الحارث بن أبي ضرار ومن معه مسير رسول الله ﷺ وقتله عينه، خافوا خوفا شديدًا، وتفرق عنهم من كان معهم من العرب، وانتهى رسول الله ﷺ إلى المريسيع - اسم لماء من مياههم في ناحية قديد إلى الساحل - فتهيئوا للقتال، وصفَّ رسول الله ﷺ أصحابه، وراية المهاجرين مع أبي بكر الصديق، وراية الأنصار مع سعد بن عبادة، فتراموا بالنبل ساعة، ثم أمر رسول الله ﷺ فحملوا حملة رجل واحد، فكانت النصرة.

وانهزم المشركون، وقُتل من قُتل وسبى رسول الله ﷺ النساء والذراري والنعم والشاء، ولم يُقتل من المسلمين إلا رجل واحد، قتله رجل من الأنصار ظنًا منه أنه من العدو (١).

وروى البخاري عن ابن عون أنه قال: «كتبت إلى نافع فكتب إلي: إن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون وأنعامهم تسقى على الماء فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وأصاب يومئذ جويرية... حدثني به ابن عمر وكان في ذلك الجيش» (٢).

وكان مسافع بن صفوان زوج جويرية بنت الحارث من العشرة الذين جندلتهم السيوف المسلمة، وأسروا سائرهم، وكانوا سبعمائة رجل، وغنموا أموالهم، وسبوا نساءهم وذراريهم، واستقوا نعمهم وشاءهم، ونصر الله عَزَّوَجَلَّ رسوله نصرًا عزيزًا.

وكان من جملة السبي جويرية بنت الحارث - بنت زعيم القبيلة -.

كان إسلامها وزواجها سببًا في حصول الخير لقومها

عن عائشة أم المؤمنين قالت: لما قسم رسول الله سبايا بني المصطلق وقعت جويرية

---

(١) الرحيق المختوم/ للمباركفوري (ص ٣٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ٢٠٢) العتق، ومسلم (١٢/ ٣٥ ، ٣٦) الجهاد والسير.

بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له وكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حلوة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها قالت:

فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت فدخلت عليه فقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له، فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على كتابتي قال: «**فهل لك في خير من ذلك ؟**» قالت: وما هو يا رسول الله؟. . . «**أقضي كتابتك وأتزوجك**» قالت: نعم يا رسول الله قال: «**قد فعلت**» قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله تزوج جويرية بنت الحارث فقال الناس: أصهار رسول الله فأرسلوا ما بأيديهم قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها(١).

الله أكبر . . أي نعيم وأي فخر هذا الذي نالته أم المؤمنين (جويرية). فمنذ لحظات كانت امرأة في السبي وفجأة تتنزل المنحة الإلهية لتجعلها مؤمنة تسير بقلبها وجوارحها في قافلة الإيمان بل تجعلها في مقدمة القافلة مع زوجها الذي قاد الكون كله للإيمان برب هذا الكون. . . محمد بن عبد الله ﷺ.

ودخلت بيت النبوة

وبعد ما كانت جويرية رضي الله عنها تعيش في قصر أبيها ثم في قصر زوجها (مسافع) انتقلت الآن إلى بيت أعظم زوج في الدنيا كلها - محمد بن عبد الله ﷺ - الذي لم يكن يملك قصرًا ولا متاعًا زائلًا، وإنما كان يملك سعادة الدنيا والآخرة - بإذن الله - تلكم السعادة التي تكمن في شيء واحد ألا وهو: أن تتحقق العبودية لله .

ودخلت رضي الله عنها إلى خدرها لتكون أمًّا للمؤمنين وزوجًا لسيد الأولين والآخرين.

وعاشت أجمل أيام عمرها في هذا البيت المتواضع ونسيت حياة الترف والثراء التي

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٢٧٧) وأبو داود (٣٩٣١) وإسناده صحيح.

كانت تحياها من قبل . . فالدنيا كلها لا تساوي لحظة واحدة تقضيها بجوار الحبيب ﷺ الذي لو خُيِّر أي مسلم بين دنياه كلها وبين نظرة واحدة في وجه الحبيب ﷺ لاختار تلك النظرة الغالية فكيف بمن تعيش معه وتصبح زوجة له لتكون من أهل البيت اللاتي قال الله تعالى فيهن :﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [الأحزاب: الآية ٣٣]

وها هي تنهل من النبع الصافي

وكانت جويرية رضي الله عنها من القانتات العابدات الصائمات القائمات. . . وكانت لا تفتر أبدًا عن ذكر رب الأرض والسماوات.

وكانت تقتبس كل يوم نورًا من الهدي النبوي فكان النبي ﷺ يعلمها من القرآن ومن السنة ما يجعلها تعبد الله على علم، وكان النبي ﷺ كلما رآها يعلمها شيئًا جديدًا لكي تزداد علمًا وإيمانًا وثباتًا على الحق الذي تحياه.

عن جويرية بنت الحارث: أن النبي ﷺ دخل عليها يوم جمعة، وهي صائمة، فقال لها، «**أصمت أمس**» ؟ قالت: لا. قال: «**أتريدين أن تصومي غدًا**» ؟ قالت: لا. قال: «**فأفطري**»(١).

وعنها رضي الله عنها أنها قالت: أتى عليَّ رسول الله ﷺ غدوة وأنا أسبح ثم انطلق لحاجته ثم رجع قريبًا من نصف النهار، فقال: «**أما زلت قاعدة**» ؟ قلت: نعم. قال: «**ألا أعلمك كلمات لو عدلن بهن عدلتهن، أو وزن وزنتهن**»

- يعني جميع ما سبَّحت -: «**سبحان الله عدد خلقه، ثلاث مرات، سبحان الله زنة عرشه، ثلاث مرات، سبحان الله رضا نفسه، ثلاث مرات، سبحان الله مداد كلماته، ثلاث مرات**»(٢).

وفاة الحبيب ﷺ

وهكذا تنقضي الأيام مسرعة. . . فقد عاشت جويرية رضي الله عنها أغلى وأحلى أيامها في

(١) أخرجه البخاري (٤/ ٢٠٣) الصوم، وأبو داود (٢٤٢٢)، وأحمد (٦/ ٤٣٠).
(٢) أخرجه مسلم (٢٧٢٦) الذكر والدعاء، وأحمد (٦/ ٣٢٤-٣٢٧).

رحاب الحبيب ﷺ ولكن سرعان ما جاءت الأحزان تطرق الأبواب ليفترق الأحباب... مات رسول الله ﷺ الذي كان لها زوجًا وحبيبًا ورسولاً ومعلمًا.. ففقدت كل ذلك في لحظة واحدة فحزنت عليه حزنًا كاد أن يمزق قلبها ولكنها احتسبته عند الله لتفوز بأجر الصابرين الذين ينالون الأجر يوم القيامة بغير حساب.

وعاشت في ظل الخلافة الراشدة.. وكان الخلفاء يعرفون قدرها ومكانتها فكانت رضي الله عنها تحظى بكل تقدير واحترام.

وحان وقت الرحيل

وعاشت أمنا جويرية بعد رسول الله ﷺ راضية مرضية، قضت شطر حياتها في أفياء عدل خلفاء النبي ﷺ ومع أزواج النبي الطاهرات، وكانت حياتها منعمة بالعلم والذكر والدعاء والتسبيح، وتلقين العلم لأهل العلم الذي ينشدون مآربهم العلمية في المدينة المنورة، ويقصدون منارات العلم، وشوامخ الرواة، ومن هؤلاء زوجات النبي الطاهرات رضي الله عنهن.

وكانت جويرية أم المؤمنين بما حفظته عن رسول الله ﷺ تحكي بعض الذكريات عن حياتها مع الرسول ﷺ، أو تتحدث عن قصة زواجها من رسول الله ﷺ.

وامتدت حياة أم المؤمنين جويرية رضي الله عنها إلى خلافة سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما وقد بلغت سبعين سنة.

ففي سنة خمسين[١] من الهجرة النبوية الشريفة، شعرت أم المؤمنين جويرية رضي الله عنها بقرب لقاء الله عز وجل، وشعرت بالمرض يدب في جسدها، وفي شهر ربيع الأول من السنة نفسها توفيت أم المؤمنين جويرية رضي الله عنها، وشيع جثمانها إلى البقيع لترقد إلى جانب أمهات المؤمنين، وبنات الحبيب الأعظم ﷺ،... وصلى عليها مروان بن الحكم، وكان إذ ذاك أمير المدينة المنورة[٢].

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

* * *

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ١٢٠) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٣) والمواهب اللدنية (٢/ ٩١).

(٢) نساء أهل البيت (ص ٣٣٧ ، ٣٣٨).

رملة بنت أبي سفيان
(أم حبيبة)

هاجرت واحتسبت ... فكافأها الله في غُربتها

لقد حفل التاريخ الإسلامي بنماذج مشرقة من سلفنا الصالح تطيب القلوب بذكرهم وتأنس بسيرتهم.

ولقد كنت أشعر بغربة شديدة - عندما كنت أكتب كتاب أصحاب الرسول ﷺ- واليوم تتجدد غُربتي وأنا أكتب عن الصحابيات - رضي الله عنهن -. . . فعندما نذكر سلفنا الصالح ثم ننظر إلى أحوال أمتنا نشعر بالبَون الشاسع والفرق الكبير بين أحوالنا وأحوالهم.

ونحن اليوم على موعدٍ مع صحابية جليلة هاجرت إلى بلاد الحبشة فرارًا بدينها لتظفر بنعمة التوحيد فلما ارتد زوجها هناك عن الإسلام صبرت واحتسبت وفارقت زوجها الذي ترك دينه. . . وظلت قابضة على دينها وهي تعيش بين غربة الوطن وغربة الأهل. فلقد أصبحت وحيدة في بلد الغربة لكنها كانت تأنس بربها عز وجل فنسيت غربتها وزالت وَحشتها. . . وما هي إلا أيام حتى تنزلت عليها منحة ربانية وأرسل النبي ﷺ ليعقد عليها في بلاد الحبشة فأصبحت أمًّا للمؤمنين وزوجة لسيد الأولين والآخرين.

وهكذا: من ترك شيئًا لله عوَّضه الله خيرًا منه.

إننا اليوم على موعدٍ مع أمنا الحبيبة (أم حبيبة) رضي الله عنها فتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا مع سيرتها العطرة.

بطاقة تعارف

إنها السيدة المحببة: رَملة بنت أبي سفيان بن حرب.

وهي من بنات عم الرسول ﷺ، ليس في أزواجه من هي أقرب نسبًا إليه منها، ولا

في نسائه من هي أكثر صداقًا منها، ولا من تزوج بها وهي نائية الدار أبعد منها.

عُقد له ﷺ عليها بالحبشة، وأصدقها عنه صاحب الحبشة أربع مائة دينار، وجهزها بأشياء(١).

وربك يخلق ما يشاء ويختار

إن الله عز وجل يعلم من الذي يستحق أن يكون عبدًا له ومن الذي لا يستحق أن يكون عبدًا له... فنعمة العبودية نعمة عظيمة لا تعادلها نعمة في الوجود.

وعلى الرغم من أن ضيفتنا المباركة (أم حبيبة) كانت ابنة أبي سفيان الذي كان وقتها مشركًا وظل زمانًا طويلاً على الشرك إلا أن الله عز وجل الذي يخلق ما يشاء ويختار - قد اختار أم حبيبة لا لتكون مؤمنة فحسب بل لتكون أمًّا للمؤمنين -.

وأبو سفيان كان سيدًا من سادات قريش ولم يكن يخطر بباله لحظة واحدة أن هناك من يستطيع أن يخالف أمره أو يخرج عن سلطانه لكن ابنته (رملة) التي تُكنى بـ(أم حبيبة) شرح الله صدرها للإسلام فاستجابت لدعوة الحق من أول لحظة وأسلمت لله وتركت دين الآباء والأجداد ونبذت الأصنام التي كانوا يسجدون لها من دون الله عز وجل.

وحاول أبو سفيان بكل ما أوتي من قوة أن يردَّ ابنته وزوجها إلى دين الآباء والأجداد فلم يستطع لأن الإيمان إذا لامس شغاف القلوب فلا يستطيع الكون كله - ولو اجتمع - أن يقتلع الإيمان من هذه القلوب التي رسخ فيها الإيمان وعمقت جذوره.

الهجرة إلى الحبشة

ولما تيقنت قريش من أن أبا سفيان عاجز عن أن يردَّ ابنته وزوجها (عبيد الله بن جحش) إلى دين الآباء... وأنه أصبح ساخطًا على ابنته وزوجها اجترأت عليهما وبدأت تضيِّق عليهما الخناق.

ولم يكن هذا التضييق خاصًا بهما بل لسائر المستضعفين من المسلمين فلقد قرر المشركون ألا يألوا جهدًا في محاربة الإسلام وإيذاء الداخلين فيه والتعرض لهم بألوان النكال والإيلام. ومنذ جهر الرسول بالدعوة إلى الله، وعالن قومه بضلال ما ورثوه عن

(١) سير أعلام النبلاء/ للذهبي (٢/ ٢١٨، ٢١٩).

آبائهم. انفجرت مكة بمشاعر الغضب وظلت عشرة أعوام تعد المسلمين عصاة ثائرين، فزلزلت الأرض من تحت أقدامهم، واستباحت في الحرم الآمن من دمائهم وأموالهم وأعراضهم، وجعلت مقامهم تحملاً للضيم وتوقعًا للويل.

وصاحَبت هذه السخائم المشتعلة حرب من السخرية والتحقير، قُصد بها تخذيل المسلمين وتوهين قواهم المعنوية.

فلما خشي النبي ﷺ على أصحابه من أن يُفتنوا في دينهم أذِن لهم بالهجرة إلى الحبشة، فهاجروا إلى الحبشة، وكانت أم حبيبة وزوجها في طليعة المهاجرين الذين خرجوا فرارًا بدينهم من بطش قريش.

ويمكرون ويمكر الله

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها دارًا وقرارًا، ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جلدين إلى النجاشي، فيردهم عليهم، ليفتنوهم في دينهم، ويُخرجوهم من دارهم التي اطمأنوا بها وأمنوا فيها، فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص بن وائل، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته [١].

ودخلا على النجاشي فقالا له: أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منّا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردّهم إليهم، فهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت (أم سلمة): ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو ابن العاص [٢] من أن يسمع كلامهم النجاشي. قالت: فقالت بطارقته حوله: صدقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلِمهم إليهما، فليردّاهم إلى بلادهم وقومهم.

قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: لاها الله، إذًا لا أُسلمهم إليهما ولا يُكاد قوم

(١) السيرة لابن هشام (١/ ٢٧٥). والبطارقة: جمع بطريق وهو القائد أو الحاذق في الحرب.
(٢) كانت هذه القصة قبل إسلام عمرو بن العاص ﷺ.

جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على مَن سواي، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم.

فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائنًا في ذلك ما هو كائن. فلما جاءوا، وقد دعى النجاشي أساقفته[1]، فنشروا مصاحفهم حوله.

سألهم النجاشي، فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل ؟

قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب - رضوان الله عليه -.

فقال له: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذاك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحُسن الجوار، والكفّ عن المحارم، والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

قالت: فعدد عليه أمور الإسلام فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من عند الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئًا وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وافتتنونا على ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على مَن سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك.

قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟

(١) الأساقفة: هم علماء النصارى الذين يقيمون لهم دينهم.

قالت: قال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه عليَّ، قالت: فقرأ عليه صدرًا من ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [مريم: الآية ١].

قالت: فبكى والله النجاشي حتى اخضلَّت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال (لهم) النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يُكادون[1].

وأعلن النجاشي رضي الله عنه إيمانه بالله .. وعاش المؤمنون في أمنٍ واطمئنان في بلاد الحبشة مع ملكها المسلم العادل الذي لامس الإيمان شغاف قلبه.

سيجعل الله بعد عُسرٍ يُسرًا

وظنت أم حبيبة رضي الله عنها أن السعادة والراحة ستبدأ منذ تلك اللحظات ولم تكن تعلم أنها ستُمتحن امتحانًا قاسيًا.

فلقد ارتد زوجها (عبيد الله) عن دين الإسلام وتَنصَّر. فعاشت كل أنواع الغربة... وجلست تفكر في مصيرها وهي تعيش وحيدة في بلاد الحبشة، فهي لا تستطيع أن ترجع مكة إلى أبيها الذي مازال مشركًا، ولا تستطيع أيضًا أن تبقى في الحبشة وحدها... فبينما هي حزينة تفكر في مصيرها وإذا بالفرج يأتي في تلك اللحظة يحمل إليها أعظم بُشرى في الكون كله فيا تُرى ما هي تلك البشرى؟!!!

هكذا أصبحت أمًّا للمؤمنين

لقد كانت البُشرى أعظم من كنوز الدنيا وزخارفها الفانية. فقلد جاءت جارية من عند النجاشي لتبشر (أم حبيبة) بأن رسول الله ﷺ يخطبها لنفسه فلم تستطع (أم حبيبة) أن تتمالك نفسها من شدة الفرح، فكانت دموع الفرح تخالط البسمة التي ارتسمت على وجهها في تلك اللحظة، وحمدت ربها عز وجل على هذه النعمة العظيمة التي ساقها الله إليها.

وقام النجاشي وزوَّجها رسول الله ﷺ - بتوكيل من النبي ﷺ للنجاشي - فلقد أرسل

---

(١) قال الشيخ الألباني في تخريج فقه السيرة للغزالي: أخرج هذه القصة ابن إسحاق في المغازي (١/ ٢١١ - ٢١٣ من ابن هشام) وأحمد (١٧٤٠) من طريق ابن إسحاق بسند صحيح.

إليه أنه يوكِّله أن يزوجه بأم حبيبة رضي الله عنها.

واجتمع الصحابة الذين كانوا في الحبشة ليشهدوا هذا الزواج المبارك.

إنها مفاجأة لم تخطر ببال أحدٍ من الصحابة - رضي الله عنهم -. وكان مهرها أربعة آلاف درهم بل وأرسل النجاشي رضي الله عنه جهازها كله من عنده.

عن أم حبيبة رضي الله عنها: أنها كانت تحت عُبيد الله، وأن رسول الله تزوجها بالحبشة، زوّجها إياه النجاشي، ومهرها أربعة آلاف درهم؛ وبعث بها مع شُرحْبيل ابن حسنة، وجهازها كله من عند النجاشي[١].

أعظم زوج في الكون كله

وعادت أم حبيبة التي كانت منذ فترة يسيرة لا تعلم ما مصيرها... عادت وقد أصبحت أُمًّا للمؤمنين وزوجة لسيد الأولين والآخرين ﷺ.

ومنذ تلك اللحظة أخذت أم حبيبة رضي الله عنها تنهل من النبع الصافي - من كتاب الله وسُنة رسول الله ﷺ - وعاشت أجمل وأبهى أيام عمرها في سعادة باهرة وفرحة غامرة فلقد أصبحت أمًّا للمؤمنين وزوجة للحبيب ﷺ.

عن ابن عباس: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٣]. قال: نزلت في أزواج النبي ﷺ خاصة[٢].

وكان النبي ﷺ أعظم زوج في الكون كله فعاشت معه حياة إيمانية عالية... فهي التي اقتربت من مصدر النور لتقتبس من هديه ودلّه وأخلاقه العذبة الرقيقة ﷺ.

صفحة مشرقة من الولاء والبراء

عن الزهري، قال: لما قدم أبو سفيان المدينة، والنبي ﷺ يريد غزو مكة، فكلمه في أن يزيد في الهدنة، فلم يُقبل عليه، فقام فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش النبي ﷺ، طوته دونه، فقال: يا بُنَيَّة، أرغبتِ بهذا الفراش عني، أم لي عنه؟

---

(١) رواه أبو داود (٢١٠٧) والنسائي (٦/ ١١٩) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

(٢) قال الأرناؤوط: إسناده حسن، وهو في تفسير ابن أبي حاتم فيما نقله الحافظ ابن كثير (٣/ ٤٨٣).

قالت: بل هو فراش رسول الله، وأنت امرؤٌ نجسٌ مُشرك، فقال: يابُنية لقد أصابك بعدي شر(١).

فراق مؤلم

وتمر الأيام ويأتي اليوم الذي مات فيه الحبيب ﷺ فينفطر قلب أم حبيبة حُزنًا على وفاة الحبيب ﷺ الذي كان رسولها وزوجها وحبيبها.

ولكنها ظلت على عهدها عابدة قائمة صائمة.

وطالت بها الحياة إلى أن أصبح أخوها معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما أميرًا للمؤمنين.

قال الإمام الذهبي: وقد كان لأم حبيبة حُرمة وجلالة ولا سيما في دولة أخيها... ولمكانه منها قيل له: خال المؤمنين(٢).

وحان وقت الرحيل

عن عوف بن الحارث: سمعت عائشة تقول: دعتني أم حبيبة عند موتها، فقالت: قد كان يكون بيننا ما يكون بين الضرائر، فغفر الله لي ولك ما كان من ذلك. فقلت: غفر الله لك ذلك كله وحلَّلك من ذلك، فقالت: سررتني سرَّك الله،... وأرسلت إلى أم سلمة، فقالت لها مثل ذلك(٣).

وتوفيت أم حبيبة رضي الله عنها سنة أربعة وأربعين في خلافة أخيها معاوية رضي الله عنه.

وهكذا تعايشنا بقلوبنا وأرواحنا مع أمنا (أم حبيبة) التي ملأت الدنيا بعبير سيرتها العطرة.

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

* * *

(١) الإصابة (٨/ ١٤٢) وطبقات ابن سعد (٨/ ٩٩، ١٠٠).
(٢) سير أعلام النبلاء/ للذهبي (٢/ ٢٢٢).
(٣) أخرجه ابن سعد (٨/ ١٠٠) والحاكم (٤/ ٢٢، ٢٣).

صفية بنت حُيي رضي الله عنها

(إنك لابنة نبي وإن عمك لنبي وإنك لتحت نبي)

محمد رسول الله ﷺ

لما أرسل الله - تعالى - محمدًا ﷺ من العرب - لا من اليهود - امتلأت نفوس اليهود بالحسد والغيرة، وأكل الحقد والغيظ قلوبهم، وجعلوا يشككون في نبوته وفي دينه ويقولون: ليس محمد هو الرسول الذي كنا ننتظر، وليس دينه هو الدين الذي كنا نبتغي ! وحرَّفوا ما جاء في كتبهم عنه، وغيروا كل ما يدل عليه من اسم أو صفة أو إشارة، علمًا بأن النبي ﷺ جاء مصدقًا لما بين أيديهم من الكتاب، موافقًا لكل ما يعرفون من صفة هذا النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة، ولكن طبيعة الأثرة غلبت على نفوسهم، إذ يعتقدون أنهم أبناء الله وأحباؤه وشعبه المختار في الأرض، وأن الرسل والأنبياء لا يكونون إلا منهم، وعزّ عليهم أن يكون هذا النبي من العرب، لذلك أضرموا له العداوة والبغضاء، وظلت العداوة كامنة في صدورهم لرسول الله ﷺ ولدعوته منذ بعثته.

ولما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة كانوا أول كافر به، بل إنهم منذ اليوم الأول الذي حلّ فيه رسول الله ﷺ المدينة واجهه اليهود بالعداوة والمكر، وشجعوا بعض العرب على النفاق وإلقاء أسئلة التعنت، وتواصوا بينهم بالكيد الدائم للرسول ﷺ والإسلام[١].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

«ولما قدم النبي ﷺ المدينة، صار الكفار معه ثلاثة أقسام: قسم صالحهم ووادعهم على ألا يحاربوه، ولا يظاهروا عليه، ولا يوالوا عليه عدوه، وهم على كفرهم آمنون على دمائهم، وأموالهم. . . وقسم: حاربوه ونصبوا له العداوة. وقسم: تاركوه، فلم

---

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص ٢٦٨).

يصالحوه، ولم يحاربوه، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره، وأمر أعدائه، ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره في الباطن ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وانتصارهم، ومنهم: من دخل معه في الظاهر، وهو مع عدوه في الباطن، ليأمن الفريقين، وهؤلاء هم المنافقون، فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره به ربه تبارك وتعالى[(١)]».

ووادع رسول الله ﷺ مَن بالمدينة من اليهود، وكتب بينه وبينهم كتابًا، وبادر حبرهم وعالمهم عبد الله بن سلام، فدخل في الإسلام[(٢)]، وأبى عامتهم إلا الكفر.

وكانوا ثلاث قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة. وحاربه الثلاثة، فمنَّ على بني قينقاع، وأجلى بني النضير، وقتل بني قريظة، وسبى ذريتهم، ونزلت (سورة الحشر) في بني النضير. و(سورة الأحزاب) في بني قريظة[(٣)].

وقفة مع ضيفتنا المباركة

ولقد ذكرت هذه المقدمة عن اليهود وحقدهم على الإسلام والمسلمين لأن ضيفتنا المباركة كانت من يهود خيبر ولكن شاء العليم الخبير أن يجعلها أمًّا للمؤمنين وزوجة للبشير النذير ﷺ.. وتلك والله منحة ربانية فالله على كل شيء قدير.

إننا على موعد مع معجزة حقيقية يُخرج الله بها الحي من الميت فلقد كانت ضيفتنا المباركة تعيش بين أناس قد ماتت قلوبهم لأنهم لم يعرفوا ربهم فقذف الله (جل وعلا) نفحة إيمانية في قلبها لتدب فيه الحياة... قال تعالى :﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٢٢].

إننا على موعد مع أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب بن سعية، من سبط اللاوي ابن نبي الله إسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم، عليهم السلام. ثم من ذرية رسول الله هارون عليه السلام[(٤)].

---

(١) زاد المعاد (٣/ ١٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (٧/ ١٩٥).

(٣) زاد المعاد (٣/٦٥).

(٤) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٣١).

قال الإمام الذهبي:

وكانت شريفة عاقلة ذات حسب وجمال ودين رضي الله عنها[(١)].

وقال الحافظ أبو نعيم: ومنهن التقية الزاكية ذات العين الباكية صفية الصافية زوجة النبي ﷺ[(٢)].

كيف كانت البداية

لقد كانت صفية رضي الله عنها من يهود خيبر وكان أبوها (حيي بن أخطب) سيدهم المطاع فعاشت معه في رغد ونعيم لكنها كانت تشعر أن النعيم الحقيقي هو نعيم القلب لا نعيم الجسد.

ولما اشتد عودها كان أشراف قومها يطمعون في الزواج منها فتزوجها سلام ابن أبي الحقيق ثم خلف عليها كنانة بن أبي الحقيق - وكانا من شعراء اليهود - فقُتل كنانة يوم خيبر عنها.

شمس الإسلام ... وعداوة اليهود

ولما أشرقت شمس الإسلام على أرض الجزيرة كان اليهود - كما أسلفنا - تقطر قلوبهم خبثًا وحقدًا وضغينة على النبي ﷺ ورسالته فقد كانوا يطمعون أن يكون النبي ﷺ واحدًا منهم لا من العرب. وكانت صفية رضي الله عنها ترى الحقد الذي كان يخرج من قلب أبيها (حُيي بن أخطب) على النبي ﷺ وأصحابه.. ولعل الموقف الآتي يوضح لنا تلك الصورة واضحة جلية.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: حُدثت عن صفية بنت حيي بن أخطب أنها قالت: كنت أَحبَّ ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباء، في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي (حيي ابن أخطب) وعمي

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٣٢).
(٢) حلية الأولياء (٢/٥٤).

أبو ياسر بن أخطب، مغلِّسين[١]، قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس. قالت: فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهُوينى[٢]، قالت: فهششت[٣] إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليَّ واحد منهما، مع ما بهما من الغم. قالت: سمعت عمي، أبا ياسر، وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو ؟ قال: نعم والله؛ قال: أتعرفه وتُثبته ؟ قال: نعم؛ قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت[٤].

اليهود أهل غدر وخيانة

قد أسلفنا أن اليهود كانوا يتحرقون على الإسلام والمسلمين، إلا أنهم لم يكونوا أصحاب حرب وضرب، بل كانوا أصحاب دس ومؤامرة، فكانوا يجاهرون بالحقد والعداوة، ويختارون أنواعًا من الحيل، لإيقاع الإيذاء بالمسلمين دون أن يقوموا للقتال، مع ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود ومواثيق، وأنهم بعد وقعة بني قينقاع، وقتل كعب بن الأشرف خافوا على أنفسهم، فاستكانوا والتزموا الهدوء والسكوت.

ولكنهم بعد وقعة أُحد تجرأوا، فكاشفوا بالعداوة والغدر، وأخذوا يتصلون بالمنافقين وبالمشركين من أهل مكة سرًّا ويعملون لصالحهم ضد المسلمين[٥].

وصبر النبي ﷺ حتى ازدادوا جرأة وجسارة بعد وقعة الرجيع وبئر معونة، حتى قاموا بمؤامرة تهدف القضاء على النبي ﷺ.

وبيان ذلك: أنه ﷺ خرج إليهم في نفر من أصحابه، وكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري - وكان ذلك يجب عليهم حسب بنود المعاهدة - فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس ههنا حتى نقضي حاجتك. فجلس إلى جنب جدار من بيوتهم ينتظر وفاءهم بما وعدوا، وجلس معه أبو بكر وعمر وعلي

---

(١) مغلسين: التغليس: السير في ظلمة آخر الليل.
(٢) الهوينى: ضرب من المشي فيه فتور وضعف.
(٣) هششت: أي: بششت لهما فرحًا بهما.
(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٢٦، ١٢٧).
(٥) يؤخذ ذلك مما رواه أبو داود في باب خبر النضير (٣/ ١١٦، ١١٧) «عون المعبود شرح سنن أبي داود».

وطائفة من أصحابه(١).

ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد - فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم، فقال: أنا لذلك. فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضوان الله عليهم فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعًا إلى المدينة، فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه، قاموا في طلبه، فلقوا رجلاً من المدينة فسألوه عنه فقال: رأيته داخلاً المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ﷺ فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم(٢).

وما لبث رسول الله ﷺ أن بعث محمد بن مسلمة إلى بني النضير ليخبرهم أن رسول الله ﷺ يأمرهم بالخروج.

ولم تجد يهود مناصًا من الخروج، فأقاموا أيامًا يتجهزون للرحيل، بَيد أن رئيس المنافقين - عبد الله بن أُبي - بعث إليهم أن اثبتوا وتمنَّعوا، ولا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم، ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحشر: الآية ١١] وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان.

وهناك عادت لليهود ثقتهم، واستقر رأيهم على المناوأة، وطمع رئيسهم حُيي ابن أخطب، فيما قاله رأس المنافقين، فبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من

(١) الرحيق المختوم (ص: ٣١٧).

(٢) ذكر البخاري رحمه الله حديث بني النضير في كتاب المغازي بعد غزوة بدر وعلق عن الزهري عن عروة: كانت على رأس ستة أشهر من وقعة بدر قبل وقعة أحد.
وأشار كذلك إلى خلاف ابن إسحاق فقال: وجعله ابن إسحاق بعد بئر معونة وأحد (٧/ ٣٨٢) فتح الباري.
قال ابن القيم: وزعم محمد بن شهاب الزهري أن غزوة بني النضير كانت بعد بدر بستة أشهر وهذا وهم منه أو غلط عليه بل الذي لاشك فيه أنها كانت بعد أحد والتي كانت بعد بدر بستة أشهر هي غزوة بني قينقاع، وقريظة بعد الخندق وخيبر بعد الحديبية. زاد المعاد (٣/ ٢٤٩).

ديارنا، فاصنع ما بدا لك.

فلما بلغ رسول الله ﷺ جواب حيي بن أخطب كبَّر وكبَّر أصحابه، ثم نهض لمناجزة القوم، فاستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وسار إليهم وعلي بن أبي طالب يحمل اللواء، فلما انتهى إليهم فرض عليهم الحصار.

والتجأ بنو النضير إلى حصونهم، فأقاموا عليها يرمون بالنبل والحجارة، وكانت نخيلهم وبساتينهم عونًا لهم في ذلك، فأمر بقطعها وتحريقها.

واعتزلتهم قريظة، وخانهم عبد الله بن أُبي وحلفاؤهم من غطفان، فلم يحاول أحد أن يسوق لهم خيرًا، أو يدفع عنهم ضراً، ولهذا شبَّه سبحانه وتعالى قصتهم، وجعل مثلهم: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر: الآية ١٦].

ولم يطل الحصار - فقد دام ست ليال فقط وقيل: خمس عشرة ليلة - حتى قذف الله في قلوبهم الرعب، فاندحروا وتهيئوا للاستسلام ولإلقاء السلاح فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ: نحن نخرج عن المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذراريهم، وأن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح.

فنزلوا على ذلك، وخربوا بيوتهم بأيديهم، ليحملوا الأبواب والشبابيك، بل حتى حمل بعضهم الأوتاد وجذوع السقف، ثم حملوا النساء والصبيان، وتحملوا على ستمائة بعير، فترحل أكثرهم وأكابرهم كحيي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق إلى خيبر، وذهبت طائفة منهم إلى الشام، وأسلم منهم رجلان فقط: يامين ابن عمرو وأبو سعد ابن وهب، فأحرزا أموالهما.

وقبض رسول الله ﷺ سلاح بني النضير، واستولى على أرضهم وديارهم وأموالهم فوجد من السلاح خمسين درعًا، وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفًا[(١)].

مؤامرة حقيرة

ولما اجتمعت كتائب الكفر في غزوة الأحزاب (الخندق) وأرادوا أن يبيدوا الإسلام وأهله.. وكان هناك معاهدة بين النبي ﷺ ويهود بني قريظة على أن يقفوا في وجه كل

(١) الرحيق المختوم (ص ٣١٩).

من أراد يثرب (المدينة).. لكن حُيي بن أخطب (والد صفية) ذهب إلى بني قريظة في ديارهم، فقال: قد جئتكم بعزِّ الدهر، جئتكم بقريش على سادتها، وغطفان على قادتها، وأنتم أهل الشوكة والسلاح، فهلم حتى نناجز محمدًا ونفرغ منه، فقال له رئيسهم: بل جئتني والله بذل الدهر، جئتني بسحاب قد أراق ماءه، فهو يرعد ويبرق، فلم يزل حُيي يخادعه ويعده ويمنيه حتى أجابه بشرط أن يدخل معه في حصنه، يصيبه ما أصابهم، ففعل، ونقضوا عهد رسول الله ﷺ، وأظهروا سبه، فبلغ رسول الله ﷺ الخبر، فأرسل يستعلم الأمر، فوجدهم قد نقضوا العهد، فكبر وقال: «**أبشروا يا معشر المسلمين**».

فلما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة، لم يكن إلا أن وضع سلاحه، فجاءه جبريل، فقال: أوضعت السلاح، والله إن الملائكة لم تضع أسلحتها؟! فانهض بمن معك إلى بني قريظة، فإني سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم، وأقذف في قلوبهم الرعب، فسار جبريل في موكبه من الملائكة، ورسول الله ﷺ على أثره في موكبه من المهاجرين والأنصار(١)، وقال لأصحابه: يومئذ: «**لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة**»، فبادروا إلى امتثال أمره، ونهضوا من فورهم، فأدركتهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصليها إلا في بني قريظة كما أمرنا، فصلوها بعد عشاء الآخرة، وقال بعضهم: لم يُرد منا ذلك، وإنما أراد سرعة الخروج، فصلوها في الطريق، فلم يعنف واحدة من الطائفتين(٢)(٣).

لقد حكمت فيهم

بحكم الله من فوق سبع سماوات

فأتاهم رسول الله ﷺ فحاصرهم خمسًا وعشرين ليلة، فلما اشتد حصرهم واشتد البلاء، قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فاستشاروا (أبا لبابة بن عبد المنذر)،

---

(١) أخرجه البخاري (٧/ ٣١٣) المغازي، ومسلم (١٧٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧/ ٣١٣) وفي صلاة الخوف/ باب: صلاة الطالب والمطلوب راكبا، ومسلم (١٧٧٠).

(٣) زاد المعاد (٣/ ١٢٩ ، ١٣٠).

فأشار إليهم أنه الذبح. فقالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ فأُتي به على حمار عليه إكاف من ليف قد حُمل عليه وحَفَّ به قومه، وقالوا له: يا أبا عمرو حلفاؤك ومواليك وأهل النكاية ومن قد علمت، فلم يرجع إليهم شيئًا ولا يلتفت إليهم، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال: قد أتى لي أن لا يأخذني في الله لومة لائم. قال أبو سعيد: فلما طلع قال رسول الله ﷺ «**قوموا إلى سيدكم فأنزلوه**». قال عمر: سيدنا الله. قال «**أنزلوه**» فأنزلوه. قال رسول الله ﷺ: «**احكم فيهم**». قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تُقتل مقاتلتهم وتُسبى ذراريهم وتقسم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله** عز وجل **وحكم رسوله** ﷺ» وفي بني قريظة نزل قول الله تعالى :﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: ٢٦-٢٧].

وكان حكم سعد في غاية العدل والإنصاف، فإن بني قريظة بالإضافة إلى ما ارتكبوا من الغدر الشنيع. . . كانوا قد جمعوا لإبادة المسلمين ألفًا وخمسمائة سيف، وألفين من الرماح، وثلاثمائة درع، وخمسمائة ترس وجحفة، حصل عليها المسلمون بعد فتح ديارهم.

وأمر رسول الله ﷺ فحُبست بنو قريظة في دار بنت الحارث امرأة بني النجار، وحُفرت لهم خنادق في سوق المدينة، ثم أمر بهم فجعل يذهب بهم إلى الخنادق أَرسالاً، وتضرب في تلك الخنادق أعناقهم. فقال من كان بعد في الحبس لرئيسهم كعب بن أسد: ما تراه يصنع بنا ؟ فقال: أفي كل موطن لا تعقلون، أما ترون الداعي لا ينزع ؟ والذاهب منكم لا يرجع ؟ هو والله القتل. وكانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة، فضُربت أعناقهم.

مقتل أبيها

وهكذا تم استئصال أفاعي الغدر والخيانة، الذين كانوا نقضوا الميثاق المؤكد، وعاونوا الأحزاب على إبادة المسلمين في أحرج ساعة كانوا يمرون بها في حياتهم - وكانوا قد صاروا بعملهم هذا من أكابر مجرمي الحروب الذين يستحقون المحاكمة والإعدام.

وقُتل مع هؤلاء شيطان بني النضير، وأحد أكابر مجرمي معركة الأحزاب حُيي ابن أخطب والد صفية أم المؤمنين رضي الله عنها كان قد دخل مع بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان؛ وفاءً لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه حينما جاء يثيره على الغدر والخيانة أيام غزوة الأحزاب، فلما أتي به - وعليه حلة قد شقها من كل ناحية بقدر أنملة لئلا يسلبها - مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، قال لرسول الله ﷺ: أما والله ما لمت نفسي في معاداتك، ولكن من يغالب الله يغلب. ثم قال: أيها الناس، لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل، ثم جلس فضُربت عنقه[١].

غزوة خيبر

لما اطمأن رسول الله ﷺ من أقوى أجنحة الأحزاب الثلاثة، وأمن منه أمنًا باتًا بعد الهدنة، أراد أن يحاسب الجناحين الباقيين - اليهود وقبائل نجد - حتى يتم الأمن والسلام، ويسود الهدوء في المنطقة، ويفرغ المسلمون من الصراع الدامي المتواصل إلى تبليغ رسالة الله والدعوة إليه.

ولما كانت خيبر هي وكرة الدس والتآمر، ومركز الاستفزازات العسكرية ومعدن التحرشات وإثارة الحروب، كانت هي الجديرة بالتفات المسلمين أولًا.

أما كون خيبر بهذه الصفة، فلا ننسى أن أهل خيبر هم الذين حزَّبوا الأحزاب ضد المسلمين، وأثاروا بني قريظة على الغدر والخيانة، ثم أخذوا في الاتصالات بالمنافقين - الطابور الخامس في المجتمع الإسلامي - وبغطفان وأعراب البادية الجناح الثالث من الأحزاب - وكانوا هم أنفسهم يهيئون للقتال، فألقوا المسلمين بإجراءاتهم هذه في محن متواصلة، حتى وضعوا خطة لاغتيال النبي ﷺ وغزار ذلك اضطر المسلمون إلى بعوث متوالية، وإلى الفتك برأس هؤلاء المتآمرين، مثل سلام بن أبي الحقيق، وأسير بن زارم، ولكن الواجب على المسلمين إزاء هؤلاء اليهود كان أكبر من ذلك. وإنما أبطأوا في القيام بهذا الواجب؛ لأن قوة أكبر وأقوى وألد وأعند منهم - وهي قريش - كانت

(١) الرحيق المختوم (ص ٣٤٣).

مجابهة للمسلمين، فلما انتهت هذه المجابهة صفا الجو لمحاسبة هؤلاء المجرمين، واقترب لهم يوم الحساب.

ولما كان المنافقون وضعفاء الإيمان تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية، أمر الله تعالى نبيه ﷺ فيهم قائلًا: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَاۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥﴾

فلما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى خيبر، وأعلن أن لا يخرج معه إلا راغب في الجهاد، فلم يخرج إلا أصحاب الشجرة وهم ألف وأربعمائة.

وقد قام المنافقون يعملون لليهود، فقد أرسل رأس المنافقين عبد الله بن أُبي إلى يهود خيبر: أن محمدًا قصد قصدكم وتوجه إليكم، فخذوا حذركم، ولا تخافوا منه، فإن عددكم وعدتكم كثيرة، وقوم محمد شرذمة قليلون، عُزَّل لا سلاح معهم إلا قليل، فلما علم ذلك أهل خيبر، أرسلوا كنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس إلى غطفان، يستمدونهم؛ لأنهم كانوا حلفاء يهود خيبر، ومظاهرين لهم على المسلمين، وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا على المسلمين.

الجيش الإسلامي يتحرك إلى أسوار خيبر

بات المسلمون الليلة الأخيرة التي بدأ في صباحها القتال قريبًا من خيبر، ولا تشعر بهم اليهود، وكان النبي ﷺ إذا أتى قومًا بليل لم يقربهم حتى يصبح، فلما أصبح صلى الفجر بغلس، وركب المسلمون، فخرج أهل خيبر بمساحيهم ومكاتلهم، ولا يشعرون، بل خرجوا لأرضهم، فلما رأوا الجيش قالوا: محمد، والله محمد، والخميس، ثم رجعوا هاربين إلى مدينتهم، فقال النبي ﷺ: **«الله أكبر، خربت خيبر، الله أكبر خربت خيبر، إنَّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين»**(١).

وكان النبي ﷺ اختار لمعسكره منزلًا، فأتاه حباب بن المنذر فقال: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أنزلكه الله، أم هو الرأي في الحرب ؟ قال: **«بل هو الرأي»**، فقال:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧١)، ومسلم (٨٤) (١٣٦٥).

يا رسول الله إن هذا المنزل قريب جدًا من حصن نطاة، وجميع مقاتلي خيبر فيها، وهم يدرون أحوالنا، ونحن لا ندري أحوالهم، وسهامهم تصل إلينا، وسهامنا لا تصل إليهم، ولا نأمن من بياتهم، وأيضًا هذا بين النخلات، ومكان غائر، وأرضٌ وخيمة، لو أمرت بمكان خالٍ عن هذه المفاسد نتخذه معسكرًا. قال ﷺ: **«الرأي ما أشرت»**، ثم تحول إلى مكان آخر.

ولما دنا من خيبر وأشرف عليها قال: **«قفوا»**، فوقف الجيش فقال: **«اللهم رب السماوات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، فإنا لنسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، وخير ما فيها، ونعوذ بك من شر هذه القرية وشر أهلها، وشر ما فيها، أقدموا بسم الله»** [(١)(٢)].

لأعطين الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله

ويحبه الله ورسوله

ولما كانت ليلة الدخول قال: **«لأعطين الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»** فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ وكلهم يرجو أن يُعطاها، فقال: **«أين علي بن أبي طالب ؟»** فقالوا: يا رسول الله هو يتشكى عينيه. قال: **«فأرسلوا إليه»**، فأتي به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرئ، كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟. قال: **«انفذ على رسلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حُمر النعم»**[(٣)(٤)].

---

(١) أخرجه ابن هشام في السيرة (٣/ ٧٩٢) والطبراني في الكبير (٨/ ٧٢٩٩) وصححه ابن خزيمة (٤/ ٢٥٦٥) والحاكم (١/ ٤٤٦) ووافقه الذهبي وحسنه الحافظ ابن حجر كما في الفتوحات الربانية (٥/ ١٥٤) والألباني في تحقيقه لفقه السيرة (ص ٣٥٣).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣٢٩).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٤٢) ومسلم (٣٤) (٢٤٠٦)، وأبو داود (٣٦٦١).

(٤) أخرجه البخاري (٢/ ٥٠٥ ، ٦٠٦) المغازي/ باب: غزوة خيبر.

موعد مع السعادة

وشنَّ المسلمون هجومهم على الحصون المشيدة فبدأت تتداعى تحت وطأتها حصنًا بعد حصن. . وكتب الله النصرة للمسلمين وفتح رسول الله ﷺ حصون خيبر وكانت صفية رضي الله عنها من بين السبايا - وقد قُتل زوجها كنانة بن أبي الحقيق - وكانت في سهم الصحابي الجليل دحية الكلبي.

وتعالوا بنا لنعرف كيف أصبحت صفية أمًّا للمؤمنين بعد غزوة خيبر.

عن أنس قال: كنت رِدف أبي طلحة يوم خيبر. وقدمي تمس قدم رسول الله ﷺ. قال: فأتيناهم حين بزغت الشمس. وقد أخرجوا مواشيهم، وخرجوا بفئوسهم ومكاتلهم ومرورهم. فقالوا: محمد، والخميس.

قال: وقال رسول الله ﷺ: «**خربت خيبر ! إنَّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين**» قال: وهزمهم الله عز وجل . ووقعت في سهم (دحية) جارية جميلة. فاشتراها رسول الله ﷺ بسبعة أرؤس. ثم دفعها إلى أم سليم تُصنِّعها له وتهيئها. (قال: وأحسبه قال) وتعتد في بيتها. وهي صفية بنت حيي. قال: وجعل رسول الله ﷺ وليمتها التمر والأقط والسمن. فُحصت الأرض أفاحيص. وجيء بالأنطاع. فوضعت فيها. وجيء بالأقط والسمن فشبع الناس. قال: وقال الناس: لا ندري أتزوجها أم اتخذها أم ولد.؟ قالوا: إن حجبها فهي امرأته. وإن لم يحجبها فهي أم ولد. فلما أراد أن يركب حجبها. فقعدت على عَجُز البعير فعرفوا أنه قد تزوجها. فلما دنوا من المدينة دفع رسول الله ﷺ، ودفعنا. قال: فعثرت الناقة العضباء. وندر رسول الله ﷺ وندرت. فقام فسترها. وقد أشرفت النساء. فقلن: أبعَدَ الله اليهودية.

قال: قلت: يا أبا حمزة ! أوقع رسول الله ﷺ ؟ قال: إي. والله ! لقد وقع[1].

وفي رواية عن أنس. قال: صارت صفية لدحية في مقسمه. وجعلوا يمدحونها عند رسول الله ﷺ. قال: ويقولون: ما رأينا في السبي مثلها. قال: فبعث إلى دحية فأعطاه بها ما أراد. ثم دفعها إلى أمي فقال: «**أصلحيها**» قال: ثم خرج رسول الله ﷺ من خيبر.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٧) (١٣٦٥) كتاب النكاح.

حتى إذا جعلها في ظهره نزل. ثم ضرب عليها القبة. فلما أصبح. قال رسول الله ﷺ: «**من كان عنده فضل زاد فليأتنا به**» قال: فجعل الرجل يجيء بفضل التمر وفضل السويق حتى جعلوا من ذلك سوادًا حيسًا. فجعلوا يأكلون من ذلك الحَيس. ويشربون من حياض إلى جنبهم من ماء السماء. قال: فقال أنس: فكانت تلك وليمة رسول الله ﷺ عليها. قال: فانطلقنا، حتى إذا رأينا جُدر المدينة هششنا إليها. فرفعنا مَطِيَّنا. ورفع رسول الله ﷺ مطيته. قال: وصفية خلفه قد أردفها رسول الله ﷺ. قال: فعثرت مطية رسول الله ﷺ. فصُرع وصُرعت. قال: فليس أحد من الناس ينظر إليه ولا إليها. حتى قام رسول الله ﷺ فسترها. قال: فأتيناه فقال: «**لم نُضَّر**» قال: فدخلنا المدينة. فخرج جواري نسائه يتراءينها ويشمتن بصرعتها[١].

وفي رواية ثالثة: (. . . وجُمع السبي. فجاءه دحية فقال: يا رسول الله ! أعطني جارية من السبي. فقال «**اذهب فخذ جارية**» فأخذ صفية بنت حيي. فجاء رجل إلى نبي الله ﷺ فقال: يا نبي الله ! أعطيت دحية، صفية بنت حيي، سيد قريظة والنضير ؟ ما تصلح إلا لك. قال: «**ادعوه بها**» قال: فجاء بها. فلما نظر إليها النبي ﷺ قال: «**خذ جارية من السبي غيرها**» قال: وأعتقها وتزوجها.

فقال له ثابت: يا أبا حمزة! ما أصدقها؟ قال: نفسها. . . أعتقها وتزوجها. حتى إذا كان بالطريق جهزتها له أم سليم. فأهدتها له من الليل. فأصبح النبي ﷺ عروسًا. فقال: «**من كان عنده شيء فليجيء به**» قال: وبسط نطعًا. قال: فجعل الرجل يجيء بالأقط. وجعل الرجل يجيء بالتمر. وجعل الرجل يجيء بالسمن. فحاسوا حَيسًا. فكانت وليمة رسول الله ﷺ[٢][٣].

(١) أخرجه مسلم (٨٨) (١٣٦٥) كتاب النكاح.

(٢) أخرجه مسلم (٨٤) (١٣٦٥) كتاب النكاح.

(٣) قال الإمام النووي: «قال المازري وغيره: يحتمل ما جرى مع دحية وجهين أحدهما: أن يكون رد الجارية برضاه وأذن له في غيرها.

والثاني: أنه إنما أذن له في جارية له من حشو السبي لا أفضلهن، فلما رأى النبي ﷺ أنه أخذ أنفسهن وأجودهن نسبًا وشرفًا في قومها وجمالًا استرجعها؛ لأنه لم يأذن فيها، ورأى في إبقائها لدحية مفسدة لتميزه على باقي الجيش، ولما فيه من انتهاكها مع مرتبتها، وكونها بنت سيدهم، ولما يخاف من استعلائها على دحية بسبب مرتبتها، وربما ترتب على ذلك شقاق أو غيره، =

وعن أنس أن النبي ﷺ: أعتق صفية وجعل عتقها صداقها[(١)].

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ، في الذي يعتق جاريته ثم يتزوجها: «**له أجران**»[(٢)].

وما أجمل أن نتدبر سويًا كيف كان الحبيب ﷺ رحيمًا متواضعًا يخاطب كل من حوله برحمة وحنان ويدع له المجال ليعبر عما يجيش في نفسه ثم يخاطبه بكل رحمة ليزيل الشُّبه ويُجلِّي الحقائق... وهذا هو الذي حدث مع أمنا صفية.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال:

كان بعيني صفية خُضرة، فقال لها النبي ﷺ: «**ما هذه الخضرة بعينيك**»؟ قالت: قلت لزوجي: إني رأيت فيما يرى النائم كأن قمرًا وقع في حجري، فلطمني، وقال: أتريدين ملك يثرب ؟ قالت: وما كان أبغض إليَّ من رسول الله ﷺ قتل أبي وزوجي، فما زال يعتذر إليَّ وقال: «**يا صفية إن أباك ألَّب عليَّ العرب وفعل وفعل**» حتى ذهب ذلك من نفسي[(٣)].

ولا نجد تعليقًا على هذا الموقف العظيم إلا أن نتذكر قول الله عز وجل حيث يقول: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: الآية ١٢٨].

في بيت النبوة

وعادت صفية رضي الله عنها مع الحبيب ﷺ بعد أن بنى بها في طريق العودة إلى المدينة المنورة.. وكانت في قمة السعادة فهي التي لم يخطر ببالها أن تكون واحدة من نساء

= فكان أخذه ﷺ إياها لنفسه قاطعًا لكل هذه المفاسد المتخوفة، ومع هذا فعوض دحية عنها... وقوله في الرواية الأخرى: (أنها وقعت في سهم دحية فاشتراها رسول الله ﷺ بسبعة أرؤس) يحتمل أن المراد بقوله: (وقعت في سهمه) أي: حصلت بالإذن في أخذ جارية، ليوافق باقي الروايات وقوله: (اشتراها) أي أعطاه بدلها سبعة أنفس تطييبًا لقلبه، لا أنه جرى عقد بيع، وعلى هذا تتفق الروايات. وهذا الإعطاء لدحية محمول على التنفيل: [مسلم بشرح النووي (٩/ ٣١٣، ٣١٤)].

(١) أخرجه مسلم (٨٥) (١٣٦٥) كتاب النكاح.

(٢) أخرجه مسلم (٨٦) (١٥٤) كتاب النكاح.

(٣) قال الهيثمي في المجمع (١٥٣٧٣): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح - وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٩٣).

المؤمنين فكيف وهي الآن من أمهات المؤمنين.

يا لها من لحظة سعيدة يعجز القلم عن وصفها !!!.

جاء البشير إلى أهل المدينة يعلمهم بقدوم رسول الله ﷺ، فخرجت المدينة تستقبل رسول الله ﷺ عند عودته من هذه الغزاة... كانت وجوه الرجال تتهلل بالبِشر، والولدان يغمرهم الفرح، بينما كانت النساء على أسطح المنازل، وقد عمرت أفئدتهن بالسرور.

أما المنافقون، فقد كانوا في كمدٍ رهيب، يُظهرون غير ما تخفي الصدور، غصَّت حلاقيمهم بنصر رسول الله ﷺ، وفضحهم الله عز وجل، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا.

وكانت النسوة في دور النبي ﷺ يتأهبن لاستقبال نبي الإسلام، وحبيب المسلمين الذي نصره الله عز وجل بقلوب سليمة، وعزائم صادقة، ونفوس صافية.

ويبدو أن أمنا عائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما قد أخذت الغيرة من نفسها مكانًا واسعًا، بعد أن جاءها نبأ زواج رسول الله ﷺ من صفية بنت (حيي) ملك اليهود، تلك الشابة الجميلة، ذات السبعة عشر عامًا.

عن آمنة بنت قيس الغفارية، قالت: أنا إحدى النساء اللائي زففن صفية يوم دخلت على رسول الله ﷺ، فسمعتها تقول: ما بلغت سبع عشرة سنة يوم دخلت على رسول الله ﷺ[1].

بلغ الركب الميمون المدينة المنورة، وآثر رسول الله ﷺ ألا يدخل على نسائه الطاهرات بصفية الصافية، وأحب أن ينزلها في بيت الصحابي النجيب حارثة بن النعمان الأنصاري رضي الله عنه.

وتسامعت نساء الأنصار بصفية زوج النبي ﷺ، وأم المؤمنين، تلك التي دخلت في عداد أمهات المؤمنين الطاهرات، وجئن زرافات ووحدانًا ينظرن إلى جمالها وكمالها[2].

(١) ابن سعد (٨/ ١٢٩) والمستدرك (٤/٢٩).
(٢) نساء أهل البيت (ص ٣٥٢).

الكريمة صاحبة القلب الرقيق

ولما انتقلت صفية رضي الله عنها إلى دور النبي ﷺ كانت تحمل كل الخير لأخواتها (أمهات المؤمنين) - رضي الله عنهن - فقد بدأت بتقديم الهدايا لهن ولكنها بدأت بريحانة رسول الله ﷺ (ابنته فاطمة) رضي الله عنها فقدمت لها هدية غالية.

وعن ابن المسيب، قال: قدمت صفية، وفي أذنيها خرصة من ذهب، فوهبت لفاطمة منه، ولنساء معها(١).

ويالها من أمٍ لبيبة عاقلة علمت كيف أن الهدية لها موقع وأثر عظيم في قلوب الناس من حولها فقد قال ﷺ: «**تهادوا تحابوا**»(٢).

ولكنها مع ذلك كانت تشعر بغربة شديدة لأن أزواج النبي ﷺ الطاهرات لا يستطعن أن ينسين أصلها وأنها كانت في يوم من الأيام يهودية ولكن الله أعزها وأكرمها بنعمة الإسلام.

إنك لابنة نبي ...

وإن عمك لنبي ... وإنك لتحت نبي

عن أنس قال: بلغ صفية أن حفصة قالت: بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي، فقال: «**ما يبكيك**» ؟ فقالت: قالت لي حفصة إني بنت يهودي، فقال النبي ﷺ: «**إنك لابنة نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، ففيم تفخر عليك ؟**» ثم قال: «**اتقي الله يا حفصة**» (٣).

بل وحدث ذات مرة أن قامت عائشة رضي الله عنها وعيَّرت صفية رضي الله عنها بأنها قصيرة فلم

(١) رواه ابن سعد (٨/ ١٢٧) وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات.
والخرصة: جمع خرص: وهو الحلقة الصغيرة من الذهب وهو من حُلي الأذن.
(٢) رواه أبو يعلى عن أبي هريرة وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٠٤).
(٣) رواه أحمد (٣/ ١٣٥) والترمذي (٣٨٩٤) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

يرض النبي ﷺ منها ذلك ولم يُقره.

عن عائشة، قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا - تعني: قصيرة - فقال: «**لقد قلت كلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجته**»[١].

بل وحدث شيء قريب من ذلك من زينب بنت جحش رضي الله عنها فغضب النبي ﷺ لذلك وعتب عليها حينًا من الدهر.

عن صفية بنت حُيي: أن النبي ﷺ حجَّ بنسائه، فبرك بصفية جملها؛ فبكت، وجاء رسول الله ﷺ لما أخبروه، فجعل يمسح دموعها بيده، وهي تبكي، وهو ينهاها، فنزل رسول الله ﷺ بالناس؛ فلما كان عند الرواح، قال لزينب بنت جحش: «**أفقِري أختك جملًا**» - وكانت من أكثرهن ظهرًا - فقالت: أنا أُفقر يهوديتك!

فغضب ﷺ، فلم يكلمها، حتى رجع إلى المدينة، ومحرم وصفر؛ فلم يأتها، ولم يقسم لها، ويئست منه.

فلما كان ربيع الأول دخل عليها؛ فلما رأته، قالت: يا رسول الله، ما أصنع ؟ قال: وكانت لها جارية تخبئها من رسول الله، فقالت: هي لك.

قال: فمشى النبي ﷺ إلى سريرها، وكان قد رُفع، فوضعه بيده، ورضي عن أهله[٢].

وهذا درس عظيم للأمة المسلمة لنعلم جميعًا أن الغيرة بين النساء جبلّة لا تنفك أبدًا عن واحدة منهن. . . فإذا كان هذا هو حال أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن - فكيف بمن دونهن.

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١٤٠) وصحيح سنن أبي داود (٤٠٨٠).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٦/ ٣٣٧ ، ٣٣٨) وشميسة أو سمية لا تعرف، وبقية رجاله ثقات، وأخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ١٢٦ ، ١٢٧) من طريق عفان بن مسلم، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن شميسة عن عائشة بنحوه، وقوله: أفقري أختك، أي: أعيريها إياه للركوب، ومنه حديث جابر أنه اشترى منه بعيرا وأفقره ظهره إلى المدينة، مأخوذ من ركوب فقار الظهر، وهو خرزاته، والواحدة فقارة.

والله إنها لصادقة

إذا كان الإنسان سليم الفطرة، نقي السريرة، فإنه يتكلم بلهجة صادقة لا تعرف إلى المكر سبيلا، ولا يعرف المكر لها طريقا، ولذا فإن هذه الصفات تكسب صاحبها احترام الناس جميعًا.

ومن هنا كانت أم المؤمنين صفية رضي الله عنها ذات سريرة صافية، وعلانية نقية، فقد أحبت رسول الله ﷺ، وصدقت في حبها لله عز وجل، فجاءت تصرفاتها نابعة من معين الصدق، ومعين الوفاء، مما جعلها متفردة في بعض المواقف العطرة التي تنفح سيرتها بعطرِ معطار، وشهد رسول الله ﷺ لأمنا صفية بالصدق بعد أن أقسم على ذلك[1].

عن زيد بن أسلم: أن نبي الله في وجعه الذي تُوفي فيه، قالت صفية بنت حيي: والله يا نبي الله لوددت أن الذي بك بي. فغمزها أزواجه؛ فأبصرهن. فقال: «**مضمضن**». قلن: من أي شيء ؟ قال: «**من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة**»[2].

فيا لها من منقبة عظيمة لأم المؤمنين (صفية) أن يشهد لها الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ بأنها صادقة بل ويقسم بالله على ذلك.

على رسلكما إنها صفية

وها هو موقف عظيم يوضح مكانة صفية رضي الله عنها في قلب النبي ﷺ ويوضح أيضا مدى شفقة النبي ﷺ ورحمته بأمته.

عن صفية بنت حيي، قالت: كان النبي ﷺ معتكفًا، فأتيته أزوره ليلًا، فحدثته، ثم قمت لأنقلب، فقام معي ليقلبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: «**على رِسلكما، إنها صفية بنت حيي**». فقالا: سبحان الله، يا رسول الله !

قال: «**إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وأني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرًا**»

---

(١) نساء أهل البيت (ص ٣٥٨).

(٢) أخرجه ابن سعد (٨/ ١٢٨) ورجاله ثقات لكنه مرسل.

أو قال: «شيئًا»(١)(٢).

استدراك ما فات

وكانت صفية رضي الله عنها تجتهد في طاعة الله لتستدرك ما فات من عمرها فقد كانت تتمنى أنه لو كانت أسلمت مع أول لحظة بُعث فيها الحبيب محمد ﷺ لتغتنم كل لحظة في طاعة الله وفي جوار رسوله ﷺ.

ومن أجل ذلك كانت لا تترك لحظة من عمرها تمر إلا في طاعة الله.. وكان قُربها من النبي ﷺ يجعلها تتعلم على يديه كل ما ينفعها في دينها ودنياها فكانت تنهل من النبع والمعين الصافي مباشرة فأخذت من أخلاق النبي ﷺ وهديه ورحمته وبصيرته وعلمه.. بل وجلست تحفظ الكثير والكثير من كتاب الله وراحت تنقل سنة النبي ﷺ إلى النساء من حولها عملًا بقول الله عز وجل: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٣٤].

فراق مؤلم

ومرت الأيام الجميلة مسرعة فقد كانت صفية رضي الله عنها تعيش مع النبي ﷺ في جنة الدنيا التي يحفها الإيمان من كل جوانبها.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤) (٢١٧٥) كتاب السلام.

(٢) قال الإمام النووي: الحديث فيه فوائد. منها بيان كمال شفقته ﷺ على أمته ومراعاته لمصالحهم وصيانة قلوبهم وجوارحهم، وكان بالمؤمنين رحيمًا؛ فخاف ﷺ أن يلقي الشيطان في قلوبهما فيهلكا؛ فإن ظن السوء بالأنبياء كفر بالإجماع، والكبائر غير جائزة عليهم، وفيه أن من ظن شيئا من نحو هذا بالنبي ﷺ كفر، وفيه جواز زيارة المرأة لزوجها المعتكف في ليل أو نهار؛ وأنه لا يضر اعتكافه، لكن يكره الإكثار من مجالستها والاستلذاذ بحديثها لئلا يكون ذريعة إلى الوقاع أو إلى القبلة أو نحوها مما يفسد الاعتكاف، وفيه استحباب التحرز من التعرض لسوء ظن الناس في الإنسان، وطلب السلامة، والاعتذار بالأعذار الصحيحة، وأنه متى فعل ما قد ينكر ظاهره مما هو حق، وقد يخفى أن يبين حاله ليدفع ظن السوء، وفيه الاستعداد للتحفظ من مكايد الشيطان فإنه يجري من الإنسان مجرى الدم فيتأهب الإنسان للاحتراز من وساوسه وشره والله أعلم... وقولها: فقام معي يقلبني هو بفتح الياء أي ليردني إلى منزلي. فيه جواز تمشي المعتكف معها ما لم يخرج من المسجد. وليس في الحديث أنه خرج من المسجد [مسلم بشرح النووي (١٤/ ٢٢٣ : ٢٢٤)].

ولكن دوام الحال من المحال فقد جاء اليوم الذي أظلم فيه الكون كله بموت النبي ﷺ فحزنت (صفية) عليه حزنًا شديدًا كاد أن يمزق قلبها ولكن صبرت واحتسبت النبي ﷺ عند الله لتفوز بأجر وثواب الصابرات.

والله يحب المحسنين

وبعد وفاة الحبيب ﷺ ظلت صفية ﵂ على العهد قائمة صائمة عابدة لله ﷯ . . . وكان أبو بكر ﵁ يعرف قدرها ومكانتها السامية العالية. . . ولما توفي أبو بكر وتولى عمر الخلافة كان أيضًا يعرف فضلها ومنزلتها العالية.

وها هو موقف عظيم من مواقفها التي توضح كيف أنها كانت رحيمة بكل من حولها بل وتحمل الخير في قلبها لكل الناس.

قال أبو عمر عبد البر: روينا أن جارية لصفية أتت عمر بن الخطاب، فقالت: إن صفية تحب السبت، وتصل اليهود. فبعث عمر يسألها. فقالت: أما السبت، فلم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة؛ وأما اليهود، فإن لي فيهم رحمًا، فأنا أصلها، ثم قالت للجارية: ما حملك على ما صنعت ؟ قالت: الشيطان، قالت: فاذهبي فأنت حرة[1].

لقد كانت ﵂ تستطيع أن تنتقم لنفسها ولكنها تعلمت العفو عند المقدرة من صاحب الخلق الرفيع محمد بن عبد الله ﷺ.

ولقد أثنى الله على عباده المتقين بقوله :﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٣٤] .

موقفها الجليل مع عثمان ﵁

وفي حياة الخليفة عثمان بن عفان - عليه سحائب الرضوان - كان لأمنا صفية ﵂ ، موقف وضيء يشير إلى فضلها ومعرفتها مكانة عثمان ﵁ .

ورد ما يؤيد هذا، عن كنانة مولى أمنا صفية أنه قال: كنت أقود بصفية لتردَّ عن عثمان، فلقيها الأشتر[2]، فضرب وجه بغلتها حتى مالت: فقالت: ردَّني لا يفضحني هذا. قال: ثم

(١) الاستيعاب (١٣/ ٦٥).

(٢) الأشتر: هو مالك بن الحارث النخعي، كان على رأس أهل الكوفة الذين تولوا الفتنة أيام سيدنا عثمان بن عفان ﵁ .

وضعت خشبًا بين منزلها، ومنزل عثمان تنقل عليه الماء والطعام[١].

وبهذا التصرف الكريم، عبَّرت أم المؤمنين صفية عن عدم رضاها عن الذين ظلموا سيدنا عثمان، وضيقوا عليه، ومنعوا عنه الطعام والماء، فرأت من واجبها أن تكون خير معوان لذي النورين عثمان، كما عبرت عن سعة أفقها، وكمال عقلها الذي كانت تزن به الأمور، ولذلك وصفها ابن الأثير، والنووي - رحمهما الله - بقولهما: كانت عاقلة من عقلاء النساء[٢]. وأثنى عليها الحافظ ابن كثير رحمه الله فقال: كانت من سيدات النساء عبادة، وورعًا، وزهادة، وبرًا، وصدقة، رضي الله عنها وأرضاها[٣].

وحان وقت الرحيل

وعاشت أمنا صفية رضي الله عنها بعد وفاة الحبيب ﷺ قرابة أربعين سنة كانت كلها في طاعة الله عز وجل ما بين صلاة وصيام وصدقة وعلم ودعوة إلى الله.

ولقد حضرت عصر الخلفاء الراشدين من أوله لآخره وعاشت أحداث الفتوحات الإسلامية شرقًا وغربًا ورأت كل ما أخبر عنه الحبيب ﷺ من النصر والتمكين للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

وفي سنة خمسين من الهجرة نامت أمنا صفية رضي الله عنها على فراش الموت لتلقى ربها راضية مرضية بعد أن مات الحبيب ﷺ وهو راضٍ عنها.

وماتت رضي الله عنها لتكون مثالاً وقدوة لكل مسلمة إلى يوم القيامة.

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

* * *

(١) عن الإصابة (٤/ ٣٣٩) بتصرف يسير. وانظر: طبقات ابن سعد (٨/ ١٢٨) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٣٧) وقال الأرناؤوط: ورجاله ثقات.

(٢) أسد الغابة (٦/ ١٦٩) وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٤٩).

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (٨/ ٤٦).

ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها

(أما إنها كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرحم)

عائشة رضي الله عنها

ومازلنا نتعايش بقلوبنا وأرواحنا مع العِقد الفريد الذي يضم أطهر وأعظم نساء الكون كله - زوجات الحبيب ﷺ.

وها نحن اليوم على موعدٍ مع شمسٍ بزغ نجمها في سماء الإيمان فأرسلت الدفء والنور على قلب المؤمنات، فكانت قدوة في الإيمان والتقوى لكل من أرادت أن تسلك سبيل النجاة.

إننا على موعدٍ مع أمنا الغالية: ميمونة بنت الحارث الهلالية... تلكم الدرة النفيسة التي دخلت البيت النبوي الطاهر الكريم.

الأصل الزكي

وقبل أن نتعايش مع سيرتها العطرة فتعالوا بنا لنقف وقفة مباركة مع هذا الأصل الزكي الذي أحاط به المجد من كل أطرافه.

فأما زوجها فهو سيد الأولين والآخرين الذي أرسله الله رحمة للعالمين محمد ابن عبد الله ﷺ ... وحسبُها أنها زوجة رسول الله ﷺ.

وأما أختها فهي أم الفضل بنت الحارث زوج العباس - عم النبي ﷺ الذي كان يمنع الجار ويبذل المال ويعطي في النوائب ويكسو العاري ويُطعم الجائع.

وهي خالة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حَبر الأمة وترجمان القرآن الذي ملأ الدنيا علمًا وفقهًا.

وهي أيضًا خالة سيف الله المسلول - خالد بن الوليد رضي الله عنه - الذي سطَّر على جبين التاريخ صفحات من النور لا ينساها الكون كله على مدار العصور والأزمان... فلقد

قال عنه الحبيب ﷺ: «خالد بن الوليد سيف الله سلَّه الله على المشركين»[١].

أكرم الناس أصهارا

بل كان يقال لوالدة (ميمونة) العجوز الحرشية أكرم الناس أصهارًا: ميمونة زوج النبي ﷺ والعباس تزوج أختها شقيقتها لبابة وحمزة تزوج أختها سلمى وجعفر بن أبي طالب تزوج شقيقتها أسماء ثم تزوجها بعده أبو بكر الصديق ثم تزوجها بعده علي[٢].

تربة خصبة

كانت أمنا ميمونة رضي الله عنها تعيش في هذه التربة الخصبة بين أفراد هذه الأسرة المباركة وكان نور الإيمان يملأ قلبها وجوارحها فكانت لا تطمع في قصرٍ من قصور الدنيا ولا في أي شيء من حُطامها الفاني لأنها تعلم يقينًا أن الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة .. وأن موضع قدم المؤمن في الجنة خير من الدنيا وما فيها.

لذلك كانت من السابقات إلى الدخول في دين الله عز وجل ومِمن شهد لهن النبي ﷺ بالإيمان.

أمنية غالية

تزوجها أولاً مسعود بن عمرو الثقفي قبيل الإسلام ففارقها، ثم تزوجها بعد ذلك أبو رُهم بن عبد العُزى فمات... فأحست في قرارة نفسها بأن الله عز وجل سيرزقها بزوج مباركٍ يأخذ بيدها إلى جنتي الدنيا والآخرة. ولكن يا تُرى من يكون هذا الزوج المبارك؟ إنها لم يخطر ببالها لحظة واحدة أن تكون أمًّا من أمهات المؤمنين وزوجة لسيد الأولين والآخرين محمد ﷺ ولكن الأقدار المباركة جعلتها تقترب شيئًا فشيئًا من هذه الأمنية الغالية التي كانت تتمناها أي امرأة مؤمنة في هذا الكون الفسيح.

فها هو الحبيب ﷺ يأتي هو وأصحابه لأداء «عُمرة القضاء» فكان هذا الزواج الميمون فلقد تزوج النبي ﷺ تلكم المرأة الميمونة «ميمونة بنت الحارث» بعد انصرافه من عمرة القضاء.

---

(١) رواه ابن عساكر عن عمر وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٠٧).

(٢) الإصابة للحافظ ابن حجر (٨/ ٤٥٠).

وتعالوا بنا لنتعايش مع قصة هذا الزواج المبارك.

عمرة القضاء(١) ... وموعدٌ مع السعادة

في عمرة القضاء، انساب المهاجرون في دروب مكة يستنشقون عبير أرض الذكريات الحلوة، ويتملون مراتع الصبا والشباب فرحين مسرورين، وكانت بعض بيوتهم خاوية لا حركة فيها، قد خيم عليها السكون، فتبعث الأسى في النفوس، ولكنهم ألقوا عليها نظرات عابرة دون أن تترك أثرًا في قلوبهم التي عمّرها الإيمان بحب الله ورسوله.

قال الحاكم: تواترت الأخبار أنه ﷺ لما هلَّ ذو القعدة أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم، وأن لا يتخلف منهم أحد شهد الحديبية، فخرجوا إلا من استشهد، وخرج معه آخرون معتمرين، فكانت عدتهم ألفين سوى النساء والصبيان اهـ(٢).

واستخلف على المدينة عويف أبا رهم الغفاري، وساق ستين بدنة وجعل عليها ناجية بن جندب الأسلمي، وأحرم للعمرة من ذي الحليفة، ولبَّى، ولبَّى المسلمون معه، وخرج مستعدًا بالسلاح والمقاتلة، خشية أن يقع من قريش غدر، فلما بلغ يأجج وضع الأداة كلها: الحجف، والمجِان، والنبل، والرماح، وخلف عليها أوس بن خولى الأنصاري في مائتي رجل، ودخل بسلاح الراكب والسيوف في القرب(٣).

وكان رسول الله ﷺ عند الدخول راكبًا على ناقته القصواء، والمسلمون متوشحو السيوف، محدقون برسول الله ﷺ يلبون.

وخرج المشركون إلى جبل قعيقان - الجبل الذي في شمال الكعبة - ليروا المسلمين وقد قالوا فيما بينهم: إنه يقدم عليكم وفد وهنتهم حُمى يثرب، فأمر النبي ﷺ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم(٤)، وإنما أمرهم بذلك ليُري المشركين قوته(٥).

---

(١) سُميت هذه العمرة، بعمرة القضاء، لأنها كانت عن عمرة الحديبية، أو لأنها وقعت حسب المقاضاة أي المصالحة التي وقعت في الحديبية.
والوجه الثاني الذي رجحه المحققون كابن قيم الجوزية في «زاد المعاد» وابن حجر في «فتح الباري» وهذه العمرة تسمى بأربعة أسماء - كما ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح -: القضاء والقضية، والقصاص، والصّلح.

(٢) فتح الباري (٧/ ٧٠٠).

(٣) زاد المعاد (٢/ ١٥١).

(٤) أخرجه البخاري (١٦٠٢)، مسلم (٢٤٠) (١٢٦٦).

(٥) أخرجه البخاري (١/ ٢١٨) ومسلم (١/ ٤١٢).

ودخل رسول الله ﷺ مكة من الثنية التي تطلعه على الحجون - وقد صف المشركون ينظرون إليه - فلم يزل يلبي حتى استلم الركن بمحجنه، ثم طاف، وطاف المسلمون، وعبد الله بن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ يرتجز متوشحًا بالسيف:

خَلُّوا بني الكفار عن سبيله ... خلُّوا فكل الخير في رسوله
قد أنزل الرحمن في تنزيله ... في صحف تتلى على رسوله
يا رب إني مؤمن بقِيله ... إني رأيت الحق في قَبوله
بأن خير القتل في سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيله
ضربًا يُزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله[١]

وفي حديث أنس: فقال عمر: يا ابن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله تقول الشعر ؟ فقال له النبي ﷺ: **«خل عنه يا عمر، فلهو أسرع فيهم من نضح النبل»**[٢].

كان المسلمون المهاجرون وهم في المدينة المنورة، يستشعرون شوقًا عنيفًا إلى مكة أم القرى، وكانت أعزّ أمانيهم أن يعودوا إليها، وأن يروا أقربائهم، وأن يرووا ظمأهم من ماء زمزم، وأن يطوفوا بالبيت العتيق، فإذا بآمالهم كلها تتحقق، وها هم اليوم يطوفون بالبيت العتيق وهم بصحبة الحبيب المصطفى ﷺ.

ورَمَلَ رسول الله ﷺ والمسلمون ثلاثة أشواط، فلما رآهم المشركون، قالوا: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم، هؤلاء أجلد من كذا وكذا[٣].

ولما فرغ من الطواف سعى بين الصفا والمروة، فلما فرغ من السعي، وقد وقف الهدي عند المروة، قال: **«هذا المنحر، وكل فجاج مكة منحرٌ»**، فنحر عند المروة وحلق هناك، وكذلك فعل المسلمون، ثم بعث ناسًا إلى يأجج فيقيموا على السلاح، ويأتي الآخرون فيقضون نسكهم ففعلوا.

وأقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاثًا، فلما أصبح من اليوم الرابع أتوا عليًا، فقالوا: قل

---

(١) أخرجه ابن هشام في «السيرة» (٣/ ٨٢٨) عن ابن إسحاق، حدثني عبد الله بن أبي بكر مرسلاً بنحوه، ورواه عبد الرزاق من وجهين صحيحين عن أنس - كما قال الحافظ في «الفتح» (٧/ ٥٠١)، وانظر ما بعده.

(٢) رواه الترمذي (٢٨٥١)، والنسائي(٥/ ٢٠٢) وصححه الألباني في مختصر الشمائل (٢١٠).

(٣) أخرجه مسلم (١/ ٤١٢).

لصاحبك: اخرج عنا، فقد مضى الأجل، فخرج النبي ﷺ، ونزل بسرف فأقام بها.

وفي هذه العمرة تزوج النبي ﷺ بميمونة بنت الحارث العامرية، وكان رسول الله ﷺ قبل الدخول في مكة بعث جعفر بن أبي طالب بين يديه إلى ميمونة، فجعلت أمرها إلى العباس، وكانت أختها أم الفضل تحته، فزوَّجها إياه، فلما خرج من مكة خلف أبا رافع ليحمل ميمونة إليه حين يمشي، فبنى بها بسرف(١)(٢).

عن ميمون بن مهران قال: دخلت على صفية ينت شيبة، عجوز كبيرة، فسألتها: أتزوج النبي ﷺ ميمونة، وهو مُحرم، قالت: لا، والله لقد تزوجها وإنهما لحلالان(٣).

وعن يزيد بن الأصم، قال: خطبها، وهو حلال، وبنى بها، وهو حلال(٤).

عن أبي رافع: أن رسول الله ﷺ تزوج ميمونة حلالاً، وكنت الرسول بينهما(٥).

وعن ابن عباس قال: إن النبي ﷺ تزوجها وهو مُحرم(٦)(٧).

قال الإمام الذهبي: وبعض من رأى صحة خبر ابن عباس، عدَّ الجواز خاصًا بالنبي ﷺ. وجوَّد هذا الباب ابن سعد، ثم قال: أخبرنا أبو نُعيم: حدثنا جعفر بن بُرقان، عن ميمون، قال: كنت جالسًا عند عطاء، فجاءه رجلٌ فقال: هل يتزوج المحرم ؟ قال: ما حرم الله النكاح منذ أحله. فقلت: إن عمر بن عبد العزيز كتب إليَّ - وميمون يومئذ على الجزيرة -: أن سل يزيد بن الأصم: أكان تزوج رسول الله ﷺ (يوم تزوج) ميمونة

---

(١) زاد المعاد (٢/ ١٥٢).
(٢) أخرجه البخاري (١٨٣٧) ومسلم (١٤١٠).
(٣) أخرجه ابن سعد (٨/ ١٣٣) وقال الأرناؤوط: ورجاله ثقات.
(٤) أخرجه مسلم (١٤١١) النكاح/ باب: تحريم نكاح المحرم وكراهة خطبته.
(٥) رواه أحمد (٦/ ٣٩٣) والترمذي (٨٤١) وقال الأرناؤوط: إسناده حسن.
(٦) أخرجه ابن سعد (٨/ ١٣٥) والبخاري (٤/٤٥) والنسائي (٥/ ١٩٢).
(٧) قال بعض أهل العلم (ومنهم الزهري) أن ميمونة بنت الحارث هي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٤٠٦): وقد حُكي عن ابن عباس أن التي وهبت نفسها له ميمونة بنت الحارث، وعن الشعبي: أنها زينب بنت خزيمة. والأول: أصح.
قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٤٠٤): ومنهن (يعني الموهوبات) زينب بنت خزيمة، جاء عن الشعبي، وليس بثابت، وقال: وعند ابن أبي حاتم من طريق قتادة عن ابن عباس قال: التي وهبت نفسها للنبي ﷺ. هي ميمونة بنت الحارث، قال: وهذا منقطع، وقال: وأورده من وجه آخر مرسل، وإسناده ضعيف، ا.هـ.

حلالاً، أو حرامًا ؟ فقال يزيد: تزوجها وهو حلال. وكانت ميمونة خالة يزيد[١].

في رحاب بيت النبوة

وبعد أن تم هذا الزواج الميمون المبارك دخلت ميمونة رضي الله عنها بيت النبوة لتكون أمًّا من أمهات المؤمنين... ويا له من شرفٍ ما بعده شرف.

دخلت ميمونة أم المؤمنين المدينة المنورة فأحست بسعادة لا تعادلها سعادة، وكأن قلبها يعانق كواكب الجوزاء... وتخطَّت برجليها عتبة الحجرة التي أعدها لها النبي ﷺ، والتي فاح منها الإيمان فنشر عبيره على الكون كله.

إنها غرفة وإن كانت بسيطة ومتواضعة إلا أن جدرانها أُسست على التقوى.

وعاشت ميمونة رضي الله عنها في رحاب بيت النبوة فتعلمت بين يدي النبي ﷺ الخير الكثير فأخذت من هديه ودلِّه وأخلاقه وعلمه فكان إيمانها يزداد يومًا بعد يومٍ.

شهادة غالية

وظلت ميمونة رضي الله عنها تتعايش بقلبها وجوارحها مع بركات الوحي المنزَّل على الحبيب ﷺ وتحوله إلى واقعٍ عملي فكانت تقوم الليل وتصوم النهار وتفعل الخيرات، حتى شهد لها النبي ﷺ ولأخواتها بالإيمان، ويا لها من شهادة عظيمة خرجت من فم الصادق الذي لا ينطق عن الهوى.

قال ﷺ: **«الأخوات الأربع: ميمونة، وأم الفضل، وسلمى، وأسماء بنت عميس، - أختهن لأمهن - مؤمنات»**[٢].

حرصها على إقامة حدود الله عز وجل

وكانت رضي الله عنها حريصة كل الحرص على إقامة حدود الله لأنها تعلم يقينًا أن الحياة الطاهرة النظيفة لا تكون إلا في ظل التعايش مع شرع الله فعن يزيد: أن ذا قرابة لميمونة

(١) أخرجه ابن سعد (٨/ ١٣٤) وقال الأرناؤوط: وإسناده صحيح.
(٢) رواه النسائي والحاكم عن ابن عباس وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٧٦٣).

دخل عليها فوجدت منه ريح شرابٍ فقالت: لئن لم تخرج إلى المسلمين فيجلدوك لا تدخل عليَّ أبدًا[(١)].

فراق مؤلم

وبعد فترة قصيرة من تلك الحياة الإيمانية المباركة نام رسول الله ﷺ على فراش الموت... وكان أول ما اشتكى رسول الله ﷺ في بيت ميمونة رضي الله عنها.

وعن أسماء بنت عميس قالت: أول ما اشتكى رسول الله ﷺ في بيت ميمونة، فاشتد مرضه حتى أغمى عليه، فتشاور نساؤه في لدِّه فلدّوه، فلما أفاق قال: «**ما هذا**» فقلنا: هذا فعل نساء جئن من ههنا وأشار إلى أرض الحبشة وكانت أسماء بنت عميس فيهن. قالوا: كنا نتهم بك ذات الجنب يا رسول الله. قال: «**إن ذلك لداء ما كان الله** عز وجل **ليقذفني به، لا يبقين في البيت أحد إلا يُلَدَّ إلا عم رسول الله ﷺ يعني العباس**» قالت: لقد التدّت ميمونة وإنها لصائمة لعزيمة رسول الله ﷺ[(٢)].

وكان النبي ﷺ قد صلى بالناس مغرب هذا اليوم وقرأ بالمرسلات.

عن أم الفضل بنت الحارث قالت: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالمرسلات عرفًا ثم ما صلى لنا بعدها حتى قبضه الله.

وعند العشاء اشتد عليه ﷺ المرض بحيث لم يستطع الخروج، وكان ﷺ قد استأذن أزواجه في أن يُمرض في بيت عائشة رضي الله عنها فأذن له. عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن عائشة قالت: لما ثقل النبي ﷺ واشتد به وجعه، استأذن أزواجه في أن يُمرَّض في بيتي فأذنَّ له...[(٣)].

وما هي إلا ساعات معدودة حتى فاضت أطهر روح في الدنيا كلها إلى بارئها ... مات رسول الله ﷺ وأظلمت المدينة كلها لموته ﷺ وحزنت عليه ميمونة حُزنًا كاد أن

(١) أخرجه ابن سعد (٨/٩٩).

(٢) رواه أحمد (٦/ ٤٣٨) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ورجاله ثقات - (٩/٣٣) مجمع الزوائد. واللدود: ما يسقاه المريض في أحد شقي الفم.

(٣) أخرجه البخاري (٢/ ٢٠٣) الأذان - ومسلم (٤/ ١٣٥-١٣٧) الصلاة.

يمزق قلبها ولكنها احتسبته عند الله لتنال أجر وثواب الصابرين. . . وحسبُها أن النبي ﷺ مات وهو راضٍ عنها.

وانتقل الرسول الكريم ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وهو راضٍ عن زوجاته الطاهرات، وكُنَّ تسعًا. وقد نظم بعض العلماء زوجات النبي ﷺ اللاتي مات عنهن فقال:

تُوفي رسول الله عن تسع نسوة إليهن تُعزى المكرمات وتُنسب
فعائشة وميمونة وصفية وجويرية مع سودة ثم زينب
كذا رملة[1] مع هند[2] أيضًا وحفصة ثلاثٌ وستٌ نظمهنَّ مهذَّب

رواية حديث النبي ﷺ

قال الإمام الذهبي عنها: وكانت من سادات النساء روت عدة أحاديث.

حدَّث عنها ابن عباس، وابن أختها الآخر: عبد الله بن شداد بن الهاد، وعبيد ابن السبَّاق، (وعبد الرحمن بن السائب الهلالي) وابن أختها الرابع: يزيد بن الأصم، وكُريب مولى ابن عباس، ومولاها سُليمان بن يسار، وَأَخُوهُ: عطاء بن يسار. وآخرون[3].

وكيف لا تكون بهذه المنزلة الغالية وهي التي عاشت في رحاب بيت النبي ﷺ واقتبست من النبع الصافي مباشرة بغير واسطة فكانت تنهل من هذا الخير الكثير والكثير.

وحان وقت الرحيل

وبعد وفاة الحبيب ﷺ ظلت ميمونة ﵂ عاكفة على العبادة والصلاة والصيام وقراءة القرآن حتى تاقت نفسها إلى لقاء الله فإن من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه -.

وحانت اللحظة التي تترك فيها الدنيا بكل ما عليها من متاع زائل لتلقى ربها ﷻ فنامت على فراش الموت بعد أن عاشت في رحاب الخلافة الراشدة وكانت تحظى باحترام الخلفاء والعلماء وامتدت بها الحياة إلى خلافة معاوية ﵁.

(١) رملة: اسم أم حبيبة أم المؤمنين ﵂.
(٢) هند: اسم أم سلمة أم المؤمنين ﵂.
(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٣٩).

وماتت ميمونة أم المؤمنين ﵂ ولكنها قبل موتها تذكرت ما أخبرها به النبي ﷺ.

فعن يزيد بن الأصم قال: ثَقُلت ميمونة زوج النبي ﷺ بمكة وليس عندها أحد من بني أخيها فقالت: أخرجوني من مكة فإني لا أموت بها، إن رسول الله ﷺ أخبرني: **«أني لا أموت بمكة»**.

قال: فحملوها حتى أتوا بها سرف إلى الشجرة التي بنى بها رسول الله ﷺ تحتها في موضع القبة.

قال: فماتت فلما وضعناها في لحدها أخذت ردائي فوضعته تحت خدها في اللحد فأخذه ابن عباس فرمى به(١).

عن يزيد بن الأصم، قال: دفنَّا ميمونة بِسَرِف في الظُلَّة التي بنى بها فيها رسول الله ﷺ، وقد كانت حلقت في الحج... نزلت في قبرها، أنا وابن عباس(٢).

وعن عطاء: توفيت ميمونة بسرف، فخرجت مع ابن عباس إليها، فقال: إذا رفعتم نعشها، فلا تُزلزلوها، ولا تُزعزعوها(٣).

وتوفيت ﵂ سنة إحدى وخمسين.

وهنا تقول أمنا عائشة ﵂ في حقها بعد وفاتها تلك الكلمة الخالدة: **«ذهبت والله ميمونة... أما إنها كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرحم»**(٤).

وهكذا رحلت أمنا ميمونة ﵂ لتلحق بحبيبها وزوجها ونبيها ﷺ في جناتٍ ونهر في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر.

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

* * *

(١) قال الهيثمي في المجمع (١٥٣٦٢): رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح.
(٢) أخرجه ابن سعد (٨/ ١٣٩، ١٤٠)، والحاكم (٤/٣١)، وصححه وأقره الذهبي.
(٣) أخرجه ابن سعد (٨/ ١٤٠) من طريق الواقدي، وأخرجه الحاكم (٤/٣٣) من طريق آخر، وصححه، ووافقه الذهبي.
(٤) أخرجه ابن سعد (٨/ ١٣٨) والحاكم (٤/٣٢) وقال الأرناؤوط: إسناده حسن.

فاطمة

بنت رسول الله ﷺ رضي الله عنها

(أنت سيدة نساء أهل الجنة)

محمد رسول الله ﷺ

إن إلقاء الضوء على سيرة فاطمة رضي الله عنها أمرٌ عسير لكثرة مناقبها وفضائلها وإنني - والله - شعرت وأنا أكتب عنها بخجلٍ شديد. . . فمن أنا حتى أُلقي الضوء على حياة بنت رسول الله ﷺ ؟!!!

فأحسست أن الكلمات تتوارى خجلاً وحياءً.

إن سيرتها العطرة خير زاد لنسائنا وبناتنا، حيث تجعل القلوب المؤمنة تتدفق بنور اليقين، وتتصل بحبلٍ من الإيمان والتقوى. فهي بنت سيد الأولين والآخرين ﷺ وأمها سيدة نساء العالمين خديجة رضي الله عنها.

فكيف نبدأ سيرتها، ومن أين نبدأ، فلقد ملأ عبيرها أرجاء الكون حتى أننا لا ندري ماذا نكتب وماذا نترك !!!

فما أحوجنا - ونحن نتعايش بقلوبنا مع سيرتها العطرة - أن نتجرد ونتخلص من هموم الدنيا لنعيش تلك اللحظات الغالية في بيت النبوة لنرى الحياة الحقيقية التي عاشها النبي ﷺ مع أمنا خديجة وابنته فاطمة رضي الله عنهما.

فتعالوا لنبدأ تلك الصفحة المباركة مع ريحانة البيت الطاهر. . مع سيدة نساء العالمين في زمانها وسيدة نساء أهل الجنة. . مع (فاطمة) التي تطيب القلوب بذكرها.

وأبدأ تلك السيرة العطرة بهذه الكلمات:

المجد يُشرق من ثلاث مطالع ... في مهد فاطمة فما أعلاها!
هي بنت من هي زوج من هي أم من ... من ذا يداني في الفخار أباها ؟
هي ومضة من نور عين المصطفى ... هادي الشعوب إذا تروم هُداها
هو رحمة للعالمين. وكعبة الآ ... مال في الدنيا. وفي أُخراها

من أيقظ الفطر النيام بروحه — وكأنه بعد البلى أحياها
وأعاد تاريخ الحياة جديدة — مثل العرائس في جديد حُلاها
ولزوج فاطمة بسورة «هل أتى» — تاجٌ يفوق الشمس عند ضُحاها
أسدٌ بحصن الله يرمي المشكلات — بصيقلٍ يمحو سطورَ دُجاها
إيوانه كوخٌ، وكنز ثرائه — سيفٌ. غدا بيمينه تَياها
في روض فاطمة نما غصنان لم — ينجبهما في النيِّرات سواها
فأمير قافلة الجهاد وقطب دا — ئرة الوئام والاتحاد ابناها
هي أسوة للأمهات وقدوةٌ — يترسم الفخر المنير خُطاها
حسنُ الذي صان الجماعة بعدما — أمسى تفرقها يحل عُراها
ترك الخلافة ثم أصبح في الديار — إمام ألفتها وحُسن عُلاها
وحسينُ في الأبرار والأحرار ما — أزكى شمائله وما أنداها![1]

ميلاد ونشأة مباركة

وُلدت فاطمة رضي الله عنها في أم القرى وقريشٌ تجدد بناء الكعبة وكان ذلك قبل بعثة الحبيب ﷺ بخمس سنين... ففرح النبي ﷺ بها فرحًا عظيمًا وأحسَّ من أول لحظة بأنها ستكون فتاة مباركة فسمّاها فاطمة وكانت أشد بناته شبهًا به ﷺ.

ونشأت فاطمة في أعظم وأطهر بيت في الكون كله - إنه بيت الحبيب ﷺ - الذي ملأه الله إيمانًا وبركة وصنعه على عينه.

فكانت فاطمة تنهل من معين النبوة الصافي وكانت أمها خديجة رضي الله عنها تغمرها بحبها وحنانها ولذلك لم تسترضع لها - كعادة العرب وقتها - بل أرضعتها هي بنفسها... فرضعت فاطمة من خديجة الحلم والحياء والمروءة والطُهر والعفاف والحكمة والأدب وحُسن الخلق وكل الصفات الحميدة، فنشأت أطيب وأفضل نشأة... فأمها خديجة رضي الله عنها سيدة نساء العالمين وأبوها سيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله ﷺ.

أم أبيها

على مائدة التقى والطهر، فتحت فاطمة عينها، ونشأت على أتقى التقى، بين

(١) من شعر المفكر الإسلامي/ محمد إقبال.

الصلوات والتسبيحات التي تنبعث من فم أبيها وأمها، وهذا كان له كبير الأثر في تكوين شخصيتها الفريدة بين نساء أهل البيت - رضي الله عنهن - إذ كانت الزهراء الوحيدة - تقريبا - في بيت أبويها، حيث تزوجت كبرى أخواتها زينب، ثم رقية، ولم تبق إلا أم كلثوم التي تكبرها بقليل.

في رُبى رياض قلبين كبيرين؛ قلب أبيها، وقلب أمها، نعمت فاطمة الزهراء بحنانهما، وقطفت من زهر رياضهما الحب والعطف والرحمة، فحظيت بالحنان منهما، لكونها أصغر الذرية الطاهرة في البيت المحمدي.

وفي جنة أبويها، تبوأت الزهراء مكانًا عليًا، فتعلمت منهما ما لم تتعلمه فتاة في مكة أو غيرها... تعلمت آيات من الذكر الحكيم،... كان الوحي الأمين يهبط بها ندية على الرسول الأمين محمد ﷺ.

ففي مهد الإيمان نشأت الزهراء نشأة جد واعتكاف؛ نشأة وقار وحياء، فكانت ساكنة النفس، قوية القلب، صافية السريرة، لا تعرف إلا الإيمان ولا يعرفها إلى الإيمان.

في تلك الدار المباركة علمت الزهراء - على مر السنين - أنها سليلة شرف لا يداني، ومكانة لا تباري، ونقاء لا يجاري؛ جمعت إلى عراقة النسب، وكرامة المحتد، كريم الصفات، وجميل المحاسن، فغدت منفردة بين بنات قومها، بل بنات الدنيا بأسرها.

بعد وفاة خديجة أم الزهراء، كانت الزهراء تنهض بأعباء البيت النبوي، وترعى أباها الكريم، وتفيض عليه من عطفها وحبها، حتى دعاها أصحاب رسول الله ﷺ بأم النبي أو أم أبيها(١).

في رحاب المكارم

وقبل أن ندخل بستان الزهراء ﷺ الذي فاح عبيره فملأ الكون كله بعطر الإيمان والحياء... تعالوا بنا لنعيش لحظة في ظل المكارم التي اكتنفتها من كل جانب.

* فأبوها هو سيد الأولين والآخرين الذي خلقه الله ليكون رحمة للعالمين... إنه الحبيب محمد ﷺ.

(١) نساء أهل البيت (ص ٥٣٣، ٥٣٤).

* وأمها سيدة نساء العالمين خديجة رضي الله عنها وهي أول من أسلمت من النساء وهي التي جاءها جبريل عليه السلام ليبلغها السلام من عند السلام - جل جلاله - وهي التي بشَّرها ببيتٍ في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب.

*وفاطمة نفسها هي سيدة نساء العالمين في زمانها.

*وولداها (الحسن والحسين) رضي الله عنهما سيدا شباب أهل الجنة وريحانتا رسول الله ﷺ.

* وزوجها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي يحب الله ورسوله ﷺ ويحبه الله ورسوله ﷺ. . الذي قال له النبي ﷺ: «**أنت مني وأنا منك**»[(١)]. . وقال له ﷺ: «**ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبيٌّ بعدي**»[(٢)].

* وعمها سيد الشهداء وأسد الله وأسد رسوله ﷺ - حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه . . . - فهو عم الرسول ﷺ وأخوه من الرضاعة.

* وعم أبيها هو العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه الذي كان يمنع الجار ويبذل المال ويُعطي في النوائب ويطعم الجائع.

* وابن عم أبيها جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه السيد الشهيد الكبير الشأن علم المجاهدين الذي يطير في الجنة مع الملائكة بجناحين.

ولو استطردنا في الكلام عن المكارم التي أحاطت بها لم نستطع أن نذكرها كلها. . . فيا تُرى من التي جمع الله لها تلك المكارم ؟!!!.

من السابقات

لقد كانت أرض الجزيرة تموج في الكفر موجًا وكانت فاطمة رضي الله عنها ترى ما كان الناس يفعلونه من عبادة الأصنام وغير ذلك من أفعال الجاهلية لكنها في الوقت ذاته كانت ترى أباها ﷺ لم يسجد لصنم قَط، ولم يشرب خمرًا قَط، فكانت تتعايش بقلبها في معين الفضائل والأخلاقيات العَذبة الرقراقة التي كانت تنساب بلا تكلُّف من أبيها وأمها.

فلما أذن الله بأن تُشرق شمس الهداية على أرض الجزيرة وأرسل جبريل عليه السلام إلى

(١) أخرجه البخاري (٤٢٥١) والترمذي (٣٧١٦).
(٢) أخرجه البخاري (٤٤١٦) ومسلم (٢٤٠٤).

الحبيب ﷺ بالقرآن الذي فيه سعادة البشرية كلها. . . وكانت أمها خديجة رضي الله عنها أول من أسلمت.

وأسلمت فاطمة وأخواتها - رضي الله عنهن - فكان لهن السبق إلى الإيمان بالله وبرسول الله ﷺ.

يقول الإمام الزرقاني:

والحاصل أنه لا يحتاج للنص على سبقهن إلى الإسلام، لنشأتهن بين أحضان أصدق وأكرم أُبوة، وأفضل وأحنى أمومة، يأخذن عن أبيهن أكرم المكارم، وعن أمهن حصائل العقل الذي لا يوزن به عقل امرأة في السابقين ولا في اللاحقين.

صبر الحبيب ﷺ على إيذاء المشركين

قال ابن إسحاق: ثم إن قريشًا اشتد أمرهم للشقاء الذي أصابهم في عداوة رسول الله ﷺ ومن أسلم معه منهم، فأغروا برسول الله ﷺ سفهاءهم، فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون. . . ورسول الله ﷺ مُظهر لأمر الله لا يستخفى به، مباد لهم بما يكرهون: من عيب دينهم، واعتزال أوثانهم، وفراقه إياهم على كفرهم[١].

ولقد تعرض النبي ﷺ كثيرًا لأذى قريش.

فعن علي بن أبي طالب، قال: «لقد رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش، فذا يجبأه[٢]، وهذا يتلتله[٣]، وهم يقولون: أنت الذي جعلت الآلة إلها واحدًا ؟ قال: فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر، يضرب هذا، ويجبأ هذا، ويتلتل هذا، وهو يقول: ويلكم ! ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: الآية ٢٨]، ثم رفع (عليٌّ) بردة كانت عليه، فبكى حتى اخضلت لحيته، ثم قال: أنشدكم الله، أمؤمن آل فرعون خيرٌ أم أبو بكر ؟ فسكت القوم، فقال: ألا تجيبوني ؟ فوالله لساعة من أبي بكر خير من ألف ساعة من مثل مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه»[٤].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٣٨).
(٢) يجبأه: أي فجأه وبغته.
(٣) يتلتله: يحركه ويزعزعه من مكانه.
(٤) تاريخ الخلفاء (ص ٣٧)

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: بينما رسول الله بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة ابن أبي معيط، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ فلف ثوبه في عنقه فخنقه خنقا شديدا، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي ﷺ، ثم قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: الآية ٢٨] (١)

دفاعها عن النبي ﷺ

وكانت رضي الله عنها تتمنى أن تفدي أبيها رسول الله ﷺ بنفسها بل وبالدنيا كلها . . وتدبروا معي هذا المشهد المهيب. فها هو عقبة بن أبي معيط يتعرض مرة أخرى للحبيب ﷺ بالإيذاء ليتقرب إلى زعماء قريش وسادتهم.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلى جزور (٢) بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد. فانبعث أشقى القوم (٣) فجاء به. فنظر حتى سجد النبي ﷺ ووضعه على ظهره بين كتفيه وأنا أنظر لا أغني شيئا، لو كانت لي منعة. قال: فجعلوا يضحكوْن ويحيل (٤) بعضهم على بعض، ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه، حتى جاءته فاطمة فطرحت عن ظهره (٥)، فرفع رأسه ثم قال: «**اللهم عليك بقريش**» ثلاث مرات. فشق عليهم إذ دعا عليهم.

قال: وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة. ثم سمَّى: «**اللهم عليك**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٥٦) مناقب الأنصار.
(٢) السَّلى: الجلدة التي يكون فيها الولد يقال لها ذلك من البهائم، وأما من الآدميات فالمشيمة، وحكى صاحب «المحكم» أنه يقال فيهن أيضًا سلى؛ قاله ابن حجر (١/ ٤١٧).
(٣) وهو عُقبة بن أبي مُعَيْط كما عند البخاري (٣١٨٥)، ومسلم (١٧٩٤/ ١٠٨).
(٤) وفي رواية للبخاري (٥٢٠): «ويميل» يعني: من كثرة الضحك، وعند مسلم (١٧٩٤): «فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض».
(٥) هكذا رواه يوسف عن أبي إسحاق حدثني عمرو بن ميمون أن ابن مسعود حدثه، وقال شعبة عن أبي إسحاق: «فلم يرفع رأسه حتى جاءت فاطمة فأخذت من ظهره ودعت على من صنع ذلك».
كما عند البخاري (٣١٨٥)، ومسلم(١٧٩٤/ ١٠٨) «فأخذته عن ظهره».
وقال إسرائيل عن أبي إسحاق: «فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك، فانطلق مُنطلق إلى فاطمة عليها السلام - وهي جويرية - فأقبلت تسعى، وثبت النبي ﷺ ساجدًا حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسبُهم»، كما عند البخاري (٥٢٠).
وعند مسلم (١٧٩٤/ ١٠٧) من رواية زكريا عن أبي إسحاق: «حتى انطلق إنسانٌ فأخبر فاطمة فجاءت وهي جويرية، فطرحته عنه ثم أقبلت عليهم تشتمهم».

بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة ابن أبي معيط» وعدَّ السابع فلم نحفظه. قال: فوالذي نفسي بيده، لقد رأيت الذين عدَّ رسول الله ﷺ صَرعى في القليب، قليب بدر[١].

ولقد أُسر عقبة بن أبي معيط في غزوة بدر وأمر النبي ﷺ بقتله من دون المشركين لكثرة إيذائه للحبيب ﷺ.

عن ابن عباس قال: نادى رسول الله ﷺ أُسارى بدر وكان فداء كل رجل منهم أربعة آلاف وقتل عقبة بن أبي معيط قبل الفداء قام إليه عليّ فقتله صبرًا. قال من للعين يا رسول الله ؟. قال: النار... وفي رواية الطبراني: قال: من للصبية يا محمد ؟ قال: **«النار»**[٢] - ولعله هو الصواب. والله أعلم -.

المقاطعة العامة ... ومحنة الحصار

وتمخض حقد المشركين عن عقد معاهدة تعتبر المسلمين ومن يرضى بدينهم أو يعطف عليهم، أو يحمي أحدًا منهم حزبًا واحدًا دون سائر الناس، ثم اتفقوا ألا يبيعوهم أو يبتاعوا منهم شيئا وألا يزوجوهم أو يتزوجوا منهم، وكتبوا ذلك في صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة، توكيدًا لنصوصها.

وضُيّق الحصار على المسلمين؛ وانقطع عنهم العون، وقلَّ الغذاء حتى بلغ بهم الجهد أقصاه، وسمع بكاء أطفالهم من وراء الشِعب، وعضتهم الأزمات العصيبة حتى رثى لحالهم الخصوم. ومع اكفهرار الجو في وجوههم فقد تحملوا في ذات الله الويلات.

قال السهيلي: كانت الصحابة إذا قدمت عير إلى مكة، يأتي أحدهم السوق ليشتري شيئًا من الطعام قوتًا لعياله فيقوم أبو لهب فيقول: يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئا. وقد علمتم مالي ووفاء ذمتي فأنا ضامن لا خسار عليكم، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافًا حتى يرجع أحدهم إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع. وليس في يده شيء يطعمهم به. ويغدو التجار على أبي لهب

---

(١) رواه البخاري (٢٤٠/ وغير موضع)، ومسلم (١٧٩٤)، وغيرهما «م».

(٢) رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله رجال الصحيح. ورواه الطبراني في الأوسط من حديث ابن مسعود بنحوه كما في «المجمع» (٦/٨٩) ورجاله ثقات.

فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس حتى جهد المؤمنون ومن معهم جوعًا وعريًا.

وروى يونس عن سعد بن أبي وقاص قال: خرجت ذات ليلة لأبول فسمعت قعقعة تحت البول، فإذا قطعة من جلد بعير يابسة، فأخذتها وغسلتها، ثم أحرقتها ورضضتها بالماء، فقويت بها ثلاثًا.

فانظر كيف انتهى الحصار بالمسلمين. وكيف أضناهم الحرمان وألجأهم أن يطعموا مالا مساغ له ؟؟. وقد أحزنت تلك الآلام بعض ذوي الرحمة من قريش. فكان أحدهم يوقر البعير زادًا ثم يضربه في اتجاه الشِعب ويترك زمامه ليصل إلى المحصورين فيخفف شيئا مما بهم من إعياء وفاقة.

كم بقيت هذه الضائقة ؟ ثلاث سنين كالحة كان رباط الإيمان وحده هو الذي يمسك القلوب ويصبر على اللأواء.

وكانت فاطمة ﵂ مع المحاصرين وقد أثَّر الحصار والجوع في صحتها تأثيرًا بالغًا فقد عاشت تلك المحنة بكل ما فيها من آلام وأحزان حتى جاء الفرج من عند الله وخرجوا من هذا الحصار.

وفاة أمها ﵂

وما إن خرجت فاطمة ﵂ من محنة الحصار الذي أثَّر في صحتها تأثيرا بالغًا حتى أُصيبت بمُصاب عظيم فقد ماتت أمها خديجة ﵂ التي كانت يدًا حانية وقلبًا رحيمًا فحزنت عليها (فاطمة) حزنًا شديدًا لكنها احتسبتها عند الله لتفوز بثواب الصابرين.

ولكن إن كانت خديجة ﵂ قد ماتت فإن الحبيب ﷺ الذي يحب ابنته فاطمة من كل قلبه ما زال حيًا يرعاها ويحنو عليها ويعطيها من علمه وهديه وأخلاقه... فتعلقت فاطمة بأبيها رسول الله ﷺ تعلُقًا شديدًا فهو صاحب القلب الرحيم الذي لو قُسمت الرحمة التي في قلبه على الناس لكفتهم أجمعين فكيف بحاله مع ابنته الحبيبة ﵂.

الهجرة المباركة

ولما اشتد إيذاء المشركين بأصحاب الحبيب ﷺ أذن لهم بالهجرة ثم هاجر الحبيب ﷺ بعد ذلك إلى المدينة ومعه أبو بكر ﵁ وترك عليًا لينام في فراشه ليؤدي الودائع التي كانت عند رسول الله ﷺ لأصحابها - من المشركين -.

ولمست فاطمة رضي الله عنها هذا الدور العظيم الذي قام به (علي) ليفدي أبيها رسول الله ﷺ . . . فكانت فاطمة لا تنسى هذا الموقف العظيم لعلي رضي الله عنهما .

والجزاء من جنس العمل

فلما نام علي رضي الله عنه ليلة الهجرة على فراش النبي ﷺ ليفديه. . . فكان الجزاء أن الله أسعد فراشه بفاطمة لترضيه.

ذكر ابن كثير في البداية والنهاية اجتماع شياطين قريش في دار الندوة في يوم الزحمة، وحكى ما كان بينهم وبين إبليس الذي تبدّى لهم في صورة الشيخ النجدي، واستقر رأيهم على ما قاله أبو جهل بن هشام.

أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتىً شابًا جليدًا نسيبًا وسيطًا فينا، ثم نعطي كل فتىً منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إن فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعها فلم يقدر بنو مناف على حرب قومهم جميعًا، فرضوا منا بالعقل - الدية - فعقلناه لهم.

فتفرّق القوم على ذلك وهم مجمعون له. فأتى جبرائيل رسول الله ﷺ فقال له: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه.

قال: فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعليّ بن أبي طالب: «**نَم على فراشي، وتسجَّ ببُردي هذا الحضرمي الأخضر، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم**». وكان رسول الله ﷺ ينام في بُرده ذلك إذ ينام.

ثم خرج رسول الله ﷺ وهو يتلو هذه الآيات: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾[يس: الآية ٩] . ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب، فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم فقال: ما تنتظرون هاهنا ؟ قالوا: محمدًا. قال خيّبكم الله، قد والله، خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلًا إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم ؟ قال: فوضع كل رجل منهم يدًا على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون، فيرون

عليًا على الفراش متسجيًا ببُرد رسول الله ﷺ فيقولون: والله، إن هذا لمحمدٌ نائمًا على بُرده فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام (علي) عن الفراش، فقالوا: والله، لقد صدقنا الذي كان حدثنا.

حمى المغوار حيدرة[١] الدعوة في شخص نبيها ﷺ ونام في فراشه في أصعب ليلة مرّت بها الدعوة، رجل ينام في الفراش وهو يعلم أن على الباب رجالاً لا يريدون إلا رأس النائم على الفراش، فلما قلق به الفراش ليلة من أجل نبيه، أسعد الله فراشه بفاطمة بنت نبيه ﷺ التي تجلببت في جلباب كمالها. وأعطاه الرسول ﷺ الأهل والمرحب، وأصدقه درعه الحُطمَيّة، فأُهديت إليه ومعها خميلة ومرفقة من أدم - جلد - حشوها ليف، وقربة ومنخل وقدح ورحَى وجرابان. ودخلت عليه وما لها فراش غير جلد كبش ينامان عليه بالليل وتعلف عليه الناضح بالنهار، وكانت هي خادمة نفسها.

تالله، ما ضرها ذلك.

وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال لها: «**ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة أو نساء المؤمنين**».

وفي الصحيحين عن المسور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ قال: «**فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني**».

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة؛ عليّ وعمّار وسلمان**»[٢]. ونعم الجزاء[٣].

إن الله أمرني أن أزوج فاطمة من علي

ففي السنة الثانية من الهجرة تزوج (علي) فاطمة رضي الله عنها وبنى بها وذلك عقب غزوة بدر الكبرى.

---

(١) هو اسم علي بن أبي طالب: قال:
أنا الذي سمتني أمي حيدرة ... كليث غابات كريه المنظرة
وحيدرة هو: الأسد.

(٢) رواه الترمذي والحاكم عن أنس وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٥٩٨).

(٣) أصحاب الرسول ﷺ/ للمصنف (١/ ٢٢٨-٢٣٠)

قال ﷺ: «**إن الله أمرني أن أُزوج فاطمة من عليّ**»[١].

وعن عليّ بن أبي طالب قال: خطبت إلى النبي ﷺ ابنته فاطمة. قال: فباع عليّ رضي الله عنه درعا له، وبعض ما باع من متاعه، فبلغ أربعمائة وثمانين درهما، وأمر النبي ﷺ أن يجعل ثُلُثيه في الطِيب، وثلثًا في الثياب ومجَّ في جرة منِ ماء، فأمرهم أن يغتسلوا به.

قال: وأمرها أن لا تسبقه برضاع ولدها. قال: فسبقته برضاع الحسين. وأما الحسن فإنه ﷺ وضع في فيه شيئًا لا ندري ما هو، فكان أعلم الرجلين[٢].

إنها فاطمة بنت رسول الله ﷺ - سيد الأولين والآخرين وعلى الرغم من ذلك كان مهرها (درع) على الحُطمية، وأُهديت إليه ومعها خميلة ومرفقة من أدم حشوها ليف، وقربة ومنخل وقدح ورحى وجرابان. ودخلت عليه وما لها فراش غير جلد كبش ينامان عليه بالليل، وتعلف عليه الناضح بالنهار، وكانت هي خادمة نفسها.

قال ابن الجوزي: تالله ما ضرها ذلك[٣].

أذهب الله عنها وعن بيتها الرجس وطهرها تطهيرًا، «وقد كان النبي ﷺ يحبها ويكرمها ويُسر إليها.. ومناقبها غزيرة، وكانت صابرة دينة خيرة صيِّنة قانعة شاكرة لله»[٤].

أنكحتك أحب أهلي إليّ

واحتفل بنو عبد المطلب والصحابة الكرام بهذا الحدث السعيد، ونحر حمزة ابن عبد المطلب بعض إبله وأطعم الناس، وانتقلت الزهراء إلى بيت الزوجية، ذلك البيت الذي لم يُفرش بالسرر المرفوعة، والأكواب الموضوعة، ولا النمارق المصفوفة، أو الزرابي المبثوثة، وإنما كان في غاية البساطة والتواضع، في جلد كبش، ووسادة حشوها من الليف، وسقاء وجرتين ورحى للطحن، وكان بعيدًا عن منازل النبي ﷺ[٥].

قال (علي) رضي الله عنه: لقد تزوجت فاطمة وما لي ولها فراش غير جلد كبش ننام عليه بالليل، ونضعه على الناضح بالنهار، وما لي ولها خادم غيرها، ولما زوجها رسول الله

(١) قال الهيثمي في المجمع (١٥٢٠٨): رواه الطبراني ورجاله ثقات.
(٢) قال الهيثمي في المجمع (١٥٠٣٠): رواه أبو يعلى ورجاله ثقات.
(٣) التبصرة (١/ ٤٥٢).
(٤) السير (٢/ ١١٩).
(٥) نساء مبشرات بالجنة/ (ص ٢٠٩).

ﷺ أرسل لي معها بخميلة ووسادة آدم حشوها ليف، ورحاءين وسقاء وجرتين، فجرَّت بالرحاء حتى أثرت في يدها، واستقت بالقربة حتى أثرت القربة بنحرها، وقمَّت البيت حتى اغبرت ثيابها وأوقدت تحت القدر حتى دنست ثيابها[١].

وعن أسماء بنت عميس قالت: لما أُهديت فاطمة إلى علي بن أبي طالب لم نجد في بيته إلا رملاً مبسوطًا ووسادة حشوها ليف، وجرة وكوزا، فأرسل رسول الله ﷺ إلى (علي): «**لا تُحدثنَّ حدثا**»، أو قال: «**لا تقربن أهلك حتى آتيك**» فجاء النبي ﷺ فقال: «**أثم أخي**» ؟ فقالت أم أيمن - وهي أم أسامة بن زيد، وكانت حبشية، وكانت امرأة صالحة - : يا رسول الله هذا أخوك وزوجته ابنتك، وكان النبي ﷺ آخى بين أصحابه، وآخى بين عليّ ونفسه، قال: «**إن ذلك يكون يا أم أيمن**».

قالت: فدعا النبي ﷺ بإناء فيه ماء، ثم قال ما شاء الله أن يقول، ثم مسح صدر (علي) ووجهه، ثم دعا فاطمة، فقامت إليه تعثر في مِرطها من الحياء، فنضح عليها من ذلك، وقال لها ما شاء الله أن يقول، ثم قال لها: «**أما إني لم آلك أن أنكحتك أحب أهلي إليّ**» ثم رأى سوادًا من وراء الستر- أو من وراء الباب- فقال: «**من هذا ؟**» قالت: أسماء قال: «**أسماء بنت عميس**» ؟ قالت: «**نعم يا رسول الله**»، قال: «**جئت كرامة لرسول الله ﷺ - مع ابنته -**» ؟ قالت: نعم، إن الفتاة ليلة يبنى بها لابد لها من امرأة تكون قريبًا منها، إن عرضت لها حاجة أفضت ذلك إليها.

قالت: فدعا لي بدعاء، إنه لأوثق عملي عندي. ثم قال لعليّ: «**دونك أهلك**» ثم خرج فولَّى فما زال يدعو لهما حتى توارى في حجره[٢].

صدقت ... بارك الله عليك

لم يطق الرسول الكريم ﷺ صبرًا على بُعد الزهراء عنه؛ فعزم على أن يحولها إلى جواره وكانت تجاوره منازل لحارثة بن النعمان فجاء إلى النبي صلوات الله عليه وقال: إنه بلغني أنك تريد أن تحول فاطمة إليك، وهذه منازلي وهي أقرب بيوت بني «**النجار**»

---

(١) أحكام النساء/ لابن الجوزي (ص ١٢٤).

(٢) قال الهيثمي في المجمع (١٥٢١٦): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

إليك، وإنما أنا ومالي لله ورسوله، . . . والله يا رسول الله: للمال الذي تأخذ مني أحب إليّ من الذي تدع. فقال رسول الله ﷺ: «**صدقت، بارك الله عليك**».

ثم حول فاطمة إلى جواره وأسكنها منزلاً من بيوت حارثة - رضوان الله عليه-[1].

ذلك خيرٌ لكما من خادم

عن أبي البختري، قال: قال عليّ لأمه: اكفي فاطمة الخدمة خارجًا، وتكفيك هي العمل في البيت، والعجن والخبز والطحن[2].

وعلى الرغم من ذلك فقد كانت تعاني من عمل البيت فاحتاجت إلى من يخدمها. . . فكانت تلك القصة المباركة التي كانت سببًا في أن يُسدي النبي ﷺ نصيحته الغالية لراحة فاطمة رضي الله عنها ونساء الأمة من بعدها.

عن عليّ : رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ لما زوَّج فاطمة بعث معها بخميلة ووسادة آدم حشوها ليف، ورحاءين، وسقاءين، قال: فقال عليّ لفاطمة يومًا: «**لقد سنوت**[3] حتى اشتكيت صدري، وقد جاء الله بسبي، فاذهبي، فاستخدمي»، فقالت :«**وأنا والله، قد طحنت حتى مجلت**[4] **يداي**»، فأتت النبي ﷺ فقال: «**ما جاء بك أي بنية؟**» فقالت: «**جئت لأسلم عليك**»، واستحيت أن تسأله، ورجعت، فأتياه جميعا فذكر له (علي) حالهما، قال ﷺ: «**لا والله لا أعطيكما، وأدع أهل الصفة تتلوى بطونهم، لا أجد ما أنفق عليهم، ولكن أبيع وأنفق عليهم أثمانهم**»، فرجعا، فأتاهما وقد دخلا قطيفتهما، إذا غطيا رؤوسهما بدت أقدامهما، وإذا غطيا أقدامهما انكشفت رؤوسهما، فثارا، فقال: «**مكانكما ألا أخبركما بخيرٍ مما سألتماني ؟**» فقالا: «بلى»، فقال: «**كلمات علمنيهن جبريل: تسبحان في دبر كل صلاة عشرًا، وتحمدان عشرًا، وتكبران عشرًا، وإذا أويتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثًا وثلاثين، واحمدا ثلاثًا وثلاثين، وكبرا أربعا وثلاثين**»، قال علي: «**فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن**»، وقال له ابن الكواء: ولا ليلة صفين؟ فقال: «**قاتلكم الله يا أهل الطروق، ولا ليلة**

(١) صور من حياة الصحابيات (ص ٤٠).
(٢) قال الأرناؤوط: رجاله ثقات [السير (٢/ ١٢٥)].
(٣) سنوت الدلو: إذا جررتها من البئر.
(٤) مجلت يدها: ثخن جلدها، وظهر فيها ما يشبه البثر من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة.

صفين»(١)(٢).

وفي رواية للبخاري: **«ألا أعلمكما خيرًا مما سألتما ؟ إذا أخذتما مضاجعكما، أن تكبرا الله أربعا وثلاثين. وتسبحاه ثلاثًا وثلاثين. وتحمداه ثلاثًا وثلاثين. فهو خير لكما من خادم»**.

سبحان من كسا أهل البيت نورًا وجعل عليهم خندقا يقي الرجس وسورًا، فإذا تلقوا يوم القيامة تلقوا حبورا (إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا).

ادخرنا لكم نعيمًا مقيمًا، ومنحنا لكم فضلاً جزيلاً عميمًا، وجزينا من كان للفقراء رحيمًا أو لستم قد أطعمتم مسكينًا ويتيمًا ورحمتم مأسورا (وكان سعيكم مشكورًا)... مَن مثل (فاطمة)؟ مَن مثل (فاطمة)؟ كم صبرًا على أمواج باليًا متلاطمة، وآثرًا الفقر ونار الجوع حاطمة، فلهم نضارة الوجوه والأهوال للوجوه خاطمة، يا سرعان ما انقلب حزنهم سرورًا (وكان سعيكم مشكورا).

كانت فاطمة بنت النبي ﷺ أحب الناس إليه، وكان (علي) أعز الخلق عليه، وجعل الله ريحانته من الدنيا (ولديه)، فإذا أحضرهم الحق غدًا عنده ولديه أكرمهم إكرامًا عظيمًا موفورًا (وكان سعيكم مشكورا)(٣).

حياء فاطمة (أم أبيها) رضي الله عنها

وتدبر معي إلى حياء فاطمة رضي الله عنها.. ذلك الحياء الذي يعجز القلم عن وصفه.

ففي إحدى روايات الحديث السابق - كما في البخاري -: أنه أتت فاطمة رضي الله عنها رسول الله ﷺ تسأله خادمًا، فقال: **«ما جاء بك يا بنية»** ؟. فقالت: **«جئت أسلم عليك»**. واستحيت، حتى إذا كانت القابلة، أتته فقالت مثل ذلك... وفي بعض روايات هذه القصة: **«أن رسول الله ﷺ جاءها وعليًا، وقد أخذا مضاجعهما..»** الحديث،

---

(١) أخرجه البخاري (٧/٧١) فضائل الصحابة، ومسلم (٢٧٢٧) الذكر والدعاء.

(٢) قال ابن حجر: قال الطبري: (يؤخذ من حديث عليّ رضي الله عنه في شكوى فاطمة أن كل من كانت لها طاقة من النساء على خدمة بيتها من خبز وطحن وغير ذلك أن ذلك لا يلزم الزوج إذا كان معروفًا أن مثلها يلي ذلك بنفسه، ووجه الأخذ أن فاطمة لما سألت أباها الخادم فلم يأمر زوجها أن يكفيها ذلك إما بإخدامها بخادم أو باستئجار من يقوم بذلك، أو يتعاطى ذلك بنفسه، ولو كانت على الزوج لأمره به، كما أمره أن يسوق الصداق قبل الدخول) ا.هـ [فتح الباري (٩/٥٠٦، ٥٠٧)].

(٣) التبصرة/ لابن الجوزي (١/٥٣٦).

وفيه: «**فجلس عند رأسها، فأدخلت رأسها في اللفاع، حياءً من أبيها**».

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى فاطمة بعبدٍ قد وهبه لها، قال: وعلى فاطمة رضي الله عنها ثوب، إذا قنعت به رأسها، لم يبلغ رجليها، وإذا غطت به رجليها، لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال: «**إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوك وغلامك**»[1].

والله لهي أولى الناس بقول من قال:

كأن لها في الأرض نسيًا[2] تقصه[3] على أمها وإن تحدثك تلبت

أي لا ترفع رأسها كأنها تطلب شيئًا في الأرض.

قم يا أبا التراب

وكان النبي ﷺ يحب عليًا وفاطمة رضي الله عنهما حبًا شديدًا حتى أنه في يوم من الأيام دعا عليًّا وفاطمة وحسنًا وحُسينًا فقال: «**اللهم هؤلاء أهلي**»[4] وفي رواية: «**اللهم هؤلاء أهل بيتي اللهم فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا**». وفي يوم من الأيام حدث بين عليّ وفاطمة ما يحدث بين الأزواج فغضب علي وترك البيت وذهب إلى المسجد فما كان من النبي ﷺ إلا أن عالج هذا الموقف بكل حكمة ورحمة - وأُهدي إليكم هذا الموقف الجليل -:

. . . جاء رسول الله ﷺ بيت فاطمة. فلم يجد عليا في البيت. فقال: «**أين ابن عمك**» ؟ فقالت: «**كان بيني وبينه شيء فغاضبني فخرج**». فلم يقل عندي. فقال رسول الله ﷺ لإنسان: «**انظر. أين هو**» ؟ فجاء فقال: يا رسول الله ! هو في المسجد راقد. فجاءه رسول الله ﷺ وهو مضطجع. وقد سقط رداؤه عن شقه. فأصابه تراب. فجعل رسول الله ﷺ يمسحه عنه ويقول «**قم أبا التراب ! قم أبا التراب**» ![5].

ونسي عليّ كل شيء بهذه اللمسة الحانية والكلمات الرقيقة التي خرجت من فم الحبيب ﷺ.

---

(١) أخرجه أبو داود، والبيهقي، وصححه الألباني في «الإرواء» (٦/ ٢٠٦).

(٢) النّسي: ما أضلّه أهله فيُطلب.

(٣) أي: تتبعه.

(٤) أخرجه مسلم (٣٢) (٢٤٠٤) كتاب فضائل الصحابة.

(٥) أخرجه مسلم (٣٨) (٢٤٠٩) كتاب فضائل الصحابة.

لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله

وفي يوم من الأيام خطب عليّ رضي الله عنه بنت أبي جهل فلما علم النبي ﷺ من ابنته فاطمة رضي الله عنها غضب لذلك غضبًا شديدًا.

عن المسور بن مخرمة أنه سمع رسول الله ﷺ على المنبر، وهو يقول: «**إن بني هشام ابن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم، عليّ بن أبي طالب. فلا آذن لهم. ثم لا آذن لهم. ثم لا آذن لهم. إلا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم. فإنما ابنتي بضعة مني. يريبني ما رابها. ويؤذيني ما آذاها**»(١).

وفي رواية لمسلم: «**... وإني لست أُحرم حلالاً ولا أحل حرامًا. ولكن، والله ! لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله مكانًا واحدًا أبدًا**».

وفي رواية لمسلم أيضًا: عن المسور بن مخرمة أن عليّ بن أبي طالب خطب بنت أبي جهل. وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ. فلما سمعت بذلك فاطمة أتت النبي ﷺ فقالت له: «**إن قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك. وهذا عليّ ناكحًا ابنة أبي جهل**».

قال المسور: فقام النبي ﷺ فسمعته حين تشهد. ثم قال: «**أما بعد. فإني أنكحت أبا العاص بن الربيع. فحدثني فصدقني. وإن فاطمة بنت محمد مضغة مني. وإنما أكره أن يفتنوها. وإنها والله ! لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجلٍ واحدٍ أبدًا**».

قال: فترك عليٌّ الخطبة(٢).

قدرها ومكانتها عند النبي ﷺ

وإذا أردت أن أكتب عن قدرها ومكانتها عند النبي ﷺ ما استطعت أن أوفيها حقها رضي الله عنها .

---

(١) أخرجه مسلم (٩٣) (٢٤٤٩) كتاب فضائل الصحابة/ باب: فضائل فاطمة بنت النبي ﷺ.

(٢) قال الإمام النووي: قال العلماء في هذا الحديث تحريم إيذاء النبي ﷺ بكل حال وعلى كل وجه وإن تولد ذلك الإيذاء مما كان أصله مباحًا وهو حي، وهذا بخلاف غيره، قالوا: وقد أعلم ﷺ بإباحة نكاح بنت أبي جهل لعلي بقوله ﷺ «**لست أحرم حلالاً**» ولكن نهى عن الجمع بينهما لعلتين منصوصتين. إحداهما: أن ذلك يؤدي إلى أذى فاطمة فيتأذى حينئذ النبي ﷺ فيهلك من أذاه فنهى عن ذلك لكمال شفقته على عليّ وعلى فاطمة.

والثانية: خوف الفتنة عليها بسبب الغيرة [مسلم بشرح النووي (١٦/ ٤)].

عن أبي سعيد: قال رسول الله ﷺ، «**لا يبغضنا أهل البيت أحد، إلا أدخله الله النار**»[١].

وعن حذيفة: قال النبي ﷺ: «**نزل ملك فبشرني أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة**»[٢]. وكان ﷺ يخشى عليها من الدنيا ومتاعها الزائل.

عن ثوبان، قال: دخل رسول الله ﷺ على فاطمة وأنا معه، وقد أخذت من عنقها سلسلة من ذهب، فقالت: هذه أهداها لي أبو حسن. فقال: «**يا فاطمة، أيسرك أن يقول الناس: هذه فاطمة بنت محمد وفي يدها سلسلة من نار**»! ثم خرج. فاشترت بالسلسلة غلامًا، فأعتقته، فقال النبي ﷺ: «**الحمد لله الذي نجى فاطمة من النار**»[٣].

وعن ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم، وآسية**»[٤].

وقال ﷺ: «**حسبك من نساء العالمين: مريم، وخديجة، وآسية بنت مزاحم، وفاطمة بنت محمد ﷺ** »[٥].

وعن أسامة: سُئل النبي ﷺ: أي الناس أحب إليك؟ قال: «**فاطمة**»[٦].

وعن بُريدة قال: كان أحب النساء إلى رسول الله ﷺ فاطمة ومن الرجال عليّ[٧].

وعن عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين قالت: ما رأيت أحدًا كان أشبه كلامًا وحديثًا برسول الله ﷺ من فاطمة، وكانت إذا دخلت عليه قام إليها، فقَّبلها، ورحب بها، وكذلك كانت هي تصنع به[٨].

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ١٥٠) وصححه وأقره الذهبي.
(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ١٥١) وصححه وأقره الذهبي.
(٣) رواه الطيالسي (٢/ ٣٥٤) وأحمد (٥/ ٢٧٨ ، ٢٧٩) والنسائي (٨/ ١٥٨) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه أيضًا الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٥٥٧).
(٤) رواه أحمد (١/ ٢٩٣) وصححه الحاكم (٢/ ٥٩٤) ووافقه الذهبي.
(٥) رواه الترمذي (٣٨٧٨) والحاكم (٣/ ١٥٧) وأحمد (٣/ ١٣٥) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح.
(٦) قال الأرناؤوط: رجاله ثقات [السير (٢/ ١٣٣)].
(٧) رواه الترمذي (٣٨٦٨) والحاكم (٣/ ١٥٥) وصححه ووافقه الذهبي.
(٨) رواه أبو داود(٥٢١٧) والترمذي (٢٨٧١) وصححه الحاكم (٣/ ١٥٤) ووافقه الذهبي.

أختاه ... هذه أسوتك وقدوتك

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «**ما رأيت أحدًا كان أشبه سمتًا وهديًا ودلاً برسول الله ﷺ، من فاطمة كرم الله وجهها. .**»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت أحدًا كان أصدق لهجة من فاطمة. إلا أن يكون الذي ولدها(٢).

وعن عمرو بن دينار: قالت عائشة: ما رأيت قط أحدًا أفضل من فاطمة، غير أبيها(٣).

وكان الإمام أحمد إذا سُئل عن عليّ وأهل بيته، قال: أهل بيتٍ لا يقاس بهم أحد.

أم عيسى نسبةٌ واحدة ... بثلاث تزدهي فاطمة
قرة العين لخير الأولين ... خاتم الرسل وخير الآخرين
وهي زوج المرتضى ذا البطل ... أسد الله الحكيم الفيصل
وهي أم السيدين الأكرمين ... حسن خير حليم وحسين
مسيرة الأولاد صنع الأمهات ... وخلال الخير طبع الأمهات
زهرة في روضة الصدق البتول ... أسوة النسوة في الحق البتول
فاقة السائل أذرت دمعها ... ليهودي أباعت درعها
كلِ من في الأرض قد طاع لها ... ورضاها حين تُرضي بعلها
نشُئت ما بين صبرٍ ورضا ... في الفم القرآن والكف الرحى
دمعها من خشية الله جرى ... في مُصلاها يفوق الجوهرا(٤)

أختاه، هذه أسوتك وقدوتك:

وأين من كانت الزهراء أُسوتها ... ممن تقفّت خُطى حمالة الحطبِ

---

(١) صحيح: رواه أبو داود والترمذي والحاكم وابن حبان، والنسائي في فضائل الصحابة. . وفي رواية الحسن بن علي: عن عائشة: ما رأيت أحدًا كان أشبه حديثًا برسول الله ﷺ، من فاطمة.

(٢) أخرجه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) سنده صحيح على شرط الشيخين إلى عمرو. قاله ابن حجر في الإصابة (٤/ ٣٦٦)، وأخرجه الطبراني في الأوسط.

(٤) ديوان «الأسرار والرموز» لمحمد إقبال (ص ١٣٨ ، ١٣٩).

سيدا شباب أهل الجنة

ولم يمض عامٌ على الزواج المبارك حتى أقر الله - تعالى - عين عليّ وفاطمة، فوضعت الحفيد الأول لرسول الله ﷺ الحسن بن عليّ في السنة الثالثة من الهجرة، ففرح به النبي ﷺ فرحًا كبيرًا، وحنكه بنفسه وسماه الحسن، وأماط الأذى عن رأسه، وتصدق على الفقراء بزنة شعره فضة، فلما بلغ الحسن من العمر عامًا وُلد بعده الحسين في شهر شعبان سنة أربع من الهجرة.

وتتابع الثمر المبارك فولدت الزهراء في العام الخامس للهجرة طفلة أسماها جدها ﷺ زينب. وبعد عامين وضعت طفلة أخرى هي أم كلثوم.

وكان النبي ﷺ يحبها حبًا شديدًا وكان يقول عنهما: **«هما ريحانتاي من الدنيا»**(١).

وقال ﷺ: **«الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»**(٢).

وعن أسامة بن زيد ﵄ أن النبي ﷺ كان يأخذه والحسن ويقول: **«اللهم إني أحبُّهما فأحبَّهما»** - أو كما قال -(٣).

وعن أبي بكرة قال: سمعت النبي ﷺ على المنبر والحسن إلى جنبه، ينظر إلى الناس مرة وإليه مرة ويقول: **«ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»**(٤).

وعن عقبة بن الحارث قال: «رأيت أبا بكر ﵁ وحمل الحسن وهو يقول: بأبي شبيه بالنبي، ليس شبيه بعليّ، وعليّ يضحك»(٥).

وعن أبي هريرة ﵁ قال: خرج النبي ﷺ في طائفة النهار لا يكلمني ولا أكلمه حتى أتى سوق بني قينقاع فجلس بفناء بيت فاطمة فقال: **«أثَم لكع(٦)، أثم لكع»**؟ فحبسته شيئًا فظننت أنها تُلبسه سخابًا أو تغسله فجاء يشتد حتى عانقه وقبله وقال: **«اللهم أحبه وأحب من يحبه»**(٧).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٤) والترمذي (٣٧٧٠).
(٢) رواه أحمد (٣/ ٣) والترمذي (٣٧٦٨) وأبو يعلى (٢/ ٣٩٥) وإسناده حسن.
(٣) أخرجه البخاري (٣٧٤٧) وأحمد (٥/ ٢١٠) وابن سعد (٤/ ٤٣).
(٤) أخرجه البخاري (٣٧٤٦) وأبو داود (٤٦٦٢) والترمذي (٣٧٧٣).
(٥) أخرجه البخاري (٣٧٥٠) وأحمد (١/ ٨) وفي فضائل الصحابة (١٣٥١).
(٦) المراد باللكع هنا الصغير؛ وفي رواية البخاري (٥٨٨٤) أين لكع؟ ثلاثًا. ادع الحسن ابن علي.
(٧) أخرجه البخاري (٢١٢٢) ومسلم (٢٤٢١).

فاللهم إنا نُشهدك على أننا نُحبه فارزقنا حبك يا أرحم الراحمين.

النبي ﷺ يداعب الحسن والحسين رضي الله عنهما

عن أبي بكرة: أن رسول الله ﷺ كان يصلي، فإذا سجد وثب الحسن رضي الله عنه على ظهره وعلى عنقه، فرفع رسول الله ﷺ رفعًا رفيقًا لئلا يصرع. قالوا: يا رسول الله، رأيناك صنعت بالحسن شيئا ما رأيناك صنعته بأحد؟ قال: «**إنه ريحانتي من الدنيا، وإن ابني هذا سيد وعسى الله أن يصلح به بين فئتين**».

وفي رواية: يثب على ظهره يفعل ذلك غير مرة[(١)].

وعن البراء بن عازب قال: كان رسول الله ﷺ يصلي فجاء الحسن والحسين أو أحدهما فركب على ظهره، فكان إذا رفع رأسه قال بيده، فأمسكه أو أمسكهما، قال: «**نعم المطية مطيتكما**»[(٢)].

وعن عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ يخطب، فأقبل الحسن والحسين، عليهما قميصان أحمران، يعثران ويقومان، فنزل فأخذهما، فوضعهما بين يديه؛ ثم قال: «**صدق الله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾. رأيت هذين، فلم أصبر**» ثم أخذ في خطبته[(٣)].

وعن معاوية، قال: رأيت رسول الله ﷺ يمص لسانه أو شفته، يعني الحسن، وإنه لن يعذب لسان أو شفتا مصهما رسول الله ﷺ[(٤)].

وعن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يصلي فإذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره فإذا أرادوا أن يمنعوهما أشار إليهم أن دعوهما فإذا قضى الصلاة وضعهما في حجره وقال: «**من أحبني فليحب هذين**»[(٥)].

---

(١) قال الهيثمي في المجمع (١٥٠٣١): رواه أحمد والبزار والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح غير مبارك بن فضالة وقد وثق.

(٢) قال الهيثمي في المجمع (١٥٠٨٠): رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن.

(٣) رواه أحمد (٥/ ٣٥٤) وأبو داود (١١٠٩) والترمذي (٣٧٧٤) وإسناده حسن.

(٤) رواه أحمد (٤/ ٩٣) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

(٥) رواه أبو يعلى (٨/ ٤٣٤) والنسائي في الفضائل (٦٧) وابن حبان (الموارد: ٢٢٣٣) وإسناده حسن.

صفحات مشرقة من جهادها

ولقد كان لها مواقف عظيمة سطَّرتها على جبين التاريخ بسطور من النور.

ففي يوم أُحد لما عصى أكثر الرُماة أمر رسول الله ﷺ ونزلوا من على الجبل... فانقضَّ المشركون على المسلمين وقتلوا منهم عددًا كبيرًا وجُرح وجه رسول الله ﷺ يوم أحد، وكسر رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه بأبي هو وأمي... عن أنس أن رسول الله ﷺ كُسرت رباعيته يوم أحد، وشج في رأسه، فجعل يسلت الدم عنه ويقول: «**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله**»، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: الآية ١٢٨] (١).

وعن أبي حازم أنه سمع سهل بن سعد يسأل عن جُرح رسول الله ﷺ يوم أحد فقال: جُرح وجه رسول الله ﷺ، كسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، فكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسل الدم، وكان عليّ بن أبي طالب يسكب عليه بالمجن فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيده إلا كثرة، فأخذت قطعة حصير فأحرقته حتى صار رمادًا، ثم ألصقته بالجرح فاستمسك الدم»(٢).

واستُشهد في تلك الغزوة عمها حمزة رضي الله عنه فحزنت عليه حزنًا شديدًا.

وظلت تتعايش مع حياة الجهاد التي كان النبي ﷺ وأصحابه يعيشونها في كل لحظة من حياتهم، فقد كانت حياتهم ما بين عبادة، وطلب علمٍ، ودعوة إلى الله، وجهادٍ في سبيله.

وشاركت رضي الله عنها في غزوة الخندق، وفي خيبر... وفي هذه الغزوة قَسَم لها النبي ﷺ خمسة وثمانين وسقًا من قمح خيبر.

ثم شاهدت بعد ذلك غزوة الفتح وكان لها موقف مشرف عندما رفضت أن تُجير أبا سفيان بن حرب عندما طلب منها أن تشفع له عند رسول الله ﷺ... فلقد ذهب أبو سفيان فدخل على عليّ بن أبي طالب، وعنده فاطمة، و(حسن) غلام يدب بين يديهما، فقال: يا علي، إنك أمسّ القوم بي رحمًا، وإني قد جئت في حاجة، فلا أرجعن

(١) رواه مسلم (١٤٩/١٢) الجهاد والسير.

(٢) رواه مسلم (١٧٩٠) الجهاد والسير، والبخاري (٧/ ٤٣٠، ٤٣١) المغازي.

كما جئت خائبا، اشفع لي إلى محمد، فقال: ويحك يا أبا سفيان، لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه. فالتفت إلى فاطمة، فقال: هل لك أن تأمري ابنك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر هذا الدهر ؟ قالت: والله ما يبلغ ابني ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ (١).

قل متاع الدنيا قليل

إذا كان رسول الله ﷺ إمام المتقين، وإمام الزاهدين، فلا شك أن فاطمة الزهراء رضي الله عنها من أزهد النساء في الدنيا إن لم تكن أزهدهن، حيث كانت سعيدة في حياتها على الرغم من الشظف والفاقة، . . . وما كان حطام الدنيا وزخرفها عند الزهراء ليساوي مثقال ذرةٍ من هباء.

عرفت فاطمة الزهراء رضي الله عنها أن مرضاة الله عز وجل ، ومرضاة رسوله فوق متاع الدنيا، وكان شعارها قول الله عز وجل : ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: الآية ٧٧] ولهذا فقد وضعت فاطمة الزهراء رضي الله عنها . الآخرة نُصب عينيها، وسعت لها ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، لتكون ممن عناهم الله عز وجل بقوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: الآية ١٩] .

على الطريق الموصل إلى رضا الله الباري سبحانه، سارت فاطمة الزهراء، وهي تستضيء بنور الله عز وجل كيما تحظى بما أعد للمؤمنات الصابرات من أجر ومن نعيم مقيم، ومن جنات وعيون ومقام كريم، فعاشت مع زوجها (علي) - رضوان الله عليهما- حياة زهد، وصبر على شظف العيش (٢).

وكيف لا تعيش معه حياة الزهد وهو الذي عاش الزهد كله وتعلمه من سيد الزاهدين محمد بن عبد الله ﷺ.

إن حياة أبي السِّبطين أبي تراب (عليّ بن أبي طالب) تتفجّر عظمةً وجلالاً وإعجازًا، فمن عظمة نفسه وعلوّ همّته، تنداح رحابٌ ليس لها أبعاد، تتلألأ عليها بطولاتٌ وتضحيات، عظائمُ وأمجاد، تكاد تحسبها - لولا صِدْق التاريخ - أحلامًا

(١) الرحيق المختوم/ للمباركفوري (ص ٤٢٨).
(٢) نساء أهل البيت (ص ٥٥٠).

وأساطير.. مسلم عظيم، يفجّرُ الدنيا من حواليه ذمَّةً، واستقامةً، وطُهرًا، وذُرًا سامقة وغايات بعيدة. عظمة لن تكُفَّ عن توكيد ذاتها ما دام صاحبها حيًا، يُمارس العظائم، ويصوغ المَكْرمَات.

يقول ضرار بن ضمرة الكناني في وصف عليّ: «كان بعيدَ المَدَى، شديد القُوَى... يقول فَصْلا، ويحكُم عدلاً... يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويأنس بالليل ووحشته... كان غزير الدمعة، طويل الفكرة، يقلِّب كَفَّيه ويُخاطب نفسه، ويُعجبه من اللباس ما خشُن، ومن الطعَام ما جشب... لا يطمع القويُّ في باطله، ولا ييأس الضعيفُ من عدله.. وأشهد، لقد رأيتُه في بعض مواقفه، وقد أرخى الليلُ سُدُولَه، وغارتْ نجومُه، وقد مَثَل في محرابه، قابضًا على لحيته، يتململ تململُ السليم، ويبكي بكاء الحزين، فكأني أسمعه وهو يقول: يا دنيا، يا دنيا، إليَّ تعرَّضتِ، أم إليّ تشوَّقْتِ؟ هيهات هيهات غُرِّي غيري، قد أبَتُّكِ - طلقتك - ثلاثًا لا رجعة فيها!! فعمرُكِ قصير، وعيشُك حقير، وخَطَرُكِ كبير، آهٍ من قلة الزّاد وبُعد السفر، ووحشة الطريق»[1].

جراح وأفراح

وها هي ﷺ قبل وفاة النبي ﷺ تذهب إليه فتسمع منه ما يُفرحها ويُحزنها في آنٍ واحدٍ.

لقد تعايشت مع الجراح والأفراح في لحظة واحدة حتى أنها بكت ثم ضحكت.. فيا تُرى ما الذي جعلها تبكي وتضحك في آنٍ واحدٍ؟.

عن عائشة ﷺ قالت: كنا أزواج النبي ﷺ اجتمعنا عنده، لم يغادر منهن واحدة. فجاءت فاطمة تمشي ما تُخطئ مشيتها مشية رسول الله ﷺ فلما رآها، رحب بها، قال: **«مرحبا بابنتي»**. ثم أقعدها عن يمينه أو عن يساره. ثم سارها، فبكت؛ ثم سارها الثانية، فضحكت. فلما قام، قلت لها: خصك رسول الله ﷺ بالسر وأنت تبكين، عزمت عليك بما لي عليك من حق، لما أخبرتني مم ضحكت؟ ومم (بكيت؟) قالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ. فلما توفى، قلت لها: عزمت عليك بمالي عليك من حق لما أخبرتني. قالت: أما الآن فنعم، في المرة الأولى حدثني **«أن جبريل كان يعارضه بالقرآن**

---

(١) صلاح الأمة/ د. سيد حسين (٦/ ٦٧).

كل سنة مرة، وأنه عارضني العام في هذه السنة مرتين، وأني لا أحسب ذلك إلا عند اقتراب أجلي، فاتقي الله واصبري، فنعم السلف لك أنا». فبكيت. فلما رأى جزعي، قال: «**أما ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين، أو سيدة نساء هذه الأمة**» ؟ قالت: فضحكتُ[1].

وعن عائشة، أنها قالت لفاطمة: أرأيت حين أكببت على رسول الله ﷺ، فبكيت، ثم أكببت عليه فضحكت ؟ قالت: أخبرني أنه ميت من وجعه، فبكيت، ثم أخبرني أنني أسرع أهله به لحوقًا، وقال: «**أنت سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران**» (فضحكت)[2].

وفاة الحبيب ﷺ

إن الأحداث العظيمة يسبقها من الإرهاصات والعلامات التي تشير إلى قرب وقوعها، وقد تم للمسلمين فتح مكة أم القرى في السنة الثامنة من الهجرة المباركة، وفي السنة التاسعة أقبلت الوفود تُقر بالإسلام أو تعطي الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، وأرهب جيش العسرة الذي خرج به النبي ﷺ جحافل الروم حتى فروا من مواجهته، ودانت جزيرة العرب بالإسلام، وكان ذلك بعد عشر سنين من جهاد النبي ﷺ المتواصل وصحابته الكرام - رضي الله عنهم -، فكل العلامات تشير إلى انتهاء مهمة رسول الله ﷺ، فقد بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح للأمة، وكشف الغمة، وأصبح الناس على محجة بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فكان النبي ﷺ يُعرِّض بقرب أجله:

فمن ذلك ما رواه أحمد عن معاذ قال: لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن، خرج معه رسول الله ﷺ بوصية، ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، فلما فرغ قال: «**يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، أو لعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري**»، فبكى معاذ جشعًا لفراق رسول الله ﷺ، ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال: «**إن أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا**»[3].

ومن ذلك أنه ﷺ كان يعتكف كل سنة عشرًا في رمضان، فاعتكف في السنة الأخيرة

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٤٦٢) الأنبياء، ومسلم (٢٤٥٠) فضائل الصحابة.

(٢) سنده حسن: وذكره المتقي في «كنز العمال» (١٣/ ٦٧٥)، ونسبه لابن أبي شيبة، والزيادة منه.

(٣) رواه أحمد عن معاذ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠١٢).

عشرين ليلة، وكان جبريل يعارضه القرآن مرة في رمضان فعارضه في السنة الأخيرة مرتين.

وخرج النبي ﷺ للحج في السنة العاشرة، وقال: «**خذوا عني مناسككم لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا**»، وطفق يودع الناس (١).

ونزل عليه بعرفة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: الآية ٣].

ومن هذه الإشارات القوية ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خطب النبي ﷺ وقال: «**إن الله خيَّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله**» قال: «فبكى أبو بكر فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خُيِّر فكان رسول الله ﷺ هو المُخيَّر، وكان أبو بكر أعلمنا..»(٢).

اللحظات الأخيرة من حياة النبي ﷺ

وخرج النبي ﷺ في صبح اليوم الذي لحق فيه بالرفيق الأعلى ينظر إلى ثمرة جهاده وصبره، فألقى عليه أصحابه الذين أحبوه وأحبهم نظرة وداع، فكادوا يُفتنون من الفرحة به ﷺ ظنًا منهم أنه ﷺ قد عوفي من مرضه، ولم يظنوا أنه ينظر إليهم نظرة الوداع حتى يلتقي بهم على حوضه، وفي جنة الله عز وجل، ولو علموا ذلك لتفطرت قلوبهم.

وكان آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ: «**اللهم الرفيق الأعلى**».

وعن أنس قال: لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه، فقالت فاطمة عليها السلام: واكرب أبتاه، فقال لها: «**ليس على أبيك كرب بعد اليوم**»، فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب ربًا دعاه، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه، فلما دُفن قالت فاطمة عليها السلام: يا أنس أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب»(٣).

وعن أنس رضي الله عنه قال: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما نفضنا عن النبي ﷺ

---

(١) رواه مسلم (٨/ ١٧٢-١٩٤) الحج.
(٢) رواه أحمد (٣/ ١٨) وابن أبي شيبة (١٢/ ٦٦) وهو في الصحيحين من طرق أخرى.
(٣) رواه البخاري (٧/ ٧٥٥) المغازي، وابن ماجة (١٦٣٠) الجنائز.

الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا»(١)(٢).

هكذا رحل الحبيب ﷺ فحزنت عليه فاطمة حزنًا كاد أن يمزق قلبها... وجلست تستعيد شريط الذكريات منذ أن كانت طفلة صغيرة تعيش بين حنان وعطف ورحمة أبيها محمد ﷺ وأمها خديجة ﵂ وإلى أن تراكمت الأحزان في قلبها... لكنها هي التي تعلمت الصبر والرضا من الحبيب ﷺ فكانت تصبر وتحتسب عند كل مصيبة تُصاب بها وليست هناك مصيبة أعظم من موت الحبيب ﷺ.

قال ﷺ: «**إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصيبته بي، فإنها من أعظم المصائب**»(٣).

ولقد أحسن أبو العتاهية في نظمه موافقًا لهذا الحديث، حيث يقول:

اصبر لكل مصيبة وتجلدِ ... واعلم بأن المرء غير مخلدِ
أوَ ما ترى أن المصائب جمة ... وترى المنية للعباد بمرصدِ
من لم يصب ممن ترى بمصيبةٍ ... هذا سبيل لست عنه بأوحدِ
إذا ذكرت محمدًا ومصابه ... فاجعل مصابك بالنبي محمدِ

هكذا كانت بيوت المسلمين

ولما توفي أبوها تعلقت آمالها بميراثه، وجاءت تطلب ذلك من أبي بكر الصديق. فحدثها أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**لا نورث، ما تركناه صدقة**»(٤) فوجدت عليه، ثم تعللت(٥).

روى إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، قال: لما مرضت فاطمة، أتى أبو بكر فاستأذن، فقال عليّ: يا فاطمة، هذا أبو بكر يستأذن عليك فقالت: أتحب أن آذن له؟. قال: نعم.

- قال الإمام الذهبي: قلت: عملت السنة ﵂، فلم تأذن في بيت زوجها إلا بأمره -.

قال: فأذنت له. فدخل عليها يترضاها، وقال: والله ما تركت الدار والمال والأهل

---

(١) رواه الترمذي (١٣/ ١٠٤) المناقب، وصححه الألباني في مختصر الشمائل.
(٢) حياة محمد ﷺ/ للمصنف (٥٤-٥٩) بتصرف.
(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٧).
(٤) أخرجه البخاري (٨/ ١١٣) المغازي/ باب: آخر ما تكلم به النبي ﷺ.
(٥) تعللت: أي تلهت عنه وتشاغلت.

والعشيرة إلا ابتغاء مرضاة الله ورسوله ومرضاتكم أهل البيت. قال: ثم ترضاها حتى رضيت(١).

قلت: وهكذا كانت البيوت الطاهرة... وهكذا كانت المرأة الصالحة من سلفنا الأخيار لا تأذن لأحدٍ أن يدخل بيتها إلا بإذنه - وفي حضوره -.

فنسأل الله أن يرد المسلمين إلى دينه مرة أخرى ليعلم الكون كله أن الحياة الحقيقية النظيفة لا تكون ولن تكون إلا في ظل تعاليم الإسلام.

وجاء وقت الرحيل

ومرضت فاطمة مرضًا شديدًا ونامت على فراش الموت بعد تلك الرحلة الطويلة من الجراح والأفراح... وجلس أولادها ينظرون إليها في حنان وإشفاق.

وفتحت فاطمة الزهراء عينين واهنتين، فرأت زوجها عليًا والهًا حزينًا، والحسن والحسين وفي أعينهما الدموع، بينما كانت ابنتاها زينب وأم كلثوم تكادان تذوبان من الأسى، فأرادت الزهراء أن تواسيهم جميعًا، إلا أن الكلمات رقدت على شفتيها ولم تتكلم.

كان الموت يطلبها، وإنها لتترك الدنيا غير آسفة على فراقها، فما تنافست في عزها وفخرها، وما بهرتها زينتها ونعيمها وزخرفها، إنها ستصبح ميتًا يُبكى، وستترك من ورائها دنيا لا خير في شيءٍ من أزوادها إلا التقوى، نعم، فإن خير الزاد التقوى، وخير لباسٍ التقوى، وقد كان التقوى لباسها وزادها.

وفي يوم الثلاثاء، لثلاثٍ خلون من رمضان سنة إحدى عشرة من الهجرة، فاضت الروح المطمئنة، ورجعت إلى ربها راضية مرضية.

توفيت فاطمة الزهراء، فأجهش زوجها بالبكاء، وراح الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم يذرفون الدموع على أعظم أمٍّ في الوجود؛ فاطمة الزهراء سيدة نساء أهل الجنة، وابنة سيدة نساء أهل الجنة.

واجتمع الناس في المسجد النبوي، وقد نزل بقلوبهم حزن ثقيل، فقد جدد موت

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ٨/ ٢٧ وإسناده صحيح لكنه مرسل، وذكره الحافظ في «الفتح» ٦/ ١٣٩، ونسبه إلى البيهقي وقال: وهو وإن كان مرسلًا فإسناده إلى الشعبي صحيح.

فاطمة الزهراء أحزانهم على فراق أبيها رسول الله، وقد توفيت بعده بستة أشهر... وصلى عليها زوجها عليّ، وعمه العباس بن عبد المطلب؛ وفي سكون الليل، خرجت الجنازة إلى البقيع إلى حيث مثوى زينب ورقية وأم كلثوم - رضى الله عنهن -[1].

وفي نهاية هذه الرحلة المباركة أقول: تالله لقد عجزت كلماتي أن تلقي الضوء على أي جانب من جوانب العظمة في حياة هذه الصحابية الجليلة فاطمة بنت رسول الله ﷺ التي لن يستطيع بشر أن يوفيها حقها... ولكن حسبُها أن الخالق قد أجزل عطاءها في الدارين فجعلها في الدنيا سيدة نساء العالمين في زمانها، وابنة سيدة نساء العالمين خديجة رضي الله عنها وابنة سيد الأولين والآخرين محمد ﷺ وفي الآخرة جعلها سيدة نساء أهل الجنة.

فرضي الله عن فاطمة وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

* * *

(١) نساء أهل البيت (ص ٦٠١-٦٠٣) بتصرف.

حليمة السعدية رضي الله عنها

نبت من لبنها المبارك أطهر جسد في الدنيا

وها نحن على موعد مع الحلم والسعادة .. إنها صفحة ناصعة نتعايش من خلالها مع أم رسول الله ﷺ من الرضاع (حليمة السعدية رضي الله عنها) إنها السيدة الفاضلة التي نبت من لبنها المبارك أطهر جسد في الدنيا كلها ألا وهو جسد الحبيب محمد ﷺ.

هذه السيدة الرصان الرزان أثيرة لدى كل مسلم . . .

عزيزة على كل مؤمن . . .

فمن ثدييها الطاهرين رضع الغلام السعيد محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه . . .

وعلى صدرها المفعم بالمحبة غفا . .

وفي حجرها الطافح بالحنان درج . . .

ومن فصاحتها وفصاحة قومها بني «سعد» نَهَل[١].

ولادة الحبيب ﷺ

في يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول، وقيل ثمانية، وقيل عشرة وقيل اثنتى عشرة وعليه الأكثر، وذلك عام الفيل ظهرت تباشير الصباح وولد المصطفى ﷺ.

وكانت ولادته في دار أبي طالب بشِعب بني هاشم، وهي التي سُميت بعد ذلك بدار محمد بن يوسف أخى الحجاج بن يوسف، وهي الآن مكتبة عامة.

وكانت حاضنته أم أيمن بركة الحبشية أمة أبيه، وأول من أرضعته ثويبة أمة عمه أبي لهب.

وعن حسّان بن ثابت، قال: والله إني لغلام يفعة[٢] ابن سبع سنين أو ثمان، أعقل

---

(١) صور من حياة الصحابيات (ص ٧).

(٢) يفعة: يقال غلام يفعة أي قوي قد طال قده واليفاع المرتفع من كل شيء ويقال أيفع الغلام فهو يافع إذا شارف الاحتلام.

كل ما سمعت، إذ سمعت يهوديًا يصرخ بأعلى صوته على أطمة[١] بيثرب يا معشر يهود. حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له: ويلك ! ما لك ؟ قال: طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به[٢].

قال ابن إسحاق: فلما وضعته أمه ﷺ أرسلت إلى جده عبد المطلب: إنه قد ولد لك غلام، فأته فانظر إليه، فأتاه فنظر إليه، وحدثته بما رأت حين حملت به، وما قيل لها فيه، وما أمرت به أن تسميه.

فيزعمون أن عبد المطلب أخذه، فدخل به الكعبة فقام يدعو الله، ويشكر له ما اعطاه، ثم خرج به إلى أمه، فدفعه إليها، والتمس لرسول الله ﷺ الرضعاء.

قال ابن إسحاق: فاسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر، يقال لها: حليمة ابنة أبي ذؤيب.

وإخوته من الرضاعة: عبد الله بن الحارث، وأنيسة بنت الحارث، وحذافة بنت الحارث، وهي الشيماء، غلب ذلك على اسمها فلا تعرف في قومها إلا به. وهم لحليمة بنت أبي ذؤيب، أم رسول الله ﷺ.

ويذكرون أن الشيماء كانت تحضنه مع أمها إذا كان عندهم[٣].

وكانت حليمة أيضًا تحضن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وهو ابن عم رسول الله ﷺ وكان كذلك عمه حمزة بن عبد المطلب مسترضعًا في بني سعد بن بكر، فأرضعت أمه رسول الله يومًا وهو عند حليمة، فكان حمزة رضيع الرسول ﷺ من وجهين: من جهة ثويبة مولاة أبي لهب، ومن جهة السعدية[٤].

قصة رضاع الحبيب ﷺ

وتعالوا بنا لنتعايش مع قصة من روائع القصص ألا وهي قصة رضاع الحبيب ﷺ ... لأننا لن نستطيع أن نصف روعة هذه القصة وجمالها فسوف نترك المجال لحليمة

(١) أطمة: الأطم حصن مبني بحجارة وقيل هو كل بيت مربع مسطح.
(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (١/ ٩١) وإسناده صحيح إلى يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن حيث إنه ثقة تابعي وقد اتهم عمن حدث عنهم وقد وثقهم وهم شيوخه والله أعلم.
(٣) السيرة النبوية/ لابن هشام (١/ ١٤٢-١٤٤) بتصرف شديد.
(٤) صور من سير الصحابيات/ عبد الحميد السحيباني (ص ١٦٩).

السعدية رضي الله عنها لتحكي لنا تلك القصة التي هي من روائع الأخبار.

عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، أو عمّن حدثه عنه، قال: كانت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية أم رسول الله ﷺ التي أرضعته، تحدث: أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه، في نسوة من بني سعد بن بكر، تلتمس الرضعاء، قالت: وذلك في سنة شهباء[١]، لم تُبق (لنا) شيئا. قالت: فخرجت على أتان لي قمراء[٢]، معنا شارف لنا[٣]، والله ما تبض بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا، من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذيه ولكنا (كنا) نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتاني تلك، فلقد أدمت بالركب[٤] حتى شق ذلك عليهم ضعفًا وعجفًا، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عُرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه، إذا قيل لها: إنه يتيم، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبى الصبي، فكنا نقول: يتيم ! وما عسى أن تصنع أمه وجده ! فكنا نكرهه لذلك. فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعًا غيري، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعا، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم، فلآخذنه، قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة، قالت: فذهبت إليه فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره، قالت: فلما أخذته رجعت به إلى رحلي، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي، ثم ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا إنها لحافل[٥]، فحلب منها ما شرب وشربت (معه) حتى انتهينا ريًا وشبعًا فبتنا بخير ليلة، قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة.

---

(١) سنة شهباء: إذا كانت مجدبة بيضاء من الجدب لا يرى فيها خضرة وقيل الشهباء التي ليس فيها مطر.

(٢) القمرة: لون إلى الخضرة وقيل بياض فيه كدرة يقال حمار أقمر وأتان قمراء أي بيضاء وليلة قمراء أي مضيئة.

(٣) الشارف: الناقة التي قد أسنت وقال ابن الأعرابي: الشارف الناقة الهمة والشارف من الإبل المسن والمسنة والجمع شوارف.

(٤) أدمت بالركب: أي سكنت حركتهم لبطء دوابهم من أجلهم ويكون أدمت من الدوام وأصلها واحد أي دام سفرهم بسبب ضعف دابتهم وحكى الهروي: أدمت الراحلة أي انقطع سيرها.

(٥) حافل: ممتلئة الضرع من اللبن والحفل: اجتماع اللبن في الضرع، والمحفلة: التي اجتمع لبنها في ضرعها أياما.

قالت: فقلت: والله إني لأرجو ذلك، قالت: ثم خرجنا وركبت (أنا) أتاني. وحملته عليها معي. فوالله لقطعت بالركب. ما يقدر عليها شيء من حُمرهم، حتى إن صواحبي ليقلن لي: يا ابنة أبي ذؤيب، ويحك! أربعي علينا[١]، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله، إنها لهي هي، فيقلن: والله إن لها لشأنًا، قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضًا من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به معنا شباعا لُبنًا[٢]، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة من لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرُعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعًا ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعًا لبنًا. فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته، وكان يشب شبابًا لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاما جفرا[٣]. قالت: فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مكثه فينا، لما كنا نرى من بركته. فكلمنا أمه وقلت لها: لو تركت بني عندي حتى يغلظ، فإني أخشى عليه وباء مكة، قالت: فلم نزل بها حتى ردته معنا.

قالت: فرجعنا به، فوالله إنه بعد مقدمنا (به) بأشهر مع أخيه لفي بهم[٤] لنا خلف بيوتنا، إذ أتانا أخوه يشتد، فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه، فشقا بطنه، فهما يسوطانه[٥]. قالت: فخرجت أنا وأبوه نحوه، فوجدناه قائمًا منتقعًا وجهه. قالت: فالتزمته والتزمه أبوه، فقلنا له: ما لك يا بني؟ قال: **«جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني وشقا بطني، فالتمسا فيه شيئا لا أدري ما هو»**. قالت: فرجعنا (به) إلى خبائنا.

---

(١) أربعي علينا: أي انتظرينا بعض الوقت وهي من ربع يربع إذا وقف وانتظر.

(٢) شباعا لبنا: أي غزيرات اللبن.

(٣) الجفر: استجفر الصبي إذ قوي على الأكل واستغنى به عن اللبن وقيل الصبي إذا انتفخ لحمه وأكل وصارت له كرش فقد استجفر.

(٤) البهم: البهمة الصغير من أولاد الغنم الضأن والماعز والبقر من الوحش وغيرها الذكر والأنثى في ذلك سواء.

(٥) يسوطانه: قال السهيلي في «الروض» (١/ ١٨٨) يقال أسطت اللبن أو الدم أو غيرهما أسوطه إذا ضربت بعضه ببعض والمسوط عودا يضرب به.

قالت: وقال لي أبوه: يا حليمة، لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به، قالت: فاحتملناه فقدمنا به على أمه، فقالت: ما أقدمك (به) يا ظئر[1]، وقد كنت حريصة عليه، وعلى مكثه عندك ؟ قالت: فقلت: قد بلغ الله بابني وقضيت الذي عليَّ[2] وتخوفت الأحداث عليه، فأديته إليك كما تحبين. قالت: ما هذا شأنك، فأصدقيني خبرك. قالت: فلم تدعني حتى أخبرتها، قالت: أفتخوفت عليه الشيطان ؟ قالت: قلت: نعم، قالت: كلا، والله ما للشيطان عليه (من) سبيل، وإن لبني لشأنًا، أفلا أخبرك خبره ؟ قالت: (قلت) بلى، قالت: رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء لي قصور بصرى من أرض الشام، ثم حملت به، فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف (علي) ولا أيسر منه، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء، دعيه عنك وانطلقي راشدة[3].

فراق مؤلم

وانصرفت حليمة ﵂ وقد امتلأ قلبها حزنًا وأسى على فراق الحبيب ﷺ ودموعها تسيل على خدها.

وليس الذي يجري من العين ماؤها ... ولكنها روحٌ تَسيلُ فتقطُرُ

ولكنها كانت تشعر في قرارة نفسها أن الله ﷿ سيجمع بينها وبين الحبيب ﷺ وأنها ستراه مرة أخرى.

مكانتها وقدرها عند رسول الله ﷺ

وإذا بالحبيب ﷺ يشتد عوده ويكبر... وتمر الأيام مسرعة وتزوج الحبيب ﷺ من خديجة ﵂ وإذا بحليمة السعدية ﵂ تأتي بعد وقت طويل من تلك الزيجة المباركة

---

(١) الظئر: مهموز العاطفة على غير ولدها المرضعة من الناس والإبل الذكر والأنثى في ذلك سواء والجمع أَظْؤُر.

(٢) قال السهيلي في «الروض الأنف» (١/ ١٩٢) وكان رد حليمة إياه إلى أمه وهو ابن خمس سنين وشهر في ما ذكر أبو عمر ثم لم تره بعد ذلك إلا مرتين إحداهما بعد تزويجه خديجة ﵂ جاءته تشكو إليه السنة وأن قومها قد أسنتوا (أي أجدبوا). فكلم خديجة فأعطتها عشرين رأسا من غنم وبقرات والمرة الثانية يوم حنين. ا.هـ.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٤٤-١٤٦) - وقال الهيثمي في المجمع (١٣٨٤٠): رواه أبو يعلى والطبراني بنحوه ورجالهما وُثِّقُوا.

لتشكو إلى الحبيب ﷺ الجدب في بلادها وهلاك الزرع والماشية فأخبر النبي ﷺ زوجته خديجة رضي الله عنها فأعطتها أربعين شاة وبعيرًا موقعًا للظعينة وانصرفت إلى أهلها(١).

هذا هو الوفاء

وعاشت حليمة السعدية حتى رأت الحبيب ﷺ رسولاً للبشرية كلها ومعلمًا للكون كله فامتلأ قلبها فرحًا وسعادة وسرورًا.

وفي يوم من الأيام تذهب حليمة رضي الله عنها إلى الحبيب ﷺ وأقدامها تسابق الريح .. وما إن رآها الحبيب ﷺ حتى خلع رداءه وبسطه تحتها وأكرم وفادتها أبلغ الإكرام فتعجب بعض الصحابة الذين لا يعرفونها فسأل واحد منهم وقال لمن حوله: من هذه ؟ فقالوا: أمه التي أرضعته(٢).

هكذا كان وفاء الحبيب ﷺ لأمه التي أرضعته.. وهكذا كان حبه لها.. وهكذا كان تقديره لتلك الأم الرحيمة الحليمة.

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة نامت حليمة السعدية رضي الله عنها على فراش الموت وماتت بالمدينة المنورة ودُفنت بالبقيع.

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

* * *

(١) الطبقات الكبرى/ لابن سعد (١/ ١١٣، ١١٤).

(٢) قال الهيثمي في المجمع (١٥٤١٣): رواه الطبراني ورجاله وثقوا.

أم أيمن رضي الله عنها

حاضنة رسول الله ﷺ

ويا لها من لحظات غالية عندما نتعايش بقلوبنا مع هذه الصحابية الجليلة التي لا يُذكر اسمها إلا ونشعر بالرحمة والحنان والرأفة تتدفق في العروق لتصل إلى القلوب مباشرة.

إنها حاضنة الحبيب ﷺ التي كانت له أمًّا بعد أمه... إنها أم الشهيد (أيمن) الذي شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ... إنها زوجة الحِب (زيد بن حارثة) وأم الحِب ابن الحِب (أسامة بن زيد)... إنها المرأة التي عاشت مراحل النبوة كلها وعاصرت أحداثها بكل ما فيها من جراحٍ وأفراح... إنها أم أيمن رضي الله عنها التي قال عنها أبو نعيم:

أم أيمن المهاجرة الماشية الصائمة الطاوية الناحبة الباكية سُقيت من غير راوية شربة سماوية كانت لها شافية كافية[1].

من هي أم أيمن

وها هو الإمام الذهبي رحمه الله يقدم لنا بطاقة لنعرف من خلالها من هي (أم أيمن) - رضي الله عنها وأرضاها - فيقول:

أم أيمن الحبشية مولاة رسول الله ﷺ وحاضنته ورثها من أبيه ثم أعتقها عندما تزوج بخديجة... وكانت من المهاجرات الأُول.

اسمها: بركة. وقد تزوجها عبيد بن الحارث الخزرجي، فولدت له: أيمن. ولأيمن هجرة وجهاد، استشهد يوم حنين. ثم تزوجها زيد بن حارثة ليالي بُعث النبي ﷺ، فولدت له أسامة بن زيد، حِب رسول الله ﷺ [2].

من هنا نبدأ

لقد عرفت أم أيمن (النبي ﷺ) طفلاً صغيرًا وعرفته شابًا صادقًا أمينًا وعرفته نبيًّا

---

(١) الحلية (٢/ ٦٧).

(٢) السير (٢/ ٢٢٣-٢٢٤).

مُرسلاً وعاشت مراحل النبوة كلها فتعالوا بنا لنفتح تلك الصفحة المباركة لنتعايش بقلوبنا مع حياة تلك الصحابية التي كانت حاضنة لسيد الأولين والآخرين ﷺ.

هكذا نشأ الحبيب ﷺ يتيمًا

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحب ولد أبيه إليه، ولما نجا من الذبح وفداه عبد المطلب بمائة من الإبل، زوَّجه أبوه من أشرف نساء مكة نسبًا، وهي آمنة بنت وهب ابن عبد مناف بن زهرة بن كلاب.

ولم يلبث أبوه أن توفي بعد أن حملت به آمنة ودُفن بالمدينة عند أخواله بني عدي بن النجار فإنه كان ذهب بتجارة إلى الشام فأدركته منيته بالمدينة وهو راجع، وترك هذه النسمة الطاهرة، وكأن القدر يقول له: قد انتهت مهمتك في الحياة، وهذا الجنين الطاهر يتولى الله ﷻ بحكمته ورحمته تربيته وتأديبه وإعداده لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور(١).

ورأت آمنة وفاء لذكرى زوجها الراحل أن تزور قبره بيثرب، فخرجت من مكة قاطعة رحلة تبلغ خمسمائة كيلو مترا، ومعها ولدها اليتيم - محمد ﷺ - وخادمتها أم أيمن، وقيمها عبد المطلب، فمكثت شهرًا، ثم قفلت - عادت - وبينما هي راجعة إذ يلاحقها المرض، ويلح عليها في أوائل الطريق، فماتت بالأبواء بين مكة والمدينة(٢).

وفي هذا الموقف الأليم، برزت أم أيمن لتحتل مكانتها بين النساء اللاتي تركن بصمات واضحة في التاريخ، وقد أراد الله سبحانه وتعالى لها الخير كله، وعادت بالنبي ﷺ، وأضحت حاضنته، وأوقفت نفسها لرعايته والعناية به، وغمرته بعطفها، كما غمره جده عبد المطلب بحبه أيضا، وقد عوضه الله بحنان جده وأم أيمن عن حنان الوالدين، وأُغرم به عبد المطلب غرامًا شديدًا، وكثيرًا ما كان يوصي الحاضنة أم أيمن قائلا: يا بركة لا تغفلي عن ابني فإني وجدته مع غلمان قريبا من السدرة، وإن أهل الكتاب يزعمون أن ابني هذا نبي هذه الأمة.

وكان عبد المطلب يُسرّ لما يرى من مخيل الشرف والكرامة على حفيده محمد، ويوصي أعمامه بقوله: دعوا ابني فوالله إن له لشأنًا.

---

(١) وقفات تربوية / الشيخ أحمد فريد (ص ٤٧).

(٢) ابن هشام (١/ ١٦٨) وتلقيح فهوم أهل الأثر (ص ٧).

ولكن المنية وافت عبد المطلب بعد أن أوصى ابنه أبا طالب بكفالة النبي وحياطته، وحزن النبي عليه الصلاة والسلام حزنًا شديدًا، وكان ما يزال طفلًا صغيرًا[١].

بركة رضي الله عنها تحدثنا عن بركة الحبيب ﷺ

وبعد وفاة عبد المطلب انتقل الحبيب ﷺ إلى بيت عمه أبي طالب وزوجه فاطمة بنت أسد رضي الله عنها فكان يجد العطف والحنان من فاطمة ومن أم أيمن رضي الله عنهما .

وكان أبو طالب فقيرًا، وكانت زوجته تشعر بأن أولادها لا يشبعون من الطعام أبدًا، فلما عاش الحبيب ﷺ بينهم دخلت البركة لأول مرة في هذا البيت الكريم وبخاصة في طعام الأولاد إذا أكل معهم الحبيب ﷺ.

وكان عيال أبي طالب إذا أكلوا جميعًا أو فرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول الله شبعوا، فكان أبو طالب إذا أراد أن يغديهم أو يعشيهم يقول: كما أنت حتى يأتي ابني، فيأتي رسول الله ﷺ فيأكل معهم فيفضل من طعامهم.

وإن كان لبنًا شرب رسول الله ﷺ أولهم، ثم تناول القعب - القدح - فيشربون منه، فيروون عن آخرهم من القعب الواحد، وإن كان أحدهم ليشرب قعبًا وحده، فيقول أبو طالب: إنك لمبارك.

وكان الصبيان يُصبحون شُعثًا رمصًا[٢]، ويصبح رسول الله ﷺ دهينًا كحيلا[٣].

بل كانت أم أيمن تحدث عن هذه البركة فتقول: ما رأيت رسول الله ﷺ شكا جوعًا قط ولا عطشًا، فكان يغدو إذا أصبح فيشرب من ماء زمزم شربة فربما عرضنا عليه الغداء فيقول: «**لا أريد أنا شبعان**»[٤].

النبي ﷺ يعتقها ... وعُبيد يتزوجها

ونشأ الحبيب ﷺ بين ينبوع الرحمة ونهر الحنان فاطمة بنت أسد وأم أيمن رضي الله عنهما فكانت كل واحدة منهما ترعاه وتخصه بالرحمة والحنان وكأنها أمه التي ولدته.

---

(١) نساء مبشرات بالجنة (ص ٩٧ ، ٩٨) بتصرف.
(٢) الرمص: وسخ أبيض جامد يجتمع في مُوق العين.
(٣) انظر عيون الأثر (١/ ٥١)، والسيرة الحلبية (١/ ١٨٩).
(٤) دلائل النبوة للأصبهاني (١/ ٢١١).

ولما تزوج النبي ﷺ من خديجة ﵂ أعتق أم أيمن فتزوجها عُبيد بن الحارث الخزرجي فولد له أيمن... ولأيمن ﵁ هجرة وجهاد فقد كان يشهد المشاهد مع الحبيب ﷺ حتى استشهد في غزوة حُنين - وهو الذي تُكنَّى به -.

الشمس تشرق على أرض الجزيرة

ولما أشرقت شمس الإسلام على أرض الجزيرة كانت أم أيمن ﵂ من السابقات إلى الإسلام، فلم تتأخر لحظة واحدة عن الاستجابة لأمر الله بل أسلمت بقلبها وجوارحها، وكانت في مقدمة أول قافلة تُسلم لله في هذا الكون... ولكن زوجها (عُبيد) أبَى أن يُسلم ففَرق الإسلام بينهما.

وعاشت أم أيمن في رحاب هذا النور تنهل من النبع الصافي - من كتاب الله وسُنة رسول الله ﷺ - فكانت في سعادة لا توازيها الدنيا بكل ما فيها من متاعٍ زائل.

موعد مع السعادة

وبعدما تركت زوجها (عُبيد) الذي أبَى أن يُسلم... أراد الحقأن يكافئها بزوج مؤمنٍ تقي يأخذ بيديها إلى جنة الدنيا والآخرة.

وكانت خديجة ﵂ قد ملكت (زيد بن حارثة) الذي اشتراه حكيم بن حزام وأهداه إلى عمته خديجة. فلما تزوج النبي ﷺ خديجة طلب منها أن تهب له زيدًا فوهبته له فأصبح زيدً ملكًا للحبيب ﷺ فأعتقه النبي ﷺ ثم زوَّجه أم أيمن فولدت له أسامة ابن زيد... فكان النبي ﷺ يحب أسامة ويحب زيدًا وكان الصحابة - رضي الله عنهم - يسمون أسامة الحِب بن الحِب - أي الحبيب ابن الحبيب - فكانت الأسرة كلها لها مكانة عظيمة في قلب النبي ﷺ.

وها هو الحبيب ﷺ يقول له: «**يا زيد أنت مولاي ومنّي وإليَّ وأحبُّ القوم إليَّ**»[(١)].

وعن عبد الله بن عمر ﵄ قال: «بعث النبي ﷺ بعثًا وأمَّرَ عليهم أسامة بن زيد فطعن بعض الناس في إمارته فقال النبي ﷺ: «**إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وايم الله إن كان لخليقًا للإمارة وإن كان لمن أحبِّ الناس إليَّ، وإن هذا لمن أحبِّ**

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٠٤) مطولًا، وابن سعد (٣/ ١/ ٢٩ ، ٣٠) ورجاله ثقات. وصححه الحاكم (٣/ ٢١٧) ووافقه الذهبي، وحسنه الحافظ في «الإصابة» (٤/ ٥٠).

الناس إليَّ بعده»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في جيشٍ قط إلا أمَّره عليهم، وإن بقي بعده استخلفه(٢).

وعن سلمة بن الأكوع قال: غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات ومع زيد بن حارثة تسع غزوات يؤمره رسول الله ﷺ علينا(٣).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: فرض عمر لأسامة بن زيد أكثر مما فرض لي، فكلَّمته في ذلك، فقال: إنه كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ منك، وإنَّ أباه كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ من أبيك(٤).

بل ها هو الحبيب ﷺ يقول: **«دخلت الجنة فاستقبلتني جارية شابة فقلت: لمن أنت ؟ قالت: لزيد بن حارثة»**(٥).

الهجرة المباركة

ولما اشتد إيذاء المشركين لأصحاب الحبيب ﷺ أذن لهم بالهجرة إلى المدينة المنورة فخرج المهاجرون إلى المدينة فرارًا بدينهم من بطش قريش... وكانت أم أيمن من بين المهاجرات.

وفي الطريق حدث لها شيء يعجز القلم عن وصفه !!!.

عن عثمان بن القاسم قال: لما هاجرت أم أيمن أمست بالمنصرف دون الروحاء فعطشت (وليس معها ماء) وهي صائمة، وجهدت، فدلى عليها من السماء دلو من ماء برشاء أبيض، فشربت، وكانت تقول: ما أصابني بعد ذلك عطش، ... ولقد تعرضت للعطش بالصوم في الهواجر فما عطشت(٦).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٣٠) ومسلم (٢٤٢٦).
(٢) رواه أحمد (٦/ ٢٥٤) والحاكم (٣/ ٢١٥) وقال العدوي في فضائل الصحابة: وسنده حسن.
(٣) الطبقات لابن سعد (٣/ ٣٣) والحاكم (٣/ ٢١٨) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الذهبي: هو في البخاري في الثلاثيات.
(٤) ذكره الحافظ في الإصابة (٤/ ٥٠) وقال: صحيح.
(٥) رواه الروياني والضياء عن بريدة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٦٦).
(٦) أخرجه ابن سعد (٨/ ٢٢٤) وعنه الحافظ في الإصابة (١٣/ ١٧٨) ورجاله ثقات لكنه منقطع.

ونزلت أم أيمن في رحاب الأنصار الذين قال الله عنهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: الآية ٩].

صفحات مشرقة من جهادها في سبيل الله

وعلى الرغم من كبر سنها إلا أنها كانت تشارك في الجهاد مع رسول الله ﷺ فقد كانت تتمنى أن ترى راية الإسلام خفاقة عالية لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السُّفلى.

فتعالوا بنا لنرى صفحات من جهادها في سبيل الله.

جهادها في يوم أحد

ولما كانت غزوة (أحد) خرجت أم أيمن مع من خرج من النساء لمداواة الجرحى وسقاية العطشى الذين يجاهدون في سبيل الله. وكان لها موقفٌ مشرف في يوم أُحد وذلك عندما خالف الرُماة أمر رسول الله ﷺ واستطاع المشركون أن يقتلوا عددًا كبيرًا من الصحابة - رضي الله عنهم - وانهزم البعض الآخر فقامت أم أيمن تحثي في وجوههم التراب وتقول لبعضهم:

هاك المغزل فاغزل به، وهلم سيفك[(١)]. ثم اتجهت نحو رسول الله ﷺ تستطلع أخباره في نسوة معها حتى اطمأنت على سلامته، فحمدت الله عز وجل.

صفحة مضيئة من جهادها في خيبر

وفي غزوة خيبر خرجت أم أيمن لتقدم ما تستطيع أن تقدمه لخدمة دين الله.

ولكن ابنها أيمن رضي الله عنه قد تخلف عن غزوة خيبر لعذرٍ منعه من الخروج فظنت أنه جَبُن فعيَّرته بالجبن والخوف ولم تعرف أنه لم يستطع الخروج لمرض فرسه ولذلك قال حسان بن ثابت في قصيدته التي يعذر فيها أيمن ابن أم أيمن.

على حين أن قالت لأيمن أمه جبنت ولم تشهد فوارس خيبر

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٣١١) وأنساب الأشراف (١/ ٣٢٦).

وأيمن لم يجبن ولكن مُهره ... أضر به شرب المديد المخمر(١)
فلولا الذي قد كان من شأن مُهره ... لقاتل فيها فارسا غير أعسَر(٢)
ولكنه قد صده فعل مهره ... وما كان منه عنده غير أيسر(٣)

يُبتلى المرء على قدر إيمانه

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

وقال ﷺ: «**أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صُلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رِقة أُبتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة**»(٤).

وفي سرية مؤتة كان الخَطب عظيمًا والبلاء شديدًا على أم أيمن فقد قُتل زوجها زيد ابن حارثة رضي الله عنه. فلقد أرسل النبي ﷺ جيشًا إلى مؤتة واستعمل عليهم زيد ابن حارثة فقال لهم: إن أُصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس وإن أُصيب جعفر فعبد الله ابن رواحة على الناس... فخرجوا حتى وصلوا إلى أرض المعركة.

ثم التقى الناس واقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط في رماح القوم، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها فقاتل القوم حتى قُتل، وكان جعفر أول رجل من المسلمين عقر في الإسلام(٥).

وعن أنس رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ نعى زيدًا، وجعفرًا، وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم: فقال: «**أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب**» - وعيناه تذرفان - «**حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم**»(٦).

ولما وصل الخبر إلى أم أيمن صبرت واحتسبت زوجها عند الله عز وجل.

---

(١) المديد: الدقيق يخلط مع الماء فتشربه الخيل، والمخمر: الذي ترك حتى يختمر.
(٢) الأعسر: الذي يعمل بيده الشمال ولا يعمل باليمين.
(٣) انظر البيتين الأوليين في الاشتقاق (ص ٤٦٠)، وانظر ديوان حسان بن ثابت (ص ٢٦٦، ٢٦٧).
(٤) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٩٢).
(٥) قال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله ثقات إلا عروة - مجمع الزوائد (٦/ ١٠٧-١٠٩).
(٦) أخرجه البخاري (٧/ ٥٨٥) المغازي.

وفي يوم حُنين

وجاءت غزوة حُنين وخرجت أم أيمن كعادتها لتنصر دين الملك - جل جلاله- بأي شيء ولو بشربة ماء تقدمها لمجاهدٍ في سبيل الله. ويخرج معها ولداها أسامة بن زيد وأيمن رضي الله عنهما للذود عن حياض الإسلام والدفاع عن رسول الله ﷺ.

وكان أيمن رضي الله عنه ممن ثبت مع النبي ﷺ في يوم حُنين وضرب المثل في الجرأة والشجاعة والدفاع عن رسول الله ﷺ حتى سقط شهيدًا في أرض الشرف والجهاد.

ويصل الخبر إلى أمه (أم أيمن) فتصبر أيضًا، وتحتسب ابنها عند الله كما احتسبت زوجها من قبل.

مكانتها عند رسول الله ﷺ

ولقد تبوأت أم أيمن مكانة عظيمة في قلب رسول الله ﷺ فلم ينس أبدًا أنها كانت أُمًّا له بعد أمه وأنها كانت تؤثره على نفسها بل كانت تشمله بعطفها وحنانها ورحمتها.

عن أنس قال: انطلق رسول الله ﷺ إلى أم أيمن. فانطلقت معه. فناولته إناء فيه شراب. قال: فلا أدري أصادفته صائمًا أو لم يُرده. فجعلت تصخب عليه وتذمر عليه[(١)].

قال الإمام النووي: ومعنى الحديث أن النبي ﷺ رد الشراب عليها إما لصيام وإما لغيره فغضبت، وتكلمت بالإنكار والغضب، وكانت تَدِل عليه ﷺ لكونها حضنته وربته ﷺ وجاء في الحديث: **«أم أيمن أمي بعد أمي»**[(٢)].

وكان النبي ﷺ يعطيها ما تريده لحبه إياها.

عن أنس بن مالك. قال: لما قدم المهاجرون، من مكة إلى المدينة قدموا وليس بأيديهم شيء. وكان الأنصار أهل الأرض والعقار. فقاسمهم الأنصار على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم، كل عام. ويكفونهم العمل والمؤونة. وكانت أم أنس بن مالك، وهي تُدعى أم سليم، وكانت أم عبد الله بن أبي طلحة، كان أخا لأنس لأمه، وكانت

(١) أخرجه مسلم (١٠٢) (٢٤٥٣) كتاب فضائل الصحابة/باب: من فضائل أم أيمن رضي الله عنها.
(٢) مسلم بشرح النووي (١٦/ ١٣).

أعطت أم أنس رسول الله ﷺ عذاقًا لها. فأعطاها رسول الله ﷺ أم أيمن، مولاته، أم أسامة بن زيد.

قال ابن شهاب: فأخبرني أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ لما فرغ من قتال أهل خيبر. وانصرف إلى المدينة. رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم من ثمارهم.

قال: فرد رسول الله ﷺ إلى أمي عذاقها. وأعطى رسول الله ﷺ أم أيمن مكانهن من حائطه[1].

وفي رواية عن أنس: أن الرجل كان يجعل للنبي ﷺ النخلات من أرضه. حتى فُتحت عليه قريظة والنضير، فجعل - بعد ذلك - يرد عليه ما كان أعطاه. قال أنس: وإن أهلي أمروني أن آتي النبي ﷺ فأسأله ما كان أهله أعطوه أو بعضه.

وكان نبي الله ﷺ قد أعطاه أم أيمن. فأتيت النبي ﷺ فأعطانيهن. فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب في عنقي وقالت: والله ! لا نعطيكاهن وقد أعطانيهن. فقال نبي الله ﷺ: **«يا أم أيمن ! اتركيه ولك كذا وكذا»**. وتقول: كلا. والذي لا إله إلا هو! فجعل يقول كذا حتى أعطاها عشرة أمثاله، أو قريبا من عشرة أمثاله[2][3].

بل كان ﷺ يفرح بأي شيء يُدخل الفرح على أم أيمن.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليَّ قائفٌ، والنبي ﷺ شاهد وأسامة بن زيد وزيد ابن حارثة مضطجعان فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض قال: فسرَّ بذلك النبي ﷺ وأعجبه، فأخبر به عائشة[4].

---

(١) أخرجه مسلم (٧٠) (١٧٧١) كتاب الجهاد والسير.

(٢) أخرجه مسلم (٧١) (١٧٧١) كتاب الجهاد والسير.

(٣) قال الإمام النووي: قوله في قصة أم أيمن أنها امتنعت من رد تلك المنائح حتى عوضها عشرة أمثاله. إنما فعلت هذا لأنها ظنت إنها كانت هبة مؤبدة، وتمليكًا لأصل الرقبة، وأراد النبي ﷺ استطابة قلبها في استرداد ذلك فما زال يزيدها في العوض حتى رضيت، وكل هذا تبرع منه ﷺ وإكرام لها لما لها من حق الحضانة والتربية. [مسلم بشرح النووي (١٢/ ١٤٣ ، ١٤٤)].

(٤) أخرجه البخاري (٣٧٣١) ومسلم (١٤٥٩). قال النووي رحمه الله (٣/ ٦٤١): قال القاضي: قال المازري: وكانت الجاهلية تقدح في نسب أسامة لكونه أسود شديد السواد، وكان زيد أبيض، فلما قضى هذا القائف بإلحاق نسبه مع اختلاف اللون، وكانت الجاهلية تعتمد قول القائف فرح النبي ﷺ لكونه زاجراً لهم عن الطعن في النسب.

بل لقد كان النبي ﷺ مع حُبه الشديد لأسامة بن زيد وأبيه رضي الله عنهما وأمه (أم أيمن) رضي الله عنها فقد كان ﷺ يحب ذرية - أم أيمن - الذين رآهم والذين لم يرهم.

فعن حرملة مولى أسامة بن زيد أنه بينما هو مع عبد الله بن عمر إذ دخل الحجاج ابن أيمن فلم يُتم ركوعه ولا سجوده، فقال أعدْ فلما ولَّى قال لي ابن عمر: من هذا ؟ قلت: الحجاجُ بن أيمن بن أم أيمن. فقال ابن عمر: لو رأى هذا رسول الله ﷺ لأحبَّه... فذكر حبه وما ولدتُه أمُّ أيمن(١).

كانت تشارك الحبيب ﷺ في أحزانه وأفراحه

كانت أم أيمن تفرح بأي شيء يُدخل السرور والسعادة على قلب النبي ﷺ وتحزن إذا حدث شيء يُدخل الحزن على قلبه ﷺ.

فها هي تشارك الحبيب ﷺ فرحته بزواج (علي) من (فاطمة) رضي الله عنهما فتقوم مع أسماء بنت عميس رضي الله عنها بتجهيز فاطمة لزوجها علي.

وها هي - عند وفاة زينب بنت الرسول ﷺ - تقوم بالمعاونة في الغُسل والتكفين وقد امتلأ قلبها حُزنًا لفراقها.

بل وها هي مرة أخرى تقوم وتدافع عن أمنا عائشة رضي الله عنها في حادثة الإفك.

ولذلك كانت تحظى بمكانة عالية مباركة في قلب النبي ﷺ وأزواجه وأصحابه رضي الله عنهم.

وفاة الرسول ﷺ

أخذ الحبيب ﷺ يجهز جيشًا كبيرًا لإرهاب الروم ولإعادة الثقة إلى قلوب المسلمين الضاربين على الحدود... وجعل أسامة بن زيد أميرًا على الجيش.

وكان أسامة صغير السن وعلى الرغم من ذلك أمَّر رسول الله ﷺ أسامة بن زيد على جيش، بين أفراد جنوده أبو بكر وعمر... وسرت همهمة بين نفر من المسلمين تعاظمهم الأمر، واستكثروا على الفتى الشاب إمارة جيش فيه شيوخ الأنصار وكبار المهاجرين، فقال رسول الله ﷺ: **«إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله، وايم الله لقد كان خليقًا للإمارة، وإن كان من أحب الناس إليَّ، وإن هذا لمن أحب الناس إليَّ**

(١) أخرجه البخاري (٣٧٣٧).

بعده»[١].

وانتدب الناس يلتفون حول أسامة، وينتظمون في جيشه، حتى خرجوا ونزلوا الجرف، على فرسخ من المدينة، إلا أن الأخبار المقلقة عن مرض رسول الله ﷺ أكرهتهم على التريث، حتى يعرفوا ما يقضي الله به، وقد قضى الله أن يكون هذا أول بعث ينفذ في خلافة أبي بكر الصديق[٢].

وقبل وفاة الرسول ﷺ أوصى بإنفاذ بعث أسامة... وقد كان الحبيب ﷺ يحبه؛ حتى إنه لم ينس الدعاء له وهو في مرض الموت.

ها هو الحبيب ﷺ في مرضه الذي مات منه يدخل عليه أسامة فما كان من النبي ﷺ إلا أن دعا له.

فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: لما ثقل رسول الله هبطت وهبط الناس معي إلى المدينة فدخلت على رسول الله ﷺ وقد أصمت فلا يتكلم فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يصبّها عليَّ أعرف أنه يدعو لي[٣].

وما هي إلا ساعات حتى فاضت روح الحبيب ﷺ إلى ربه عز وجل ومات رسول الله فأظلمت المدينة بموته وكادت قلوب أصحابه أن تتمزق حُزنًا عليه ﷺ.

عن أنس رضي الله عنه قال: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء وما نفضنا عن النبي ﷺ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا[٤].

وقال الحافظ ابن رجب رحمه الله: لما توفي ﷺ اضطرب المسلمون فمنهم من دُهش فخولط، ومنهم من أُقعد فلم يطق القيام ومنهم من اعتقل لسانه فلم يطق الكلام ومنهم من أنكر موته بالكلية وقال: إنما بُعث إليه[٥].

ووقفت أم أيمن ودموعها على خدها وشريط الذكريات يمر أمام عينيها منذ أن كان الحبيب ﷺ طفلاً صغيرًا، ثم أصبح شابًا، ثم نبيًا لخير أمة... وها هي الآن تودعه

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد في فضائل الصحابة.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٦٠٦).
(٣) رواه أحمد (٥/ ٢٠١) والترمذي (٣٨١٧) وقال الأرناؤوط: وسنده قوي.
(٤) رواه الترمذي (١٣/ ١٠٤، ١٠٥) وصححه الألباني في مختصر الشمائل وصحيح ابن ماجة.
(٥) لطائف المعارف (١١٤).

الوداع الأخير.

يا لها من لحظات تجعل القلب يبكي الدماء بدل الدموع.

إن أشد الناس مُصابًا في هذا الكون هم أصحاب النبي ﷺ الذين صحبوه ورأوا صدقه وأمانته وتعلموا الخير كله بين يديه وتعلقت قلوبهم به حتى نسوا أن النبي ﷺ سيموت يومًا ما. . . وإذا بهم يذهبون ليدفنوا النبي ﷺ بأيديهم. إنها أصعب لحظة تمر على الناس في تاريخ الإنسانية كلها.

مات رسول الله ﷺ ووقفت أم أيمن ترثي الحبيب ﷺ بتلك الكلمات:

عينُ جودي فإنَّ بذلك للدّمْع ... شفاء فأكثري من البكاء
حين قالوا الرسول أمسى فقيدًا ... ميتًا كان ذاك كل البلاء
وابكيا من رُزئناه في الدنيا ... ومن خصه بوحي السماء
بدموع غزيرة منك حتى ... يقضي الله فيك خير القضاء
فلقد كان ما علمت وصولَ ... ولقد جاء رحمة بالضياءا
ولقد كان بعد ذلك نورًا ... وسراجًا يضيء في الظلماء
طيب العود والضريبة والمعدن ... والختم خاتم الأنبياء(١)

وظلت أم أيمن تحتل مكانة عالية في قلوب الصحابة - رضي الله عنهم - فكانوا يزورونها ليطمئنوا عليها.

عن أنس قال: قال أبو بكر ﷺ، بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمر: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها. فلما انتهينا إليها بكت. فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله ﷺ. فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ. ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء. فهيجتهما على البكاء. فجعلا يبكيان معها(٢)(٣).

(١) الطبقات لابن سعد (٢/ ٣٣٢، ٣٣٣) وكتاب منح المدح لابن سيد الناس (ص ٣٣٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٣) (٢٤٥٤) كتاب فضائل الصحابة / باب: من فضائل أم أيمن ﷺ.

(٣) قال الإمام النووي: قوله: (قال أبو بكر بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمر ﷺ انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها) فيه زيارة الصالحين، وفضلها، وزيارة الصالح لمن هو دونه وزيارة الإنسان لمن كان صديقه يزوره، ولأهل ود صديقه، وزيارة جماعة من الرجال للمرأة الصالحة وسماع كلامها واستصحاب العالم والكبير صاحباً له في الزيارة والعيادة ونحوهما، والبكاء حزناً على فراق الصالحين والأصحاب، وإن كانوا قد انتقلوا إلى أفضل مما كانوا عليه. والله أعلم. [مسلم بشرح النووي (١٦/ ١٤)].

وفي رواية ابن سعد (بإسناد صحيح): عن أنس: أن أم أيمن بكت حين مات النبي ﷺ. قيل لها: أتبكين ؟ قالت: والله، لقد علمت أنه سيموت؛ ولكني إنما أبكي على الوحي إذ انقطع عنا من السماء[(١)].

وها هي تبكي لوفاة عمر رضي الله عنه

وعاشت أم أيمن في عهد خلافة الصدِّيق رضي الله عنه ثم تولَّى عمر رضي الله عنه أمر الأمة فصار أميرًا للمؤمنين... ولما قُتل عمر بكت أم أيمن بكاءً وقالت: اليوم وَهَى الإسلام[(٢)(٣)].

وجاء وقت الرحيل

وبعد هذا العمر الطويل والعطاء العظيم الذي قدمته أم أيمن للإسلام وللرسول ﷺ نامت أم أيمن على فراش الموت - وكان ذلك في خلافة عثمان رضي الله عنه - وفاضت روحها إلى بارئها ليجمع بينها وبين الحبيب ﷺ في الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فرضي الله عن حاضنة رسول الله ﷺ التي ستظل قدوة لأمهاتنا وبناتنا وزوجاتنا وأخواتنا تضيء لهم طريقهم إلى الله وتعلمهم أسمى معاني التضحية والفداء والعطاء لدين الله .

* * *

---

(١) أخرجه ابن سعد (٨/ ٢٢٦) وإسناده صحيح ، وأخرجه مسلم (٢٤٥٤) فضائل الصحابة.

(٢) أخرجه ابن سعد (٨/ ٢٢٦) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

(٣) قال الحافظ ابن حجر في الإصابة: أخرج ابن السكن بسند صحيح عن الزهري أنها توفيت بعد رسول الله ﷺ بخمسة أشهر وهذا مرسل ويعارضه حديث طارق أنها قالت بعد قتل عمر ما قالت وهو موصل فهو أقوى واعتمده ابن منده وغيره [الإصابة (٨/ ٣٦١، ٣٦٢)].

فاطمة بنت أسد رضي الله عنها

(ألبستها قميصي لتلبس من ثياب الجنة)

محمد رسول الله ﷺ

إننا اليوم على موعد مع صحابية كريمة جمع الله لها من المناقب والفضائل ما لا يخطر على قلب بشر.. فقد حظيت بمواقف رائعة سطرتها على جبين التاريخ بسطور من النور.

فهي التي فازت بتربية سيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله ﷺ بعد وفاة جده عبد المطلب.

وهي أم الفارس الغالب (علي بن أبي طالب) رضي الله عنه وهو رابع الخلفاء الراشدين.. وهي جدة سيدي شباب أهل الجنة (الحسن والحسين) رضي الله عنهما وهي أم الشهيد الذي رآه النبي ﷺ يطير بجناحيه في الجنة مع الملائكة (جعفر بن أبي طالب) رضي الله عنه - أحد الأمراء الثلاثة في سرية مؤتة.. وهي أيضا حماة سيدة نساء العالمين في زمانها بنت رسول الله ﷺ فاطمة رضي الله عنها.

فيا تُرى من الصحابية الكريمة التي جمع الله لها تلك الفضائل والمناقب؟!!!. إنها الصحابية الجليلة: «**فاطمة بنت أسد**» بن هاشم بن عبد مناف.. الهاشمية، والدة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. وهي «**حماة فاطمة**». أسلمت رضي الله عنها، وكانت من المهاجرات الأول. وهي أول هاشمية ولدت هاشميًا(١).

وقفة لطيفة

وقبل أن نتعايش بقلوبنا وأرواحنا مع سيرة تلك الصحابية الكريمة أود أن نقف جميعًا وقفة تأمل وتدبر أمام هذا الدوَر العظيم الذي قامت به هذه الصحابية لخدمة هذا الدين العظيم.

فإن كان الحبيب ﷺ قال: «**من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازيًا في**

---

(١) سير أعلام النبلاء/ للذهبي (٢/١١٨).

سبيل الله في أهله بخير فقد غزا»(١).

وفي رواية: «**من جهز غازيًا في سبيل الله كان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجر الغازي شيئًا**»(٢).

بل وإن كان النبي ﷺ قال: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا** - وأشار بالسبابة والوسطى- **وفرَّج بينهما**»(٣). فما ظنكم بامرأة كفلت أعظم وأطهر يتيم في الدنيا كلها ألا وهو: الحبيب محمد ﷺ الذي كان يُتمه تشريفا لكل يتيم في الدنيا كلها؟.

فهل عرفتم قدر هذه الصحابية الجليلة التي كفلت الحبيب ﷺ ووضعته في عينها وأغفلت عليه جفنها خوفًا عليه حتى من نسيم الهواء ؟.

ولا عجب في ذلك فهي قرشية وقد قال ﷺ عن نساء قريش: «**خير نساءٍ ركبن الإبل صالح نساء قريش أحناه على ولدٍ في صغره وأرعاه على زوجٍ في ذات يده**»(٤).

ومن هنا كانت البداية

كان الحبيب ﷺ يتيمًا فكفله جده (عبد المطلب) وكان يحبه حبًا شديدًا... وبعد فترة من الزمن أحس عبد المطلب بدنو أجله فأوصى ولده أبا طالب بأن يكفل الحبيب ﷺ وأوصاه به خيرًا وذلك لأن عبد الله (والد رسول الله ﷺ) وأبا طالب أخوان لأب وأم فأمهما هي فاطمة بنت عمرو بن عائذ.. وكذلك فإن عبد المطلب كان يشعر بأنه لن يحافظ على الحبيب ويحوطه بالرحمة والحنان إلا زوجة أبي طالب لما كان يشعر من الرحمة التي تتدفق من قلبها.

ومات عبد المطلب وانتقل الحبيب ﷺ إلى بيت أبي طالب فوجد في بيته أُمًّا رحيمة جعلته يشعر بأنها أمه بعد أمه التي ماتت.

وكانت فاطمة بنت أسد رضي الله عنها تحوطه برعايتها وتشمله برحمتها حتى إنها كانت تخاف عليه أكثر من خوفها على أولادها.

(١) أخرجه أحمد والبخاري ومسلم عن زيد بن خالد.
(٢) رواه ابن ماجة عن زيد بن خالد وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٩٤).
(٣) أخرجه البخاري وأحمد عن سهل بن سعد.
(٤) أخرجه البخاري (٥٠٨٢) ومسلم (٢٥٢٧).

وعرفت البركة طريقها إلى هذا البيت

وكان أبو طالب فقيرًا وكانت زوجته تشعر بأن أولادها لا يشبعون من الطعام أبدًا فلما عاش الحبيب ﷺ بينهم دخلت البركة لأول مرة في هذا البيت الكريم وبخاصة في طعام الأولاد إذا أكل معهم الحبيب ﷺ.

فكان عيال أبي طالب إذا أكلوا جميعًا أو فرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا، فكان أبو طالب إذا أراد أن يغذيهم أو يعشيهم يقول: كما أنتم حتى يأتي ابني، فيأتي رسول الله ﷺ فيأكل معهم فيفضل من طعامهم.

وإن كان لبنًا شرب رسول الله ﷺ أولهم، ثم تناول القَعْب -القدح- فيشربون منه، فيروون عن آخرهم من القعب الواحد، وإن كان أحدهم ليشرب قعبًا وحده، فيقول أبو طالب: إنك لمبارك.

وكان الصبيان يصبحون شعثًا رُمصًا[1]، ويصبح رسول الله ﷺ دهينًا كحيلاً[2].

ويزداد الحب يومًا بعد يوم

وكانت فاطمة بنت أسد رضي الله عنها ترى كل هذه البركات التي دخلت بيتها لأول مرة وهي لا تكاد تصدق نفسها فكانت تزداد حبًا للنبي ﷺ يومًا بعد يوم حتى كان الحبيب ﷺ يشعر بأن الله رزقه بتلك الأم الرحيمة ليعوضه عن موت أمه.. فها هي ترعاه في طفولته وشبابه وتخصه بالتقدير والاحترام وتشمله بعطفها وحنانها وظلت ترعاه إلى أن تزوج بخديجة رضي الله عنها.

كانت فاطمة تسمع ما يتكلم به الناس عن محمد عليه الصلاة والسلام، وكثيرًا ما كانت تسمع من زوجها أبي طالب قوله: إن ابن أخي ليخبر بنعيم[3] - أي بشرف عظيم-.

وكذلك سمعت عما حصل له ﷺ من البركة عندما سافر مع زوجها إلى الشام، وسمعت ما حدّث به ميسرة غلام خديجة بنت خويلد رضي الله عنها من خصال الخير عندما

---

(١) الرمص: وسخ أبيض جامد يجتمع في موق العينين.

(٢) انظر عيون الأثر (١/ ٥١)، والسيرة الحلبية (١/ ١٨٩).

(٣) السيرة الحلبية (١/ ١٨٩).

سافر بتجارتها إلى الشام[١].

فلذة كبدها في بيت النبي ﷺ

وها هي تدفع بفلذة كبدها (علي بن أبي طالب) ولدها ليعيش في بيت رسول الله ﷺ وكانت ترى فيه الأب الرحيم، وقد لاحظت عناية الرسول الكريم بولدها من قبل، فقد روي عنها أنها قالت: لما ولدته سماه عليا، وبصق في فيه - فمه - ثم ألقمه لسانه، فما زال يمصه حتى نام، فلما كان من الغد طلبنا له مرضعة فلم يقبل ثدي أحد، فدعونا له محمدًا ﷺ فألقمه لسانه فنام، فكان كذلك ما شاء الله ﷻ[٢].

قال ابن إسحاق: وكان من نعمة الله على (علي بن أبي طالب)، ومما صنع الله له، وأراده به من الخير، أن قريشًا أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة، فقال رسول الله ﷺ للعباس عمه، وكان من أيسر بنى هاشم: **«ياعباس، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه فلنخفف (عنه) من عياله: آخذ من بنيه رجلاً وتأخذ أنت رجلا فنكفلهما عنه»**، فقال العباس: نعم، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، فقالا له: **«إنا نريد أن نخفف (عنك) من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه»**، فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما عقيلاً فاصنعا ما شئتما.

فأخذ رسول الله ﷺ عليًا فضمه إليه، وأخذ العباس جعفرًا فضمه إليه، فلم يزل عليٌّ مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبيًا، فاتبعه عليٌّ رضي الله عنه، وآمن به وصدَّقه[٣].

موعدٌ مع السعادة

وجاءت اللحظة التي ينتظرها الكون كله وبُعث الحبيب ﷺ ليحمل الخير والنور للدنيا كلها - جاء ليأخذ بأيدي الناس - بإذن الله - من أدران الشرك والجاهلية والكفران إلى أنوار التوحيد والإيمان. ولما نزل عليه قول الله ﷻ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء: الآية ٢١٤] قام الحبيب ﷺ يدعو قومه وعشيرته وأقاربه إلى خيري الدنيا

(١) نساء مبشرات بالجنة (ص ٤١).
(٢) السيرة الحلبية (١/ ٤٣٢).
(٣) السيرة النبوية/ لابن هشام (١/ ٢٠٩).

والآخرة فكانت فاطمة بنت أسد من النساء اللاتي سارعن إلى الدخول في الإسلام فآمنت بالله ورسوله ﷺ.. وأما زوجها أبو طالب فاعتذر اعتذارًا لطيفًا ولم يدخل في دين الله وأسلم أولادها كلهم وكان أولهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

سيجعل الله بعد عسرٍ يُسرًا

وبدأت فاطمة رضي الله عنها تعيش حياة جديدة كلها إيمان وطاعة لله ولرسول الله ﷺ الذي تربى في بيتها وارتوى من عطفها وحنانها... فكانت تتعايش مع آيات الله ومع سنة رسول الله ﷺ حتى أحست بسعادة لا تعدلها الدنيا بما فيها.

ولكن أعداء الله دائمًا يتربصون بالمؤمنين فلقد بدأت قريش تصب غضبها وبطشها على الموحدين من أصحاب سيد الموحدين ﷺ وبدأت تقف في وجه الإسلام وتحاربه حربًا ضروسًا فلما رأى النبي ﷺ ما نزل بأصحابه من العذاب والنكال أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة.

وهنا وقفت فاطمة وقد امتلأ قلبها حزنًا وأسى وهي تودع ولدها جعفر بن أبي طالب وزوجه أسماء بنت عميس فلقد كان جعفر أمير المهاجرين إلى الحبشة.

ولما رأت قريش أن الأمر يكاد يخرج من يدها، لجأت إلى مقاطعة بني هاشم، وحُصر بنو هاشم وبنو عبد المطلب بنسائهم وأطفالهم في الشِعب، وصبرت فاطمة بنت أسد مع من صبر من النساء تبتغي بذلك رضوان الله، وقاست واشتد عليها البلاء، وأكلت ورق الشجر مع المسلمين المحاصرين، ورأت قريش أن بني هاشم وبني عبد المطلب قد صبروا للمحنة كرامًا، واحتملوها أعزة شمًّا، بل عجبوا من صبر نسائهم على تحمل المحنة التي استمرت نحوًا من ثلاث سنين،... وذكر هذا ابن سعد في الطبقات فقال: «فلما رأت قريش ذلك سُقط في أيديهم وعرفوا أنهم لن يسلموهم، وكان خروجهم من الشِّعب في السنة العاشرة من البعثة».

وفي هذه السنة توفيت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد زوج الرسول الكريم، ثم توفي عمه أبو طالب، فاشتدت المصائب على المسلمين، وأخذت قريش تجتهد أكثر في إيذاء الرسول الكريم ﷺ إلى أن أذن الله له بالهجرة إلى المدينة المنورة[١].

(١) نساء مبشرات بالجنة (ص: ٤٣).

الهجرة إلى المدينة المنورة

ولما أذن الحبيب ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة المنورة هاجرت فاطمة مع من هاجر لتنال أجر المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وخرجوا من دنياهم ليظفروا بنعمة التوحيد والإيمان بالله عز وجل . وهناك في المدينة نزلت في رحاب أخواتها من نساء الأنصار فعاشت في ظل بيئة إيمانية فكان إيمانها يزداد يومًا بعد يومٍ.

مكانتها عند النبي ﷺ

وكان النبي ﷺ يحبها محبة الابن لأمه الرحيمة وكان يزورها دائمًا ويقيل في بيتها ويُحسن إليها ويرعاها كما كانت تُحسن إليه وترعاه في صغره.

ولمكانتها الرفيعة عند رسول الله ﷺ كان يتحفها بالهدية.

فعن جعدة بن هبيرة عن علي قال: أهدى إليّ رسول الله ﷺ حلّة إستبرق فقال: «**اجعلها خُمُرًا بين الفواطم**» فشققتُها أربعة أخمرة، خمارًا لفاطمة بنت رسول الله ﷺ، وخمارًا لفاطمة بنت أسد، وخمارًا لفاطمة بنت حمزة، ولم يذكر الرابعة[1].

مكانتها في نفوس الصحابة - رضي الله عنهم -

ولقد كان لفاطمة بنت أسد رضي الله عنها مكانة سامية في نفوس الصحابة، فهذا الحجاج بن علاط السلمي يمدح علي بن أبي طالب عندما قتل طلحة بن أبي طلحة، صاحب لواء المشركين يوم أحد، ويذكر أمه فاطمة:

لله أي مذنب عن حربه ... أعني ابن فاطمة المعم المخولا
جادت يداك له بعاجل طعنة ... تركت طليحة للجبين مجندلا
وشددت شدة باسل فكشفتهم ... بالحق إذ يهوون أخول أخولا

---

(١) انظر الإصابة (٤ / ٣٧٠)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٧١٧٢). قال ابن حجر: ولعلها- أي الرابعة- امرأة عقيل بن أبي طالب، واسماها فاطمة بنت شيبة.

وعللت سيفك بالدماء ولم تكن لـتـرده حـران حـتـى يـنـهـلا[١]

الحماة الطيبة

ولما تزوج علي بن أبي طالب رضي الله عنه فاطمة بنت رسول الله ﷺ كانت فاطمة بنت أسد مثالاً عظيمًا للحماة الطيبة والأم الرحيمة فكانت تحب بنت رسول الله ﷺ حبًّا شديدًا وكانت تتعاون معها في أعمال البيت.

قال علي : رضي الله عنه قلت لأمي فاطمة بنت أسد: اكفي فاطمة بنت رسول الله ﷺ سقاية الماء والذهاب في الحاجة وتكفيك خدمة الداخل الطحن والعجن[٢].

وحان وقت الرحيل

وظلت فاطمة رضي الله عنها تعيش في ظل الإيمان والتوحيد عابدة صائمة قائمة إلى أن جاء اليوم الذي نامت فيه على فراش الموت لتلقى ربها عز وجل فيكافئها عن صنيعها مع الحبيب ﷺ.

وماتت رضي الله عنها ودُفنت بالمدينة المنورة وأكرمها الله عز وجل بأن نزل الحبيب ﷺ في قبرها ليدفنها.

ذكر السمهودي أن النبي ﷺ، لم ينزل في قبر أحد قط إلا خمسة قبور، ثلاث نسوة ورجلين، منها قبر خديجة بنت خويلد رضي الله عنها بمكة، وأربع بالمدينة، قبر ابن خديجة كان في حجر النبي ﷺ وتربيته، وقبر عبد الله المزني الذي يقال له ذو البجادين، وقبر (أم رومان) أم عائشة بنت أبي بكر الصدّيق، وقبر فاطمة بنت أسد[٣] رضي الله عنهم جميعًا.

هذا هو الوفاء .... وتلك هي الكرامة

وها هو الحبيب ﷺ صاحب القلب الوفي لم ينس أبدًا هذه المرأة الصالحة التي

(١) البداية والنهاية / للحافظ ابن كثير (٧/ ٣٤٩).
(٢) قال الهيثمي في المجمع (١٥٣٩): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.
(٣) وفاء الوفا للسمهودي (٣/ ٨٩٧).

كانت له أمًّا بعد أمه فنزل في قبرها ليدفنها فكان في هذا كرامة لها - رضي الله عنها وأرضاها -.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما ماتت فاطمة بنت أسد بن هاشم أم علي، دخل عليها رسول الله ﷺ فجلس عند رأسها فقال: **«رحمك الله يا أمي، كنت بعد أمي تجوعين وتشبعيني، وتعرين وتكسيني، وتمنعين نفسك طيبا وتطعميني، تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة»**، ثم أمر أن تغسل ثلاثا، فلما بلغ الماء الذي فيه الكافور، سكبه رسول الله ﷺ بيده، ثم خلع رسول الله ﷺ قميصه فألبسها إياه وكفنها ببرد فوقه، ثم دعا رسول الله ﷺ أسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصاري وعمر بن الخطاب وغلاما أسود يحفرون، فحفروا قبرها، فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله ﷺ بيده، وأخرج ترابه بيده، فلما فرغ دخل رسول الله ﷺ فاضطجع فيه، فقال: **«الله الذي يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ولقنها حجتها، ووسع عليها مدخلها، بحق نبيك والأنبياء الذين قبلي فإنك، أرحم الراحمين»**، وكبَّر عليها أربعًا، وأدخلوها اللحد هو والعباس وأبو بكر الصديق رضي الله عنه»[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما ماتت فاطمة أم علي بن أبي طالب، خلع النبي ﷺ قميصه وألبسها إياه، واضطجع في قبرها، فلما سوى عليها التراب قال بعضهم: يا رسول الله، رأيناك صنعت شيئًا لم تصنعه بأحد!! فقال: **«ألبستها قميصي لتلبس من ثياب الجنة، واضطجعت معها في قبرها ليخفف عنها من ضغطة القبر إنها كانت من أحسن خلق الله إليَّ صنيعًا بعد أبي طالب»**[٢].

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

***

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٣٩٩): رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه: روح ابن الصلاح وثقه ابن حبان والحاكم وفيه ضعف وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) قال الهيثمي في المجمع (٥٤٠٠): رواه الطبراني في الأوسط وفيه: سعدان بن الوليد ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات.

أم سُليم رضي الله عنها

كان مهرها الإسلام

وها نحن على موعدٍ مع تلكم المرأة العاقلة التي جمع الله لها بين العلم والفقه والإخلاص والصفاء والكرم والشجاعة.. إنها المرأة التي دخل الإيمان قلبها التقي النقي الصافي من أول لحظة سمعت فيها كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ... إنها المرأة التي وقفت تدافع عن النبي ﷺ وتخوض غمار المعارك... إنها الخاشعة الصابرة الكريمة المحدِّثة كبيرة القدر والشأن... إنها التي رآها النبي ﷺ في الجنة. إنها أم سُليم رضي الله عنها تلكم المرأة التي قال عنها أبو نعيم: أم سُليم المستسلمة لحكم المحبوب الطاعنة بالخناجر في الوقائع والحروب.

بطاقة تعارف

وتعالوا بنا لنعرف من أم سُليم: هي أم سليم بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام ابن جندب الأنصارية، وهي أم أنس خادم رسول الله ﷺ اشتهرت بكنيتها، واختلف في اسمها فقيل سهلة وقيل رميلة وقيل رميصة وقيل مليكة وقيل الغميصاء أو الرميصاء.

هكذا كانت بدايتها

لما ظهرت تباشير الإسلام على أرض الجزيرة كانت أم سُليم رضي الله عنها من المسارعات إلى الدخول في الإسلام فلامس الإيمان شغاف قلبها وأحبت الإسلام حبًا شديدًا ملأ عليها قلبها وجوارحها.

وكان زوجها مالك بن النضر أبو أنس بن مالك غائبا فلما جاء وعلم بإسلامها غضب غضبًا شديدًا وطلب منها أن تترك دينها وتبقى على دين الآباء والأجداد فأبت بكل شدة أن تترك هذا الدين العظيم.

والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه

وجعلت تُلقِّن أنسًا (ابنها وهو أنس بن مالك ﷺ) قل: لا إله إلا الله، قل: أشهد أن محمدًا رسول الله، ففعل. . .، فيقول لها أبوه: لا تفسدي عليّ ابني فتقول: إني لا أُفسده.

ولما سمع مالك زوجته تردد بعزيمة أقوى من الصخر: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، خرج من البيت غاضبًا فلقيه عدوٌّ له فقتله.

ولما علمت أم سليم، بمقتل زوجها احتسبت وقالت: لا جرم، لا أفطم أنسًا حتى يدع الثدي، ولا أتزوج حتى يأمرني أنس.

هكذا يخرج من بيت أم سُليم ابنها أنس بن مالك الذي ملأ الكون كله بعطر حديث النبي ﷺ. . . وكل ذلك في ميزان حسناته وفي ميزان حسنات أمه التي كانت تربيه على الإيمان والتوحيد منذ نعومة أظفاره.

موعد مع السعادة

وعلى الرغم من أن (أنسًا) نشأ يتيمًا إلا أن أمه (أم سليم) كانت امرأة مؤمنة راجحة العقل لم يشعر معها لحظة واحدة بمرارة اليُتم.

وكانت (أم سُليم) تلقنه الشهادتين وتعلّمه، بل وتغرس في قلبه محبة الله ومحبة الرسول ﷺ قبل أن يراه، فأصبح (أنس) في أشد شوقه لرؤية الحبيب ﷺ، بل لقد تمنّى أن لو كان كبيرًا لسافر إليه ليراه ويلازمه.

وكان النبي ﷺ وأصحابه - رضي الله عنهم - في تلك الفترة يعانون في مكة من بطش كفار قريش الذين أخذوا يحاربون هذا الدين وأهله بكل قوة حتى خشي النبي ﷺ على أصحابه من أن يُفتنوا في دينهم فأذن لهم بالهجرة إلى المدينة المنورة.

وما هي إلا فترة يسيرة حتى أَذِن الله لرسوله ﷺ بالهجرة إلى المدينة.

وما إن علم (أنس) وكل من في (يثرب) - المدينة - هذه البشرى العظيمة حتى امتلأت قلوبهم فرحًا وسعادة وسرورًا بمقدم الحبيب ﷺ.

فكانوا يخرجون في كل يوم لاستقباله فإذا حان وقت الغروب كانوا يعودون والحزن يملأ قلوبهم.

وفي اليوم الموعود وصل إلى مسامعهم بأن الحبيب ﷺ على مشارف المدينة، فامتلأت شوارع المدينة كلها بالرجال والنساء والأطفال... الكل يريد أن يرى خير مخلوق عرفته البشرية كلها ﷺ.

فلو اجتمعت أعياد الكون كله في تلك اللحظة ما كانت تساوي جزءًا من ألف جزءٍ من فرحة المسلمين بقدوم المصطفى ﷺ (١).

فخر في الدنيا ... وشرف في الآخرة

وما إن استقر الحبيب ﷺ بالمدينة حتى جاءته (أم سُليم) ﵂ ومعها (أنس) ﵁ فقالت له: يا رسول الله ﷺ، هذا أُنيس ابني أتيتُك به يخدُمك، فادعُ الله له: فقال: «**اللهمَّ أكثِر مالَهُ وَوَلَده**». (قال أنس) فوالله إنَّ مالي لكثير، وإنَّ ولدي وولد ولدي يتعادُّون على نحوِ من مائةِ اليوم(٢).

وكان أنسٌ يقول: قدم رسولُ الله ﷺ المدينةَ وأنا ابنُ عشر، ومات وأنا ابنُ عشرين، وكُنَّ أُمهاتي يَحثُثْنَني على خدمةِ رسول الله ﷺ (٣).

وياله من فخرٍ أن يكون الإنسان خادمًا للحبيب ﷺ ليكون ملازمًا له يتعلم من أخلاقه وهديه وشمائله المباركة... فهذا والله هو فخر الدنيا وشرف الآخرة.

ولقد رأى (أنس) من أخلاق النبي ﷺ العذبة المباركة الكثير والكثير فكان يرجع ويحكي ذلك لأمه (أم سليم).

فعن أنس ﵁ أنه قال: «والله ! لقد خدمته تسع سنين ما علمته قال لشيء صنعته لَمَ فعلت كذا وكذا ؟ أو لشيء تركته هلا فعلت كذا وكذا» (٤).

وعنه ﵁ قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلقًا، فأرسلني يومًا لحاجةٍ، فقلت: والله لا أذهب وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ فخرجت حتى أمُرَّ

---

(١) أصحاب الرسول ﷺ/ للمصنف (١/ ٣٨٢ ، ٣٨٣) بتصرف.

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٨١) (١٤٣) فضائل الصحابة - باب من فضائل أنس بن مالك.

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٢٩) (١٢٥) وابن سعد (٧/ ٢٠).

(٤) أخرجه مسلم (٢٣٠٩) الفضائل - باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلقا.

على صبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي، قال: فنظرت إليه وهو يضحك. فقال: «**يا أنيس! أذهبت حيث أمرتك**» ؟ قال: قلت: نعم أنا أذهب يا رسول الله»(١).

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: «كان النبي ﷺ إذا استقبله الرجل فصافحه لا ينزع يده حتى يكون الرجل ينزع يده، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون الرجل هو يصرفه، ولم يُر مقدِّمًا ركبتيه بين يدي جليسٍ له»(٢).

وعن أنس ﷺ أيضًا قال: «كانت الأَمة من إماء المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلقُ به حيث شاءت»(٣).

حرصها على حفظ أسرار النبي ﷺ

وكانت ﷺ حريصة كل الحرص على أن يفعل أنس ﷺ كل ما يُرضي رسول الله ﷺ وأن يبتعد عن كل ما يُغضبه وبخاصة فيما يتعلق بأسراره ﷺ.

فعن ثابت عن أنس، قال: أتى عليَّ رسول الله ﷺ وأنا ألعبُ مع الغِلْمَانِ. قال: فسَلَّمَ علينا. فبعثني إلى حاجة. فأبطأتُ على أُمي. فلمَّا جئتُ قالت: ما حَبَسَك ؟ قُلتُ: بعثني رسول الله ﷺ لحاجةٍ. قالت: ما حاجتُهُ ؟ قلتُ: إنها سرٌّ. قالت: لا تُحدِّثنَّ بسرِّ رسول الله ﷺ أحدًا.

قال أنسٌ: والله لو حدَّثتُ به أحدًا لحدَّثتُكَ يا ثابتُ !(٤).

صلابة أم سُليم في دينها

وكانت ﷺ حريصة كل الحرص على أن تبادر إلى تنفيذ أوامر الحبيب ﷺ وعلى أن تجتنب كل نواهيه.

عن حفصة عن أم عطية قالت: بايعنا النبي ﷺ فقرأ علينا ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المُمتحنة: الآية ١٢] ونهانا عن النِّياحة فقبضت امرأة منا يَدَها فقالت: فلانة أسعدتني وأنا أريد

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣١٠) الفضائل - باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلقا.
(٢) رواه أبو داود (٤٧٩٤) وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٠٠٩).
(٣) أخرجه البخاري (٦٠٧٢) في الأدب - باب الكبر.
(٤) أخرجه مسلم (٢٤٨٢) (١٤٥) فضائل الصحابة.

أن أجزيها فلم يقُل شيئًا، فذهبت ثم رجعت فما وفَّت امرأة إلا أم سليم وأمُّ العلاء وابنة أبي سَبرة امرأة معاذ أو ابنة أبي سَبرة وامرأة معاذ[١].

منزلتها ومكانتها عند رسول الله ﷺ

وكان لأم سُليم منزلة عالية ومكانة سامقة في قلب الحبيب ﷺ فكان يزورها كثيرًا ويدعو لها ولابنها أنس رضي الله عنهما.

عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ إذا مرَّ بجنبات أم سليم دخل فسلَّم عليها[٢].

وعن أنس قال: كان النبيُّ ﷺ لا يدخل على أحدٍ من النِّساء إلا على أزواجه إلا أُم سليم فإنه كان يدخل عليها فقيل له في ذلك فقال: **«إني أَرْحَمُهاَ قُتلَ أَخُوها مَعي»**[٣][٤].

ومن الجدير بالذكر أنَّ أخاها الذي عناه رسول الله ﷺ هو حَرام بنُ مِلْحانَ، شهد بدْرًا وأُحُدًا، وقُتِلَ شهيدًا يوم بئر معونة سنة أربع منَ الهجرة، وهو قائل العبارة المشهورة المباركةِ: فُزْتُ وربِّ الكعبة. وذلك لما طُعِنْ مِنْ ورائِه، فطلعتِ الحربةُ مِنْ صدره - رضي الله عنه وأرضاه -[٥].

وعن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلقًا، وكان لي أخ يقال له: أبو عمير - قال: أحسبه فطِيمًا - وكان إذا جاء قال: **«يا أبا عمير، ما فعل النُّغير؟»** لنُغَر كان يلعب به، فربما حضر الصلاة وهو في بيتنا، فيأمر بالبساط الذي تحته فيكنس وينضح، ثم يقوم ونقوم خلفه فيصلي بنا»[٦].

وعن أنس أن النبي ﷺ دخل على أُم سُليم، فأتته بتمرٍ وسمنٍ، فقال: **«أعيدوا تمركم**

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢١٥) ومسلم وأحمد.
(٢) رواه النسائي في فضائل الصحابة (٢٨٠) والكبرى (١٠٣/٥) وإسناده صحيح.
(٣) أخرجه مسلم (٢٤٥٥) عن أنس رضي الله عنه.
(٤) قال الإمام النووي: قد قدمنا في كتاب الجهاد عند ذكر أم حرام أخت أم سليم أنهما كانتا خالتين لرسول الله ﷺ محرمين إما من الرضاع وإما من النسب فتحل له الخلوة بهما وكان يدخل عليهما خاصة لا يدخل على غيرهما من النساء إلا أزواجه. قال العلماء: ففيه جواز دخول المحرم على محرمه وفيه إشارة إلى منع دخول الرجل إلى الأجنبية وإن كان صالحا [مسلم بشرح النووي (١٥/١٦)].
(٥) سير أعلام النبلاء (٣٠٧/٢) والاستبصار (ص ٣٦).
(٦) أخرجه البخاري (٦٢٠٣) الأدب، ومسلم (٢١٥٠) الأدب.

في وعائكم، وسمنكم في سقائكم، فإني صائم» ثم قام في ناحية البيت، فصلَّى بنا صلاةً غير مكتوبة. فدعا لأُمِّ سُليم وأهل بيتها، فقالت: يا رسول الله! إنَّ لي خُويصة. قال: «وما هي؟» قالت: خادمُك أنس. فما ترك خيرَ آخرةٍ ولا دنيا إلا دعا لي به، ثم قال: «اللهم ارزُقهُ مالاً وولدًا، وبارك له فيه». قال: فإني لمن أكثر الأنصار مالاً، وحدثتني أمينةُ ابنتي: أنه دُفن من صُلبي إلى مَقْدَم (الحجَّاج) البصرة تسعةٌ وعشرون ومائة[١].

كان مهرها الإسلام

ومضى الناس يتحدثون عن أنس بن مالك وأمه بإعجاب وتقدير، ويسمع أبو طلحة بالخبر فيهفو قلبه بالحب والإعجاب، فيتقدم للزواج من أم سليم، وعرض عليها مهرًا غاليًا. إلا أن المفاجأة أذهلته وعقلت لسانه عندما رفضت أم سليم كل ذلك بعزة وكبرياء وهي تقول:

إنه لا ينبغي أن أتزوج مشركًا. أما تعلم يا أبا طلحة أن آلهتكم ينحتها عبد آل فلان. وأنكم لو أشعلتم فيها نارًا لاحترقت[٢].

فأحس أبو طلحة بضيق شديد فانصرف وهو لا يكاد يصدق ما يرى ويسمع، ولكن حبه الصادق جعله يعود في اليوم التالي يمنيها بمهر أكبر وعيشة رغدة عساها تلين وتقبل.

ولكن أم سليم الداعية اللبيبة الذكية - التي ترى الدنيا تتراقص أمام عينيها حيث المال والجاه والشباب - تشعر بأن قلعة الإسلام في قلبها أقوى من كل نعيم الدنيا، فقالت بأدب جم: (ما مثلك يُرد يا أبا طلحة، ولكنك امرؤ كافر وأنا امرأة مسلمة لا تصلح لي أن أتزوجك فقال: ما ذاك دهرك. قالت: وما دهري؟ قال: الصفراء والبيضاء - أي الذهب والفضة - قالت: فإني لا أريد صفراء ولا بيضاء أريد منك الإسلام. قال: فمن لي بذلك؟ قالت: لك بذلك رسول الله ﷺ، فانطلق يريد النبي وهو جالس في أصحابه، فلما رآه قال: «جاءكم أبو طلحة غرة الإسلام في عينيه» فجاء فأخبر النبي بما قالت أم سليم فتزوجها على ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٩٨، ١٩٩) الصوم/ باب: من زار قومًا فلم يفطر عندهم.
(٢) انظر الطبقات لابن سعد (٨/ ٣١٢) ونحوه الحافظ ابن حجر في الإصابة (٨/ ٢٤٣).
وكذا في الحلية (٢/ ٥٩)، وإسناده صحيح

وفي رواية أخرى: (والله ما مثلك يا أبا طلحة يُرد. ولكنك رجل كافر وأنا امرأة مسلمة ولا يحل لي أن أتزوجك، فإن تُسلم فذاك مهري ولا أسألك غيره)(١).

لقد هزت هذه الكلمات أعماق أبي طلحة وملأت كيانه، فقد تمكنت أم سليم من قلبه تمامًا، فليست هي بالمرأة اللعوب التي تنهار أمام المغريات، إنها المرأة العاقلة التي تفرض وجودها، وهل يجد خيرًا منها تكون زوجًا له، وأمًّا لأولاده؟؟!.

وما شعر إلا ولسانه يردد (أنا على مثل ما أنت عليه، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله).

فالتفتت أم سليم إلى ابنها أنس وهي تقول بسعادة بالغة أن هدى الله على يديها أبا طلحة: قم يا أنس فزوج أبا طلحة فزوجها وكان صداقها الإسلام.

وبذلك قال ثابت راوي الحديث عن أنس: (فما سمعت بامرأة قط كانت أكرم مهرًا من أم سليم كان مهرها الإسلام)(٢).

وكانت أم سليم مثال الزوجة الصالحة التي تقوم بحقوق الزوج أحسن قيام. كما كانت مثال الأم الرؤوم والمربية الفاضلة الداعية.

وهكذا دخل أبو طلحة الإسلام على يد زوجته الفاضلة أم سليم وأصبح ينهل من نبع النبوة حتى غدا كفؤًا كريمًا لأم سليم(٣).

ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة

قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: الآية ٩].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: «أتى رجلٌ رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابني الجَهدُ. فأرسلَ إلى نسائه فلم يجدْ عندهنَّ شيئا، فقال رسولُ الله ﷺ: «**ألا رجلٌ يُضيفهُ الليلة يرحمهُ الله ؟**» فقام رجلٌ من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله.. فذهب إلى أهله فقال لامرأتِه: ضيف رسول الله ﷺ لا تَدَّخريه شيئا. فقالت: والله ما عندي إلا قُوتُ الصِّبْية.

(١) رواه النسائي (٦/ ١١٤) وإسناده صحيح - وله طرق متعددة.. انظر الإصابة (٨/ ٢٤٣) والحلية (٢/ ٥٩، ٦٠).

(٢) رواه النسائي في السنن (٦/ ١١٤) بإسناد صحيح.

(٣) «إنها الجنة يا أختاه» / للمصنف (ص ٣٠).

قال: فإذا أراد الصِّبية العَشاء فَنوِّميهم، وتعالَيْ فأطفئي السِّراجَ ونَطْوي بُطونَنا الليلةَ. ففَعَلتْ. ثم غدا الرجلُ على رسول الله ﷺ فقال: لقد عَجِبَ الله عز وجل - أو ضحِكَ - من فلانٍ وفلانةَ. فأنزَل الله عز وجل ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: الآية ٩] (١)(٢).

وهذا الرجل هو أبو طلحة وزوجته هي أم سُليم رضي الله عنهما.

يا له من بيتٍ مباركٍ

وكان بيت أبي طلحة وأم سليم رضي الله عنهما بيتًا مباركًا فتعالوا بنا لنرى كيف كانت البركة تملأ جدران هذا البيت المبارك؟.

عن أبي طلحة قال: دخلت المسجد فعرفت في وجه رسول الله ﷺ الجوعَ، فخرجت حتى أتيت أم سليم - وهي أم أنس بن مالك - كانت تحت مالك أبي أنس ابن مالك فقلت: يا أم سليم، إني عرفت في وجه رسول الله ﷺ الجُوع، فهل عندك من شيء ؟ فقالت: عندي شيء وأشارت بكفِّها، فقلت لها: اصنعي وانْعِمِي، فأرسلت أَنَسًا إلى رسول الله ﷺ فقلت: سارِّه في أذنه وادعهُ - أي كلِّمه سرًّا - فلما أقبل أنس، قال رسول الله ﷺ: **«هَذَا رَجُلٌ قَدْ جَاءَ بِخَيْرٍ»** قال رسول الله ﷺ: **«أَرْسَلَكَ أَبُوكَ يَدْعُونَا يَابُنَيَّ»** ؟

قال: فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: **«اذْهَبُوا بِسْمِ الله»**،

قال: فأدبر أنسُ يشتدُّ حتى أتى أبا طلحة فقال: هذا رسول الله ﷺ قد أتاك في الناس.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٨٩) كتاب التفسير/ باب: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾.

(٢) قال الحافظ ابن حجر: تقدم شرح هذا الحديث في مناقب الأنصار أنه (أبو طلحة) [الفتح (٨/ ٥٠٠)]. وقال في موضع آخر: والصواب الذي يتعين الجزم به في حديث أبي هريرة ما وقع عند مسلم من طريق محمد بن فضيل بن غزوان عن أبيه بإسناد البخاري «فقام رجل من الأنصار يقال له أبو طلحة» وبذلك جزم الخطيب لكنه قال: أظنه غير أبي طلحة زيد بن سهل المشهور وكأنه استبعد ذلك من وجهين: أحدهما أن أبا طلحة زيد بن سهل مشهور لا يحسن أن يقال فيه «فقام رجل يقال له أبو طلحة» والثاني أن سياق القصة يشعر بأنه لم يكن عنده ما يتعشى به هو وأهله حتى احتاج إلى إطفاء المصباح، وأبو طلحة زيد ابن سهل كان أكثر أنصاري بالمدينة مالا فيبعد أن يكون بتلك الصفة من التقلل، ويمكن الجواب عن الاستبعادين، والله أعلم . . . قوله (إلا قوت صبياني) يحتمل أن يكون هو وامرأته تعشيا وكان صبيانهم حينئذ في شغلهم أو نياما فأخروا لهم ما يكفيهم، أو نسبوا العشاء إلى الصبية لأنهم إليه أشد طلبا، وهذا هو المعتمد لقوله في رواية أبي أسامة «ونطوي بطوننا الليلة» وفي آخر هذه الرواية أيضًا «فأصبحنا طاويين»، وقد وقع في رواية وكيع عند مسلم «فلم يكن عنده إلا قوته وقوت صبيانه» [فتح الباري (٧/ ١٥٠)].

قال: فخرجت حتى لقيت رسول الله ﷺ عند الباب على مستراح الدَّرَجَةِ، فقلت: يا رسول الله، ماذا صنعت بنا ؟ إنما عرفت في وجهك الجوع، فصنعنا لك شيئًا تأكله، قال: «**ادْخُلْ وَأَبْشِرْ**».

قال: فأخذها رسول الله ﷺ فجمعها في الصَّحْفَة بيده، ثم أصلحها، فقال: «**هَلْ مِنْ**»؟ كأنه يعني: الأُدْمَ، قال: فأتوه بِعُكَّتِهِمْ فيها شيء، أو ليس فيها شيء، فقال بها رسول الله ﷺ بيده: فأسكب منها السمن، ثم قال: «**أَدْخِلْ عَلَيَّ عَشَرَةً عَشَرَةً**» فأكلوا كلُّهم وشَبِعوا، فقال رسول الله ﷺ للفضل الذي فَضُلَ: «**كُلُوا أَنْتُم وَعِيَالُكُمْ**» فأكلوا وشبعوا[(١)].

ولم تتوقف أمُّ سليم رضي الله عنها عن الكرم والجود، ولم ينقطعْ سخاؤها، فعندما أعرس رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش أم المؤمنين، صنعتْ له طعامًا من تَمْرٍ وسَمْن. وبعثتْ به مع أنس ابنها إلى رسول الله ﷺ، وأكل منه عدد كبير من النَّاس أيضًا[(٢)].

كانت تعطر العطر بعرق رسول الله ﷺ

لقد امتزجت دماؤها بحب رسول الله ﷺ حتى كانت تضع عرق النبي ﷺ على العطر رجاء بركته ﷺ.

عن أنس رضي الله عنه قال: دخل علينا النبي ﷺ فقال[(٣)] عندنا فعرق، وجاءت أمي بقارورة فجعلت تسلُتُ العرق فيها، فاستيقظ النبي ﷺ فقال: «**يا أمّ سُليم ما هذا تصنعين**» ؟ قالت: هذا عرقُكَ، نجعله في طيبنا وهو من أطيب الطيب[(٤)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يدخل بيت أُم سُليم فينام على فراشها، وليست فيه. قال: فجاء ذات يوم فنام على فراشها فأُتيت، فقيل لها: هذا النبي ﷺ نائم في بيتك على فراشك، قال: فجاءت وقد عرق واستنقع عرقه على قطعة أديم على الفراش، ففتحت عتيدتها[(٥)] فجعلت تنشف ذلك العرق فتعصره في قواريرها، ففزع

---

(١) قال الهيثمي في «المجمع» (١٤١١٩): رواه أبو يعلى والطبراني وزاد: وهم زهاء مائة ورجالهما رجال الصحيح.

(٢) حياة الصحابة (٢/ ٦٦١).

(٣) قال: أي نام القيلولة.

(٤) أخرجه مسلم/ كتاب الفضائل - باب: طيب عرق النبي ﷺ.

(٥) عتيدتها: هي كالصندوق الصغير تجعل المرأة فيه ما يعز من متاعها.

النبي ﷺ [١]، فقال: «**ما تصنعين يا أم سُليم**» ؟ فقالت: يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا. قال :«**أصبت**»[٢].

كانت تتبرك بشعر النبي ﷺ

وكانت أمُّ سُليم - عليها رضوان الله - تتبَّركُ بشعْرِ النَّبيِ الشَّريف، وتحتفظُ به في مكان أمين مِنْ متاعها، فعن أنس رضي الله عنه أنَّ النَّبي ﷺ لما أراد أَنْ يحلقَ رأسه بِمنى، أخذَ أبو طلحة شِقَّ شعره، فجاء به إلى أمِّ سُليم؛ فكانت تجعله في سُكتها[٣].

أمَّا موضع فَم النَّبي الشَّريف فَلَهُ مكان لا يصلُ إليه أحدٌ، ذكر أنس رضي الله عنه أنَّ النَّبي ﷺ دخل على أمِّ سُليم، وقِرْبةٌ معلقة فشرب منها قائمًا، فقامت إلى فِيِّ السِّقاء وأمسكتْهُ عندها[٤].

وذكر النَّووي رحمه الله أنَّ أمَّ سُليم إنَّما قطعتْ فَمَ القِربة؛ لتحفظَ موضعَ فَمِ الرّسولِ الكريم ﷺ، وتتبَّرك به وتصونه عن الابتذال.

صبر واحتساب

وعاشت أم سليم مع أبي طلحة رضي الله عنهما في سعادة لا يمكن وصفها وأنجبت له ابنًا ملأ عليهما حياتهما (وسماه أبا عمير) وأصبح أبو عمير طفلاً جميلاً يسعى في البيت وينشر الفرحة على الأبوين... واتخذ طائرًا له يداعبه ويلاعبه حتى كان رسول الله ﷺ يدخل عليه ويقول له: «**يا أبا عُمير ما فعل النُغير**».

وشاء الله أن يمتحنهما بهذا الطفل الجميل، فمرض الولد مرضًا شديدًا، وذات مرة خرج أبو طلحة فمات الولد فتلقت (أم سليم) موت ابنها بصبرٍ وثبات ورضاءٍ بقضاء الله فقالت: الحمد لله إنا لله وإنا إليه راجعون.

وهنا أترك الحديث لأنس بن مالك رضي الله عنه ليقص علينا القصة كاملة.

فعن أنس رضي الله عنه قال: **مات ابن لأبي طلحة من أم سليم فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا**

---

(١) أي استيقظ من نومه.
(٢) أخرجه مسلم/ كتاب الفضائل - باب: التبرك من عرق النبي ﷺ.
(٣) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٠٨).
(٤) طبقات ابن سعد (٨/ ٤٢٨).

طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه. قال: فجاء فقربت إليه عشاء فأكل وشرب، فقال: ثم تصنَّعت له أحسن ما كان تصنع قبل ذلك فوقع بها. فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها، قالت: يا أبا طلحة أرأيت لو أن قومًا أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم ؟ قال: لا. قالت: فاحتسب ابنك. قال: فغضب وقال: تركتني حتى تلطخت ثم أخبرتني بابني، فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان فقال رسول الله ﷺ: «**بارك الله لكما في غابر ليلتكما**» قال: فحملت. قال: فكان رسول الله ﷺ في سفر وهي معه، وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفر لا يطرقها طروقًا[١] فدنوا من المدينة فضربها المخاض فاحتبس عليها أبو طلحة، وانطلق رسول الله ﷺ قال: يقول أبو طلحة: إنك لتعلم يارب إنه يعجبني أن أخرج مع رسولك إذا خرج وأدخل معه إذا دخل وقد احتبست بما ترى قال: تقول أم سليم: يا أبا طلحة ما أجد الذي كنت أجد، انطلق، فانطلقنا قال: وضربها المخاض حين قدما فولدت غلامًا فقالت لي أمي: يا أنس لا يُرضعه أحد حتى تغدو به على رسول الله ﷺ.

فلما أصبح احتملته فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ قال: فصادفته ومعه ميسم. فلما رآني قال: «**لعل أم سليم ولدت**» قلت: نعم فوضع الميسم قال: وجئت به فوضعته في حجره، ودعا رسول الله ﷺ بعجوة من عجوة المدينة فلاكها في فيه - فمه - حتى ذابت ثم قذفها في (في) الصبي، فجعل الصبي يتلمظها قال: فقال رسول الله ﷺ: «**انظروا إلى حب الأنصار التمر**» قال: فمسح وجهه وسماه عبد الله[٢].

قال رجل من الأنصار: فرأيت لهما تسعة أولاد كلهم قد حفظوا القرآن[٣]. فيا لها من ذرية مباركة، ويا له من أجرٍ عظيم في الدنيا لمن صبر على البلاء - هذا مع الخير الذي ينتظره في جنة الرحمن التي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر -[٤].

---

(١) يعني لا يدخل على أهل بيته في الليل إلا بعد أن يخبرهم فينزل أولًا على المسجد فيصلي ركعتين. وهذا من أدبه ﷺ حتى تتجهز المرأة لزوجها فلا يرى منها ما يكره.

(٢) أخرجه مسلم (٢١٤٤) عن أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٣/ ٢٦٩) الجنائز - ومسلم (١٤/ ١٢٤-١٢٥).

(٤) أصحاب الرسول ﷺ/ للمصنف (١/ ٤٥٨-٤٥٩).

جهادها في سبيل الله تعالى

وعلى الرغم من تلك المكارم التي تحلَّت بها أم سُليم ﵂ إلا أنها كان لها دورٌ عظيم في الجهاد في سبيل الله .

عن أنس بن مالك: كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا فيسقين الماء ويداوين الجرحى(١) .

* وفي غزوة أُحد كان لها دورٌ عظيم هي وزوجها.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالك. قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ انْهَزَمَ نَاسٌ مِنَ النَّاسِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. وَأَبُو طَلْحَةَ بَيْنَ يَدَي النَّبي ﷺ مُجَوِّبٌ عَلَيْهِ بِحَجَفةٍ. قال: وَكَانَ أَبُو طَلْحَة رَجُلاً رَامِيًا شَدِيدَ النَّزْع. وكسر يَوْمَئِذٍ قَوْسَيْن أَوْ ثَلاثًا. قال: فَكَانَ الرَّجُلُ يَمُرُّ مَعَهُ الْجَعْبَةُ مِنَ النَّبْل. فَيَقُولُ: «**انْثُرْهَا لأَبِي طَلْحَة**». قَالَ: وَيُشْرفُ نَبِيُّ الله ﷺ يَنْظُرُ إلى الْقَومِ. فَيَقُولُ أَبُو طَلْحَة: يَا نَبِيَّ الله! بأَبِي أَنْتَ وأُمِّي! لا تُشْرفْ لا يصيبك سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ الْقَوْم. نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ. قَالَ: وَلَقَدْ رَأَيْتُ عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ وَأُمَّ سُلَيْم وَإِنَّهُمَا لَمشَمِّرَتَان. أرى خَدَمَ سُوقِهِمَا. تَنْقُلانِ الْقِربَ عَلَى متونهما. ثُمَّ تُفْرِغَانِهِ في أَفْوَاهِهِمْ. ثُمَّ تَرْجِعَانِ فتملآنها. ثُمَّ تَجِيئَانِ تُفْرِغَانِهِ في أَفْوَاه الْقَومْ. وَلَقَدْ وَقَعَ السَّيْفُ مِنْ يَدَيْ أَبِي طلْحَة إمَّا مَرَّتَيْنِ وَإِمَّا ثَلاثًا، مِنَ النُّعَاسِ(٢) .

* وفي غزوة حُنين كان لها دورٌ عظيم أيضًا:

عن أنس أن أم سليم اتخذت يوم حنين خِنْجرًا فكان معها فرآها أبو طلحة فقال: يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر فقال لها رسول الله ﷺ: «**ما هذا الخنجر**» ؟ قالت: «اتخذته إن دنا مني أحدٌ من المشركين بَقَرْتُ به بَطْنَهُ فجعل رسول الله ﷺ يضحك قالت: يا رسول الله اقْتُلْ مَنْ بَعْدَنا من الطُّلقاء(٣) انهزموا بك(٤) فقال رسول الله ﷺ: «**يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن**»(٥) .

---

(١) أخرجه مسلم (١٨١٠) كتاب الجهاد والسير.
(٢) أخرجه مسلم (١٨١١) (١٣٦) كتاب الجهاد والسير.
(٣) هم الذين أسلموا من أهل مكة يوم الفتح سُموا بذاك لأن النبي ﷺ منَّ عليهم وأطلقهم وكان في إسلامهم ضعف فاعتقدت أم سليم أنهم منافقون وأنهم استحقوا القتل بانهزامهم وغيره.
(٤) انهزموا بك. . . الباء هنا بمعنى عن، أي انهزموا عنك على حد قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي عنه وربما تكون للسببية أي انهزموا بسببك لنفاقهم (التعليق على مسلم).
(٥) أخرجه مسلم (١٨٠٩) وابن سعد في الطبقات (٨/ ٣١١).

بشارتها بالجنة

ويا لها من لحظة يعجز القلم عن وصفها عندما تأتي البشارة بالجنة من فم الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ. . . فلقد رآها النبي ﷺ في الجنة - في ليلة الإسراء والمعراج.

عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «**أُريتُ الجنَّةَ فرأيت امرأة أبي طلحة ثم سمعت خَشْخَشَةً أمامي فإذا بلال**»(١).

وعن أنس عن النبي ﷺ قال: «**دخلتُ الجنَّة فسمعتُ خَشْفَةً فقلتُ: من هذا؟**» قالوا: هذه الغميصاء بنتُ ملحان أُمُّ أَنسِ بن مالك(٢).

وحان وقت الرحيل

وأخيرًا بعد ما تعايشنا بقلوبنا مع سيرة هذه الصحابية الجليلة المباركة التي قدَّمت الكثير والكثير لخدمة هذا الدين. . . فقد آن لنا أن نودِّع أم سليم ﵂ التي سطَّرت على جبين التاريخ سطورًا من النور بسيرتها العطرة التي ملأت أرجاء الكون. فسلامٌ على الغميصاء التي ستظل قصتها نورًا على الدرب تضيء لأخواتنا وبناتنا طريقهم إلى الله ﷻ.

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

* * *

(١) أخرجه مسلم (٢٤٥٧) وأحمد (٦/ ٣٨٩-٣٩٠) وأبو يعلي (٤/ ٥١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٥٦) وأحمد (٣/ ٢٣٩-٢٦٨) وأبو يعلي (٦/ ٢٢٣).

أم هشام بنت حارثة رضي الله عنها

فازت بالجنة والرضوان في بيعة الرضوان

لقد نشأت هذه الصحابية الجليلة في بيتٍ مبارك تفيض منه البركات ويتحلى أهله باللين والرحمة والصدق وبكل المكرمات.

لقد رأت والدها وهو يفيض بحنانه على أمه - وهي جدتها - ويبرها أعظم البر فعلمت حق الوالدين منذ صغرها وعرفت قبل ذلك حق ربها عز وجل فقد كانت الأسرة كلها قد أسلمت لله واتبعت رسول الله ﷺ.

في رحاب المكارم

وقبل أن نتعايش بقلوبنا مع قصتها المباركة تعالوا بنا لنُلقي الضوء على أسرتها الكريمة المباركة.

أما والدة أم هشام فهي أم خالد بنت خالد بن يعيش الأنصارية من بني مالك، أسلمت وبايعت النبي ﷺ، وكانت من فواضل النساء، تزوجها حارثة بن النعمان النجاري فولدت له عبد الله، وعبد الرحمن وسَوْدة وعمرة وأم هشام(١) بطلة ترجمتنا اليوم، كما كانت لحارثة ابنتان أخريان هما أم كلثوم وأمة الله(٢).

كانت هذه الأسرة المباركة مسلمة كلها، وكانت أم هشام وأخواتها من المبايعات؛ ذكر ابن سعد أن سودة وعمرة وأم هشام وأم كلثوم وأمة الله قد أسلمن وبايعن رسول الله ﷺ.

وأما أبوها فهو حارثة بن النعمان رضي الله عنه كان من فضلاء الصحابة الأخيار الأطهار.. فهو من السابقين إلى الإسلام وكان يقدم مساكنه للحبيب ﷺ رغبة فيما عند الله فقد كانت لحارثة - رضوان الله عليه - منازل قرب النبي الكريم في المدينة المنورة، وكان كلما أحدث رسول الله أهلاً تحول له حارثة عن منزلٍ بعد منزل.

(١) أسد الغابة - ترجمة رقم (٧٤٢٤).
(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ٤٨٧).

وذكر ياقوت الحموي كرم سيدنا حارثة، ووهْبِهِ منازله للنبي الكريم فقال: وكان أول من وهب له خططه ومنازله حارثة بن النعمان[١].

* ولقد سمع النبي ﷺ صوت حارثة في الجنة:

عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**نمت فرأيتني في الجنة فسمعت صوت قارئ يقرأ، فقلت: من هذا ؟ قالوا: هذا حارثة بن النعمان**»، فقال لها رسول الله ﷺ «**كذاك البر كذاك البر**». وكان أبر الناس بأمه[٢].

وقالت عائشة : ﵂ كان رجلان من أصحاب رسول الله ﷺ أبرَّ من كان في هذه الأمة بأمهما: عثمان بن عفان، وحارثة بن النعمان ﵄ أما عثمان: فإنه قال :ما قدرتُ أتأمل وجه أمي منذ أسلمتُ. وأما حارثة: فكان يُطعمها بيده، ولم يستفهمها كلامًا قط تأمر به، حتى يسأل مَن عندها بعد أن يخرج: ماذا قالت أمي؟»[٣].

* بل لقد ردّ جبريل (عليه السلام) السلام على حارثة:

عن حارثة بن النعمان قال: مررت على رسول الله ﷺ ومعه جبريل ﵇ جالس في المقاعد فسلمت عليه ثم أجزت، فلما رجعت وانصرف النبي ﷺ قال: «**هل رأيت الذي كان معي ؟**» قلت: نعم. قال: «**فإنه جبريل وقد رد عليك السلام**»[٤].

* وتكفل الله برزق حارثة في الجنة:

عن حارثة بن النعمان أنه قال: رأيت جبريل من الدهر مرتين: يوم الصَّوْرَتين[٥] حين خرج رسول الله إلى بني قريظة، مرَّ بنا في صورة دحية، فأمرنا بلبس السلاح؛ ويوم موضع الجنائز حين رجعنا من حُنين، مررت وهو يكلم النبي ﷺ، فلم أُسلِّم. فقال جبريل: من هذا يا محمد ؟ قال: حارثة بن النعمان: فقال: أما إنه من المائة الصابرة يوم

(١) معجم البلدان (٥/ ٨٦) مادة المدينة.

(٢) قال الأرناؤوط: رواه أحمد (٦/ ١٥١) وأبو يعلي (٧/ ٣٩٩) والحاكم (٣/ ٢٠٨) بسندٍ صحيح.

(٣) التبصرة (١/ ١٨٨).

(٤) رواه أحمد (٥/ ٤٣٣) بسندٍ صحيح - وذكره الحافظ في الإصابة (١/ ٢٩٨). وقال: إسناده صحيح.

(٥) الصوران: موضع بالمدينة بالبقيع. وفي سيرة ابن هشام (٢/ ٢٣٤): ومر رسول الله ﷺ بنفر من أصحابه بالصورين قبل أن يصل إلى بني قريظة.

حنين الذين تكفل الله بأرزاقهم في الجنة، ولو سَلَّم لرددنا عليه[١].

ففي رحاب تلك الأسرة المباركة نشأت أم هشام بنت حارثة نشأة كريمة فكانت تتعايش بقلبها مع كتاب الله وسُنة رسول الله ﷺ.

والآن تعالوا بنا لنعرف كيف أسلمت تلك الأسرة المباركة وكيف أعلى الله قدرهم في الدنيا والآخرة؟

هكذا دخل الإيمان بيت حارثة بن النعمان

وها هو الإيمان يدخل بيت حارثة بن النعمان ليُسلم هو وأسرته كلها للرحيم الرحمن . . . فتعالوا بنا لنتعايش مع قصة إسلام تلك الأسرة المباركة.

فإنه في موسم من مواسم الحج لقي رسول الله ﷺ نفرًا من الخزرج اليثربيين، وعرض عليهم الإسلام، وقد تعرَّف على هويتهم، وتأكد أنهم من موالي اليهود، ولم يستغرب هؤلاء النفر الحديث عن الله وعن الرسل، والكتب المنزلة، فهذا الحديث قد طرق مسامعهم من قبل، إذ سمعوه من اليهود (جيرانهم) أكثر من مرة، ولما دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام وإلى الإيمان بالله - تعالى - وتلا عليهم القرآن الكريم وجد الإيمان إلى قلوبهم سبيلاً، فأعلنوا إسلامهم، وواعدوا الرسول الكريم ﷺ أن يدعوا إلى الله، وإلى الإسلام في بلادهم يثرب.

انطلق الخزرجيون الستة نحو بلدهم، ووفَّوا بوعدهم لرسول الله ﷺ ونشروا الإسلام بين صفوف الأوس والخزرج حتى فشا الإسلام في المدينة، ولما كان العام المقبل جاء اثنا عشر رجلاً منهم، وبايعوا رسول الله ﷺ عند العقبة، ولما انصرف القوم بعث رسول الله ﷺ أحد أصحابه النُجباء، وهو مصعب بن عمير رضي الله عنه وأمره أن يُقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين.

فقام مصعب بن عمير بمهمته خير قيام، واستطاع بما آتاه الله من حِكمة وأَناة أن يستميل قلوب أهل المدينة من أوس وخزرج، وقد وصلت أنباء الدعوة إلى الإسلام إلى سمع **«حارثة بن النعمان»** فانطلق إلى الداعية المكي، وأعلن إسلامه، واستطار قلبه فرحًا

(١) ذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٣١٤) ونسبه للطبراني والبزار وقال: إسناده حسن.

حينما أسلمت أمه «جعدة بنت عبيد»؛ لأنه كان بارًا بها أشد البر، وأسلمت كذلك أسرته كلها(١).

وهكذا أسلمت أم هشام بنت حارثة مع أبيها وأسرته المباركة وعاشت الأسرة في رحاب الإيمان وقد امتلأت قلوبهم سعادة لا توازيها الدنيا بكل ما فيها.

في جوار الحبيب ﷺ

ولما اشتد إيذاء المشركين لأصحاب الحبيب ﷺ فأذن لهم بالهجرة إلى المدينة المنورة فنزلوا في رحاب الأنصار ولما أذن الله لرسوله ﷺ بالهجرة إلى (يثرب) المدينة المنورة قام الأنصار على قلب رجل واحد لاستقبال الحبيب ﷺ وصاحبه رضي الله عنه وقلوبهم قد امتلأت بالبهجة والسعادة والفرحة.

وكان من بين هؤلاء الذين خرجوا لاستقبال الحبيب ﷺ (حارثة بن النعمان) ومعه الأسرة الكريمة وعلى رأسهم ابنته (أم هشام).

وازدادت فرحة (حارثة) عندما رأى النبي ﷺ قد نزل في دار أبي أيوب الأنصاري، وذلك لأن حارثة كان من بني النجار فضمن بذلك أن يكون قريبًا من النبي ﷺ.

فكان (حارثة) يتردد كثيرًا على الحبيب ﷺ يتعلم على يديه ويقبس من هديه وأخلاقه السامية، فازداد حُبًّا للنبي ﷺ وكان الحبيب ﷺ يبادله الحب لما رأى عليه من نقاء القلب وصفاء السريرة وعلامات المروءة والصدق(٢).

هنيئًا لهم ... ثم هنيئًا لهم

وكان لهذا الجوار أثره الطيب في نفس الصحابية أم هشام التي رأت نور النبوة عن كَثب، إذ تأثرت بأخلاق المصطفى ﷺ، وبأخلاق زوجاته الطاهرات، وكان يُرى البشْرُ والسرور في وجه أم هشام، وخصوصًا عندما جعل بنو النجار يتناوبون في حمل الطعام إلى رسول الله ﷺ حين مقامه في منزل سيدنا أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قرابة تسعة

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص ٣٠٢).
(٢) أصحاب الرسول ﷺ/ للمصنف (١/ ٥٩٥).

أشهر(١)، بل كانت تزداد سرورًا حينما كانت ترى عواطف الإيثار والمؤانسة تملأ المدينة المنورة وترحب بالمهاجرين حيث حرص الأنصار على الحفاوة بالمهاجرين وبذلوا كل ما بوسعهم في إكرامهم واحترامهم.

في رحاب هذا الجوار المبارك كانت الأسرة الحارثية سعيدة بمشاركة رسول الله ﷺ في استخدام بعض المتاع، وتروي لنا هذه المشاركة ضيفتُنا الصحابية الجليلة أم هشام فتقول: لقد كان تَنُّورنا وتَنُّور رسول الله ﷺ واحدًا. سنتين أو سنة وبعض سنة. وما أخذت ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ إلا على لسان رسول الله ﷺ يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس(٢).

وفي رواية أنها قالت: ما حفظتُ (ق) إلا من فِيِّ رسول الله ﷺ. يخطب بها كل جمعة. قالت: وكان تَنُّورنا وتَنُّور رسول الله ﷺ واحدًا(٣)(٤).

الحرص على طلب العلم

وكانت أم هشام رضي الله عنها حريصة كل الحرص على طلب العلم فكانت تحفظ كثيرًا من القرآن بل وكانت تهتم بحفظ أحاديث الرسول ﷺ فحفظت الكثير والكثير وروت عن النبي ﷺ حتى غدت حافظة محدثة.

وروت عنها أختها عمرة، ومحمد بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة، ويحيى ابن عبد الله، وحبيب بن عبد الرحمن بن يساف(٥).

وكيف لا تحرص على طلب العلم وقد قال ﷺ: **«من يُرد الله به خيرًا يفقهه في**

(١) السيرة الحلبية (٢/ ٢٧٧).
(٢) أخرجه مسلم (٥٢) (٨٧٣) كتاب الجمعة.
(٣) أخرجه مسلم (٥١) (٨٧٣) كتاب الجمعة.
(٤) قال الإمام النووي: «قال العلماء: سبب اختيار (ق) أنها مشتملة على البعث والموت والمواعظ الشديدة والزواجر الأكيدة. وفيه دليل للقراءة في الخطبة كما سبق. وفيه استحباب قراءة (ق) أو بعضها في كل خطبة.
- قولها: (وكان تنورنا وتنور رسول الله واحدًا) إشارة إلى حفظها ومعرفتها بأحوال النبي ﷺ وقربها من منزله» [مسلم بشرح النووي (٦/ ٢٢٩، ٢٣٠)].
(٥) تهذيب التهذيب (١٢/ ٤٨٢) والإصابة (٤/ ٤٨٠).

الدين»(١).

وقال رسول الله ﷺ: **«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»**(٢).

وقال ﷺ: **«من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سهَّل الله له طريقًا إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا إنما ورَّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»**(٣).

مبايعة على الموت

ففي شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة النبوية أعلن الحبيب ﷺ أنه ذاهب إلى مكة معتمرًا. . . واستنفر الناس من حوله فخرج معه ألف وأربعمائة(٤) - وقيل: ألف وخمسمائة(٥) -. وكانت أم هشام رضي الله عنها مع هذا الموكب المهيب - خرجت مع جمعٍ من النساء لأداء العمرة - فلما سمعت قريش بخروج النبي ﷺ عقدت مجلسًا استشاريًا

(١) أخرجه البخاري (١/ ٧١)، ومسلم (٣/ ٩٨).
(٢) أخرجه مسلم (٤/ح١٦) والترمذي (٥/ح٢٦٧٤).
(٣) أخرجه أبو داود (٣/ح٣٦٤١) والترمذي (٥/ح٢٦٨٢) وابن ماجه (١/ح٢٢٣) من حديث أبي الدرداء وإسناده صحيح.
(٤) أخرجه البخاري (٤١٥٠)، وأحمد (١٨٦١٥) (٤/ ٢٩٠) من حديث البراء بن عازب وأخرجه البخاري (٤١٥٣) ومسلم (١٨٥٦) في إحدى الروايات من حديث جابر.
(٥) أخرجه البخاري (٣٥٧٦) ومسلم (١٨٥٦)، والنسائي (١/ ٦٠)، وأحمد (١٤٢٢٢) (٣/ ٢٩٨) من إحدى روايات حديث جابر، ووقع في حديث عبد الله بن أبي أوفي عند البخاري (٤١٥٥) وغيره - «كان أصحاب الشجرة ألفًا وثلاثمائة. . .»، وقال الحافظ في «الفتح» (٧/ ٤٤٠) - بعد أن نقل عدة روايات أخرى في اختلاف عدد أصحاب الحديبية - «والجمع بين هذا الاختلاف أنهم كانوا أكثر من ألف وأربعمائة، فمن قال: ألفًا وخمسمائة جبر الكسر، ومن قال: ألفًا وأربعمائة ألغاه ويؤيده قوله في الرواية الثالثة من حديث البراء - البخاري (٤١٥١) - «ألفًا وأربعمائة أو أكثر».

قررت فيه صدّ المسلمين عن دخول البيت وأداء العمرة. واحتبسته قريش عندها - ولعلهم أرادوا أن يتشاوروا فيما بينهم في الوضع الراهن، ويبرموا أمرهم، ثم يردوا عثمان بجواب ما جاء به من الرسالة - وطال الاحتباس، فشاع بين المسلمين أن عثمان قُتل، فقال رسول الله ﷺ لما بلغته تلك الإشاعة: **«لا نبرح حتى نناجز القوم»**[1]، ثم دعا أصحابه إلى البيعة، فثاروا إليه يبايعونه على أن لا يفروا، وبايعته جماعة على الموت، وأول من بايعه أبو سنان الأسدي، وبايعه سلمة بن الأكوع على الموت ثلاث مرات، في أول الناس ووسطهم وآخرهم[2]، وأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه وقال: **«هذه عن عثمان»**[3]، ولما تمت البيعة جاء عثمان فبايعه، ولم يتخلف عن هذه البيعة إلا رجل من المنافقين، يقال له: جد بن قيس.

أخذ رسول الله ﷺ هذه البيعة تحت الشجرة، وكان عمر آخذًا بيده، ومعقل بن يسار آخذًا بغصن الشجرة يرفعه عن رسول الله ﷺ [4].

هذه هي بيعة الرضوان التي أنزل الله فيها: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: الآية ١٨] الآية.

وكانت أم هشام قد بايعت على الموت مع من بايع فنالت الرضوان في بيعة الرضوان بل وعلمت أنها ستدخل - بإذن الله - جنة الرحمن فقد قال الحبيب ﷺ: **«لا يدخل النار أحدٌ ممن بايع تحت الشجرة»**[5].

فيا لها من منقبة لا توازيها الدنيا بكل ما فيها من متاعٍ زائل.

وحان وقت الرحيل

وبعد تلك الرحلة الإيمانية المباركة التي خُتمت بأعظم بُشرى - البشرى بالجنة -

---

(١) أخرجه ابن هشام في «السيرة» (٣/ ٧٨٠) عن ابن إسحاق حدثني عبد الله بن أبي بكر مرسلًا.
(٢) أخرجه مسلم (١٣٢) (١٨٠٧) وأحمد (١٦٥٧١) (٤/ ٤٨).
(٣) أخرجه البخاري (٣٦٩٨) - وانظر أطرافه عند رقم (٣١٣٠) - وأحمد [٢/ ١٠١-١٢٠] من حديث ابن عمر.
(٤) أخرجه مسلم (٧٦) (١٨٥٨)، وأحمد (٢٠٣٤٤) (٥/ ٢٥).
(٥) أخرجه مسلم عن أم مبشر وأحمد وأبو داود والترمذي عن جابر.

نامت هذه الصحابية الجليلة على فراش الموت لتخرج من دار الغرور والشقاء إلى دار النعيم والرخاء.

وماتت أم هشام رضي الله عنها بعد أن سطرت على جبين التاريخ سطورًا من النور لا تنساها الأجيال أبدًا وستبقى سيرتها العطرة تنشر عبيرها على الكون كله.

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

* * *

أم عمارة رضي الله عنها

المجاهدة التي دافعت عن النبي ﷺ في يوم أحد

أخذت الدعاية للإسلام تنتشر في مكة وتعمل عملها في أصحاب الأفئدة الكبيرة فسرعان ما يطرحون جاهليتهم الأولى ويسارعون إلى اعتناق الدين الجديد وكانت آيات القرآن تنزل على القلوب التي استودعت بذور الإيمان كما ينزل الوابل على التربة الخصبة.

﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: الآية ٥].

كان أصحاب العقائد يتجمعون - في تؤدة - حول عقائدهم، ويلتفون - في حب وإعجاب - حول إمامهم، ويشرحون في حذر أصول فكرتهم.

والإيمان قوة ساحرة، إذا استمكنت من شعاب القلب وتغلغلت في أعماقه تكاد تجعل المستحيل ممكنًا.

وها نحن على موعد مع هذا المثل الحي الذي يُثبت للكون كله أنه لا مستحيل في ظل العقيدة الراسخة والإيمان العميق.

إننا على موعد مع تلكم الصحابية الجليلة التي وصفها الإمام أبو نعيم بقوله: «أم عمارة المبايعة بالعقبة المحاربة عن الرجال والشيبة كانت ذات جد واجتهاد وصوم ونُسك واعتماد».

وقال عنها الإمام الذهبي:

أم عمارة نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف بن مبذول.

الفاضلة المجاهدة الأنصارية الخزرجية النجارية المازنية المدنية.

كان أخوها عبد الله بن كعب المازني من البدريين. وكان أخوها عبد الرحمن، من البكائين.

شهدت أم عمارة ليلة العقبة، وشهدت أُحدًا، والحديبية، ويوم حنين، ويوم اليمامة، وجاهدت، وفعلت الأفاعيل.

روي لها أحاديث. وقُطعت يدها في الجهاد[١].

كانت أم عمارة متزوجة من زيد بن عاصم المازني النجاري، فولدت له عبد الله وحبيبًا، وصحبا النبي الكريم ﷺ، ثم خلف عليها غزية بن عمرو المازني النجاري، فولدت له خولة، وكان لأولادها وأسرتها شأن كبير في الإسلام.

أين تلك المكارم

إننا في الحقيقة أمام امرأة يعجز القلم عن وصف فضائلها ومكارمها فلقد جمع الله لها الكثير والكثير من المكارم.

فإذا أردت أن تتكلم عنها كزوجة فهي الزوجة الوفية التي تعرف حق زوجها.. ، وإن أردت أن تصفها كأم فهي الأم الرحيمة الرؤوم.. وإن أردت أن تتحدث عن عبادتها لله فهي الصائمة القائمة الذاكرة لله ... ، وإن أردت أن نتحدث عن جهادها فهي التي كانت تدافع وتنافح عن رسول الله ﷺ.

ولهذا فإنني لا أدري كيف أبدأ الحديث عن هذه الصحابية الكريمة الفاضلة.

أشرقت شمسها

الغالية مع بيعة العقبة الثانية

لما أشرقت شمس الإسلام على أرض الجزيرة ووجدت قلوبًا طاهرة فاستجابت لدعوة الحق التي جاء بها الحبيب ﷺ من عند ربه عز وجل وبعد بيعة العقبة الأولى أرسل الحبيب ﷺ سفير الدعوة الأول مصعب بن عمير رضي الله عنه الذي نجح أيما نجاح في نشر الإسلام وجمع الناس عليه بأسلوبه الهادئ وأخلاقه العطرة وحجته القوية الرحيمة وذكائه الشديد.. فهو الذي تربى بين يدي الحبيب ﷺ وتعلم منه كيف تكون الدعوة إلى الله .

وكانت أم عمارة ممن أسلم على يديه فكانت على موعد مع سعادة الدنيا والآخرة.

وفي العام التالي جاء إلى النبي ﷺ ثلاثة وسبعون رجلًا وامرأتان من أجل أن يبايعوا النبي ﷺ بيعة العقبة الثانية.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٧٨).

فأما المرأتان: فالأولى هي ضيفتنا المباركة (أم عمارة نسيبة بنت كعب) رضي الله عنها.

والثانية: أم منيع أسماء بنت عمرو رضي الله عنها.

وتمت تلك البيعة المباركة... وبايعت أم عمارة رسول الله ﷺ فسطرت بذلك على جبين التاريخ صفحة من النور.

أمانة عظيمة

وعادت أم عمارة إلى المدينة وهي تحمل أمانة هذا الدين العظيم فما إن وصلت إلى المدينة حتى قامت لتنشر الإسلام بين النساء في المدينة وبين أولادها وأهلها وقومها.

وهكذا تكون المسلمة التي تعلم أن الدين لن يصل إلى الكون كله إلا بالبذل والتضحية وحمل الأمانة.

مشاهد من جهادها في سبيل الله

ذكر المؤرخون وكُتَّاب التراجم والسير أن الصحابية الجليلة أم عمارة شهدت عدة مشاهد مع رسول الله ﷺ وهي: بيعة العقبة، وأُحد، والحديبية، وخيبر، وعمرة القضية، والفتح، وحنين[١]. وكانت ممن شارك في حرب المرتدين في يوم اليمامة، والقضاء على مسيلمة الكذاب وأعوانه.

وفي هذه المشاهد كانت أم عمارة رضي الله عنها تسجل المواقف الوضاءة واحدًا بعد الآخر، وهي أول مقاتلة في تاريخ الإسلام.

ومن الطريف أنها بايعت النبي الكريم ﷺ على النصرة ووفت بهذا في غزوة أحد، فأحسنت وأجادت، بل كان لها من المواقف العظيمة يومذاك ما جعلها تنال البشارة بالجنة مع أسرتها كلها،... فإلى تلك المواقف المباركة الوضاءة نجد فيها مقام الصحابية الكبيرة قرب رسول الله ﷺ، ذلك المقام الذي سبقت فيه كثيرًا من الناس[٢].

جهادها في يوم أحد... ودفاعها عن النبي ﷺ

لم يهدأ بال قريش مذ غشيها في ما غشيها وكان ما جدَّ من الحوادث بعد لا يزيد

(١) الإصابة (٤/ ٤٥٧) وصفة الصفوة (٢/ ٦٣) والطبقات (٨/ ٤١٢).

(٢) نساء مبشرات بالجنة (ص ٦٥).

أحقادها إلا ضرامًا، فلما استدارت السنة، كانت مكة قد استكملت عدتها واجتمع إليها أحلافها من المشركين، وانضم إليهم كل ناقم على الإسلام وأهله.

فخرج الجيش الثائر في عدد يربو على ثلاثة آلاف.

ورأى أبو سفيان قائده أن يستصحب النساء معه، حتى يكون ذلك أبلغ في استماتة الرجال دون أن تصاب حرماتهم وأعراضهم ؟

وخرج المسلمون لملاقاة المشركين وعسكروا بالشِعب من (أحد) في عدوة الوادي: جاعلين ظهرهم إلى الجبل. ورسم النبي ﷺ الخطة لكسب المعركة: فجاءت مُحكمة رائعة. وزع الرماة على أماكنهم وأمر عليهم عبد الله بن جبير - وكانوا خمسين رجلًا - وقال: «**انضحوا الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا! إن كانت الدائرة لنا أو علينا فالزموا أماكنكم، لا نؤتين من قبلكم**»(١) !!!

وفي رواية قال لهم: «**احموا ظهورنا إن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا نغنم فلا تشركونا**»، واطمأن رسول الله ﷺ إلى أن فرقة الرماة قد أمَّنت بهذه الأوامر المشددة مؤخرة جيشه فأقبل يتعهد مقدمته. وأمر ألا ينشب قتال إلا بإذنه.

خرجت الأسرة المؤمنة: أم عمارة وولدها عبد الله وحبيب وزوجها، واندفع زوجها وأولادها يجاهدون في سبيل الله، بينما ذهبت أم عمارة تسقي العطشى وتضمد الجرحى، ولكن ظروف المعركة جعلتها تقبل على محاربة المشركين، وتقف وقفة الأبطال تدافع عن رسول الله ﷺ غير هيابة ولا وجلة، وذلك عندما تفرق الناس؛ من هول ما أصابهم في ذلك اليوم، عندها أخذت سيفًا وترسًا ووقفت بجانب رسول الله ﷺ تقيه بنفسها(٢).

وبدأ القتال الدامي، وكانت النصرة لجند الله الموحدين، وبدأ المسلمون في جمع الغنائم، وإذ بالرماة يتركون مواقعهم هابطين إلى الميدان فاغتنم المشركون الفرصة وجاءوا من الخلف وهجموا على المسلمين وقتلوا عددا كبيرًا منهم... ثم بحثوا عن النبي ﷺ يريدون قتله !!!.

---

(١) أخرجه ابن هشام (٢/ ١٢٩) وصححه الألباني في تحقيق فقه السيرة (ص: ٢٨٩).
(٢) نساء مبشرات بالجنة (ص ٦٥).

وهنا اجتمع عدد قليل من أصحاب الحبيب ﷺ يدافعون عنه وكان على رأسهم أم عمارة رضي الله عنها.

ولنترك لها الحديث لتحدثنا عن هذا الدور التاريخي الذي قامت به لتدافع عن سيد الأولين والآخرين ﷺ.

عن عمارة بن غزية قال: قالت أم عمارة: رأيتني، وانكشف الناس عن رسول الله ﷺ، فما بقي إلا في نفير ما يتمون عشرة؛ وأنا وابناي وزوجي بين يديه نذبُّ عنه، والناس يمرون به منهزمين، ورآني ولا ترس معي، فرأى رجلاً موليًا ومعه ترس، فقال: ألقِ ترسك إلى من يقاتل. فألقاه، فأخذته. فجعلت أترس به عن رسول الله ﷺ. وإنما فعل بنا الأفاعيل أصحاب الخيل؛ لو كانوا رجالة مثلنا أصبناهم، إن شاء الله.

فيقبل رجل على فرس، فيضربني، وترّست له، فلم يصنع شيئا، وولى؛ فأضرب عرقوب فرسه، فوقع على ظهره، فجعل النبي ﷺ يصيح: يا ابن أم عمارة، أمك! أمك! قالت: فعاونني عليه، حتى أوردته شَعوب[1].

وعن عبد الله بن زيد، قال: جُرحت يومئذ جرحًا، وجعل الدم لا يرقأ. فقال النبي ﷺ: **«اعصب جرحك»**.

فتُقبل أمي إليّ، ومعها عصائب في حقوها؛ فربطت جرحي، والنبي ﷺ واقف، فقال: انهض بنيّ، فضارب القوم ! وجعل يقول: **«من يطيق ما تطيقين يا أم عمارة»**!

فأقبل الذي ضرب ابني، فقال رسول الله: هذا ضارب ابنك. قالت: فأعترض له، فأضرب ساقه فبرك.

فرأيت رسول الله ﷺ يبتسم حتى رأيت نواجزه وقال: **«استقدت يا أم عمارة»**!.

ثم أقبلنا نَعلُه بالسلاح، حتى أتينا على نفسه، فقال النبي ﷺ: **«الحمد لله الذي ظفرك»**[2].

---

(١) شُعوب: اسم من أسماء المنية (الموت) - والخبر في الطبقات (٨/ ٤١٣ ، ٤١٤).

(٢) ابن سعد (٨/ ٤١٤) والحقو: معقد الإزار، واستقدت: اقتصصت من القود وهو القصاص، ونعله: نتابع ضربه بالسلاح، من العلل: وهو الشرب بعد الشرب تباعاً.

الحبيب ﷺ يشهد لها شهادة عظيمة

وكان ضمرة بن سعيد المازني يحدث عن جدته، وكانت قد شهدت أحدا، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان**».

وكانت تراها يومئذ تقاتل أشد القتال، وإنها لحاجزة ثوبها على وسطها، حتى جُرحت ثلاثة عشر جرحًا؛ و(كانت تقول): إني لأنظر إلى ابن قمئة وهو يضربها على عاتقها. وكان أعظم جراحها، فداوته سنة، ثم نادى منادي رسول الله ﷺ: إلى حمراء الأسد[1]. فشدت عليها ثيابها، فما استطاعت من نزف الدم - رضي الله عنها ورحمها -[2]

اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة

بل يدعو النبي ﷺ لأم عمارة وولدها أن يكونا معه في الجنة.

عن الحارث بن عبد الله: سمعت عبد الله بن زيد بن عاصم يقول: شهدت أُحدًا، فلما تفرقوا عن رسول الله ﷺ، دنوت منه أنا وأمي، نذب عنه. فقال ﷺ: «**ابن أم عمارة**»؟ قالت: نعم. قال : «**ارم**» فرميت بين يديه رجلا بحجر - وهو على فرس - فأصبت عين الفرس.

فاضطرب الفرس، فوقع هو وصاحبه؛ وجعلت أعلوه بالحجارة، والنبي يبتسم. ونظر إلى جرح أمي على عاتقها، فقال: «**أمك أمك ! اعصب جرحها ! اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة**».

قلت: ما أبالي ما أصابني من الدنيا[3].

جراح وأفراح

وعادت من غزوة أحد تحمل آلام الجراح التي أصيبت بها.. وما هي إلا ليلة

---

(١) موضع على ثمانية أميال من المدينة عن يسار الطريق إذا أردت ذا الحليفة. وانظر «زاد المعاد» (٣/ ٢٤٢ ، ٢٤٣).

(٢) ابن سعد (٨/ ٤١٣).

(٣) الطبقات لابن سعد (٨/ ٤١٤ ، ٤١٥).

واحدة قضاها المجاهدون في ديارهم يداوون جراحهم وفي الصباح نادى منادي رسول الله ﷺ: إلى حمراء الأسد قامت أم عمارة فشدتْ عليها ثيابها ولكنها ما استطاعت أن تخرج معهم لكثرة الدماء التي تنزف من جسدها الطاهر.

وظلت سنة كاملة تعالج الجراح التي أصابتها في غزوة أحد.

ولكن والله مازالت أم عمارة رضي الله عنها تكمل مسيرتها مع الجهاد في سبيل الله تعالى.

فلما خرج النبيّ ﷺ لغزو بني قريظة كانت أم عمارة رضي الله عنها في هذه الغزوة المباركة ليعلم الكون كله أن الجراح التي أصابتها في غزوة أحد لم تضعف عزيمتها لأنها تستمد قوتها من إيمانها بالله عز وجل .

نالت الرضوان في بيعة الرضوان

ولما كان عام الحديبية خرجت أم عمارة مع رسول الله ﷺ فلما أرسل الحبيب ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه سفيرًا إلى قريش ليؤكد لهم موقفه وأنه ما جاء لحرب أبدًا وإنما جاء لأداء العمرة. . . وإذا بقريش تحتبس عثمان - ولعلهم أرادوا أن يتشاوروا معه في الوضع الراهن - وطال الاحتباس، فشاع بين المسلمين أن عثمان قُتل، فقام النبي ﷺ ودعا أصحابه إلى بيعة الرضوان فبايعوه على الموت وكانت أم عمارة ممن بايع الحبيب ﷺ لتنال الرضوان في بيعة الرضوان فقد قال عن الذين حضروا تلك البيعة: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: الآية ١٨] .

ولما حلق النبي ﷺ شعره تسابق أصحابه على شعره ﷺ وفازت أم عمارة ببعض تلك الشعرات واحتفظت بها إلى آخر لحظة في حياتها.

وتتوالى المشاهد

وتتوالى مشاهد أم عمارة، ويتوالى تألقها في كل مشهد تشهده مع رسول الله ﷺ، وها هو العام السابع من الهجرة يطل على المسلمين وهم في المدينة، وها هو الشهر الأول منه شهر المحرم، وذلك الشهر الذي انطلق خلاله المسلمون إلى خيبر، ليقضوا على وكر الدس والتآمر والفساد بزعامة اليهود هنالك.

وأخذت أم عمارة طريقها إلى خيبر مع الجيش الغازي؛ الذي شهد بيعة الرضوان،

حيث أعلن ذلك رسول الله ﷺ لما أراد الخروج إلى خيبر.

وأكد أن لا يخرج معه إلا راغب في الجهاد فلم يخرج إلا أصحاب الشجرة وهم ألف وأربعمائة.

وعلى أرض خيبر شهدت أم عمارة وشاهدت فروسية أبطال المسلمين وفرسان رسول الله ﷺ، وكيف أعز الله نبيه، وأهلك أعداءه، ثم عادت مع الجيش المنتصر إلى المدينة لتشهد عمرة القضية، وتدخل المسجد الحرام مع المؤمنين الموحدين(١).

وفي يوم حنين

ولما سار الحبيب ﷺ إلى غزوة حنين كانت أم عمارة رضي الله عنها معه تواصل مسيرتها في البذل والعطاء.

وأقبلت الطلائع الغفيرة تتدافع نحو الوادي - وهي غافلة عما يكمن فيه - وكان واديًا أجوف منحدرًا، ينحط فيه الراكبون كلما أوغلوا كأنهم يسيرون إلى هاوية.

لما تكاثرت في دروبه الفرق الزاحفة، لم يرعهم إلا وابل من السهام يتساقط فوقهم من المكامن العالية، وكان غبش الفجر لا يزال يترك بقاياه في الجو الغائم فارتاعت المقدمة لهذه المفاجأة، فهي في عماية من الليل، وعماية من أمرها، لا تعرف إلا أن تستدير ثم تولي الأدبار.

وانتشرت موجة الفزع، فكسرت الصفوف المرصوصة وبعثرتها.

وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، وقد أغضبه هذا الفرار، فقال: «**أين أيها الناس؟ هلموا إليَّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله**».

فلا يرد عليه شيء، وركبت الإبل بعضها بعضًا وهي مولية بأصحابها(٢).

وأمر رسول الله ﷺ عمه العباس - وكان جهير الصوت - أن ينادي الصحابة.

قال العباس: فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة؟ قال: فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها فقالوا: يا لبيك يا لبيك(٣).

(١) فرسان من عصر النبوة/ أحمد خليل جمعة (ص: ٨١٧).
(٢) أخرجه ابن هشام (٢/ ٢٨٩) وصححه الألباني في تخريج فقه السيرة (ص ٤٣٤).
(٣) أخرجه مسلم (٢/ ١٠٠).

لقد هداه الحق أن يهتف بأصحاب العقائد، ورجال الفداء عند الصدام فهم -وحدهم- الذي تنجح بهم الرسالات وتفرج الكروب.

أما هذا الغثاء من العوام الحُراص على الدنيا، السُعاة إلى المغانم، فما يقوم بهم أمر، أو تثبت بهم قدم.

وكانت أم عمارة رضي الله عنها قد ثبتت مع من ثبت في هذا الموقف العصيب - الذي لا يثبت فيه إلا أصحاب العقائد الراسخة - بل واستطاعت أن تقتل واحدًا من فرسان المشركين لتختم رحلة جهادها مع رسول الله ﷺ.

المجاهدة أم الشهيد

ولقد ضربت أم عمارة رضي الله عنها المثل في كل المكارم فكانت عابدة قانتة مجاهدة صابرة على قضاء الله عز وجل.

فها هي تصبر على مقتل ولدها الحبيب (حبيب) الذي أرسله النبي ﷺ إلى مسيلمة الكذاب - ومع أن الرسل لا تُقتل - إلا أن مسيلمة غدر به وأمر بقتله.

والقصة باختصار كما ذكرها أصحاب السير والتراجم فقالوا:

إن مسيلمة الكذاب وَفَد مع بني حنيفة على رسول الله ﷺ وخلفوه في رحالهم، وذهبوا إلى رسول الله ﷺ وأسلموا، ولما رجعوا إلى منازلهم بنجد ارتد مسيلمة وزعم أنه نبي مرسل إلى بني حنيفة، وتبعه بعض قومه بدوافع مضطربة أهمها العصبية، استشرى خطر مسيلمة، وعاث في الأرض فسادا.

وهنا برز الشهيد السعيد الصامد ابن أم عمارة (حبيب بن زيد)، أحد نجباء مدرسة النبوة، الذي رضع الإيمان، وفُطم على التقوى، وشب على الجهاد، وعاش في حجر أمه يتعلم الخير، وشهد أُحدًا وما بعدها، فاختاره رسول الله ﷺ ليؤدي رسالة إلى مسيلمة الكذاب يزجره فيها عن ضلاله وكذبه وغيه، ولم يرع مسيلمة حرمة الرسل بل قبض عليه وأوثقه، فكان مسيلمة إذا قال له: أتشهد أن محمدًا رسول الله ؟ قال: نعم، وإذا قال له: أتشهد أني رسول الله ؟ قال: أنا أصم لا أسمع، . . . فعل ذلك مرارًا فقطّعه مسيلمة عضوًا عضوًا ومات شهيدا[1]، وصعدت روحه إلى بارئها راضية مرضية.

---

(١) انظر الاستيعاب (١/ ٣٢٧)، وأسد الغابة ترجمة حبيب، والاستبصار (ص ٨١ ، ٨٢)، والحلية (٢/ ٦٤).

وقد رثاه مالك بن عمرو الثقفي[(١)] بأبيات رائعة منها:

مضى صاحبي قبلي وخُلِّفت بعده فكيف بأعضائي البقية أصنعُ
وقال له الكذاب تشهد أنني رسول فأومأ أنني لست أسمعُ
فقال أتشهد أنها لمحمد فنادى بدعوى الحق لا يتتعتع[(٢)]
فضرب أم الرأس فيه بسيفه غوى لحاه الله بالفتك مولع[(٣)]

وانتشر خبر استشهاد حبيب رضي الله عنه، ولما بلغ أم عمارة قتل ابنها عاهدت الله أن تموت دون مسيلمة أو تُقتل، ورضيت بقضاء الله، وصبرت صبرًا جميلًا، فقد نذرت نفسها وأولادها وما تملك لله سبحانه وتعالى، لتكون في جنات وعيون، . . . ويكفيها الآن أن النبي الكريم ﷺ قد دعا لها ولآل بيتها بالبركة والخيرات، ومات عليه الصلاة والسلام وهو راضٍ عنها وعن أولادها[(٤)].

جهادها في يوم اليمامة

وبعد وفاة الحبيب ﷺ ارتدت بعض قبائل العرب فقام أبو بكر رضي الله عنه يرسل الجيوش ليحارب المرتدين ويردهم إلى دين الله عز وجل. فسارعت أم عمارة لتستأذن أبا بكر في الخروج مع الجيش إلى معركة اليمامة لتواصل مسيرتها في الجهاد ولكي تثأر لأبنها حبيب من مسيلمة الكذاب.

وانطلقت أم عمارة تشق الصفوف لتقاتل أعداء الله - وكان عمرها قد زاد عن الستين - وظلت تضرب بسيفها في جيش المرتدين إلى أن أثلج الله صدرها بمقتل مسيلمة في معركة اليمامة فرأته مقتولاً فسجدت شكرًا لله ونسيت كل الجراح التي لحقت بجسدها فقد جُرحت في يوم اليمامة أحد عشر جُرحًا وقُطعت يدها.

وعادت تلكم المجاهدة التي سطرت بجهادها سطورًا من النور على جبين التاريخ . . ولما عادت إلى المدينة كان أبو بكر رضي الله عنه يأتيها يسأل عنها ويطمئن عليها فلقد كانت تحتل مكانة عالية في قلوب أصحاب النبي ﷺ وظلت هكذا حتى آخر لحظة من عمرها.

---

(١) انظر ترجمة مالك بن عمرو في الاستيعاب (٣/ ٣٥٠) وفي الإصابة (٣/ ٣٢٩).
(٢) لا يتتعتع: العي بالكلام.
(٣) انظر كتاب منح المدح لابن سيد الناس (ص ٣٠١ ، ٣٠٢).
(٤) نساء مبشرات بالجنة (ص ٧٦ ، ٧٧).

وحان وقت الرحيل

وبعد هذه الرحلة المباركة من العطاء والبذل والجهاد في سبيل الله نامت أم عمارة رضي الله عنها على فراش الموت لتخرج من الدنيا بعد أن دخلت التاريخ من أشرف أبوابه وفازت برضوان الحق . . . وفاضت روحها إلى بارئها.

ونسأل الله عز وجل أن يرزق الأمة بنساء أمثال (أم عمارة) لترفع الأمة راية الجهاد خفاقة عالية وليرجع الأقصى الأسير إلى أيدي المسلمين.

ولا ننسى ونحن نودع أم عمارة أن نقرأ قوله :﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾.

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها

* * *

أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما

(أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين في الجنة)

محمد رسول الله ﷺ

ومازلنا نتعايش بقلوبنا مع هذا البستان الذي لا ينتهي عبيره ولا تجف أرضه ولا تنقطع ثماره وأزهاره.

وها نحن اليوم على موعد مع زهرة غالية غُرست في حقل الإسلام وسُقيت بماء الوحي فنثرت عبيرها في الآفاق على مدار الأيام والأعوام فكانت سيرتها ومازالت تطيب القلوب والأسماع بذكرها.

إننا على موعد مع صحابية جليلة لو أردت أن أجمع مناقبها كلها في كلمة واحدة فسوف أقول: إنها أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما وحسبُها أنها ابنته.

فتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا مع سيرتها العطرة من أولها لنعرف من هي أسماء رضي الله عنها .

شجرة مباركة

ولا يفوتنا أبدًا قبل أن نتعايش مع سيرتها المباركة أن نلقي الضوء على تلكم الشجرة التي جمعت المجد من أطرافه كلها.. إنها شجرة ثابتة الأصول وأما فروعها فقد بلغت عنان السماء حتى عانقت كواكب الجوزاء

* فأما أبوها فهو خير من طلعت عليه الشمس بعد الأنبياء والمرسلين.. إنه أول العشرة المبشرين بالجنة (أبو بكر الصديق) رضي الله عنه .

* وأما زوج أختها فهو سيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله ﷺ.

* وأختها لأبيها هي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

* وجدها لأبيها - أبو قحافة - الذي أسلم ونال شرف صحبة الحبيب ﷺ.

* وجدتها لأبيها - أم الخير - سلمى بنت صخر التي أسلمت ونالت شرف الصحبة.

* وأما عماتها الثلاث - من الصحابيات - وهن: أم عامر وقريبة وأم فروة - بنات أبي قحافة.

* وأما زوجها فهو حواري رسول الله ﷺ وابن عمته وأحد العشرة المبشرين بالجنة وأول من سلّ سيفًا في سبيل الله.. إنه الزبير بن العوام رضي الله عنه.

* وأما ابنها فهو الخليفة (عبد الله بن الزبير) الذي كان علمًا من أعلام العبادة والجهاد.

* وأخوها الشقيق هو عبد الله - أحد الصحابة النجباء -.

* وأخوها لأبيها عبد الرحمن - شقيق عائشة - وهو من الشجعان والرماة المذكورين.

ومن أجل ذلك قيل: لا يوجد في أي بيت من بيوت الصحابة أربعة رأوا النبي ﷺ وكانوا كلهم صحابة وبعضهم ولد بعض - إلا في بيت أبي بكر - فأسماء وأبوها وجدها وابنها ابن الزبير أربعتهم صحابيون - رضي الله عنهم -.

فماذا نقول عن تلكم الشجرة المباركة التي خرجت (أسماء) من جذورها وعاشت بين أغصانها.

من السابقات إلى الإسلام

وُلدت أسماء رضي الله عنها بمكة قبل الهجرة النبوية بسبع وعشرين سنة ونشأت في بيت والدها (الصديق) الذي جمع خصال الخير كلها فكان أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ.

إنه الذي قال ﷺ في حقه: **«ما لأحدٍ عندنا يدٌ إلا وقد كافأناه بها إلا الصديق، فإن له عندنا يدًا يكافئه الله بها يوم القيامة، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر، ولو كنت متخذًا من الناس خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ألا وإن صاحبكم خليل الله»**(١).

فعاشت أسماء في بيت أبيها (الصديق) فتعلمت منه الأخلاق السامية ونشأت على حب الفضيلة.

فلما أشرقت شمس الإسلام على أرض الجزيرة كان أبوها (أبو بكر الصديق) أول من أسلم من الرجال ومن ثَم فلقد أسلمت أسماء مبكرًا وكانت من السابقات إلى الإسلام وكان رقمها في سجل القافلة الإيمانية (الثامن عشر) فلم يسبقها إلى الإسلام إلا سبعة عشر مسلم ومسلمة فكانت بذلك من الذين قال تعالى في حقهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٦٢) المناقب وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٨٩٤).

ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ [التوبة: الآية ١٠٠] .

تتزوج رجلًا من العشرة المبشرين بالجنة

وشاء الحق أن يتزوج أسماء رجل من العشرة المبشرين بالجنة ألا وهو (الزبير بن العوام) حواري رسول الله ﷺ.

وكان فقيرًا ولكن حسبُه أنه مؤمن بالله .

هكذا تكون الزوجة الصالحة

عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: تزوجني الزبير رضي الله عنه وما له في الأرض مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه. قالت: فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤنته وأسوسه، وأدق النوى لِنَاضِحِهِ. وأعلفه وأسقيه الماء، وأخرز غربه، وأعجن، ولم أكن أحسن أخبز. فكان يخبز لي جارات من الأنصار، وكن نسوة صدق. قالت: وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله ﷺ على رأسي، وهي على ثلثي فرسخ. قالت: فجئت يومًا والنوى على رأسي، فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر من أصحابه فدعا لي، ثم قال «أخ أخ»؛ ليحملني خلفه، فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته. قالت: وكان من أغير الناس. قالت: فعرف رسول الله ﷺ أني قد استحييت فمضى، فجئت الزبير فقلت: لقيني رسول الله ﷺ وعلى رأسي النوى، ومعه نفر من أصحابه، فأناخ لأركب معه، فاستحييت وعرفت غيرتك، فقال: والله لحملك النوى كان أشد عليَّ من ركوبك معه !! قالت: حتى أرسل إليَّ أبو بكر بعد ذلك بخادم، فكفتني سياسة الفرس، فكأنما أعتقني[1].

ذات النطاقين

ولما اشتد إيذاء قريش لأصحاب الحبيب ﷺ أذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة فنزلوا في رحاب الأنصار الذين وضعوهم في الجفون وأغلقوا العيون خوفًا عليهم من نسيم الهواء.

---

(١) حياة الصحابة/ للكاندهلوي (٢/ ٦٩١).

وبعد ذلك أذن الله لرسوله ﷺ بالهجرة إلى المدينة المنورة فهاجر هو وصاحبه (الصديق) رضي الله عنه فقامت أسرة أبي بكر بأعظم دور في التاريخ كله لخدمة الإسلام ولخدمة رسول الإسلام ﷺ.

فكان عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما يكون في قريش بالنهار ليسمع ما يقولون ثم يأتي إلى النبي ﷺ وأبي بكر ليخبرهما الخبر. وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يرعى في رعيان أهل مكة فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر فاحتلبا وذبحا... فإذا (عبد الله بن أبي بكر) غدا من عندهما إلى مكة اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفي عليه - أي يطمس آثار قدميه -.

وأما أسماء رضي الله عنها فكان لها دور عظيم أيضًا.

فإنه لما أُذن لرسول الله ﷺ بالهجرة من مكة إلى المدينة جاء إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال: «**قد أذن لي في الخروج**» فقال أبو بكر: الصحابة[١] بأبي أنت يا رسول الله. قال رسول الله ﷺ :«**نعم**».

قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سُميت: ذات النطاق[٢].

وعن أسماء رضي الله عنها قالت: «صنعت سفرة للنبي ﷺ وأبي بكر حين أرادا المدينة، فقلت لأبي: ما أجد شيئًا أربطه إلا نطاقي، قال: فشُقيه، ففعلت: فسُميت: ذات النطاقين»[٣].

قال الزبير بن بكار في هذه القصة: قال لها رسول الله ﷺ: «**أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين في الجنة**» فقيل لها: ذات النطاقين[٤].

والجزاء من جنس العمل.

(١) يعني: أريد الصحبة.
(٢) أخرجه البخاري (٣٩٠٥).
(٣) أخرجه البخاري (٣٩٠٧).
(٤) الفتح (٧/ ٢٨٧).

سرعة بديهة وحسن تصرف

وها هو موقف من مواقفها الإيمانية العظيمة . . إنه موقف يعبر عن صدق إيمانها وسرعة بديهتها وحسن تصرفها في الأمور الطارئة.

وقالت أسماء بنت أبي بكر : ﵄ (لما توجه النبي ﷺ من مكة حمل أبو بكر معه جميع ماله - خمسة آلاف، أو ستة آلاف - فأتاني جدي أبو قحافة وقد عمى، فقال: إن هذا قد فجعكم بماله ونفسه، فقلت: كلا، قد ترك لنا خيرًا كثيرًا، فعمدت إلى أحجار، فجعلتهن في كُوة البيت، وغطيت عليها بثوب، ثم أخذت بيده، ووضعتها على الثوب، فقلت: هذا تركه لنا»، فقال: أما إذ ترك لكم هذا، فنعم).

صبر وثبات

وكانت ﵄ تحفظ سر رسول الله ﷺ ولا تفشي خبر هجرته ﷺ ولو تعرضت لأشد البلاء.

وعن ابن إسحاق قال:حُدثت عن أسماء، قالت: أتى أبو جهل في نفر، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك ؟ قلت: لا أدري - والله أين هو ؟، فرفع أبو جهل يده، ولطم خدي لطمة خرَّ منها قرطي (الحلق)، ثم انصرفوا [(١)].

أرأيت كيف وصل السفه بأبي جهل - أخزاه الله - أن يتخلى عن أخلاق العرب وشيمهم العظيمة في الترفع عن إيذاء المرأة ؟ وأن ينزل بنفسه الحقيرة إلى الدرك الأسفل من الإسفاف والسوء ؟ فقد عجز عن مواجهة الرجال فضرب امرأة حاملاً ! .

وقفة مع ذات النطاقين

إن عمل أسماء هذا يعجز عنه الرجل الشجاع لما فيه من مخاطر وظلمة ووحشة، ولما يحتاجه من جرأة وثبات قلب وقوة أعصاب وتحكم بالمشاعر، ولم تتوقف شجاعة أسماء عند هذا المقدار فحسب، بل لك عزيزي القارئ أن تتصور مدى صبرها وتحملها للمشقة إذ كانت حاملاً بابنها عبد الله، ولك أن تتصور أسماء في هجعة الليل وهي تحمل

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٠).

طعامًا، وتسلك الطرق الوعرة الطويلة، وتصعد جبلاً لتصل إلى الغار - غار ثور - كانت تجتاز كل هذه المخاطر وعيون المشركين تتابعها، ولكنه لُطف الله سبحانه الذي أحاط بها وعينه التي حفظتها[1].

أول مولود في دار الهجرة

ولما هاجر الحبيب ﷺ وصاحبه أبي بكر أرسلا من يأتيهما بأهلهما.. فهاجرت أسماء رضي الله عنها وهي حامل بابنها عبد الله بن الزبير.

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أنها حملت بعبد الله بن الزبير، قالت: فخرجت وأنا متم[2]، فأتيت المدينة، فنزلت بقباء فولدته بقباء، ثم أتيت به النبي ﷺ فوضعته في حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل في فيه - فمه -، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم حنكه بتمرة ثم دعا له وبرك عليه، وكان أول مولود ولد في الإسلام[3].

زاد البخاري في رواية له[4]: «ففرحوا به فرحًا شديدًا، لأنهم قيل لهم إن اليهود قد سحرتكم فلا يولد لكم».

وكان ميلاد عبد الله بن الزبير فاتحة خير على المسلمين، واستبشروا به وتفاءلوا بمولده، ونشأ على حب التقوى؛ فكان كما وصفته أمه: قوام الليل، صوام النهار، وكان يسمى حمامة المسجد،...

وذكر البلاذري أبناء أسماء فقال: ولدت أسماء للزبير عبد الله وعروة والمنذر وعاصم وأم حسن وعائشة[5].

صفحة مشرقة من جودها وكرمها

ولقد جمع الله عز وجل لأسماء بنت أبي بكر من خصال الخير وأعمال البر ورجاحة

---

(١) نساء مبشرات بالجنة/ أحمد خليل جمعة (ص ٢٥٦ ، ٢٥٧).

(٢) أي: أتمت مدة الحمل الغالبة وهي تسعة أشهر. قاله ابن حجر (٧/ ٢٩٢).

(٣) رواه البخاري (٣٩٠٩) والسياق له - ومسلم (٢١٤٦).

(٤) أخرجه البخاري (٥٤٦٩).

(٥) أنساب الأشراف (١/ ٤٢٢).

العقل ما لم يجتمع إلا للقليل النادر من الأتقياء.

فلقد كانت يُضرب بجودها وكرمها المثل.

عن محمد بن المنكدر قال: كانت أسماء بنت أبي بكر سخية النفس [١].

وعن القاسم بن محمد قال: سمعت ابن الزبير يقول: ما رأيت امرأة قط أجود من عائشة وأسماء؛ وجودهما مختلف: أما عائشة، فكانت تجمع الشيء إلى الشيء، حتى إذا اجتمع عندها وضعته مواضعه، وأما أسماء، فكانت لا تدخر شيئًا لغد [٢].

وعن فاطمة بنت المنذر: أن أسماء كانت تمرض المرضة، فتعتق كل مملوك لها [٣].

ورغم فقر الزبير فقد كانت أسماء امرأة سخية النفس، باذلة اليد، فكانت تقول لبناتها وأهلها: **«أنفقن وتصدقن ولا تنتظرن الفضل، فإنكن إذا انتظرتن الفضل لم تفضلن شيئًا، وإن تصدقتن لم تجدن فقده»**.

* عن أسماء رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله ! مالي إلا ما أدخل عليَّ الزبير، فأتصدق ؟

قال: **«تصدقي، ولا توعي [٤] فيوعى عليك»** [٥].

فكانت تنفق بسخاء وما نسيت وصية الحبيب ﷺ.

عبادتها وطاعتها لله

ولقد كانت رضي الله عنها مثلا عاليًا في العبادة والطاعة... إنها ابنة (الصديق) رضي الله عنه الذي

(١) رواه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٢٥٣).
(٢) رجاله ثقات: وذكره الذهبي في تاريخه (٣/ ١٣٥).
(٣) رواه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٢٥٢).
(٤) الإيعاء: جعل الشيء في الوعاء، وأصله الحفظ، والمراد به هنا: الحث على النفقة والنهي عن منع المال بالادخار والإيعاء، أي: لا تمنعي ما في يدك، فتنقطع مادة بركة الرزق عنك، فإن مادة الرزق متصلة باتصال النفقة، ومنقطعة بانقطاعها.
قال النووي رحمه الله: معناه: الحث على النفقة في الطاعة والنهي عن الإمساك والبخل.
قلت: وقد ورد بذلك في روايات الحديث في «الصحيحين» وغيرهما، حيث قال ﷺ: **«تصدقن ولا تحصي فيحصي الله عليك»**. والله أعلم.
(٥) أخرجه البخاري (١٤٣٣) والسياق له - مسلم (١٠٢٩). (١) الحلية (٢/ ٥٥)، والدر المنثور (٧/ ٦٣٥).

كان يسابق أصحاب النبي ﷺ إلى كل طاعة. فكانت أسماء تجمع بين العبادة والخوف من الله - في الوقت الذي نرى فيه نساء كاسيات عاريات وكأن الله أعطاهن عهدًا بدخول الجنة !!!.

لقد كانت أسماء صائمة قائمة خائفة وجلة.

يقول زوجها الزبير بن العوام:

دخلت على أسماء وهي تصلي فسمعتها وهي تقرأ هذه الآية: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الطور: الآية ٢٧] فاستعاذت، فقمت وهي تستعيذ، فلما طال عليَّ أتيت السوق ثم رجعت وهي في بكائها تستعيذ[(١)].

صلة الرحم

وعن ابن الزبير قال: نزلت هذه الآية في أسماء؛ وكانت أمها يقال لها: قتيلة، جاءتها بهدايا؛ فلم تقبلها، حتى سألت النبي ﷺ، فنزلت: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: الآية ٨][(٢)].

وفي «الصحيح»: قالت أسماء: يا رسول الله، إن أمي قدمت، وهي راغبة أفأصلها ؟ قال: **«نعم، صلي أمك»**[(٣)(٤)].

سمات سامقة ... ومكانة لائقة

في شخصية أسماء رضي الله عنها جوانب رائعة تدل على تفردها في مجالات خيرة، فقد بارك الله سبحانه في عمرها، فعمّرت دهرًا قارب مائة سنة ولم يسقط لها سن، وظلت محتفظة بعقلها ورأيها الصائب وكلماتها الرائعة، ولم تتوقف عن العطاء وأعمال البر والخير، وشهدت معركة اليرموك مع زوجها الزبير رضي الله عنه، وكان لها موقف شهير في هذه المعركة.

---

(١) الحلية (٢/ ٥٥) - والدر المنثور (٧/ ٦٣٥).
(٢) أخرجه ابن سعد (٨/ ٢٥٢) وأحمد (٤/ ٤) وابن جرير (٢٨/ ٦٦).
(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٢٠١) الجزية و (١٠/ ٣٤٧) الأدب - ومسلم (١٠٠٣) (٥) الزكاة.
(٤) أمها قتيلة: أوردها المستغفري في الصحابيات وقال: تأخر إسلامها . . وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة (٨/ ٢٨٤): قلت: إن كانت عاشت إلى الفتح فالظاهر أنها أسلمت.

وفي ظل الخلفاء الراشدين حظيت أسماء رضي الله عنها بالمكانة اللائقة التي تستحقها، فجميعهم كان يعرف فضلها، ويقر بسابقتها، فقد كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد فرض للمهاجرات الأُول ألفًا ألفًا منهن أسماء بنت أبي بكر، وأسماء بنت عميس، وأم عبد الله بن مسعود[١].

ومن الجوانب العظيمة في شخصية أسماء حسن تعبيرها للرؤيا، فلقد ذُكر أن سعيد ابن المسيب رحمه الله كان من أعبر الناس للرؤيا، أخذ ذلك عن أسماء بنت أبي بكر، وأخذته أسماء عن أبيها[٢].

وكانت أسماء رضي الله عنها زكية النفس، نقية السريرة، موصولة القلب بالله سبحانه، تراقب نفسها مراقبة شديدة في السر والعلانية، ومع هذا كله كانت ترى التقصير في نفسها،.. . قال ابن أبي مليكة: كانت أسماء تصدع فتضع يدها على رأسها وتقول: بذنبي وما يغفره الله أكثر[٣].

ومن السمات اللامعة في حياة أسماء رضي الله عنها أنها كانت فصيحة، حاضرة القلب واللُّب، تقول الشعر؛ ولها في رثاء زوجها قصيدة جميلة تشير إلى بلاغتها[٤].

وتوالت الأحزان

وبعد ما عاشت أسماء رضي الله عنها أجمل أيام عمرها في المدينة حيث الحياة الإيمانية التي لا تعدلها حياة في الكون كله.

وإذا بالأحزان تتوالى فلقد مات رسول الله ﷺ فحزنت عليه أسماء حزنًا كاد أن يمزق قلبها.. وتولى أبوها (أبو بكر) الخلافة بعد وفاة الحبيب ﷺ ثم جاء اليوم الذي نام فيه أبو بكر رضي الله عنه على فراش الموت ليلحق بحبيبه ﷺ.

وتجددت الأحزان بموت أبي بكر ثم بمقتل عمر ثم بمقتل عثمان ثم بمقتل زوجها الزبير - رضي الله عنهم -.

---

(١) انظر: فتوح البلدان للبلاذري (ص ٥٨٨).
(٢) طبقات ابن سعد (٦/ ١٢٤) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٣).
(٣) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٢٩) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٠).
(٤) نساء مبشرات بالجنة (ص ٢٦٥).

لقد عاشت حياة الصبر على تلك المحن العظيمة والابتلاءات الشديدة وصبرت على البأساء والضراء.

موقفها العظيم مع الحجاج بعد مقتل ولدها (ابن الزبير)

في تاريخ النساء مواقف حافلة بالبطولات والتضحيات، ولكن بطلتنا أسماء تفوق النساء جميعًا في موقف يشير إلى ذكائها وجودها وحسن تصرفها، ذلك الموقف مع ابنها عبد الله بن الزبير ﭬ الذي امتد سلطانه على الحجاز واليمن والعراق وخراسان، وجدد عمارة الكعبة.

غير أن سلطانه بدأ ينحسر ويتلاشى، وأحاطت به جنود الحجاج بن يوسف الثقفي وهو في مكة المكرمة، وأحجار المنجنيق تنهمر عليه من كل مكان، وكانت الفرصة سانحة أمامه لطلب الأمان أو الفرار، ولكن أنَّى له ذلك وقد عرفته البلاد بطولها وعرضها بالشجاعة والثبات والإقدام، وأمه أسماء فدائية الإسلام الأولى، وها هي أمه قد قاربت المائة وعقلها ما يزال يشع بالحكمة وفصل الخطاب، . . . وتوجه إليها يبثها حزنه، ويستشيرها فيما يفعل [(١)].

قال عروة: دخلت أنا وأخي، قبل أن يُقتل، على أمنا بعشر ليال، وهي وجعة، فقال عبد الله: كيف تجدينك ؟ قالت: وجعة. قال: إن في الموت لعافية. قالت: لعلك تشتهي موتي؛ فلا تفعل، وضحكت، وقالت: والله، ما أشتهي أن أموت، حتى تأتي علي أحد طرفيك: إما أن تُقتل فأحتسبك، وإما أن تظفر فتقر عيني. إياك أن تُعرض على خطة فلا توافق، فتقبلُها كراهية الموت [(٢)].

قال: وإنما عنى أخي أن يقتل، فيحزنها ذلك.

وفي رواية: دخل عبد الله بن الزبير على أمه أسماء فقال: يا أُمه خذلني الناس، حتى ولدي وأهلي، ولم يبق إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع إلا صبر ساعة ؟ والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأيك ؟

---

(١) نساء مبشرات بالجنة (ص ٢٦٦).

(٢) تاريخ الإسلام (٣/ ١٣٥)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٣).

فقالت: والله يا بني أنت أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على الحق فامض له فقد قُتل عليه أصحابك وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك ومن قُتل معك !! وإن قلت: إني على حق فلما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين.

فدنا ابن الزبير فقبَّل رأسها وقال: هذا رأيي، ولكن أحببت أن أعلم رأيك؟ فزدتني بصيرة، فانظري يا أماه، إني مقتول من يومي هذا ؟ فلا يشتد حزنك لأمر الله ؟ فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر ولا عمل بفاحشة ولم يجر في حكم، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد. والله إني لا أقول هذا تزكية لنفسٍ، ولكن تعزية لأمي، لتسلو عني. فقالت أمه: إني لأرجو أن يكون عزائي فيك حسنًا، اخرج حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمرك ؟ ودعت له قائلة: اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك التحنث والظمأ في الهواجر بالمدينة ومكة، وبره بأبيه وبي، اللهم قد أسلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت، فأثبني في عبد الله ثواب الشاكرين الصابرين.

ثم شكا إليها خوفه من أن يُمثَّل به بعد موته. فقالت كلمتها المشهورة: إن الكبش إذا ذُبح لم يأمن السلخ أو لم يألم من السلخ.

ثم دنا عبد الله من أمه فتناول يدها وقبلها وعانقها، وكان عليه درع فلما عانقها وجدت مسَّ الدرع، فقالت: ما هذا صنيع من يريد ما تريد، قال: ما لبستها إلا لأشد منك.

قالت: فإنها لا تشد مني، فنزعها ثم أدرج كميه وأدخل أسفل قميصه جبة خز كانت عليه من أسفل المنطقة.

وودع عبد الله أمه بنفس راضية، وقال يخاطبها:

أسماء إن قُتلت لا تبكيني لم يبق إلا حسبي وديني
وصارم لانت به يميني

وسقط عبد الله بن الزبير شهيدًا، وصلبه الحجاج في المسجد الحرام، ولما قتل الحجاج ابن الزبير دخل على أسماء وقال لها: يا أمه، إن أمير المؤمنين وصاني بك،

فهل لك من حاجة ؟ قالت: لست لك بأم، ولكني أم المصلوب على رأس الثنية، وما لي من حاجة؛ ولكن أحدثك: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يخرج في ثقيف كذاب، ومبير**» فأما الكذاب، فقد رأيناه - تعني المختار - وأما المبير، فأنت.

فقال لها: مبير المنافقين[1][2].

وعن أبي بكر الصديق الناجي: أن الحجاج دخل على أسماء، فقال: إن ابنك ألحد في هذا البيت، وإن الله أذاقه من عذاب أليم. قالت: كذبت ! كان برًّا بوالدته، صوامًا، قوامًا، ولكن قد أخبرنا رسول الله ﷺ: «**أنه سيخرج من ثقيف كذابان: الآخر منهما شر من الأول، وهو مبير**»[3].

قال ابن عمر رضي الله عنهما : رأيت عبد الله بن الزبير على عقبة المدينة. قال فجعلت قريش تمر عليه والناس. حتى مر عليه عبد الله بن عمر. فوقف عليه. فقال: السلام عليك، أبا خبيب ! السلام عليك، أبا خبيب! السلام عليك، أبا خبيب ! أما والله ! لقد كنت أنهاك عن هذا. أما والله ! لقد كنت أنهاك عن هذا. أما والله! لقد كنت أنهاك عن هذا. أما والله ! إن كنت، ما علمت، صوامًا. قوامًا. وصولاً للرحم. أما والله ! لأمة أنت أشرها لأمة خير.

ثم نفذ عبد الله بن عمر. فبلغ الحجاج موقف عبد الله وقوله فأرسل إليه فأنزل عن جذعه. . فألقي في قبور اليهود. ثم أرسل إلى أمه أسماء بنت أبي بكر. فأبت أن تأتيه. فأعاد عليها الرسول: لتأتيني أو لأبعثن إليك من يسحبك بقرونك. قال فأبت وقالت: والله لا آتيك حتى تبعث إليَّ من يسحبني بقروني. قال: فقال: أروني سبتي. فأخذ نعليه. ثم انطلق يتوذف. حتى دخل عليها. فقال: كيف رأيتني صنعت بعدو الله ؟ قالت: رأيتك أفسدت عليه دنياه، وأفسدت عليك آخرتك. بلغني أنك تقول له: يا ابن

(١) سير أعلام النبلاء/ للذهبي (٢/ ٢٩٤).
(٢) المبير: أي المهلك الذي يُسرف في إهلاك الناس.
(٣) رواه ابن سعد (٨/ ٢٥٤) - وأورده الذهبي في السير (٢/ ٢٩٦) وتاريخ الإسلام (٢/ ١٣٦) وقال: إسناده قوي.

ذات النطاقين ! أنا، والله ! ذات النطاقين. أما أحدهما فكنت أرفع به طعام رسول الله ﷺ، وطعام أبي بكر من الدواب. وأما الآخر فنطاق المرأة التي لا تستغنى عنه. أما إن رسول الله ﷺ حدثنا «**أن في ثقيف كذابًا ومبيرًا**» فأما الكذاب فرأيناه. وأما المبير فلا إخالك إلا إياه. قال: فقام عنها ولم يراجعها(١)(٢).

وصبرت أسماء ﵁ صبرًا جميلاً واحتسبت ابنها عند الله ﷿ وعن منصور بن صفية، عن أمه، قالت: قيل لابن عمر: إن أسماء في ناحية المسجد - وذلك حين صُلب ابن الزبير- فمال إليها، فقال: إن هذه الجثث ليست بشيء، وإنما الأرواح عند الله؛ فاتقي الله واصبري.

فقالت: وما يمنعني، وقد أُهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بغي من بغايا بني إسرائيل(٣).

فما أعظمها من أم صابرة محتسبة.

وحان وقت الرحيل

وبعد قرن من الزمان عاشته أسماء ﵁ بأفراحه وأحزانه التي خُتمت بقتل ولدها.. نامت على فراش الموت لتلحق بالأحباب الذين سبقوها إلى دار النعيم والخلود.

قال ابن سعد: ماتت بعد ابنها بليال وكان قتله لسبع عشرة خلت من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين(٤).

قال الذهبي: قلت: كانت خاتمة المهاجرين والمهاجرات(٥).

وهكذا رحلت ذات النطاقين بعدما سطرت على جبين التاريخ سطورًا من النور...

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٩)، (٢٥٤٥) كتاب فضائل الصحابة/ باب: ذكر كذاب ثقيف ومبيرها.
(٢) قال الإمام النووي: وقولها في الكذاب (فرأيناه) تعني به المختار بن أبي عبيد الثقفي كان شديد الكذب ومن أقبحه ادعى أن جبريل ﷺ يأتيه واتفق العلماء على أن المراد بالكذاب هنا المختار بن أبي عبيد والمبيرالحجاج بن يوسف والله أعلم. مسلم بشرح النووي (١٦/ ١٥٠).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٥) وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات.
(٤) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٥٥) والمستدرك (٤/ ٦٥).
(٥) سير أعلام النبلاء/ للذهبي (٢/ ٢٩٦).

ومازلنا نذكر سيرتها العطرة التي ملأت الدنيا كلها بعبير الصدق والإخلاص والبذل والتضحية.

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

* * *

أم حرام بنت ملحان رضي الله عنها

(الشهيدة الصابرة)

كان الناس يعيشون في جاهلية وشر.. وكان أصحاب القلوب الحية والفطر السليمة يشتاقون إلى طوق النجاة الذي ينقل الناس من هذه الجاهلية إلى حياة نظيفة هادئة تطمئن وتسكن فيها القلوب.

وكانوا على موعد مع السعادة فلقد أشرقت شمس الإسلام على أرض الجزيرة وأضاءت مشارق الأرض ومغاربها فاستجاب أصحاب القلوب الحية لنداء الحق وأعرض أصحاب القلوب المريضة عن النور الذي بدَّد ظلام الجاهلية ونقل الناس من أدران الشرك والكفران إلى أنوار التوحيد والإيمان.

وها نحن اليوم على موعد مع صحابية جليلة القدر فهي إحدى السابقات الأنصاريات ومن أوائل النساء اللاتي أعلنَّ إسلامهن قبل هجرة الحبيب ﷺ.

وحسبنا أن الله شهد للسابقين إلى الإسلام - من الرجال والنساء - بالرضوان وبالجنة فقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: الآية ١٠٠].

إنها أم حرام بنت ملحان بن خالد... الأنصارية النجارية المدنية التي أسلمت وبايعت الحبيب ﷺ وكانت واحدة من علية النساء وكان لها شأن عظيم فهي شهيدة البحر التي تاقت نفسها إلى جنة الرحمن فبشرها الصادق المصدوق ﷺ بالشهادة في سبيل الله.

فتعالوا بنا نتعايش بقلوبنا مع سيرة هذه الصحابية المباركة.

شجرة تعانق كواكب الجوزاء

وقبل أن نبدأ رحلتنا المباركة سنقف وقفة مع شجرة هذه الأسرة المباركة.

* فأما حرام هي أخت الغميصاء (أم سُليم) ﷺ وهما من النساء المبشرات بالجنة - وأنعِم بها من بشارة عظيمة -.

* وهي خالة الصحابي الجليل أنس بن مالك ﷺ الذي ملأ الدنيا كلها بعطر حديث النبي ﷺ والذي فاز بمنقبة عظيمة لا توازيها الدنيا بما فيها - فقد كان خادمًا للحبيب ﷺ -.

* وهي أيضًا أخت البطلين الشهيدين (حرام وسُليم ابني ملحان) شهدا بدرًا وأُحدًا وقُتلا شهيدين يوم بئر معونة.

* وأخوها حرام بن ملحان الذي قُتل أيضًا ببئر معونة وقال: «فزت ورب الكعبة».

* وهي أيضا أم (قيس بن عمرو بن قيس) وزوجها (عمرو بن قيس بن زيد) شهدا أُحدًا وقُتلا شهيدين فيها.

فيا لها من شجرة مباركة تعانق أغصانها كواكب الجوزاء.

إنها أسرة عريقة بإيمانها وشموخها وعزتها وتضحياتها التي قدمتها لخدمة دين الله .

ترقب ولهفة

وبعد أن أسلمت أم حرام ﷺ ولامس الإيمان شغاف قلبها ظلت هي ومن معها من رجال ونساء أهل المدينة ينتظرون اليوم الذي يهاجر فيه الحبيب ﷺ إلى المدينة المنورة لتزداد نورًا على نورها.

ودخل الحبيب ﷺ المدينة واجتمع المسلمون حوله يتعلمون الخير كله بين يديه ويأخذون من هديه وأخلاقه.

وعاشت أم حرام ﷺ أجمل أيام عمرها في تلك الحقبة التي لن تتكرر أبدًا عبر التاريخ.. إنه مجتمع تربَّى بين يدي الحبيب ﷺ ليقول للكون كله: هذا هو الإسلام وهؤلاء هم المسلمون فمن كان يستطيع أن يأتي بجيل يحاكي هذا الجيل فليأت به !!!.

لقد عاشت في صدر الإسلام بين أفضل الناس بعد الأنبياء والمرسلين ألا وهم أصحاب الحبيب ﷺ والصحابيات اللاتي شهدن الخير كله.

تتزوج رجلًا يعدل ألف رجل

وتمر الأيام وهي تعلو بإيمانها يومًا بعد يوم إلى أن جاء اليوم الذي رزقها الله فيه بالزوج الذي قال عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه «إنه يعدل ألف رجل»... إنه عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

فإنه عندما أراد المسلمون أن يفتحوا (مصر) واتجه إليها عمرو بن العاص رضي الله عنه في جيش كبير.

ولكنه عندما وصل إلى أرض مصر رأى كثرة عدد وعُدة من المصريين والروم فطلب مددًا من عمر بن الخطاب رضي الله عنه واستجاب عمر لرأي عمرو. وأمده بأربعة آلاف رجل، وكتب له كتابًا قال فيه: إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف (رجل) منهم مقام ألف.

وكان عبادة بن الصامت أحد هؤلاء الأربعة[١].

فتزوجها عبادة بن الصامت وأنجبت منه ابنها (محمد بن عبادة بن الصامت) وكان عُبادة رضي الله عنه يعلم قدرها ومنزلتها فكان لها خير زوج وكانت له خير زوجة وتعايشا في رحاب الإيمان والتوحيد.

وقفة مع هذا الزوج الكريم

وقبل أن نستكمل رحلتنا مع هذه الصحابية الجليلة أريد أن أقف وقفة يسيرة لنعلم جميعًا من هو عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

لقد كان هذا الفارس المغوار سيدًا من سادات الخزرج... فوالده الصامت ابن قيس الخزرجي وأمه قرة العين بنت عبادة.

وأخوه (أوس بن الصامت) الذي تزوج من (خولة بنت ثعلبة) التي أنزل الله فيها: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: الآية ١].

(١) أصحاب الرسول ﷺ/ للمصنف (٢/ ١٢٥).

وكان عبادة رضي الله عنه يتمنى من اعماق قلبه أن تتخلص أرض الجزيرة من تلك الجاهلية التي كادت أن تحول الحياة إلى جحيم دائم لا يغيب ولا يزول.

وإذا بالنور الإلهي ينبثق من بين الظلام الدامس ليضيء أرجاء الكون كله.. وإذا بالحبيب ﷺ تتنزل عليه رسالة ربه لينقذ الله به البشرية من ظلمات الجاهلية والكفران إلى أنوار التوحيد والإيمان.

وفي يوم بيعة العقبة الثانية كان (عبادة) من المسارعين إلى بيعة الحبيب ﷺ فوضع يده في يد النبي ﷺ ليبايعه تلك المبايعة المباركة التي لا تتكرر عبر الزمان أبدًا.

وبعد أن تمت البيعة أراد النبي ﷺ منهم أن ينتخبوا اثنى عشر زعيمًا يكونون نُقباء على قومهم يكفلون المسئولية عنهم في تنفيذ بنود هذه البيعة فقال للقوم: «**أخرجوا إليَّ منكم اثنى عشر نقيبا ليكونوا على قومكم بما فيهم**»(١).

فكان (عبادة) من نقباء الخزرج.

ولما هاجر الحبيب ﷺ فرح (عبادة) بقدومه فرحًا عظيمًا يعجز قلمي عن وصفه... فلقد كان (عبادة) يحبه حبًا مَلَكَ عليه لُبه وفؤاده.

ولقد شهد (عبادة) المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وأبلى فيها بلاءً حسنًا، فكان يقاتل فيها قتال من يبحث عن الشهادة، ويشتاق إليها اشتياق من يبحث عن قطرة ماء في صحراء موحشة.

وعندما أرسل النبي ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه سفيرًا إلى قريش في وقعة الحديبية فاحتبسته قريش عندها - ولعلهم أرادوا أن يتشاوروا معه في الوضع الراهن - فلما طال احتباسه عندهم وشاع بين المسلمين خبر مقتل عثمان قام الحبيب ﷺ ودعا أصحابه إلى البيعة فثاروا إليه يبايعونه على أن لا يفروا... وبايعته جماعة على الموت، وكان من بينهم (عبادة بن الصامت) رضي الله عنه.

فأنزل الله في شأنهم قوله تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا

---

(١) قال الهيثمي في المجمع (٦/٤٨): روى أحمد والطبراني نحوه ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع.

وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ [الفتح: ١٨-١٩].

فشهد الله لهم بالإيمان وأسبغ عليهم نعمة الرضوان(١).

باقة من مناقبها العطرة

لأم حرام رضي الله عنها مناقب تفيض بالبركة، وتتسم بالكرم؛ فمن ذلك أنها كانت حافظة واعية لحديث رسول الله ﷺ، روت عن النبي الحبيب ﷺ خمسة أحاديث، أخرج لها منها في الصحيحين حديث واحد متفق عليه(٢)، وروى عنها زوجها سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وسيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه وروى عنها كذلك عمير بن الأسود وعطاء ابن يسار ويعلي بن شداد بن أوس(٣) وغيرهم.

* ومما يضاف إلى مناقب أم حرام رضوان الله عليها، البذل والإيثار لرسول الله ﷺ والقيام على خدمته كلما زارها، وفضيلة الجود والإيثار من صفات الأنصار الذين كانوا يؤثرون على أنفسهم غيرهم، وخاصة المهاجرين من صحابة رسول الله ﷺ، وهذا بلا شك يدل على صفاء النفس من أكدار الدنيا وزُخرفها، ويدل على قوة الروح والبعد عن الشح، لأن الشح داء عُضال لا يصدر عنه خير، وقد سجل الله سبحانه هذه الميزة المباركة للأنصار فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: الآية ٩](٤).

مكانتها عند رسول الله ﷺ

وكان الحبيب ﷺ يحمل لها في قلبه كل تقدير واحترام وكان يكرمها ويزورها في بيتها في قباء - فقد كانت من علية النساء -.

---

(١) أصحاب الرسول ﷺ/ للمصنف (٢/١١٨-١٢٤). بتصرف.

(٢) المجتبى (ص ١٠٥). وقيل أنها روت سبعة أحاديث.

(٣) انظر الإصابة (٤/٤٢٤) وتاريخ الإسلام (٢/٣١٨).

(٤) نساء مبشرات بالجنة (ص ٥٤ ، ٥٥) بتصرف.

بل كان ﷺ إذا ذهب إليها يقيل عندها أحيانًا هي وأختها أم سليم رضي الله عنهما[١].

عن أنس قال: دخل علينا رسول الله ﷺ، ما هو إلا أنا وأمي وخالتي أم حرام، فقال: «قوموا فلأصل بكم» فصلى بنا في غير وقت صلاة[٢].

وفي رواية أن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت فدخل عليها رسول الله ﷺ فأطعمته وجعلت تفلي رأسه فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك قالت: فقلت: وما يضحكك يا رسول الله ؟ . . .»[٣] الحديث.

وكان الحبيب ﷺ إذا ذهب إليهم يدعو لهم بخيري الدنيا والآخرة.

عن أنس، قال: دعا لي رسول الله ﷺ فقال: «**اللهم أكثر ماله وولده، وأطل حياته**»، فالله أكثر مالي حتى إن كرمًا لي - شجرة - لتحمل في السنة مرتين، ووُلد لصُلبي مائة وستة[٤].

البشرى بالشهادة في سبيل الله

ولقد كانت رضي الله عنها تتمنى من أعماق قلبها أن تخدم هذا الدين وأن تنصره ولو كان الثمن أن تقدم حياتها فداءً لنصرة دين الله .

وكانت تشتهي أن يرزقها الله عز وجل الشهادة في سبيله . . وإذا بالبشرى تأتيها من فم الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ فلقد بشرها الحبيب ﷺ بأنها ستموت شهيدة.

عن أنس بن مالك قال: حدثتني أم حرام بنت ملحان: أن رسول الله ﷺ، قال في

(١) قال الإمام النووي: قد قدمنا في كتاب الجهاد عند ذكر أم حرام أخت أم سليم أنهما كانتا خالتين لرسول الله ﷺ محرمين إما من الرضاع وإما من النسب فتحل له الخلوة بهما وكان يدخل عليهما خاصة لا يدخل على غيرهما من النساء إلا أزواجه. قال العلماء: ففيه جواز دخول المحرم على محرمه وفيه إشارة إلى: منع دخول الرجل إلى الأجنبية وإن كان صالحا. مسلم بشرح النووي (١٦/ ١٥).

(٢) أخرجه مسلم (٦٦٠) المساجد/ باب: جواز الجماعة في النافلة.

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٨٨ ، ٢٧٨٩) ومسلم (١٩١٢) والترمذي (١٦٤٥).

(٤) أخرجه ابن عساكر (٣/ ٨٠ ب) وأخرجه بنحوه البخاري في الأدب المفرد (٦٥٣)، وابن سعد (٧/ ١٩) من طريقين عن سنان بن ربيعة، عن أنس. . قال الأرناؤوط: سنده حسن.

بيتها يومًا فاستيقظ، وهو يضحك، فقلت: يا رسول الله، ما أضحكك ؟ قال: «**عُرض عليَّ ناس من أمتي يركبون ظهر هذا البحر، كالملوك على الأَسِرَّة**». قلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. قال: «**أنت من الأولين**».

فتزوجها عبادة بن الصامت، فغزا بها في البحر، فحملها معه. فلما رجعوا قُربت لها بغلة لتركبها فصرعتها، فدقت عنقها، فماتت رضي الله عنها[1].

* وفي رواية أن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يدخل على أم حرام بنت ملحان فتُطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت فدخل عليها رسول الله ﷺ فأطعمته وجعلت تفلي رأسه فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك قالت: فقلت: وما يضحكك يا رسول الله ؟ قال: «**ناس من أمتي عُرضوا عليَّ غُزاة في سبيل الله يركبون ثَبج هذا البحر ملوكًا على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة**» - شك إسحاق - قالت: فقلت يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فدعا لها رسول الله ﷺ ثم وضع رأسه ثم استيقظ وهو يضحك فقلت: وما يضحكك يا رسول الله ؟ قال: «**ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله**» - كما قال في الأول - قالت فقلت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم. قال: «**أنت من الأولين**»... فركبت البحر في زمن معاوية بن أبي سفيان فصُرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت[2].

ثبات على المبدأ

وتمر الأيام ومازالت أم حرام رضي الله عنها تتعايش مع نور القرآن والسُنة فكانت عابدة صائمة قائمة إلى أن جاءت اللحظة التي جعلت القلوب تبكي الدماء بدل الدموع - يوم أن مات الحبيب ﷺ - فضاقت الدنيا بكل ما فيها على أم حرام وحزنت على وفاة الحبيب ﷺ حزنًا شديدًا كاد أن يمزق قلبها.

وظلت على العهد بعد وفاته ﷺ عابدة لله وهي تبحث عن الشهادة التي بشرها بها الحبيب ﷺ إلى أن جاء اليوم الذي تحققت فيه رؤيا الحبيب ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم - ومعنى قال في بيتها: من القيلولة أي النوم في وقت الظهيرة.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٨٨، ٢٧٨٩) ومسلم (١٩١٢) والترمذي (١٦٤٥).

البشرى بالجنة ... والفوز بالشهادة

جلست أم حرام رضي الله عنها تتذكر قول النبي ﷺ لها حين قال: «**أول جيش من أمتي يركبون البحر قد أوجبوا**» أي وجبت لهم الجنة - قالت أم حرام: يا رسول الله أنا فيهم ؟ قال: «**أنتِ فيهم**»(١).

وركبت أم حرام (البحر) مع زوجها عبادة بن الصامت رضي الله عنهما فلما رجعوا قُربت لها بغلة لتركبها فصرعتها فدقت عنقها فماتت رضي الله عنها ودُفنت في جزيرة قبرص... وقبرها في قبرص يُدعى بقبر المرأة الصالحة.

والعجيب أن قبرها يتبرك به أهل قبرص... قال الإمام الذهبي: وبلغني أن قبرها تزوره الفرنج(٢).

وذكر أبو الحسن بن الأثير وغيره خبر تلك الغزوة فقالوا: وكانت تلك الغزوة غزوة قبرص فدُفنت فيها، وكان أمير الجيش معاوية بن أبي سفيان في خلافة عثمان ومعه أبو ذر وأبو الدرداء، وغيرهما من الصحابة وذلك سنة سبع وعشرين(٣).

وهكذا تعايشنا بقلوبنا مع صحابية جليلة من أهل الجنة سطَّرت على جبين التاريخ سطورًا من النور ومازلنا نذكر سيرتها العطرة.

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٢٤) كتاب الجهاد/ باب: فيما قيل في قتال الروم.

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣١٧).

(٣) أسد الغابة ترجمة رقم (٧٤٠٣) - والنجوم الزاهرة (١/ ٨٥).

كبشة بنت رافع رضي الله عنها

(استشهد ولدها فاهتز له عرش الرحمن)

ظن المشركون أن بطشهم بالمستضعفين، ونيلهم من غيرهم سوف يصرف الناس عن الاستجابة لداعي الله، وظنوا أن رسائل السخرية والتهكم التي جنحوا إليها ستهدّ قوى المسلمين المعنوية فيتوارون خجلاً من دينهم ويعودون كما كانوا إلى دين آبائهم، غير أن ظنونهم سقطت جميعًا، فإن أحدًا من المسلمين لم يرتد عن الحق الذي شرَّفه الله به، بل كان المسلمون يتزايدون ! ولم تفلح طرق الاستهزاء في الصد عن سبيل الله وتشويه معالمها، إنها زادت شعور المسلمين بما تزخر به الوثنية من معرَّات ومخاز تستحق الفضيحة والاستئصال.

ولما وجد النبي ﷺ أن صخور مكة لا تقبل بذرة التوحيد... فإذا به يغرس تلك البذرة في المدينة فأثمرت جيلاً فريدًا أقام الله به دولة للمسلمين وسط صحراء تموج بالكفر موجًا.

ولكن النبي ﷺ أراد أن يُمهد لهذا الغرس فأرسل مصعب بن عمير رضي الله عنه ليدعو الناس إلى دين الله فكانت ضيفتنا المباركة ممن انفتح قلبها لتلك الدعوة المباركة فأسلمت.

إننا على موعدٍ مع صحابية جليلة قدمت الكثير والكثير لنُصرة هذا الدين العظيم.

* إنها أم الصحابي الجليل (سعد بن معاذ) الذي كان حاملاً لراية الأنصار يوم بدر... وهو واحد من مجلس الشورى يومها... بل إنه هو الذي لما مات اهتز له عرش الرحمن وضحك الله إليه وشيَّعه سبعون ألفًا من الملائكة.

* إنها هي الأم التي احتسبت بطلين من صُلبها لتكون من أهل الجنة .

* إنها إحدى نساء الأنصار المباركات وهي: كبشة بنت رافع بن معاوية بن عبيد ابن الأبجر الأنصارية الخدرية أم سعد بن معاذ الأشهلي[1].

(١) الطبقات لابن سعد (٨/ ٣٧).

* كانت زوجة لمعاذ بن النعمان من بني عبد الأشهل، وقد ولدت له سعد بن معاذ وعمرو بن معاذ وإياسًا وأوسًا وعقرب وأم حزام.

* أسلمت كبشة وبايعت رسول الله ﷺ، وكان لها كبيرُ الأثر في تاريخ نساء الإسلام، وقد أثرت التاريخ بمواقف رائعة جعلتها من الأوائل في عالم نساء الصحابة، فما أن سطعت شمس الهداية، وأشرقت المدينة بنور الإسلام، حتى سارعت أم سعد لتساهم بدورها في نصرة الإسلام بكل ما تستطيع إليه من سبيل[1].

فتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا مع سيرتها العطرة.

وأشرقت المدينة بنور التوحيد

لما بايع أهل العقبة رسول الله ﷺ ورجعوا إلى قومهم فدعوهم إلى الإسلام سرًّا وتلوا عليهم القرآن ثم أرسلوا إلى النبي ﷺ: أن أرسل إلينا رجلًا يعلم الناس القرآن والسُنة ويدعو أهل يثرب (المدينة) إلى الإسلام فما كان من النبي ﷺ إلا أن أرسل إليهم مصعب بن عمير ﷺ الذي ما إن وصل إلى المدينة حتى فتح الله به القلوب فأسلم خَلقٌ كثير من أهل المدينة وأشرقت المدينة بنور التوحيد لله .

قصة إسلامها

وتدبروا معي كيف كانت الدعوة الرحيمة التي جاء بها مصعب بن عمير سببًا في انتشار الإسلام في المدينة كلها. . . فهو الذي تعلم الرحمة بين يدي من أرسله الله رحمة للعالمين - محمد بن عبد الله ﷺ -.

وتعالوا لنتعايش مع قصة إسلام سعد بن معاذ الذي لما أسلم كان إسلامه سببًا في إسلام أمه بل وقبيلته بأكملها.

روى ابن إسحاق: أن أسعد بن زُرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بني عبد الأشهل، ودار بني ظَفَر، وكان سعد بن معاذ (ابن خالة) أسعد بن زُرارة، فدخل به حائطًا من حوائط بني ظفر.

---

(١) نساء مبشرات بالجنة (ص ١٤١).

على بئر يقال لها: بئر مَرَق[١]، فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعد بن معاذ، وأسيد بن حُضير، يومئذ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مُشرك على دين قومه، فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد ابن حضير: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليُسفِّها ضُعفاءنا، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منّي حيث ما قد علمت كفيتُك ذلك، (هو ابن خالتي) ولا أجد عليه مقدمًا، قال: فأخذ أسيد بن حُضير حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب ابن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه؛ قال مصعب: إن يجلس أكلمه. قال: فوقف عليهما مُتشتمًا، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفّهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة؛ فقال له مصعب: أوَ تجلسُ فتسمعَ، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كُفّ عنك ما تكره ؟ قال: أنصفت، ثم ركَّز حربته وجلس إليهما، فكلّمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن؛ فقالا، فيما يُذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم.. في إشراقه وتسهُّله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله ! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟ قالا له: تغتسل وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهَّد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إنّ ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلّف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، (سعد بن معاذ)، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد ابن معاذ مُقبلا قال: أحلف بالله لقد جاءكم (أُسيد) بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت ؟ قال: كلَّمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت. وقد حُدّثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زُرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ليُخفروك[٢]. قال: فقام سعد مُغضبًا مبادرًا، تخوفًا للذي ذُكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا، ثم خرج إليهما؛ فلما رآهما سعدٌ مطمئنين، عرف سعدٌ أن أُسيدًا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتمًا، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة، أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمت هذا مني[٣]، أتغشانا في دارينا بما نكره ؟ - وقد قال

(١) بئر مرق: بئر بالمدينة.

(٢) ليخفروك: نقض عهده وخاس به وغدره وأخفر الذمة: لم يفِ بها.

(٣) ما رُمتَ هذا مني: أي ما طمعت فيه ولا بلغته.

أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أي مصعب، جاءك والله سيِّدُ مَنْ وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان - قال: فقال له مصعب: أوَ تقعد فتسمع، فإن رضيت أمرًا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره ؟ قال سعد: أنصفت. ثم ركَّز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن. قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبلِ أن يتكلم، لإشراقه وتسهُّله؛ ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين ؟ قالا: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تشهَّد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، قال: فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشَّهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عامدًا إلى نادي قومه ومعه أُسيد بن حُضير.

قال: فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعدٌ بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا: سيدنا وأوصلنا وأفضلنا رأيًا، وأيمننا نقيبة(١)؛ قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله.

قالا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجلٌ ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون(٢).

في مثل هدوء البحر وقوّته، وتهلُّل ضوء الفجر ووداعته، انساب نور الإيمان على يدي مصعب إلى سادات الأنصار: أُسيد بن حضير، وسعد بن معاذ، وسعد ابن عبادة... شاب يقود ويُسيِّر جبال الإيمان، ويكون في ميزان حسناته الأنصار من الأوس والخزرج(٣).

فلله درّ مصعب بن عمير الداعية الذي على يديه أسلم الجبلان: سعد بن معاذ وأُسيد

(١) أيمننا نقيبة: النقيبة أيمن النعل. وقال ابن بُزَرج: ألهم نقيبة أي نفاذ الرأي، ورجل ميمون النقيبة: مبارك النفس، مظفر بما يحاول. [لسان/ نقب].
(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٣٨، ٤٣٩). وذكره ابن كثير في البداية (٣/ ١٥٢) من طريق ابن إسحاق، وقال جمال ثابت في تخريج السيرة النبوية لابن هشام: إسناده صحيح.
(٣) ترطيب الأفواه بذكر من يظلهم الله/ د. سيد حسين (١/ ٢٧٥، ٢٧٦).

ابن الحضير، ولله در سعد بن معاذ، فقد كان إسلامه فتحًا على الأوس والأنصار، . . . الداعية الذي أسلم بإسلامه قومه (الرجال والنساء). فليحسن الداعية خلقه مع أهله، وليجعل بينه وبينهم وصلًا، فوالله ما دخل بنو عبد الأشهل الإسلام بدايةً إلا حبًا لسعد ميمون النقيبة حسن السيرة فيهم.

وفي هذا اليوم أسلمت أم سعد بن معاذ ولامس الإيمان شغاف قلبها وأحست بأن السعادة تغمر قلبها وجوارحها بل وازدادت سعادة عندما أصبحت دارها مقرًا للدعوة الإسلامية فكانت تنشر عبير الإسلام ونسمات الإيمان لتعطر أرجاء المدينة بل والدنيا كلها.

فرحة باهرة ... وسعادة غامرة

ولما اشتد إيذاء المشركين لأصحاب الحبيب ﷺ أذن لهم النبي ﷺ بالهجرة إلى المدينة خوفًا عليهم من أن يُفتنوا في دينهم فهاجروا إلى المدينة ونزلوا في رحاب الأنصار الذين وضعوهم في عيونهم وأغلقوا الجفون خوفًا عليهم من نسيم الهواء.

وكان الأنصار في أشد الشوق واللهفة لقدوم الحبيب ﷺ. . . فلما علم الأنصار أن الله عز وجل قد أذن لحبيبه ﷺ بالهجرة إلى المدينة كادت أرواحهم أن تفارق أجسادهم من شدة الفرح.

وعلم سعد بن معاذ وأمه رضي الله عنهما بل وكل من في المدينة بخبر قدوم الحبيب ﷺ فكانوا يخرجون في كل يوم لاستقباله فإذا حان وقت الغروب كانوا يعودون والحزن يملأ قلوبهم.

وفي اليوم الموعود وصل إلى مسامعهم بأن الحبيب ﷺ على مشارف المدينة، فامتلأت شوارع المدينة كلها بالرجال والنساء والأطفال. . . الكل يريد أن يرى خير مخلوقٍ عرفته البشرية كلها ﷺ.

فلو اجتمعت أعياد الكون كله في تلك اللحظة ما كانت تساوي جزءًا من ألف جزءٍ

من فرحة المسلمين بقدوم المصطفى ﷺ [(١)].

أمنية غالية

وكانت أم سعد رضي الله عنها تتمنى من أعماق قلبها أن ينزل النبي ﷺ في بيتها لتسعد سعادة الدنيا والآخرة ولكن الله اختار لحبيبه ﷺ دار بني النجار فنزل في بيت أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه - ويالها من كرامة لا توازيها الدنيا بكل ما فيها -.

ولنترك المجال لأبي أيوب رضي الله عنه يحدثنا عن تلك الفرحة الشديدة التي ملأت عليه جوانحه وجوارحه لنزول النبي ﷺ عليه في بيته.

عن أبي أيوب قال: لما نزل عليَّ رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السُفل، وأنا وأم أيوب في العُلو، فقلت له: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي إني لأكره وأُعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العُلو، وننزل نحن فنكون في السفل، فقال: «**يا أبا أيوب، إنَّ أرفقَ بنا وبمن يغشانا أن نكون في سُفل البيت**»[(٢)].

وفي رواية أخرى: أن رسول الله ﷺ لما نزل المدينة نزل على أبي أيوب فنزل النبي ﷺ أسفل، وأبو أيوب في العلو، فانتبه أبو أيوب ذات ليلة فقال: نمشي فوق رأس رسول الله ﷺ ! فتحول فباتوا في جانب. فلما أصبح ذكر ذلك للنبي ﷺ. فقال النبي ﷺ :«**أسفل أرفق بي**» فقال أبو أيوب: لا أعلو سقيفة أنت تحتها. فتحول أبو أيوب في السفل، والنبي ﷺ في العلو[(٣)].

وعن أبي رُهم: أن أبا أيوب حدثه: أنَّ رسول الله ﷺ نزل في بيتنا الأسفل، وكنت في الغرفة، فأهريق ماءٌ في الغرفة، فقمتُ أنا وأُمُ أيوب بقطيفة لنا نتتبعُ الماء، ونزلت فقلتُ: يا رسول الله، لا ينبغي أن نكون فوقك، انتقل إلى الغرفة، فأمر بمتاعه فنُقِلَ - ومتاعهُ قليلٌ - قلتُ: يا رسول الله، كنت تُرسلُ بالطعامِ، فأنظرُ، فإذا رأيتُ أثر أصابعك، وضعتُ فيه

(١) أصحاب الرسول ﷺ للمصنف (١/ ٣٨٣).

(٢) أخرجه مسلم (٣/ ١٧١ ، ١٦٢٣) كتاب الفتن.

(٣) أخرجه مسلم (٣/ ١٧١).

يدي[1] - يلتمس بركة الحبيب ﷺ -.

خير دور الأنصار

ولقد كانت ديار الأنصار تتسابق إلى خدمة الحبيب ﷺ وأصحابه من المهاجرين... فبدأ الخير يفيض من النساء الأنصاريات وكانت أم سعد في المقدمة فهي لا تريد أن تفوتها فرصة تستطيع من خلالها أن تقدم أي شيء لخدمة هذا الدين العظيم ولخدمة سيد الأولين والآخرين - محمد بن عبد الله ﷺ -.

ووقف النبي ﷺ أمام تلك التضحيات ليُعبر عن سعادته وتقديره لهؤلاء الأنصار الكرام فقال ﷺ: «**ألا أخبركم بخير دور الأنصار ؟ دار بني ساعدة وفي كل دور الأنصار خير**»[2].

أول من بايعت النبي ﷺ

ألم أقل لكم إنها كانت حريصة على أن تكون سابقة إلى كل خير... فها هي تحرص على تلك المنقبة العظيمة بأن تكون أول من تبايع الحبيب ﷺ.

فلقد ذكر ابن سعد أن أول من بايع النبي ﷺ أم سعد بن معاذ كبشة بنت رافع ابن عبيد وأم عامر بنت يزيد بن السكن وحواء بنت يزيد بن السكن[3].

مواقف لا تنسى

وكان لأم سعد مواقف لا ينساها التاريخ أبدًا ... فهي التي كانت تحمل أمانة الدين على كتفيها وتتمنى أن تقدم أي شيء لخدمة هذا الدين ولو ضحَّت من أجل ذلك بمالها وأولادها ونفسها وكل ما تملك.

وفي غزوة بدر خرج ولداها سعد بن معاذ وأخوه عمرو بن معاذ رضي الله عنهما ليجاهدا في سبيل الله ففرحت بهما فرحًا عظيمًا وكانت تتمنى أن يرزقهما الله الشهادة في سبيله...

(١) رواه أحمد في مسنده (٥/ ٤٢٠) وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي عن أنس.

(٣) الطبقات لابن سعد (٨/ ١٢).

فقاتلا قتال من يبحث عن الشهادة وكانت النُصرة لجند المسلمين فعادا إلى المدينة مرة أخرى يحملان بشائر النصر ففرحت تلك الأم المؤمنة فرحًا شديدًا بهذا النصر وازداد فرحها عندما علمت بهذا الموقف التاريخي الذي وقفه ابنها سعد بن معاذ لنُصرة هذا الدين.

فتعالوا بنا لنتعايش مع هذا الموقف بقلوبنا وأرواحنا لنعلم كيف تكون النُصرة لدين الله عز وجل .

هكذا تكون النصرة

لما تحوَّل الموقف يوم بدرٍ من مجرد الحصول على العير إلى قتالٍ بين المسلمين والمشركين أراد النبي ﷺ أن يعرف رأي الصحابة قبل الدخول في تلك المعركة الحاسمة فاستشار أصحابه فتكلم أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، وكذلك المقداد بن عمرو، وهؤلاء القادة الثلاثة الذين كانوا من المهاجرين، وهم أقلِّية في الجيش، فأحب رسول الله ﷺ أن يعرف رأي قادة الأنصار؛ لأنهم كانوا يمثلون أغلبية الجيش، ولأن ثقل المعركة سيدور على كواهلهم، مع أن نصوص العقبة - بيعة العقبة - لم تكن تُلزمهم بالقتال خارج ديارهم، فقال بعد سماع كلام هؤلاء القادة الثلاثة: «**أشيروا عليّ أيها الناس**» وإنما يريد الأنصار، وفطن إلى ذلك قائد الأنصار، وحامل لوائهم سعد بن معاذ، فقال: والله، لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟

قال: «**أجل**»، قال: فقد آمنا بك، فصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوًا غدًا، إنا لصُبرٌ في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله.

وفي رواية: أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ: لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقًا عليها أن لا تنصرك إلا في ديارهم، وإني أقول عن الأنصار، وأجيب عنهم: فاظعن

حيث شئت، وصِل حبل مَن شئت، واقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك.

فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشَّطه ذلك، ثم قال: **«سيروا وأبشروا؛ فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم»**(١).

وفي غزوة أحد

أما في غزوة أحد، فقد خرجت أم سعد رضي الله عنها مع من خرج من النساء ينظرن إلى سلامة رسول الله ﷺ بعد أن وردت الأخبار إلى المدينة باستشهاد عدد من المسلمين، وكان من بين الشهداء ابنها عمرو بن معاذ(٢)، ولكن الأم الخيرة كانت ترجو سلامة رسول الله ﷺ، وأقبلت مسرعة نحو أرض المعركة، ولما رأت رسول الله ﷺ سالمًا حمدت الله وقالت: أما إذ رأيتك سالمًا فقد أشوت - هانت - المصيبة. فعزاها رسول الله ﷺ بابنها عمرو.

وكان عمرو بن معاذ رضي الله عنه يجالد في صفوف المشركين حتى لقيه ضرار بن الخطاب - وكان يومذاك ما يزال على شركه - فقتله.

ومن الجدير بالذكر أنه قد استشهد من بني عبد الأشهل اثنا عشر رجلًا، صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فحظوا برضوانه ونعيمه، كما كان فيهم ثلاثون جريحا(٣).

قتلاهم ترافقوا في الجنة جميعًا

وقبل أن يدخل الرسول ﷺ المدينة جاءت أم سعد بن معاذ سيد الأنصار رضي الله عنهما تعدو

(١) أورده ابن هشام في السيرة (٢/ ٤٤٧) بدون سند، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٨) (٨/ ٤٦٩)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٣٤)، وذكره الحافظ في الفتح (٧/ ٢٨٨) من حديث علقمة ابن وقاص مرسلًا، وفي الباب عن أنس عند مسلم (١٧٧٩).

(٢) أنساب الأشراف (١/ ٣٢٨).

(٣) نساء مبشرات بالجنة (ص ١٤٤).

نحو رسول الله ﷺ وهو على فرسه وسعد آخذ بلجامها، فقال سعد: يا رسول الله.. أمي، فقال: «مرحبًا بها»، فوقف لها، فلما دنت من رسول الله ﷺ عزَّاها بابنها عمرو بن معاذ - وقد استشهد في غزوة أُحد وله اثنان وثلاثون سنة - فقالت: أما إذا رأيتك سالمًا، فقد اشتويْتُ المصيبة - أي استقللتها -، ثم دعا رسول الله ﷺ لأهل من قُتل بأحد، وقال لأم سعد: «**يا أم سعد أبشري، وبشِّري أهلهم أن قتلاهم ترافقوا في الجنة جميعًا، وقد شفعوا في أهلهم جميعًا**»، قالت: رضينا يا رسول الله، ومن يبكي عليهم بعد هذا؟ ثم قالت: يا رسول الله ادع لمن خلفوا منهم، فقال ﷺ: «**اللهم أذهب حزن قلوبهم، واجبر مصيبتهم، وأحسن الخلف على من خلفوا**»(١).

حرصها على أن يكون ابنها في مقدمة المجاهدين

(يوم الخندق)

قال ابن إسحاق: حدثني أبو ليلى عبد الله بن سهل أن عائشة كانت في حصن بني حارثة يوم الخندق وأم سعد معها، فعبر سعد عليه درع مقلَّصة قد خرجت منه ذراعه كلها وفي يده حربة يرفل بها ويقول:

لبِّث قليلاً يشهد الهيجا حمل ... لا بأس بالموت إذا كان الأجل

فقالت له أمه: أي بني! قد أخرت. فقلت لها: يا أم سعد، لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هي. فرُمي سعد بسهم قطع منه الأكحل، رماه ابن العرقة، فلما أصابه قال: خذها مني وأنا ابن العرقة فقال: عرَّق الله وجهك في النار. اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا، فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إليَّ من أن أجاهدهم فيك من قوم آذوا نبيك وكذبوه وأخرجوه. اللهم إن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم، فاجعلها لي شهادة، ولا تُمتني حتى تقر عيني من بني قريظة(٢).

واستجاب الله دعاء سعد رضي الله عنه فلقد جاء الأمر الإلهي بالتوجه إلى بني قريظة بعد ما

---

(١) السيرة الحلبية (٢/ ٤٧).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١٤١) وابن هشام (٢/ ٢٢٦) وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات - السير (١/ ٢٨١، ٢٨٢).

نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ في غزوة الخندق.

لقد حكمت فيهم بحكم الله

فأتاهم رسول الله ﷺ فحاصرهم خمس وعشرين ليلة، فلما اشتد حصرهم واشتد البلاء، قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فاستشاروا (أبا لبابة بن عبد المنذر)، فأشار إليهم أنه الذبح. فقالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ فأُتي به على حمار عليه إكاف من ليف قد حُمل عليه وحَفَّ به قومه، وقالوا له: يا أبا عمرو حلفاءك ومواليك وأهل النكاية ومن قد علمت، فلم يرجع إليهم شيئًا ولا يلتفت إليهم، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال: قد أتى لي أن لا يأخذني في الله لومة لائم. قال أبو سعيد: فلما طلع قال رسول الله ﷺ «**قوموا إلى سيدكم فأنزلوه**». قال عمر: سيدنا الله. قال «**أنزلوه**» فأنزلوه. قال رسول الله ﷺ: «**احكم فيهم**». قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تُقتل مقاتلتهم وتُسبى ذراريهم وتقسم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله** عز وجل **وحكم رسوله**». قال: ثم دعا سعد فقال: اللهم إن كنت أبقيت على نبيك من حرب قريش شيئًا فأبقني لها، وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني إليك. قالت: فانفجر كَلمه - جُرحه - وكان قد برأ مثل الخرص[1].

قالت عائشة رضي الله عنها : ورجع إلى قبته التي ضرب عليه رسول الله ﷺ قالت عائشة: فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر. قالت: فوالذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر وأنا في حجرتي، وكانوا كما قال الله عز وجل ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾. قال علقمة: فقلت: أي أمه فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع؟ قالت: كانت عينه لا تدمع على أحد، ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلحيته[2].

وفي بني قريظة نزل قول الله تعالى :﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ

(١) الحلقة الصغيرة من الحلمة.

(٢) قال الهيثمي: في الصحيح بعضه رواه أحمد وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث وبقية رجاله ثقات. مجمع الزوائد (٦/ ١٣٧ ، ١٣٨).

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧]

كل باكية تكذب إلا أم سعد

وحزنت أم سعد لموت ابنها حُزنًا كاد أن يمزق قلبها لولا أن الله عصمها بإيمانها.

عن محمود بن لبيد قال: لما أُصيب أكحلُ سعد، فثقل، حوَّلُوه عند امرأة يقال لها رُفيدة تُداوي الجرحى. فكان النبي ﷺ إذا مر به يقول: «**كيف أمسيت، وكيف أصبحت**»؟ فيخبره حتى كانت الليلة التي نقله قومه فيها وثقل، فاحتملوه إلى بني الأشهل إلى منازلهم، وجاء رسول الله ﷺ، فقيل: انطلقوا به. فخرج وخرجنا معه، وأسرع حتى تقطعت شسوعُ نعالنا، وسقطت أرديتنا، فشكا ذلك إليه أصحابه، فقال: «**إني أخاف أن تسبقنا إليه الملائكة فتغسله كما غسلت حنظلة**» فانتهى إلى البيت، وهو يُغسل، وأمه تبكيه وتقول:

ويل أم سعد سعدا حزامة وجُدا

فقال: «**كُلُّ باكيةٍ تكذبُ إلا أم سعد**» ثم خرج به. قال: يقول له القوم: ما حملنا يا رسول الله ميتًا أخفَّ علينا منه. قال: «**ما يمنعه أن يخفَّ وقد هبط من الملائكة كذا وكذا لم يهبطوا قطُّ قبل يومهم، قد حملوه معكم**»(١).

ابنك أول من ضحك الله له واهتز له العرش

وها هو الحبيب ﷺ يدخل على سعد وهو يكيد نفسه فقال: «**جزاك الله خيرًا من سيد قومٍ، فقد أنجزت ما وعدته. ولينجزنَّك الله ما وعدك**»(٢).

فها هو سعد بن معاذ يهتز لموته عرش الرحمن عزوجل.

قال ﷺ: «**اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ**»(٣).

وعن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: لما توفي سعد بن معاذ صاحت أمه فقال

(١) أخرجه ابن سعد (٣/ ٢/ ٧، ٨) وحسنه الأرناؤوط في السير (١/ ٢٨٧).
(٢) قال الأرناؤوط: رجاله ثقات - أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٢/ ٩).
(٣) متفق عليه: عن جابر، وأخرجه مسلم وأحمد عن أنس.

النبي ﷺ: **«ألا يرقا دمعُك ويذهب حزُنكِ بأن ابنك أول من ضحك الله له واهتز له العرش؟»** [١].

وعن جابر رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ يومًا إلى سعد بن معاذ حين تُوفي. قال: فلما صلى عليه رسول الله ﷺ، ووُضع في قبره، وسُوي عليه سبّح رسول الله ﷺ تسبيحًا طويلاً. ثم كبَّر فكبرنا. فقيل: يا رسول الله، لِمَ سبحت ثم كبرت ؟ قال: **«لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرجه الله عز وجل عنه»** [٢].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«هذا العبد الصالح الذي تحرك له العرش، وفُتحت أبواب السماء، وشهده سبعون ألفًا من الملائكة لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك، لقد ضُمَّ ضمَّة ثم أُفرج عنه»** يعني سعدًا [٣].

فلما سمعت أم سعد كل هذا الخير الذي حدث لابنها سعد كاد قلبها أن يطير فرحًا باستشهاد ابنها... ويالها من أمٍّ صابرة راضية بقضاء الله فها هي تحتسب ابنها الثاني ترجو بذلك أن تفوز بثواب الصابرين.

فلقد قال ﷺ: **«ما منكن امرأة تقدم بين يديها ثلاثة من ولدها، إلا كانوا لها حجابًا من النار**، قالت امرأة: واثنين ؟ قال: **واثنين»** [٤].

وقال ﷺ: **«بخٍ بخٍ لخمس ما أثقلهن في الميزان: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، والولد الصالح يتوفى للمرء المسلم فيحتسبه»** [٥].

وحان وقت الرحيل

وبعد تلك الرحلة الإيمانية الطويلة المباركة نامت أم سعد رضي الله عنها على فراش الموت لتلحق بأحبابها في جنات النعيم... فهي العابدة القائمة الصائمة التي

(١) قال الهيثمي في المجمع (٩/ ٣٠٩) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح ووافقه الذهبي في تلخيصه.
(٢) رواه أحمد (٣/ ٣٦٠-٣٧٧) وصححه الحاكم (٣/ ٢٠٦) مختصرًا ووافقه الذهبي.
(٣) أخرجه النسائي (٤/ ١٠٠) في الجنائز: باب ضمة القبر وضغطه، وابن سعد (٣/ ٢/ ٩) - وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٩٨٧).
(٤) متفق عليه: عن أبي سعيد ، صحيح الجامع (٥٨٠٥).
(٥) رواه البزار عن ثوبان، وأحمد عن أبي أمامة - صحيح الجامع (٢٨١٧).

احتسبت ولديها عند الله - جل جلاله - وهي التي بذلت نفسها ومالها وأولادها لنُصرة دين الله.

وماتت رضي الله عنها لترحل عن دنيا الناس ولكن سيرتها لم ولن ترحل وستظل سيرتها نورًا على الدرب.

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

* * *

سمية بنت خباط رضي الله عنها

(أول شهيدة في الإسلام)

وها نحن نتعايش من خلال تلك السطور مع قصة الصبر على البلاء.

إنها قصة تتكرر كل يوم... إنه الصراع الدائم بين الإيمان والكفر.

إننا على موعد مع أول شهيدة في الإسلام.. تلكم المرأة الطاهرة التي خلد التاريخ ذكرها وأعلى الإسلام قدرها ومنزلتها.

إنها سمية بنت خباط رضي الله عنها التي بشرها الحبيب ﷺ بالجنة ويالها من بشرى يُستعذب العذاب من أجلها.

فتعالوا بنا لنفتح الصفحة التي تحكي لنا قصة صبرها لتكون تسلية لنا في زمن الغربة الثاني الذي نعيشه الآن.

موعد مع السعادة

وتبدأ القصة عندما قدم ياسر - والد عمار - من اليمن مع أخويه الحارث ومالك إلى مكة ليبحثوا عن أخٍ لهم فقدوه منذ سنوات، ومن هذا الوقت وهم يطوفون في البلدان بحثًا عنه فانتهى بهم المطاف في أرض مكة فبحثوا عنه فلم يجدوه فعاد (الحارث ومالك)... وأما (ياسر) فلم يعد لأنه أحس بسعادة عجيبة ونشوة غريبة جعلته يؤثر البقاء في مكة وهو لا يعلم أنه بذلك قد دخل التاريخ من أوسع أبوابه، بل وأشرفها.

وكان من عادة العرب أنه إذا دخل رجل غريب إلى أي بلدة واستقر بها فلا بد أن يحالف سيدًا من سادات القوم ليمنعه من أذى الناس وليستطيع أن يعيش حياة هادئة مطمئنة في ذلك المكان.

فحالف (ياسر) (أبا حذيفة بن المغيرة المخزومي) فأحبه الرجل من أعماق قلبه لما رأى منه من نبيل الخصال وكريم الفعال ونفاسة معدنه، وأراد أن يتقرب منه أكثر من ذلك فزوجه من أَمةٍ له تُدعى «سمية بنت خباط»[1].

---

(١) أصحاب الرسول ﷺ للمصنف (١/ ٥٢٣ ، ٥٢٤).

وهي بطلة قصتنا التي لم يكن لها ذِكرٌ في مكة كلها لأنها كانت لا يتعدّى شأنها إلا القيام على خدمة سيدها (أبي حذيفة بن المغيرة) ولكنها لم تكن تعلم أن الكون كله سيذكر اسمها بعد ذلك بكل فخر واعتزاز وأنها ستكون أول شهيدة في الإسلام وأنها ستكون من أهل الجنة ببشارة تخرج من فم الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ.

ولما تزوج ياسر من سمية أنجبتِ له غلامًا مباركًا ألا وهو عمار بن ياسر - رضي الله عنهم جميعًا - الذي كان قرة عين لهما. . واكتملت الفرحة في قلوبهم يوم أن أعتقه أبو حذيفة وحرره من العبودية. . ثم مات أبو حذيفة.

شمس الإسلام تشرق على أرض الجزيرة

وبعد قرون طويلة عاشتها البشرية في ظلمات الشرك والجاهلية، وإذا بشمس الإسلام تشرق على أرض الجزيرة لتُخرج الناس من ظلمات الجاهلية إلى أنوار التوحيد والإيمان ولتنقلهم من البؤس والشقاء إلى سعادة الدنيا والآخرة. . إلى جنة الدنيا التي تثمر لهم بعد ذلك جنة الآخرة.

إنهم على موعد مع حياة جديدة. . بل إن صح القول - مع مولد جديد - وفي تلك الساعات يسمع عمار رضي الله عنه عن تلك الرسالة المحمدية - على صاحبها الصلاة والسلام- فانفتح قلبه لنداء الإيمان، وذهب إلى دار الأرقم وأقدامه تسابق الريح وكأنه يسابق الزمن. فما إن وصل ورأى النبي ﷺ وسمع منه حتى كاد يطير من شدة الفرح.

نعم إن هذا الدين هو طوق النجاة للبشرية كلها. فما كان منه إلا أن بسط يده للحبيب ﷺ وقال بقلبه ولسانه: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ [(١)].

جنة الدنيا ... وجنة الآخرة

وعاد عمار رضي الله عنه إلى أبويه وأقدامه تسابق الريح يريد أن يأخذ بأيديها إلى جنة الدنيا التي ستثمر لهم النعيم في جنة الآخرة.

وما إن رآهما عمار حتى عرض عليهما الإسلام وقرأ عليهما القرآن وإذا بتلك القلوب

(١) أصحاب الرسول ﷺ/ للمصنف (١/ ٥٢٤).

النقية الطاهرة تنفتح وتبتهج بسماع كلام الله.. وإذا بياسر وسمية رضي الله عنهما يشعران بالنور وهو يضيء أرجاء الكون من حولهما فيقول كل واحد منهما في لحظة واحدة: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ.

وانطلقت الأسرة الكريمة المباركة في رحلتها إلى جنة الرحمن.. وعلى الرغم من أن الطريق صعب وشاق وطويل، لكن عاقبته محمودة وغالية.. ويكفي أن يضع المؤمن قدميه على أول الطريق ويستعين بالملك حتى يجني ثمار الإيمان في الدنيا والآخرة.

صبر واحتساب

وما هي إلا ساعات معدودة حتى طار خبر إسلامهم إلى «بني مخزوم» فاستشاطوا غضبًا.. وصبوا على آل ياسر أشد العذاب.

فكانوا إذا حميت الظهيرة يأخذونهم إلى بطحاء مكة ويُلبسونهم دروع الحديد، ويمنعون عنهم الماء ويصهرونهم في الشمس المحرقة ويصبون عليهم من جحيم العذاب ألوانًا؛ حتى إذا بلغ منهم الجهد مبلغا أعادوا معهم الكَرَّة في اليوم الذي يليه.

وكان هذا شأن كل من أظهر إسلامه بمكة، ولكن درجات العذاب كانت تتفاوت فيما بينهم[1].

فما كان منهم إلا أن صبروا واحتسبوا ذلك كله عند الله لأنهم يعلمون يقينًا أن سلعة الله غالية (ألا وهي الجنة) وأنه لابد من بذل النفس والنفيس من أجل الفوز بالجنان وبرضوان الرحيم الرحمن.

سمية أول من أظهرت إسلامها من النساء

فسمية رضي الله عنها أول من أظهرت إسلامها واستعذبت العذاب في سبيل الله[2].

فقد كانت في طليعة المؤمنات الصادقات السابقات إلى الإسلام فنالت السبق وفازت بالبشارة العظمى - الجنة -.

ولقد امتدح ابن عبد البر رحمه الله سمية وذكر صبرها وثباتها فقال:كانت سمية ممن

(١) أصحاب الرسول ﷺ / للمصنف (١/ ٥٢٥).

(٢) ومن المعلوم أن خديجة رضي الله عنها هي أول من أسلمت - فلا تعارض - فخديجة أول من أسلمت وسمية أول من أظهرت إسلامها.

عُذبت في الله وصبرت على الأذى في ذات الله وكانت من المبايعات الخيرات الفاضلات رحمها الله[١].

وعن عبد الله قال: أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سُمية، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم، فألبسهم المشركون أدراع الحديد، وصفدوهم في الشمس، وما فيهم أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدان يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول: أحدٌ أحد[٢].

البُشرى بالجنة

وظل المشركون يعذبون سمية وزوجها ياسر وابنها عمار - رضي الله عنهم - وهم يستعذبون العذاب في سبيل الله .. وإذا بالحبيب محمد ﷺ يمر عليهم ويقول لهم **«أبشروا آل عمار فإن موعدكم الجنة»**[٣] الله أكبر.. لقد هبت رياح الجنة على قلوبهم فأطفأت نار العذاب في غمضة عين.

وهنا بدأت نفوسهم تشعر بالراحة والطمأنينة.. وبدلاً من المعاناة التي كانوا يجدونها من أثر التعذيب أصبحوا يستعذبون العذاب في سبيل الله ويحلمون بالجنة ليلاً ونهارًا.

أول شهيدة في الإسلام

وكان أبو جهل الفاسق - الذي يغري بهم في رجال من قريش - إن سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعة، أنّبه وخزّاه وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنُسفِّهنَّ حلمك، ولنفلين رأيك، ولنضعن شرفك. وإن كان تاجرًا قال: والله لنكسدن تجارتك

(١) الاستيعاب/ (٤/ ٣٢٤).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٤٩) والحاكم (٣/ ٢٨٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي: صحيح.

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ١٨٨) وقال مصطفى العدوي: صحيح لشواهده. أما قوله ﷺ: **«صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»** فرواه الحاكم (٣/ ٣٨٣) وسكت عنه الحاكم والذهبي لأنه منقطع.

ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفًا ضربه، وأغرى به، لعنه الله وقبحه[(١)].

وظلت الصحابية الكريمة سمية رضي الله عنها تتحمل العذاب، وتصبر على أذى أبي جهل صبر الأبطال، فلم تصبأ، ولم تهن عزيمتها أو يضعف إيمانها الذي رفعها إلى مستوى الخالدات من النساء، بل الأوليات في لائحة الصابرات[(٢)].

وبدأت المحنة تتحول إلى منحة ربانية بعد أن بشرهم النبي ﷺ بالجنة، وهنا تقوم (أم عمار) سمية رضي الله عنها لتكتب بدمها سطورا من النور على جبين التاريخ لتكون أول شهيدة في الإسلام. وذلك عندما تعرض لها الهالك أبو جهل - عليه من الله ما يستحقه - فطعنها في موطن عفتها فقتلها[(٣)].

قال مجاهد رحمه الله أول شهيدة كانت في أول الإسلام أم عمار سمية طعنها أبو جهل بحربة في قُبلها[(٤)].

وكان استشهاد سمية رضي الله عنها في السنة السابعة قبل الهجرة فيا ليت نساء المسلمين يتخذن من سيرة الصحابية الجليلة مثلًا يحتذينه في التضحية والفداء، والصبر والصمود.

رضي الله - تعالى - عن سمية أم عمار، ورحم الله أول شهيدة في الإسلام، وأم أول من بنى مسجدًا يُصلَّى فيه (عمّار) وسلام عليك أيتها الأسرة الياسرية الصامدة، والله - تعالى - المسؤول أن يعوضهم على صبرهم وجهادهم بجنة عرضها السموات والأرض، أُعدت للمتقين، وما ذلك على الله بعزيز[(٥)].

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

* * *

---

(١) البداية والنهاية (٥/ ٥٩).
(٢) نساء مبشرات بالجنة (ص ١٣٤).
(٣) أصحاب الرسول ﷺ للمصنف (١/ ٥٢٧).
(٤) البداية والنهاية (٣/ ٥٩).
(٥) صور من سير الصحابيات/ السحيباني (ص ١٤٣).

أم ورقة بنت الحارث رضي الله عنها

(قِرّي في بيتك فإن الله تعالى يرزقك الشهادة)

محمد رسول الله ﷺ

لقد رفع الإسلام المرأة إلى أبعد مما يطمح خيالها، ويصبو أملها، وساق لها من آي الذكر الحكيم، ما بهر سناه بصرها، وملكت محجته نفسها، واستقادت بلاغته وحسن مساقه قلبها، وأنصتت لما وصف به الله رحمته وعزته، وناره وجنته، وما أعد للصابرات والمحسنات من جزيل الأجر، وسَنيّ المنزلة، فأثار ذلك عاطفتها، وأفاض وجدانها، وأنار بصيرتها، فكان حقا لذلك أن يصيب حبة قلبها، ويجُول في مجال دمها، ويتأشب بين أحناء ضلوعها(١).

وها نحن اليوم على موعدٍ مع صحابية جليلة وحّدت همومها فجعلتها همًّا واحدًا - هم الآخرة - فكانت لا تنشغل بزخارف الدنيا الفانية بل كانت تعلم يقينًا أن تسبيحة واحدة في صحيفة المؤمن خيرٌ من الدنيا وما فيها فجعلت بيتها مسجدًا وضربت المثل في العبادة وتعايشت مع كتاب الله حتى أصبحت كل آية فيه وكأنها تسري في عروقها لتغذي قلبها بنضرة الإيمان ورحيق الطاعة.

إننا على موعدٍ مع الصحابية الجليلة: أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث الأنصارية.

فتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا مع سيرتها العطرة من خلال تلك السطور.

كانت من السابقات

لما بعث الله حبيبه ﷺ وأرسله بالهدى ودين الحق كانت هناك قلوب طاهرة تنتظر هذا الدين العظيم لتعيش في رحاب الطُهر وتنعم في ظل الإيمان... فاستجابت تلك القلوب لدعوة الحق من أول وهلة ولم تتأخر عن دعوة الحق وما كان لأصحاب الفطر السليمة النقية التقية أن يتأخروا عن هذا الخير.

ولما اشتد إيذاء المشركين بأصحاب الحبيب ﷺ أَذن لهم في الهجرة ثم هاجر بعدهم

(١) عودة الحجاب/ الشيخ محمد إسماعيل (٢/ ٥٣٩).

الحبيب ﷺ إلى المدينة التي أضاء كل شيء فيها بقدوم النبي ﷺ.

وكانت ضيفتنا المباركة «أم ورقة» واحدة من نساء الأنصار اللائي سطَّرن أروع الصفحات في تاريخ الإسلام وقد أسلمت مع السابقات وبايعت رسول الله ﷺ وروت عنه فكانت ممن قال الله فيهم :﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: الآية ١٠٠] .

فرحتها بقدوم النبي ﷺ

قال عروة بن الزبير: سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة، فينتظرون حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يومًا بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أُطم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب، هذا جدكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح(١).

قال الإمام ابن القيم: وسُمعت الوجبة والتكبير في بني عمرو بن عوف. وكبر المسلمون فرحا بقدومه، وخرجوا للقائه، فتلقوه وحيوه بتحية النبوة، فأحدقوا به مطيفين حوله، والسكينة تغشاه، والوحي نزل عليه :﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: الآية ٤] (٢).

وكانت المدينة كلها قد زحفت للاستقبال، وكان يومًا مشهودًا لم تشهد المدينة مثله في تاريخها، وقد رأى اليهود صدق بشارة حبقوق النبي: إن الله جاء من التيمان والقدوس من جبال فاران(٣).

وبعد الجمعة دخل النبي ﷺ المدينة، ومن ذلك اليوم سميت بلدة يثرب بمدينة الرسول ﷺ ويعبر عنها بالمدينة مختصرًا، وكان يومًا تاريخيًا أغر، فقد كانت البيوت والسكك ترتج بأصوات التحميد والتقديس، وكانت بنات الأنصار تتغنى بهذه الأبيات فرحًا وسرورًا:

---

(١) رحمة للعالمين (٢/ ١٠٢).

(٢) زاد المعاد (٢/ ٥٤).

(٣) صحيفة حبقوق (٣/ ٣).

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وهنا أحست (أم ورقة) بأن السعادة تغمر قلبها وترفرف على سمائها وتسكن جوارحها.. فقد جاء النبي ﷺ الذي لطالما سمعت عنه وآمنت برسالته.. جاء الحبيب ﷺ الذي أنقذ الله به البشرية كلها من ظلمات الشرك والكفران إلى أنوار التوحيد والإيمان.

وأخذت (أم ورقة) تنهل من النبع الصافي مباشرة فقد كانت تغتنم كل فرصة لتتعلم ما يعينها على طاعة الله.

العابدة في محرابها

وعندما لامس الإيمان شغاف قلبها وبايعت الحبيب ﷺ بدأت تتعايش مع آيات الله فكانت تقرأ القرآن آناء الليل وأطراف النهار حتى صارت قارئة مجيدة تُتقن قراءته وفهمه وحفظه غاية الإتقان.

بل وعكفت على جمع الآيات المكتوبة على العظم والجلد وغيرها حتى جمعت القرآن كله في بيتها... وعندما أراد أبو بكر رضي الله عنه أن يجمع القرآن بعد وفاة رسول الله ﷺ كانت (أم ورقة) من المراجع الأساسية والهامة التي عول عليها الخليفة عندما أمر (زيد ابن ثابت) بجمع القرآن.

هكذا كانت رضي الله عنها صائمة قائمة عابدة لله عاكفة على خدمة دين الله.

مكانتها عند رسول الله ﷺ

وكان رسول الله ﷺ يقدر (أم ورقة) ويعرف مكانتها ويقدر تقواها وعبادتها وورعها واهتمامها البالغ بكتاب الله عز وجل فكان يزورها بين الحين والحين إكرامًا لها وإعزازًا لمكانتها.

عن عبد الرحمن بن خلاد عن أم ورقة رضي الله عنها قال: «كان رسول الله ﷺ يزورها في بيتها وجعل لها مؤذنًا يؤذن لها وأمرها أن تؤم أهل دارها»[1] قال عبد الرحمن - راوي

(١) رواه أبو داود وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٥٥٣).

الحديث -: فأنا رأيت مؤذنها شيخًا كبيرًا.

وكانت أم ورقة تسعد بزيارة رسول الله ﷺ سعادة ليس لها حدود - وحُق لها أن تسعد بذلك فإن أحدنا يتمنى أن يرى النبي ﷺ مرة واحدة في منامه فكيف بمن يزوره النبي ﷺ في بيته ؟-.

وهكذا جعلت أم ورقة رضي الله عنها من بيتها مسجدًا تؤدي فيه الصلوات كلها، وذلك بإشارة من النبي ﷺ الكريم الذي لاحظ نقاء نفسها وصفاء سريرتها، فجعلها إمامًا للنساء، فكن يقتدين بها في العبادة والعلم والزهد.

إن الله يرزقك الشهادة

قال ﷺ: **«من سأل الشهادة بصدقٍ بلَّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»**[(١)].

لقد كانت أم ورقة تحب الجهاد وتشتهي الشهادة في سبيل الله فلما علمت أن النبي ﷺ قد ندب أصحابه للخروج في غزوة بدر فما كان منها إلا أن أسرعت نحو النبي ﷺ تستأذنه في أن تخرج معه لتداوي الجرحى طمعًا منها في أن يرزقها الله الشهادة في سبيله فما كان من النبي ﷺ إلا أن طلب منها أن تجلس في بيتها وبشَّرها بأن الله سيرزقها الشهادة وهي في بيتها.

فعن أم ورقة أن النبي ﷺ، لما غزا بدرًا، قالت: قلت له: يا رسول الله، ائذن لي في الغزو معك، أُمرِّض مرضاكم، لعل الله أن يرزقني شهادة. قال: **«قري في بيتك، فإن الله تعالى يرزقك الشهادة»**[(٢)]. قال: فكانت تُسمى الشهيدة.

وعادت تلكم العابدة الزاهدة التقية إلى بيتها - طاعة لأمر رسول الله ﷺ -... عادت تنتظر الشهادة التي بشَّرها بها رسول الله ﷺ.

وعلم الناس بتلك البشارة التي بشَّرها بها رسول الله ﷺ حتى كان الحبيب ﷺ إذا أراد أن يزورها يصطحب معه ثُلة من أصحابه الكرام ويقول لهم: **«انطلقوا بنا نزور الشهيدة»**.

ثبات على العهد

ولما توفي الحبيب ﷺ حزنت عليه (أم ورقة) حُزنًا كاد أن يمزق قلبها ولكنها بقيت

(١) أخرجه مسلم وابن ماجة والنسائي والترمذي وأبو داود عن سهل بن حنيف.
(٢) رواه أبو داود وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٥٥٢).

على العهد عابدة زاهدة قائمة صائمة.

وما زالت تذكر بشارة الحبيب ﷺ لها بأن الله سيرزقها الشهادة... ولقد مات رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنها. فلم يبق لها إلا الشهادة لتكتمل فرحتها وسعادتها في الدارين.

وحان وقت الرحيل

وتأتي اللحظة المناسبة التي قدَّر الله أن يرزقها فيها الشهادة. فلقد كانت (أم ورقة) تنتظر تلك اللحظة بكل شوقٍ ولهفة.

وكانت (أم ورقة) ليس معها أحد في بيتها إلا غلام وجارية يخدمانها ويعيشان معها: جارية مملوكة وعبدٌ مملوك ورثتهما عن أهلها... فلما أسلمت وعدتهما بالحرية والعتق بعد موتها فما كان منهما إلا أن تعجَّلا موتها... ولكن كيف كان ذلك ؟

لقد كان فتاها وفتاتها، اللذان غذتهما بإحسانها وفضلها، وأغدقت عليهما من عطفها وحنانها وعظيم رعايتها، غير جديرين بما أسلفت لهما وقدمت إليهما، وانطبقت عليهما الحكمة المأثورة (اتق شر من أحسنت إليه) إذ عز عليهما أن يريا مدة ولائهما لها تطول...، كما غرهما بمالها وغناها الغرور واستيقظ في نفسيهما غدر الشيطان وفجوره...

فدبروا ذات ليلة جريمة قتلها...، فماتت «**شهيدة**» الظلم والبغي والغدر تمامًا كما تنبأ لها رسول الله ﷺ.

وفرا هاربين !! .. ولكن إلى أين ؟

فقد أمسكت بهما يد العدالة، وأُعيدا إلى المدينة، حيث لقيا جزاء ما جنت أيديهما.

فقُتلا... وصُلبا... ليكونا عبرة لمن يعتبر...، وعم المدينة حزن شديد، ولم تبق عين إلا ودمعت حزنًا على «أم ورقة»... ولم يبق قلب إلا وقد انفطر ألمًا على المؤمنة الفاضلة.

ففي جزء من الحديث الذي رواه أبو داود عن قصة شهادتها: قال: وكانت قد قرأت القرآن فاستأذنت النبي ﷺ أن تتخذ في دارها مؤذنًا فأذن لها، قال: وكانت دبرت غلاما وجارية، فقاما إليها فغماها بقطيفة لها حتى ماتت وذهبا.

فأصبح عمر فقام في الناس فقال: من كان عنده من هذين عِلْم، أو من رآهما، فليجئ بهما، فأمر بهما فَصُلِبَا، فكانا أول مصلوب بالمدينة[١].

وهكذا رحلت العابدة الزاهدة عن دنيا الناس وفازت بالشهادة التي بشرها بها رسول الله ﷺ.

لقد مضت في طريقها إلى الله ولم تنشغل - طرفة عين - بالدنيا وحُطامها الزائل بل تطلعت إلى ما عند الله في الآخرة من النعيم المقيم فأكرمها الله أيما إكرام ورزقها الشهادة - فنعم أجر العاملين -.

رضي الله عن (أم ورقة) التي خدمت دينها خدمة عظيمة وكان لها دورٌ جليل في جمع القرآن في عهد الصدِّيق رضي الله عنه . . فكل مسلمٍ يقرأ حرفًا في كتاب الله فهو في ميزان حسناتها - إن شاء الله -.

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

* * *

(١) رواه أبو داود وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٥٥٢).

صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها

(أم حواري رسول الله ﷺ ... وأول من قتلت مشركًا)

وها نحن على موعدٍ مع صحابية جمع الله لها بين سُؤدد الحسب وعز الإسلام. . إنها الصابرة المجاهدة المؤمنة بالله . . إنها المرأة التي كانت تحمل هم الإسلام ليلاً ونهارًا. . إنها عمة النبي ﷺ صفية بنت عبد المطلب الهاشمية رضي الله عنها .

المجد يكتنفها من كل جانب

اكتنف المجد صفية بنت عبد المطلب من كل جانب: فأبوها، عبد المطلب ابن هاشم جد النبي ﷺ وزعيم قريش وسيدها المطاع وأمها، هالة بنت وهب أخت آمنة بنت وهب والدة الرسول ﷺ.

وزوجها الأول، الحارث بن حرب أخو أبي سفيان بن حرب زعيم بني (أُميَّة)، وقد تُوفِّيَ عنها.

وزوجها الثاني، العوَّام بن خويلد أخو خديجة بنت خويلد سيدة نساء العرب في الجاهلية، وأولى أمهات المؤمنين في الإسلام.

وابنها، الزبير بن العوام حواريُّ رسول الله ﷺ.

أفبعد هذا الشرف شرف تطمح إليه النفوس غير شرف الإيمان ؟![1]

نشأتها

نشأت صفية في بيت عبد المطلب سيد قريش وزعيمها بلا منازع، وقائدها ورائدها، وصاحب السؤدد والمجد والشرف، حكيم مكة، ورأس الأمر فيها، كما اجتمعت له بالإضافة إلى كل ذلك سقاية الحاج.

ولقد تأثرت صفية بكل تلك العوامل، ومن خلالها تكونت شخصيتها القوية النافذة، فكانت فصيحة بليغة، قارئة عالمة، شجاعة فارسة، تمتطي صهوة الخيل كأبرع

(١) صور من حياة الصحابيات/ د. عبد الرحمن الباشا (ص ٢٢).

الفرسان، وتقاتل بالسيف والرمح كأمهر الشجعان[١].

وعندما توفي والدها عبد المطلب تأثرت لموته وامتلأ قلبها حزنًا عليه فقد كان أحب الناس إلى قلبها.

وراء كل بطل ... أم عظيمة

إذا قلبت صفحات تاريخنا الإسلامي، فلا تكاد تقف على عظيم ممن ذلّت لهم نواصي الأمم، ودانت لهم الممالك، وطبّق ذكرهم الخافقين، إلا وهو ينزع بعِرقه وخُلُقه إلى أم عظيمة، وكيف لا يكون ذلك والأم المسلمة قد اجتمع لها من وسائل التربية ما لم يجتمع لأخرى ممن سواها ؟ مما جعلها أعرف خلق الله بتكوين الرجال، والتأثير فيهم، والنفاذ إلى قلوبهم، وتثبيت دعائم الخلق العظيم بين جوانحهم، وفي مسارب دمائهم: فالزبير بن العوام: فارس رسول الله ﷺ، الذي بلغ من بسالته وبطولته، أن عدل به الفاروق رضي الله عنه ألفًا من الرجال، حين أمد به جيش المسلمين في مصر، وكتب إلى قائدها عمرو بن العاص رضي الله عنه يقول: «أما بعد: فإني أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف: رجل منهم مقام الألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن خالد».

وقد صدقت فِراسة الفاروق رضي الله عنه وسجل التاريخ في صفحاته أن الزبير لا يعدل ألفًا فحسب، بل يعدل أمة بأسرها، فقد تسلل إلى الحصن الذي كان يعترض طريق المسلمين، وصعد فوق أسواره، وألقى بنفسه بين جنود العدو، وهو يصيح صيحة الإيمان: «الله أكبر».. ثم اندفع إلى باب الحصن، ففتحه على مصراعيه، واندفع المسلمون، فاقتحموا الحصن، وقضوا على العدو قبل أن يفيق من ذهوله.

هذا البطل العظيم إنما قامت بأمره أمه صفية بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ، وأخت حمزة أسد الله، فقد شب في كنفها، ونشأ على طبعها، وتخلق بسجاياها[٢].

لقد توفي عنها زوجها العوام بن خويلد وترك لها طفلاً صغيرًا هو ابنها «الزبير» فَنَشَّأته على الخشونة والبأس... وربته على الفروسية والحرب... وجعلت لَعِبه في بَرْي

(١) صور من سير الصحابيات/ السحيباني (ص ٢٧٣).
(٢) عودة الحجاب/ الشيخ محمد إسماعيل (ص ١٩٩ ، ٢٠٠).

السهام وإصلاح القِسي. ودأبت على أن تقذفه في كل مَخُوفة[١]، وتُقحمه[٢] في كل خطر...

فإذا رأته أحجم أو تردد ضربته ضربًا مبرحًا، حتى إنها عُوتبت في ذلك من قِبل أحد أعمامه حيث قال لها: ما هكذا يُضرب الولد... إنكِ تضربينه ضرب مُبغِضة لا ضرب أم؛ فارتَجزت[٣] قائلة:

من قال قد أبغضته فقد كذب وإنما أضربه لكي يَلِبْ[٤]
ويهزم الجيش ويأتي بالسَّلَب[٥].

وأنذر عشيرتك الأقربين

ولما أشرقت شمس الإسلام على أرض الجزيرة ونزل الوحي على الحبيب ﷺ فبدأ النبي ﷺ يدعو قومه وعشيرته وأهله امتثالاً لقول الحق: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: الآية ٢١٤]

عن عائشة، قالت: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: الآية ٢١٤] قام النبي ﷺ، فقال: «**يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئًا؛ سلوني من مالي ما شئتم**»[٦].

فقذف الله نور الإسلام في قلب صفية ﵂ فأسلمت لله وكان ابنها الزبير قد سبقها إلى الإسلام.

ومنذ تلك اللحظة وهي تتعايش بقلبها وجوارحها مع هذا الدين العظيم، فتراها تصوم بالنهار وتقوم بالليل ولسانها لا يفتر عن ذكر الله، بل كانت دائمًا تفكر كيف تنصر هذا الدين، وماذا تستطيع أن تقدم لخدمة هذا الدين العظيم.

---

(١) مخوفة: موقف يُخاف منه.
(٢) تُقحمه: تدفعه وتدخله.
(٣) ارتجزت: قالت شعرًا على بحر الرَّجَز.
(٤) يلب: يصبح لبيًا - واللبيب: الذكي العاقل.
(٥) صور من حياة الصحابة (ص ٢٣).
(٦) أخرجه مسلم (٢٠٥) الإيمان، وأحمد (٦/ ١٨٧)، والنسائي (٦/ ٢٥٠).

الهجرة إلى يثرب

ولما اشتد إيذاء المشركين لأصحاب النبي ﷺ خشي عليهم الحبيب ﷺ من أن يُفتنوا في دينهم فأذن لهم بالهجرة إلى يثرب (المدينة المنورة) فكانت عمته صفية وابنها الزبير مع هؤلاء المهاجرين الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم وتركوا أوطانهم رغبة فيما عند الله .

ونزلوا جميعًا في رحاب الأنصار الذين وضعوهم في العيون وأغلقوا عليهم الجفون خوفًا عليهم من نسيم الهواء.

وهناك عاشت صفية رضي الله عنها أجمل أيام حياتها في ظل تلك البيئة الإيمانية وبعيدًا عن بطش المشركين وتعذيبهم.

صفحات مشرقة من جهادها في سبيل الله

وعلى الرغم من أنها كانت تخطو نحو الستين من عمرها الحافل بالعطاء إلا أنها كان لها مواقف في أرض الشرف والجهاد لن ينساها التاريخ وستظل تلك المواقف نورًا على الدرب ينير الطريق للأجيال القادمة لتعرف طريق العزة والبطولة والفداء.

جهادها في يوم أحد

ففي يوم أُحد خرجت رضي الله عنها مع بعض النساء فكانت تنقل الماء وتسقي العطاش وتبري السهام وتداوي الجرحى. وكانت تدعو لجند المسلمين بالنصر على الأعداء لتعلو راية الإسلام خفاقة عالية.

وكان في تلك الغزوة ابن أخيها رسول الله ﷺ وأخوها حمزة بن عبد المطلب (أسد الله) وابنها الزبير بن العوام (حواري رسول الله ﷺ).

دفاع عن النبي ﷺ ... وصبر على مقتل أخيها حمزة رضي الله عنه

ولما انهزم المسلمون بعد أن خالف الرماة أمر رسول الله ﷺ بالثبات سواء كان النصر أم كانت الأخرى، وانفض أكثر الناس عن رسول الله ﷺ، ولم يبق حوله سوى القلائل

من أصحابه، قامت صفية رضي الله عنها وبيدها رمح تضرب به في وجوه الناس الفارين المنهزمين، والأعداء المشركين، وتقول لهم: «انهزمت عن رسول الله!!» فلما رآها رسول الله ﷺ أشفق عليها فقال لابنها «الزبير بن العوام»: «القاها فأرجعها، لا ترى ما بشقيقها» أي حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه فلقيها «الزبير» فقال: يا أمَّه إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي . . .

فقالت صفية: «ولِمَ ؟ فقد بلغني أنه مُثِّل بأخي، وذلك في الله عز وجل قليل، فما أرضانا بما كان من ذلك، فأخبره بذلك لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله تعالى». وعاد الزبير إلى رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «**خلِّ سبيلها**»، فأتت (صفية) «الحمزة» فنظرت إليه، وصلَّت عليه، واسترجعت واستغفرت، ثم أمر رسول الله ﷺ به فدُفن[١].

كانت أول من قتلت مشركًا

وفي يوم الخندق اجتمعت كتائب الكفر لتقضي على الإسلام والمسلمين ولكن الله عز وجل غالبٌ على أمره فسلط عليهم جُند الريح فكفأت قدورهم واقتلعت خيامهم وتبعثروا في الصحراء كتبعثر الفئران. وكان لصفية موقفٌ عظيم في يوم الخندق.

لما خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق؛ جعل نساءه في أُطُمٍ[٢] يقال له: فارع. قال عروة: «كان النبي ﷺ إذا خرج لقتال عدوه رفع نساءه في أطم حسَّان رضي الله عنه ؛ لأنه كان من أحصن الآطام. . . فجاء يهودي فلصق بالأطم ليسمع. قالت صفية: فأخذت عمودًا فنزلت إليه، حتى فتحت الباب قليلاً قليلاً، فحملت عليه فضربته بالعمود فقتلته»[٣].

وعند ابن إسحاق: وهي أول امرأة قتلت رجلًا من المشركين.

وفي رواية: «فجاء إنسان من اليهود فرقى في الحصن، حتى أطلَّ عليهن. قالت صفية بنت عبد المطلب: فقمت إليه، فضربته حتى قطعت رأسه، فأخذت رأسه فرميت به عليهم»[٤].

---

(١) الروض الأنف للسهيلي (٣/ ١٧٢).
(٢) أُطم: كل حصن مبني من الحجارة.
(٣) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ٢٧) والمستدرك (٤/ ٥١).
(٤) الإصابة (٧/ ٧٤٤).

وفاة الرسول ﷺ

وتمر الأيام ومازالت ﷺ تضحي من أجل دينها وعقيدتها بكل ما تملك. . . وجاء اليوم الذي ينام فيه الحبيب ﷺ على فراش الموت وما هي إلا أيام وساعات قليلة حتى تُوفي رسول الله ﷺ.

ويتسرب النبأ الفادح من البيت المحزون وله طنين في الآذان وثقل ترزح تحته النفوس وتدور به البصائر والأبصار. وشعر المؤمنون أن آفاق المدينة أظلمت فتركتهم لوعة الثكل حيارى، لا يدرون ما يفعلون. وحزنت صفية ﷺ على موت الحبيب ﷺ حزنًا كاد أن يمزق قلبها.

عن أنس ﷺ قال: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء وما نفضنا عن النبي ﷺ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا[١].

وقال الحافظ ابن رجب رحمه الله: لما توفي ﷺ اضطرب المسلمون فمنهم من دُهش فخولط، ومنهم من أُقعد فلم يطق القيام، ومنهم من اعتقل لسانه فلم يطق الكلام، ومنهم من أنكر موته بالكلية وقال: إنما بُعث إليه[٢].

وحان وقت الرحيل

وبعد وفاة الحبيب ﷺ ظلت صفية ﷺ على نهج النبي ﷺ تسير على سنته عابدة قائمة صائمة خاشعة لله إلى أن جاءت اللحظة التي تنام فيها على فراش الموت بعد هذا العمر المديد الحافل بالبذل والتضحية والفداء.

وفاضت روحها إلى بارئها لتلحق بالحبيب ﷺ في جنة الرحمن التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

---

(١) رواه الترمذي (١٣/ ١٠٤ ، ١٠٥) وصححه الألباني في مختصر الشمائل وصحيح ابن ماجة.
(٢) لطائف المعارف (١١٤).

وتوفيت سنة عشرين للهجرة ودفنت بالبقيع ولها بضع وسبعون سنة[١].

رضي الله عن صفية بنت عبد المطلب. فقد كانت مثلاً فذًا للمرأة المسلمة ربَّت وحيدها فأحكمت تربيته، وأصيبت بشقيقها فأحسنت الصبر عليه، واختبرتها الشدائد فوجدت فيها المرأة الحازمة العاقلة الباسلة[٢].

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها

* * *

(١) سير أعلام النبلاء/ للذهبي (٢/ ٢٧١).

(٢) صور من حياة الصحابيات (ص ٣٣ ، ٣٤) بتصرف.

عاتكة بنت زيد رضي الله عنها

(من أراد الشهادة فليتزوج عاتكة بنت زيد)

هكذا كان أهل المدينة يقولون: من أراد الشهادة فليتزوج عاتكة بنت زيد كانت عند عبد الله بن أبي بكر فقُتل عنها ثم كانت عند عمر بن الخطاب فقُتل عنها ثم كانت عند الزبير فقُتل عنها.

* إنها صحابية كريمة جمع الله لها من المكارم والفضائل قدرًا عظيمًا يعجز القلم عن وصفه.

* فهي أخت سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة.

* وأمها أم كريز بنت الحضرمي.

* وخالها العلاء بن الحضرمي... الصحابي المشهور الذي قال عنه أبو هريرة: رأيت من العلاء ثلاثة أشياء لا أزال أحبه أبدا: قطع البحر على فرسه يوم دارين. وقدم يريد البحرين، فدعا الله بالدهناء، فنبع لهم ماء فارتووا. ونسي رجل منهم بعض متاعه، فردّ، فلقيه، ولم يجد الماء. ومات ونحن على غير ماء، فأبدى الله لنا سحابة، فمطرنا، فغسلناه، وحفرنا له بسيوفنا، ودفناه، ولم نلحد له[1].

* وخالتها (الصعبة بنت الحضرمي) أم طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة أيضًا.

* وزوجها الأول (عبد الله بن أبي بكر الصديق) وهو ابن أفضل أصحاب النبي ﷺ وأول العشرة المبشرين بالجنة.

* وبعد استشهاده كان زوجها الثاني فاروق الأمة (عمر) وهو من العشرة المبشرين بالجنة.

(١) سير أعلام النبلاء/ للذهبي (١/ ٢٦٥ ، ٢٦٦).

* وبعد استشهاده كان زوجها الثالث (الزبير بن العوام) وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة.

* وكانت عاتكة بنت زيد قد اشتهرت بين نساء قريش بالفصاحة والبلاغة ورجاحة العقل والجمال البارع.

وأنا أسألكم بالله: من الذي يستطيع أن يكتب كلمة واحدة يعبر بها عن تلك المكارم والفضائل التي جمعها الله لهذه الصحابية الجليلة.

فتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا مع سيرة هذه الصحابية الجليلة.

والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه

لقد كان أبوها (زيد بن عمرو بن نفيل) فريدًا في عصره وزمانه فقد كان الناس يعبدون الأصنام وهو يعبد الواحد الديَّان فخرج من صُلبه هذا الجيل المبارك وعلى رأسهم سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة و (عاتكة بنت زيد) تلكم الصحابية الجليلة.

وكان (زيد بن عمرو) يُحيي الموءودة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: مَهْ ! لا تقتلها أنا أكفيك مؤنتها، فيأخذها، فإذا ترعرعت، قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤنتها[1].

وكان يعيب على قريش، ويقول: الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله ؟. وحتى نسعد بتلك السيرة العطرة فتعالوا بنا لنرى كيف كان حال (زيد بن عمرو) وما هي قصته لنعرف كيف خرجت تلك الثمرة من أغصان هذه الشجرة المباركة.

رحلة التوحيد

اجتمعت قريش يومًا في عيدٍ لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظّمونه وينحرون له، ويعكفون عنده، ويدورون به، وكان ذلك عيدًا لهم (في) كل سنة يومًا، فخلص منهم

(١) أخرجه البخاري معلقًا (٣٨٢٨) في المناقب، والحاكم ووصله وصححه (٣/ ٤٠٤) ووافقه الذهبي.

أربعة (نفر) نجيًا[١]، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض؛ قالوا: أجل - وهم: ورقة بن نوفل وعبيد الله ابن جحش، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب؛ وعثمان بن الحويرث؛ وزيد ابن عمرو بن نفيل، فقال بعضهم لبعض: تعلمُوا والله ما قومكم على شيء ! لقد أخطؤوا دين أبيهم إبراهيم ! ما حَجر نُطيف به، لا يسمع ولا يُبصر ولا يضر ولا ينفع !؟ يا قوم ! التمسوا لأنفسكم (دينًا) فإنكم والله ما أنتم على شيء.

فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنفية، دين إبراهيم.

فأما ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانية، واتبع الكتبَ من أهلها حتى علم علمًا من أهل الكتاب.

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة؛ فلما قدمها تنصّر، وفارق الإسلام حتى هلك هنالك نصرانيًا.

وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصَّر، وحسُنت منزلته عنده.

وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تُذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموءودة، وقال: أعبدُ ربَّ إبراهيم؛ وبادى قومه بعيب ما هم عليه.

وعن أسماء بنت أبي بكر ﵄ قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نُفيل شيخًا كبيرًا مُسندًا ظهرهُ إلى الكعبة وهو يقول: يا معشر قريش، والذي نفسُ زيد ابن عمرو بيده، ما أصبح منكم أحدٌ على دين إبراهيم غيري، ثم يقول: اللهم لو أني أعلم أيَّ الوجوه أحبَّ إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه، ثم يسجدُ على راحته.

قال ابن إسحاق: وحُدّثت أن ابنه، سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل، وعمر ابن الخطاب - وهو ابن عمّه - قالا لرسول الله ﷺ: أنستغفرُ لزيدِ بن عمرو ؟ قال: **«نعم فإنه يُبعثُ أمةً وحدهُ»**[٢].

(١) النجي: جماعة يتحدثون سرًا يخفون حديثهم عن غيرهم.

(٢) رواه أحمد في المسند (١٦٤٨) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

وقال زيد بن عمرو بن نفيل في فِراق دين قومه، وما كان لقي منهم في ذلك:

أربٌّ واحدٌ أم ألفَ ربٍّ أدينُ إذا تُقُسِّمتِ الأمورُ؟
عزلتُ اللات والعُزَّى جميعًا كذلك يفعلُ الجلدُ الصبورُ
فلا العُزى أدينُ ولا ابنتيها ولا صَنَمي بني عمرٍو أزُورُ
ولا هُبلًا أدينُ وكان ربًّا لنا في الدهر إذ حِلمي يسيرُ
عجبتُ وفي الليالي مُعجباتٌ وفي الأيام يعرفها البصيرُ
بأنَّ الله قد أفنى رجالاً كثيرًا كان شأنهم الفجورُ
وأبقى آخرين ببرِّ قوم فيزبلُ منهم الطفلُ الصغيرُ[(١)]
وبينا المرءُ يُفترُ ثابَ يومًا كما يتروَّح الغُصنُ المطيرُ[(٢)]
ولكنْ أعبُدُ الرحمن ربِّي ليغفرَ ذنبي الرَّبُّ الغفورُ
فتقوى الله ربكم احفظوها متى ما تحفظوها لا تبُورُوا
ترى الأبرار دارهُمُ جنانٌ وللكفَّارِ حاميةٌ سعيرُ
وخِزيٌ في الحياةِ، وإن يموتُوا يُلاقُوا ما تضيقُ بهِ الصدورُ

وكان زيد بن عمرو قد أجمع الخروج من مكة ليضرب في الأرض يطلبُ الحنيفية دين إبراهيم ﷺ، فكانت صفيةُ بنتُ الحضرمي كلما رأته قد تهيأ للخروج وأراده آذنت به الخطاب بن نفيل.

وكان يعاتبه على فراق دين قومه.

وكان الخطاب قد آذى زيدًا حتى أخرجه إلى أعلى مكة، فنزل حِراء مقابل مكة، ووكَّل به الخطابُ شابًا من شبابِ قريش وسُفهائهم، فقال لهم: لا تتركوه يدخل مكة؛ فكان لا يدخلها إلا سرًّا منهم، فإذا علموا بذلك آذنوا به الخطاب فأخرجوه وآذوه كراهية أن يُفسد عليهم دينهم، وأن يتابعه أحدٌ منهم على فراقه.

ثم خرج يطلبُ دينَ إبراهيم عليه السلام، ويسألُ الرهبان والأحبار، حتى بلغ

(١) يزبل: زَبلَ الطفل إذا شب وكبر.

(٢) يفتر: فتر الشيء يفتر. سكن بعد حدته. ثاب: رجع. يتروح: يهتز ويحتضر. وينبت ورقه بعد سقوطه.

الموصل والجزيرة كلها، ثم أقبل فجال الشام كله، حتى انتهى إلى راهب بميفعة[١] من أرض البلقاء[٢] كانت ينتهي إليه علم أهل النصرانية فيما يزعمون، فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم؛ فقال: إنك لتطلبُ دينًا ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم، ولكن قد أظل زمانُ نبي يخرجُ من بلادك التي خرجت منها، يُبعث بدين إبراهيم الحنيفية، فالحق بها، فإنه مبعوثٌ الآن، هذا زمانه. وقد كان شام اليهودية والنصرانية فلم يرض شيئًا منهما، فخرج سريعًا، حين قال له ذلك الراهبُ ما قال، يريد مكة، حتى إذا توسَّط بلاد لخم عدوا عليه فقتلوه[٣].

زواجها من عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما

أخرج أبو نعيم من حديث عائشة أن عاتكة كانت زوج عبد الله بن أبي بكر الصديق. وقال أبو عمر: كانت من المهاجرات، تزوجها عبد الله بن أبي بكر الصديق، وكانت حسناء جميلة فأولع بها، وشغلته عن مغازيه، فأمره أبوه بطلاقها فقال:

يقولون طلقها وخيم مكانها ... مقيما تمني النفس أحلام نائم
وإن فراقي أهل بيت جمعتهم ... على كثرة مني لإحدى العظائم

ثم عزم عليه أبوه حتى طلقها، فتبعتها نفسه، فسمعه أبوه يومًا يقول:

ولم أر مثلي طلق اليوم مثلها ... ولا مثلها من غير جرم تطلق

فرقَّ له أبوه، وأذن له فارتجعها ثم لما كان حصار الطائف أصابه سهم، فكان فيه هلاكه، فمات بالمدينة، فرثته بأبيات منها[٤]:

رُزيت بخير الناس بعد نبيهم ... وبعد أبي بكر وما كان قصَّرا
فآليت لا تنفك عيني سخينة ... عليك ولا ينفك جلدي أغبرا
مدى الدهر ما غنَّت حمامة أيكةٍ ... وما طرد الليل الصباح المنورا
فلله عينًا من رأى مثله فتىً ... أكرَّ وأحمى في الجهاد وأصبرا

---

(١) بميفعة: أصل الميفعة الموضع المرتفع من البقاع.
(٢) البلقاء: كورة من أعمال دمشق قصبتها عمان وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة.. قاله ياقوت.
(٣) السيرة لابن هشام (١/ ١٩١-١٩٨) بتصرف.
(٤) الإصابة/ للحافظ ابن حجر (٨/ ٢٢٧).

إذا شرعت فيه الأسنة خاضها ... إلى الموت حتى يترك الرمح أحمرا

فاروق الأمة والزواج المبارك

فلما استشهد عبد الله وانقضت عدتها تزوجها فاروق الأمة عمر ﷺ فاحتلت عنده مكانة رفيعة وتعلمت الكثير والكثير من علمه وزهده وورعه.

عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب: كانت عاتكة تحب عبد الله بن أبي بكر، فجعل لها طائفة من ماله على ألا تتزوج بعده، ومات؛ فأرسل عمر إلى عاتكة أن قد حرمت ما أحل الله لك، فردي إلى أهله المال الذي أخذته، ففعلت، فخطبها عمر فنكحها.

وذكر أبو عمر في «التمهيد» أن عمر لما خطبها شرطت عليه ألا يضربها ولا يمنعها من الحق ولا من الصلاة في المسجد النبوي.

وعن موسى بن عقبة، عن سالم - أن عاتكة بنت زيد كانت تحت عمر، فكانت تكثر الاختلاف إلى المسجد النبوي، وكان عمر يكره ذلك، فقيل لها في ذلك، فقالت: ما كنت بتاركته إلا أن يمنعني، فكأنه كره أن يمنعها، فتزوجها رجل بعد عمر فكان يمنعها. قلت لسالم: من هو ؟ قال: الزبير بن العوام(١).

فراق مؤلم

ولما كانت (حجة الوداع) ألقى النبي ﷺ خطبته الجامعة على أصحابه.

فلقد كان الرسول ﷺ يريد - بعد بلاء طويل في إبلاغ الرسالة - أن يُفرغ في آذان الناس وقلوبهم آخر ما لديه من نصح.

كان يحس أن هذا الركب سينطلق في بيداء الحياة وحده، فهو يصرخ به كما يصرخ الوالد بابنه الذي انطلق به القطار، يوصيه الرشد، ويذكره بما ينفعه أبدًا.

وكان هذا النبي ﷺ الطيب، كلما أوجس خيفة من مكر الشيطان بالناس، أعاد صيحات الإنذار، واستثار أقصى ما في الأعماق من انتباه. ثم ساق الهدى والعلم.. وقطع المعاذير المنتحلة، وانتزع - بعد ذلك - شهادة من الناس على أنفسهم وعليه أنهم

(١) الإصابة/ للحافظ ابن حجر (٢٢٨/٨).

قد سمعوا، وأنه قد بلَّغ.

لقد ظل ثلاثًا وعشرين سنة يصل الأرض بالسماء ويتلو على القاصي والداني آي الكتاب الذي نزل به الروح الأمين على قلبه، ويغسل أدران الجاهلية التي التاث بها كل شيء، ويربي من هؤلاء العرب، الجيل الذي يفقه الحقائق ويفقه المعالم فيها..

وها هو ﷺ يمرض مرضًا شديدًا وينام على فراش الموت وما هي إلا أيام حتى فاضت روحه إلى بارئها .

وتسرب النبأ الفادح من البيت المحزون، وله طنين في الآذان. وثقل ترزح تحته النفوس، وتدور به البصائر والأبصار.

وشعر المؤمنون أن آفاق المدينة أظلمت، فتركتهم لوعة الثكل حيارى، لا يدرون ما يفعلون.

ووقف عمر بن الخطاب - وقد أخرجه الخبر عن وعيه - يقول: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفي، وإن رسول الله ما مات ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة. ثم رجع بعد أن قيل قد مات.

والله ليرجعن رسول الله ﷺ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات!.

وحزنت عاتكة ﵂ لموت النبي ﷺ حُزنًا شديدًا كاد أن يمزق قلبها فقامت ترثي النبي ﷺ بتلك القصيدة:

أمست مراكبه أوحشت ... وقد كان يركبها زينها
وأمست تبكي على سيد ... تردد عبرتها عينها
وأمست نساؤك ما تستفيق ... من الحزن يعتادها دينها
وأمست شواحب مثل النصال ... قد عطلت وكبا لونها
يعالجن حزنا بعيد الذهاب ... وفي الصدر مكتنع حينها
هو الفاضل السيد المصطفى ... على الحق مجتمع دينها
فكيف حياتي بعد الرسول ... وقد حان من ميته حينها[1]

(١) الطبقات الكبرى (٢/ ٣٣٢).

فاروق الأمة ... والشهادة

وعاشت في رحاب فاروق الأمة الأواب أجمل أيام عمرها ورأت مواقفه العظيمة لخدمة دين الله ﷻ وحرصه على الرعية فقد كان إسلامه فتحًا وكانت هجرته نصرًا وكانت ولايته عدلاً.

وظلت تتعلم بين يديه الكثير والكثير إلى أن جاء اليوم الذي قُتل فيه شهيدًا كما بشَّره الصادق الذي لا ينطق عن الهوى - رسول الله ﷺ

فعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ صعد أُحدًا، ومعه أبو بكر وعمر، وعثمان، فرجف فضربه برجله، وقال: **«اثبت أُحُد، فما عليك إلا نبي، وصدِّيق، وشهيدان»**[1].

ورأى رسول الله ﷺ على عمر ثوبًا غسيلاً فقال: **«أجديد ثوبك هذا أم غسيل»** ؟ قال: غسيل يا رسول الله، قال: **«البس جديدًا، وعش حميدًا، وتوفَّ شهيدًا، ويعطيك الله قرة عين في الدنيا والآخرة»**[2].

وعندما قُتل عمر رضي الله عنه بخنجر أبي لؤلؤة المجوسي قامت عاتكة ترثيه وتقول:

عين جودي بعبرة ونحيب ... لا تملي على الإمام النجيب
قل لأهل الضراء والبؤس موتوا ... قد سقته المنون كأس شَعوب[3]

تتزوج حواري رسول الله ﷺ

وبعد استشهاد الفاروق تزوجها حواري رسول الله ﷺ وأحد العشرة المبشرين بالجنة - الزبير بن العوام - رضي الله عنه .

وكان الزبير فارسًا مغوارًا لا يخشى الردى - الموت - أينما كان. . . ولم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله ﷺ.

فعاشت معه حياة كريمة كلها طاعة لله ﷻ وكانت تعلم أنه سيموت شهيدًا لأن

---

(١) رواه البخاري (٣٦٧٥) في الفضائل، باب قول النبي لو كنت متخذًا خليلًا، وأبو داود رقم (٤٦٥١) في السنة، باب ما جاء في الخلفاء، والترمذي رقم (٣٦٩٧) في المناقب، باب مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (٢/٨٨)، والنسائي في اليوم والليلة، وابن ماجة رقم (٣٥٥١)، والطبراني (١٣١٢٧). وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٣) شَعوب: أي الموت.

النبي ﷺ بشَّره بالشهادة.

فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان على جبل حراء فتحرك. فقال رسول الله ﷺ: «**اسكُن. حراءُ! فما عليك إلا نبيٌ أو صدِّيقٌ أو شهيدٌ**» وعليه النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعليٌ وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم[(١)].

قال الإمام النووي رحمه الله: وفي هذا الحديث معجزات لرسول الله ﷺ، منها إخباره أن هؤلاء شهداء، وماتوا كلهم غير النبي ﷺ وأبي بكر شهداء، فإن عمر وعثمان وعليًا وطلحة والزبير - رضي الله عنهم - قُتلوا ظلمًا شهداء، فقتل الثلاثة مشهور، وقُتل الزبير بوادي السباع بقرب البصرة منصرفًا تاركًا للقتال، وكذلك طلحة اعتزل الناس تاركًا للقتال، فأصابه سهم فقتله، وقد ثبت أن من قُتل مظلومًا فهو شهيد[(٢)].

وها هو قاتل الزبير (ابن جرموز) - عليه من الله ما يستحقه - يستأذن على (علي) فقال: من هذا ؟ فقال: ابن جرموز يستأذن. فقال: ائذنوا له. ليدخل قاتل الزبير النار. إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن لكل نبي حواري وإن حواريّ الزبير**»[(٣)].

وفي رواية: جيء برأس الزبير إلى عليّ، فقال عليّ: تبوأ يا أعرابيُّ مقعدك من النار، حدثني رسول الله ﷺ أن قاتل الزبير في النار[(٤)].

غَدَرَ ابن جُرْموزِ بفارس بُهمَةٍ ... يوم اللقاء وكان غير مُعَرِّدِ
يا عمرو لو نبَّهتَهَ لوجدته ... لا طائشًا رعش البنان ولا اليدِ
ثكِلتك أمك إن ظفرت بمثله ... فيما مضى مما تَرُوحُ وتَغْتَدي
كم غمرة قد خاضها لم يَثْنِه ... عنها طِرادُك يا ابن فَقْع الفَدْفَدِ
والله ربك إن قتلت لَمُسلمًا ... حَلَّتْ عليك عُقوبة المُتَعَمِّدِ[(٥)]

وكان للزبير أربع نسوة فأصاب كل امرأة ألف ألف ومائتا ألف فجميع ماله خمسون

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤١٧) كتاب فضائل الصحابة.
(٢) مسلم مع شرح النووي (١٥/ ٢٧١-٢٧٢).
(٣) رواه الحاكم (٣/ ٣٦٧) وصححه ووافقه الذهبي.
(٤) قال الأرناؤوط: الفضل بن أبي الحكم روى عنه غير واحد، وقال أبو حاتم: شيخ بصرى، وذكره ابن حبان في الثقات. وباقي رجال الإسناد ثقات.
(٥) الطبقات لابن سعد (٣/ ١/ ٧٩).

ألف ألف ومائتا ألف[(١)].

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مباركة مليئة بالبذل والعطاء والتضحية من أجل نُصرة دين الله . . . نامت ضيفتنا المباركة على فراش الموت وفاضت روحها إلى بارئها عز وجل .

وكان ذلك في أول خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما وتوفيت سنة إحدى وأربعين.

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٣١٢٩) فرض الخمس - باب: بركة الغازي بماله حيًا وميتًا.

أسماء بنت عميس رضي الله عنها

تزوجت ثلاثة من أهل الجنة

وما زلنا بفضل الله نطوف في بستان الصحابيات - رضي الله عنهن - لنقطف كل يوم زهرة لنستنشق عبيرها الإيماني ولنعلم كيف نبتت كل زهرة في حقل الإسلام وسُقيت بماء الوحي فكانت زهرة يانعة تنشر عبيرها في الكون كله.

ونحن اليوم على موعد مع زهرة غالية ملأ عبيرها الكون كله ونصعت سيرتها على صفحات التاريخ فكانت نورًا على الدرب لكل مسلمة تريد أن تعرف كيف تثبت على دينها وعقيدتها.

إننا على موعد مع أسماء بنت عُميس بن معد الخثعمية رضي الله عنها تلكم الصحابية التي تزوجت ثلاثة من أهل الجنة وكانت مثالاً عاليًا للزوجة الوفية والمؤمنة التقية النقية.

فتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا مع سيرتها العطرة.

ومن هنا كانت البداية

لما أسلم أبو بكر الصديق رضي الله عنه علم أن الإسلام أمانة عظيمة فخرج من عند النبي ﷺ داعيًا إلى الله يدعو الناس جميعًا إلى جنة الرحمن التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فكان من جملة من أسلموا على يديه - جعفر بن أبي طالب وزوجه أسماء بنت عميس- وكان إسلامها مبكرًا قبل أن يدخل الرسول ﷺ دار الأرقم[1].

وبهذا فقد حازت نعمة السبق إلى الإسلام التي لا تعدلها نعمة في هذا الكون فقد قال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٠٠﴾ [التوبة: الآية ١٠٠].

وعاشت مع زوجها جعفر في رحاب الإيمان فقد كان زوجها يجلس مع الحبيب ﷺ

---

(١) أصحاب الرسول ﷺ للمصنف (١/ ٥٥٠).

يتعلم على يديه الخير كله ثم يرجع إليها ليعلمها - ويالها من حياة ما أطيبها -... ولكن دوام الحال من المُحال.

فصبر جميل

لقد لقي جعفر وزوجه أسماء رضي الله عنهما من أذى قريش ونكالها ما لا يعلمه إلا الله، ولكنهما صبرا على الأذى والابتلاء؛ لأنهما يعلمان أن البلاء سُنة ثابتة لا تتبدل ولا تتغير وأن طريق الجنة محفوف بالمكاره، وما هي إلا ساعات معدودة ثم يَجبر الله لهما كل كسر في جنته ومستقر رحمته.

قال ﷺ: **«يؤتَى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبغ في جهنم صبغة، ثم يقال له: يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قَط ؟ هل مر بك نعيم قَط ؟ فيقول: لا والله يارب، ويؤتَى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيُصبغ في الجنة صبغة، فيقال له: يا ابن آدم ! هل رأيت بؤسًا قَط ؟ هل مرَّ بك شدة قط ؟ فيقول: لا والله يارب ! ما مر بي بؤس قَط، ولا رأيت شدة قَط»**[1].

الهجرة إلى الحبشة

فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، لمكانه من الله ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: **«لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه»**. فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة كانت في الإسلام.

وخرجت أسماء مع زوجها جعفر إلى الحبشة لتغسل شلالات الحبشة جراحهم التي كانت كلها في سبيل الله عز وجل. وعاش المهاجرون في رحاب النجاشي رحمه الله ذلكم الملك العادل الذي استقبلهم استقبالا عظيمًا وبذَل كل ما في وسعه من أجل أن يعيشوا في بلده آمنين مطمئنين على دينهم.

---

(١) أخرجه مسلم وأحمد والنسائي وابن ماجة عن أنس.

وكان له موقف عظيم حينما أرسلت قريش رجلين بالهدايا إلى النجاشي ليرد إليهم المهاجرين ليفتنوهم في دينهم ولكنه أبى أن يفعل ذلك لما رأى من صدق المهاجرين واستقامتهم على طاعة الله [١].

وأسلم بعد ذلك النجاشي رضي الله عنه وعاشت أسماء مع زوجها جعفر في بلاد الحبشة في سعادة غامرة فولدت له هناك (عبد الله ومحمدًا وعونًا).

وبعد أن مكث (جعفر وزوجه) عشر سنوات في رحاب النجاشي آمنين مطمئنين يرفلون في حُلل السعادة ويعبدون الله بلا قيود ولا مؤامرات تُدبر لهم بالليل والنهار، ولا عذاب يسلط عليهم من كفار قريش.. عاد مرة أخرى إلى المدينة وأقدامه تسابق الريح من أجل رؤية الحبيب ﷺ الذي طال والله شوقه إليه، وما إن وصل حتى كان النبي ﷺ عائدًا من فتح خيبر[٢].

لكم أنتم أهل السفينة هجرتان

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: بلغنا مخرج رسول الله ﷺ ونحن باليمن فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرهم: أحدهما أبو بردة والآخر أبو رهم، إما قال: في بضع وإما قال: ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلا من قومي - فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة فوافقنا جعفر بن أبي طالب فأقمنا معه حتى قدمنا جميعا فوافقنا النبي ﷺ حين افتتح خيبر، وكان أناس من الناس يقولون لنا - يعني لأهل السفينة - سبقناكم بالهجرة. ودخلت أسماء بنت عميس - وهي ممن قدم معنا - على حفصة زوج النبي ﷺ زائرة وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر، فدخل عمر على حفصة - وأسماء عندها - فقال عمر حين رأى أسماء: كمن هذه ؟ قالت: أسماء بنت عميس. قال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه ؟ قالت أسماء: نعم، قال: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم، فغضبت وقالت: كلا والله كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم، وكنا في دار - أو في أرض - البُعداء البُغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسوله ﷺ، وأيم الله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ، ونحن كنا نؤذَى ونخاف وسأذكر ذلك للنبي ﷺ

---

(١) من أراد القصة كاملة فليرجع إلى كتاب (أصحاب الرسول ﷺ) (١/ ٥٥٣-٥٥٨).
(٢) أصحاب الرسول ﷺ/ للمصنف (١/ ٥٥٩).

وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه.

فلما جاء النبي ﷺ قالت: يا نبي الله إن عمر قال كذا وكذا. قال: «**فما قلت له**»؟ قالت: قلت له كذا وكذا. قال: «**ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان**». قالت: فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونني أرسالا يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي ﷺ [(١)].

فراق مؤلم

وبعد هذه الحياة الطيبة التي قضتها أسماء مع زوجها جعفر في رحاب الإيمان.. جاء اليوم الذي يفترق فيه الزوجان فلقد خرج جعفر رضي الله عنه إلى سرية مؤتة فقُتل شهيدًا في سبيل الله.. وها هي قصة استشهاده.

سرية مؤتة ... والشهادة في سبيل الله

وركب رسول الله ﷺ إلى مكة حيث اعتمروا عمرة القضاء وعادوا إلى المدينة... وفي الطريق سمع جعفر من إخوانه - الذين خاضوا مع النبي ﷺ غزوة بدر وأحد وغيرهما من المشاهد - الكثير والكثير مما جعله يتلهف شوقًا للجهاد في سبيل الله وللفوز بالشهادة.

ولم يطل انتظاره فقد بعث رسول الله ﷺ سرية إلى مؤتة في جمادى الأولى من سنة ثمان، واستعمل عليهم زيد بن حارثة، وقال ﷺ: «**إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر، فعبد الله ابن رواحة على الناس**».

فمضوا إلى أرض البلقاء من أرض الشام حتى نزلوا (معانا) من أرض الشام، وبلغهم أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، ومائة ألف من المستعربة.

ثلاثة آلاف من الأبطال والشجعان، من حملة القرآن، أمام عبدة الصلبان، عليهم

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٣٠) ومسلم (٢٥٠٢).

لعائن الرحمن، في ذلك الزمان، وفي كل أوان.

فالتقى الناس فاقتتلوا، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط في رماح القوم، ثم أخذها جعفر فقاتل القوم حتى قُتل.

اقتحم جعفر عن فرس له شقراء، ثم عقرها؛ فكان جعفر أول المسلمين عقر في الإسلام، ثم قاتل القوم حتى قُتل وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقترابها ... طيبة وبارد شرابها

والروم روم قد دنا عذابها ... كافرة بعيدة أنسابها

عليَّ إن لاقيتها ضرابها

قال ابن هشام: وحدثني من أثق به من أهل العلم أن جعفرا أخذ اللواء بيمينه فقُطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قتل، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث يشاء.

وفي رواية: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أمر رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فقال رسول الله ﷺ: **«إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله ابن رواحة»**. قال عبد الله: كنت فيهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعا وتسعين من طعنة ورمية [1].

ولقد نعى النبي ﷺ الثلاثة لأصحابه وبشرهم بشهادتهم في سبيل الله.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: **«أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب** - وإن عيني رسول الله ﷺ لتذرفان - **ثم أخذها خالد بن الوليد من غير إمرة ففتح له»** [2].

وعن نافع أن ابن عمر أخبره: وقفت على جعفر يومئذ وهو قتيل فعددت به خمسين طعنة وضربة، ليس منها شيء في دبره، يعني في ظهره [3].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٦١) عن ابن عمر - رضي الله عنهما -.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٤٦) والنسائي (٤/٢٦).

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٦٠) عن ابن عمر - رضي الله عنهما -.

وها هو يطير بجناحيه في الجنة مع الملائكة

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«دخلت الجنة البارحة فنظرت فيها، فإذا جعفر يطير مع الملائكة، وإذا حمزة متكئ على سريره»** (١).

«وكان ابن عمر إذا حيًّا ابن جعفر قال: السلام عليك يا ابن ذي الجناحين» (٢).

قال ابن كثير: «لأن الله تعالى عوضه عن يديه بجناحين في الجنة» (٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«رأيت جعفر بن أبي طالب ملكًا يطير في الجنة مع الملائكة بجناحين»** (٤).

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«رأيت ابن أبي طالب ملكًا في الجنة، مضرجة قوادمه بالدماء، يطير في الجنة»** (٥).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«مر بي جعفر الليلة في ملأ من الملائكة، وهو مخضب الجناحين بالدم، أبيض الفؤاد»** (٦).

وقال عبد الله بن جعفر: قال لي رسول الله ﷺ: **«هنيئًا لك !! أبوك يطير مع الملائكة في السماء»** (٧).

وعن ابن عباس مرفوعا: **«إن جعفرًا يطير مع جبريل وميكائيل، له جناحان عوضه الله من يديه»** (٨).

---

(١) رواه الطبراني في الكبير والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٥٨).
(٢) رواه البخاري (٣٧٠٩) المغازي.
(٣) البداية والنهاية لابن كثير (٣/٢٥٦).
(٤) رواه الترمذي والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة – صحيح الجامع (٣٤٥٩).
(٥) أخرجه الحاكم عن ابن عباس وصححه، وكذلك هو في الاستيعاب، وقال الحافظ في الفتح: أخرجه الحاكم والطبراني عن ابن عباس، وإسناده جيد.
(٦) قال الحافظ في الفتح (٧/٩٦): أخرجه الحاكم بإسناد صحيح على شرط مسلم.
(٧) قال الحافظ في الفتح (٧/٩٦): أخرجه الطبراني بإسناد حسن.
(٨) قال الحافظ في الفتح (٧/٩٦) وإسناده هذه جيد.

حزن النبي ﷺ على جعفر رضي الله عنه

وهنا يذهب الحبيب ﷺ إلى أسماء رضي الله عنها ليبلغها خبر استشهاد زوجها.. ويا له من مشهد يجعل القلوب تبكي الدماء بدل الدموع.

عن أسماء ابنة عميس قالت: لما أصيب جعفر وأصحابه دخل عليَّ رسول الله ﷺ وقد دبغت أربعين منا - ويقال منيئة - وعجنت عجيني، وغسلت بنيَّ ودهنتهم ونظفتهم، قالت: فقال لي رسول الله ﷺ: **«ائتني ببني جعفر»**، قالت: فأتيته بهم، فشمهم وذرفت عيناه، فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما يُبكيك ؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء ؟ قال: **«نعم، أصيبوا هذا اليوم»**. قالت: فقمت أصيح، واجتمعت إليَّ النساء، وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله، فقال: **«لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعامًا فإنهم قد شُغلوا بأمر صاحبهم»**(١).

يا لها من مكارم

وبعد استشهاد جعفر رضي الله عنه ظلت أسماء رضي الله عنها على عهدها عابدة صائمة قائمة لله فلما انقضت عدتها تزوجها صدِّيق الأمة الأكبر (أبو بكر الصديق رضي الله عنه) ويالها من مكرمة عظيمة أن تتزوج أسماء بخير الناس بعد الأنبياء والمرسلين.

وعاشت أسماء مع أبي بكر رضي الله عنهما حياة طيبة مباركة كلها طاعة لله .

إن الله قد برأها من ذلك

وها هي أعظم منقبة (لأسماء بنت عميس) وهي أن الله عز وجل قد برأها من فوق سبع سماوات.

فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن نفرًا من بني هاشم دخلوا على أسماء بنت عميس فدخل أبو بكر الصديق - وهي تحته يومئذ - فرآهم فكره ذلك فذكر لرسول الله ﷺ وقال: لم أر إلا خيرًا فقال رسول الله ﷺ: **«إن الله قد برأها من ذلك»**، ثم قام رسول الله ﷺ على المنبر فقال: **«لا يدخلن رجل بعد يومي هذا على مغيبة إلا ومعه رجل أو اثنان»**(٢).

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجة والترمزي وذكره الألباني في صحيح ابن ماجة وقال: حديث حسن.
(٢) أخرجه مسلم (٢١٧٣) وأحمد (٢/ ١٧١، ١٨٦).

حجة الوداع ... وولادة مباركة

ولما خرجت أسماء مع زوجها أبي بكر ﷺ إلى حجة الوداع مع الحبيب ﷺ وكانت حاملاً فولدت له (محمدًا) وقت الإحرام.

قال ابن المسيب: نفست[١] أسماء بنت عميس بمحمد بذي الحليفة، وهم يريدون حجة الوداع؛ فأمرها أبو بكر أن تغتسل، ثم تهل بالحج[٢].

وعن سعيد بن المسيب، قال: نفست بذي الحليفة، فهمَّ أبو بكر بردّها، فسأل النبي ﷺ، فقال: «**مرها، فلتغتسل، ثم تهل بالحج**»[٣].

وتتجدد الأحزان

وتمر الأيام مسرعة ويأتي اليوم الذي مات فيه الحبيب ﷺ فأظلمت الدنيا كلها بموته.. . فحزنت أسماء حزنًا شديدًا كاد أن يمزق قلبها.

ويتولى زوجها (أبو بكر) الخلافة بعد موت الحبيب ﷺ وكان أبو بكر قد أحس بقرب الأجل فأوصى أسماء بأن تُغسله بعد موته فلما جاء اليوم الذي مات فيه أبو بكر ﷺ قامت أسماء فغسلته كما أوصاها.

وكانت صائمة، فسألت من حضر من المهاجرين وقالت: «إني صائمة، وهذا يوم شديد البرد، فهل عليَّ من غسل ؟»، فقالوا: «لا» وكان أبو بكر ﷺ قد عزم عليها[٤] لما أفطرت، وقال: «هو أقوى لك»، فذكرت يمينه في آخر النهار، فدعت بماء، فشربت، وقالت: «الله لا أتبعه اليوم حنثًا»[٥].

وهكذا أطاعت زوجها بعد موته كما كانت تطيعه أثناء حياته. . وهذا هو عين الوفاء للزوج.

---

(١) قال الخطابي: أصل هذه الكلمة من النفس وهو الدم إلا أنهم فرقوا بين بناء الفعل من الحيض والنفاس، فقالوا في الحيض: نفست بفتح النون، وفي الولادة بضمها. قال الحافظ: وهذا قول كثير من أهل اللغة، لكن حكى أبو حاتم عن الأصمعي قال: يقال ونفست المرأة في الحيض والولادة بضم النون فيهما.

(٢) أخرجه ابن سعد (٨/ ٢٨٢) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح - السير (٢/ ٢٨٥).

(٣) أخرجه ابن سعد (٨/ ٢٨٣) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح - السير (٢/ ٢٨٥).

(٤) أي: أقسم عليها.

(٥) رواه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٢٠٨).

موعد مع السعادة

وعلى الرغم من حزنها الشديد على موت زوجها (جعفر وأبي بكر) ﵄.

إلا أن الله أكرمها بالزواج من علي بن أبي طالب ﵁ لتكون هي الصحابية التي تزوجت ثلاث من أهل الجنة.

تزوجها (علي) ﵁ وعاشت معه أيامًا مباركة في طاعة الملك.

قمة الوفاء

إن الثبات على صدق الوفاء من أفضل ما تتحلى به النساء، ولهذا درجت المرأة المسلمة على مواتاة زوجها ومصافاته، واستخلاص نفسها له، واحتمال نبوة الطبع منه، وأكثر ما كان صفاء نفسها، وسماح خلقها وعذوبة طبعها، إذا استحال الدهر بالرجل فرزأه في ماله، أو نكبه في قوته، أو بدله بكرم المنصب، وروعة السلطان، أعرافًا من السجن، وأصفادًا من الحديد.

بل لقد كان وفاؤها له بعد عفاء أثره، وامّحاء خبره، عديل وفائها له وهي بين أفياء نعمته، وأكناف داره، وكان إيثار الإسلام له بمد حدادها عليه أربعة أشهر وعشرة أيام، لا تتجمل في أثنائها، ولا تزدان، ولا تفارق داره إلى دار أبيها - سُنة من سنن هذا الوفاء، وآية من آياته.

لذلك كانت المرأة المسلمة ترى الوفاء لزوجها بعد الموت، آثر مما تراه لأبيها وأمها وذوي قرابتها، فكانت تؤثر فضائله، وتذكر شمائله في كل موطن ومقام، بل ربما عرض ذكره وهي بين خليفته من بعده، فلا تتحرج في ذكر فضائله إن كانت ترى الفضل له[1].

ومن حديث ذلك أن أسماء بنت عميس كانت لجعفر بن أبي طالب، ثم لأبي بكر من بعده، ثم خلفهما علي ﵁، فتفاخر مرة ولداها محمد بن جعفر ومحمد بن أبي بكر، كلٌ يقول: «أنا أكرم منك، وأبي خير من أبيك»، فقال لها علي:«اقضي بينهما يا أسماء»،

---

(١) المرأة العربية (٢/ ٨٩).

قالت: «ما رأيت شابًا من العرب خيرًا من جعفر، ولا رأيت كهلاً خيرًا من أبي بكر»، فقال علي: «ما تركت لنا شيئا، ولو قلت غير الذي قلت لمقتك !»[١] فقالت أسماء: «إن ثلاثًا أنت أقلهم لخيار»[٢].

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة عاشتها أسماء في طاعة الله وبذلت فيها كل شيء لنصرة دين الله وإذا بها تنام على فراش الموت لتلقى ربها عز وجل وهي التي مات رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنها ومات أزواجها وهم راضون عنها.

وتوفيت بعد وفاة زوجها (علي) بوقت يسير.

قال الذهبي: وعاشت بعد علي رضي الله عنهما[٣].

وأختم ترجمتها بقول النبي ﷺ: **«الأخوات المؤمنات: ميمونة زوج النبي ﷺ ، وأم الفضل امرأة العباس، وأسماء بنت عميس امرأة جعفر، وامرأة حمزة وهي أختهن لأمهن»**[٤].

فرضي الله عن أسماء التي فازت بأغلى المناقب والمكارم.

* * *

(١) وقيل: لعلها: (لومقتك) أي: أحببتك !.

(٢) رواه ابن سعد (٨/ ٢٠٨ ، ٢٠٩) وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: أخرجه ابن السكن بسند صحيح عن الشعبي - الإصابة (٧/ ٤٩١).

(٣) سير أعلام النبلاء/ للذهبي (٢/ ٢٨٧).

(٤) قال الهيثمي في المجمع (١٥٤١٩): رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح.

أم شريك رضي الله عنها

سقاية من السماء ... وإسلامٌ بالجملة

وها نحن نتعايش اليوم بقلوبنا مع تلكم الداعية اللبيبة التي حملت أمانة الدعوة في قلبها وخرجت من دنياها لتدعو الناس إلى عبادة رب السماوات والأرض ففتح الله بها القلوب وجعلها سببًا في إسلام خلقٍ كثيرٍ.

إنها أم شريك رضي الله عنها واسمها غزية بنت جابر بن حكيم.

إن قصتها وإن كانت قصيرة إلا أنها تحمل بين ثناياها العظمة والخلود فإن عُمر الإنسان لا يُقاس بأيامه وإنما يُقاس بأعماله فكم من أُناسٍ طالت آمادهم وقلّت أمدادهم وكم من أُناسٍ قلّت آمادهم وكثرت أمدادهم. . . فقد يعيش الإنسان مائة عامٍ ولا يهدي الله على يديه رجلًا واحدًا وقد يعيش سنوات قليلة يحمل أمانة هذا الدين في قلبه فيجعله الله سببًا في إسلام المئات من البشر. . . وهذا هو الذي حدث مع ضيفتنا المباركة صاحبة العمر المبارك والدعوة المباركة.

فتعالوا بنا لنعرف قدر الدعوة إلى الله وقدر هذه الداعية اللبيبة أم شريك رضي الله عنها .

الدعوة إلى الله تعالى (وظيفة الأنبياء)

قال تعالى :﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصّلت: الآية ٣٣]

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله :

فالدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة المرسلين وأتباعهم، وهم خلفاء الرسل في أممهم، والناس تبع لهم، والله سبحانه قد أمر رسوله أن يبلغ ما أُنزل إليه، وضمن له حفظه وعصمته من الناس. وهكذا المبلغون عنه من أمته، لهم من حفظ الله وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه وتبليغهم له، وقد أمر النبي ﷺ بالتبليغ عنه ولو آية، ودعا لمن بلغ عنه ولو حديثًا، وتبليغ سنته إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو، لأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس، وأما تبليغ السنن فلا يقوم به إلا ورثة الأنبياء

وخلفائهم في أممهم، جعلنا الله منهم بمنِّه وكرمه[١].

حركة الداعية

إن الحركة وَلود، والسكون عقيم، والحركة في قاموس الدعاة هي الحياة، والسكون هو الموت.

قال الجيلاني: «الحركة بداية، والسكون نهاية»، والحركة هي الحد الفاصل بين عهد الرخاوة، وبين عهد حمل الأمانة بعزم وحزم ووفاء.

وبالحركة انتشر المسلمون الأوائل مثل شعاع الشمس في أقطار الأرض، يفتحون البلاد، ويفتحون قلوب العباد، ويدعون إلى التوحيد، ويحطمون الطواغيت، ويقودون الناس إلى الجنة.

وبالحركة صاروا في ظلمات الحياة سراجًا وهَّاجًا، فإذا الباطل رماد بعد التهاب، وخمود بعد حركة.

وهذا الإمام الشافعي رحمه الله يصور عشقه الحركة، وبغضه الجمود والكسل، ويمثل السكون بالماء الذي يتوقف عن الجريان فيفسد، ويجزم بأن الأُسد قد تتعرض للهلاك لو لم تتحرك باحثة عن فريستها، وكذلك السهام لولا تحركها من الكنانة إلى القسي، ومن القسي إلى الهدف ما أصابت:

إني رأيت وقوف الماء يفسده ... إن ساح طاب، وإن لم يجر لم يطبِ
والأُسد لولا فراق الأرض ما افترست ... والسهم لولا فراق القوس لم يُصبِ
والشمس لو وقفت في الفلك دائمة ... لملَّها الناس من عجم ومن عربِ

السبيل إلى دعوة الناس

إن الداعية الصادق هو الذي يعلم من أين يدخل إلى قلوب الناس من حوله فهو دائمًا يرفع شعار البسمة والرحمة ممتثلاً قول الله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٥٩]

---

(١) جلاء الأفهام (ص ٢٤٩).

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

العارف لا يأمر الناس بترك الدنيا؛ فإنهم لا يقدرون على تركها، ولكن يأمرهم بترك الذنوب مع إقامتهم على دنياهم؛ فترك الدنيا فضيلة، وترك الذنوب فريضة. فكيف يُؤمر بالفضيلة من لم يُقم الفريضة !

فإن صعبَ عليهم ترك الذنوب، فاجتهد أن تحبِّب الله إليهم بذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وصفات كماله ونعوت جلاله؛ فإن القلوب مفطورة على محبته فإذا تعلقت بحبه هان عليها ترك الذنوب والإصرار عليها والاستقلال منها[(١)].

سقاية من السماء ... وإسلام بالجملة

وتعالوا بنا لنعرف كيف كان صدق إيمانها سببًا في إسلام عددٍ كبير من المشركين.

فلقد وقع في قلب أم شريك الإسلام وهي بمكة، وما إن تمكن الإيمان من قلبها وفهمت ما يتوجب عليها تجاه هذا الدين الحنيف حتى أوقفت حياتها لنشر دعوة التوحيد، وإعلاء كلمة الله ورفع راية لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وبدأت أم شريك تتحرك في دعوتها وتدخل على نساء قريش سرًّا فتدعوهن وترغبهن في الإسلام دون كلل أو ملل، وهي تدرك ما ينتظرها من تضحيات وآلام وما ينتظرها من أذى وبلاء في الأنفس والأموال، فالإيمان ليس كلمة تقال باللسان، وإنما هو حقيقة ذات تكاليف، وأمانة ذات أعباء، وجهاد يحتاج إلى صبر.

وشاءت قدرة الله - بعد فترة من الزمن - أن تبدأ فترة الامتحان والتعرض للفتنة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «وقع في قلب أم شريك الإسلام وهي بمكة، فأسلمت، ثم جعلت تدخل على نساء قريش سرًّا، فتدعوهن، وترغبهن في الإسلام، حتى ظهر أمرها لأهل مكة فأخذوها، وقالوا لها: لولا قومك لفعلنا بك وفعلنا، ولكنا سنردك إليهم، قالت: فحملوني على بعير ليس تحتي شيء موطأ ولا غيره، ثم تركوني ثلاثًا لا يطعموني، ولا يسقوني، فنزلوا منزلاً، وكانوا إذا نزلوا وقفوني في الشمس واستظلوا، وحبسوا عني الطعام والشراب حتى يرتحلوا، فبينما أنا كذلك إذا بأثر شيء بارد وقع عليَّ منه ثم عاد فتناولته، فإذا هو دلو ماء، فشربت منه قليلاً ثم رُفع مني، ثم عاد فتناولته،

(١) الفوائد للإمام ابن القيم (ص ٢٤٣).

فشربت منه قليلاً، ثم رُفع، ثم عاد أيضًا، فصنع ذلك مرارًا حتى رويت، ثم أفضت سائرة على جسدي وثيابي، فلما استيقظوا إذاً هم بأثر الماء، ورأوني حسنة الهيئة، فقالوا لي: انحللت فأخذت سقاءنا فشربت منه ؟ فقلت: لا والله ما فعلت ذلك، كان من الأمر كذا وكذا، فقالوا: لئن كنت صادقة، فدينك خير من ديننا فنظروا إلى الأسقية فوجدوها كما تركوها، فأسلموا لساعتهم» (١).

هكذا يُكرم الله أولياءه الصادقين. . . فلقد ضربت أم شريك رضي الله عنها أروع الأمثلة في الدعوة إلى الله وفي الثبات على الإيمان والعقيدة. . . وهي صابرة راضية محتسبة في سبيل نجاح دعوتها المباركة فلم يخطر على بالها أبدًا أن تلين أو تضعف فتتنازل عن بعض الأشياء من أجل أن تُنقذ نفسها من الموت والهلاك فكانت النتيجة أن الله عز وجل أكرمها أيما إكرامٍ وأقرَّ عينها بإسلام قومها ليكونوا جميعًا في ميزان حسناتها يوم القيامة فقد قال ﷺ: **«مَن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا ومن دعى إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»** (٢).

وقال ﷺ: **«لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خيرٌ لك من حُمر النعم»** (٣).

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

* * *

(١) الإصابة (٨/ ٣٤٨) - حلية الأولياء (٢/ ٦٦).
(٢) أخرجه مسلم (٤/ ح١٦) وأبو داود (٤/ ح٤٦٠٩) والترمذي (٥/ ح٢٦٧٤).
(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٣٠٠٩) - ومسلم (٤/ ح٣٤).

أمامة بنت أبي العاص رضي الله عنها

كانت أحبّ أهل البيت إلى رسول الله ﷺ

وها نحن يتجدد بنا اللقاء مع زهرة أخرى ولكنها نادرة في دنيا الناس... فهي أحب أهل البيت إلى رسول الله ﷺ... وهي التي كان من حبه لها يحملها في صلاته وهو يصلي... بل كان يخصها برعايته ومحبته وهداياه، إنها الطاهرة التي نشأت في أحضان الطاهرات، وعاشت في رحاب الطُهر والعفاف، فكانت قدوة لكل فتاة مؤمنة في كل زمان ومكان.

إنها أُمامة بنت أبي العاص.. وهي ابنة زينب بنت رسول الله ﷺ ولذلك أقول لكم قبل أن نتعايش مع سيرتها العطرة تعالوا بنا - كعادتنا - لنقف وقفة مباركة مع تلك المكارم التي أحاطت بها، وتعالوا بنا لندخل بستان الإيمان ونتعرف على تلكم الشجرة المباركة التي أخرجت لنا تلكم الزهرة النادرة.

يا لها من شجرة مباركة

وإذا أردنا أن نعرف قدر هذه الزهرة النادرة فلابد أن نتعرف على البستان الذي غُرست فيه، والماء الذي سُقيت به، والرعاية التي أحاطت بها حتى اشتد عودها وفاح عبيرها؛ فملأ أرجاء الكون كله.

* فجدها لأمها هو الحبيب ﷺ سيد الأولين والآخرين ورسول رب العالمين الذي ما أرسله الله إلا رحمة للعالمين.

* وجدتها لأمها خديجة رضي الله عنها سيدة نساء العالمين وأم المؤمنين وأول الناس إسلامًا وتصديقًا واتباعًا للصادق الأمين ﷺ.

* وأمها زينب بنت رسول الله ﷺ الصابرة الطاهرة المهاجرة... وهي أكبر بنات رسول الله ﷺ.

* وخالتها فاطمة بنت رسول الله ﷺ وسيدة نساء أهل الجنة... البضعة النبوية والجهة المصطفوية الصابرة الخيرة القانعة الشاكرة.

* وزوجها فارس النبي ﷺ وأسد الله الغالب (علي بن أبي طالب) رضي الله عنه. ففي

هذه البيئة الإيمانية - التي غُرست في حقل الإسلام وسُقيت بماء الوحي - نشأت أُمامة رضي الله عنها نشأة مباركة جعلتها تحتل مكانة عالية تكاد أن تعانق كواكب الجوزاء.

ومن هنا كانت البداية

لما تزوج النبي ﷺ بخديجة رضي الله عنها . . . وكان زواجًا مباركًا

- فالنبي ﷺ هو سيد الأولين والآخرين . . . وخديجة سيدة نساء العالمين -. فرزقه الله منها بالأولاد - وكان من بينهم زينب وهي أكبر بنات رسول الله ﷺ - فكان النبي ﷺ يحبها حبًا شديدًا.

فلما اشتد عودها تقدَّم أبو العاص بن الربيع ليتزوجها. وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين: مالاً، وأمانةً، وتجارةً، وكان ابنًا لهالةَ بنت خويلد، وكانت خديجة خالته. فسألت خديجة رسولَ الله ﷺ أن يزوِّجه، وكان رسولُ الله ﷺ لا يُخالفها، وذلك قبل أن يَنزل عليه الوحي، فزوّجه، وكانت تَعُدُّه بمنزلة ولدها فلما أكرم الله رسوله ﷺ بنبوته آمنت به خديجة وبناتُهُ، فصدَّقْنَه، وشهدن أن ما جاء به الحق، ودِنَّ بدينه، وثبت أبو العاص على شِرْكه.

إني لا أفارق صاحبتي

ولقد وقف أبو العاص موقفًا عظيمًا أمام مشركي قريش عندما طلبوا منه أن يطلق زينب بنت رسول الله ﷺ. وكان رسول الله ﷺ قد زوّج عُتبة بن أبي لهب (رُقية، أو أمّ كلثوم) فلما بادى قريشًا بأمر الله تعالى وبالعداوة، قالوا: إنكم قد فرَّغتم محمدًا من همّه، فرُدُّوا عليه بناته، فاشغلوه بهن.

فمشوا إلى أبي العاص فقالوا له: فارِقْ صاحبتك - زوجتك - ونحن نزوّجك أي امرأة من قريش شئت؛ قال: لا والله، إني لا أفارق صاحبتي. وما أحبّ أنّ لي بامرأتي امرأةً من قريش. وكان رسول الله ﷺ يثني عليه في صِهْره خيرًا، ثم مشوْا إلى عُتبة بن أبي لهب، فقالوا له: طلّق بنت محمد ونحن ننكحك أيّ امرأة من قريش شئت؛ فقال: إن زوجتموني بنت أبان بن سعيد بن العاص، أو بنت سعيد بن العاص فارقتُها. فزوّجوه بنت سعيد بن العاص وفارقها، ولم يكن دخل بها، فأخرجها الله من يده كرامةً لها وهوانًا له، وخلف عليها عثمان بن عفان بعده.

وكان رسولُ الله ﷺ لا يُحِلّ بمكة ولا يحرِّم، مغلوبًا على أمره، وكان الإسلام قد فرّق بين زينب بنت رسول الله ﷺ حين أسْلمت وبين أبي العاص بن الربيع، إلا أنّ رسول الله ﷺ كان لا يقدر [على] أن يفرِّق بينهما، فأقامت معه على إسلامها وهو على شركه، حتى هاجر رسولُ الله ﷺ.

رضاعة في رحاب الوحي

وأخذت زينب رضي الله عنها تُرضع ابنتها (أُمامة) حُب الله وحُب رسول الله ﷺ وكانت تغرس في قلبها الفضائل والأخلاقيات النبيلة فكانت تزداد إيمانًا ويقينًا يومًا بعد يوم.. بل كانت تحكي لها قصة جدها الحبيب ﷺ من بدايتها إلى أن نزل عليه الوحي وكيف كانت جدتها خديجة رضي الله عنها تقف مع النبي ﷺ في أصعب المواقف وأعتى الأزمات وكيف كان حُزن النبي ﷺ لوفاتها رضي الله عنها.

... فكانت أمامة تسمع كل هذا فتزداد حبًّا لرسول الله ﷺ وفخرًا بانتسابها لهذا البيت المبارك الذي خرجت منه أعظم رسالة سماوية أضاءت للناس طريقهم إلى الله وجعلتهم يتعايشون مع نعمة التوحيد بقلوبهم.

هموم وأحزان

وعلى الرغم من السعادة التي كانت تغمر زينب وهي تجلس مع ابنتها وحبيبتها (أُمامة) إلا أنها كانت تتساقط دموعها حزنًا على بُعدها عن أبيها رسول الله ﷺ.. فرسول الله ﷺ في المدينة بين أصحابه وأنصاره وهي تجلس في مكة.

وأمها خديجة رضي الله عنها ماتت منذ بضعة أعوام ومازالت صورتها أمام عينيها.

وأخواتها: رقية وأم كلثوم وفاطمة - رضي الله عنهن - ينعمن بجوار النبي ﷺ في المدينة.

وزوجها (أبو العاص) خرج إلى المدينة مع صناديد قريش ليحارب أبيها (رسول الله ﷺ)... فيا لها من لحظات تعصف بالقلوب... فجلست تفكر وتدعو الله عز وجل بأن يُفرج عنها هذا الكرب.

موقف يجعل القلب يبكي الدماء بدل الدموع

في رحلة البغي، ومرحلة الفسوق والعدوان، خرجت قريش تصاحبها مسحة الغرور التي تقودها إلى حتفها، خرجت عصبة الكفرة الفجرة، يقودهم غرور أبي جهل، وفسوق عتبة بن ربيعة، وكفر أمية بن خلف وغيرهم، ليحاربوا رسول الله ﷺ الذي سفَّه أحلامهم، وعاب عليهم آلهتهم التي لا تعقل شيئًا، وأراد أن يأخذ بأيديهم إلى شاطئ الأمن والأمان والإيمان على قارب النجاة الذي يحمل عنوان الفوز: لا إله إلا الله. . . محمد رسول الله.

خرج أبو العاص مع قريش تتنازعه عواطف شتَّى، وتنثال على رأسه الأفكار تِلْوَ الأفكار؛ كيف يحارب رسول الله أبا زوجه زينب التي يحبها ويحبه؟! بل ما هو موقفه لو لقي رسول الله في ساحة المعركة ؟! لم يستطيع أن يجيب عن مثل هذه الأسئلة! . . .

خرج أبو العاص بعد أن طبع قبلة حنان على وجه ابنته أمامة التي لا تعرف أين سيذهب، بل لا تعرف معنى لتلك الأحقاد التي تحتل قلوب قريش، وتعتمل في صدورهم؛ ودَّعها وودَّع زوجه البارّة زينب وقد لاحظ أن الدموع قد طفرت من عينيها، وارتسم الحزن على وجهها.

في بدر التقى الجمعان وقُضيَ الأمر، وجعل الله كلمة الذين كفروا السفلى وكلمته هي العليا، وقُتل صناديد قريش، وأُسر فريقٌ من أبطالهم وفرسانهم، وفَرَّ سائرهم، وكان أبو العاص بن الربيع مع فريق المأسورين، وكان في المدينة عند رسول الله ﷺ، فأوصى بالإحسان إلى الأسرى قائلًا: «**استوصوا بالأسرى خيرًا**».

في مكة ذاعت وأُذيعت الأخبار التي تحكي هزيمة قريش في غزاةِ بدر، ومقتل صناديدهم، بينما أصبح أكابرهم وذوو الرأي منهم مقرنين في الأصفاد، يرهق وجوههم قتر الذل والهوان، وخافت زينب وابنتها أمامة على أبي العاص من أن يكون من الذين لقوا حتفهم، ولاقوا منيتهم بأيدي فرسان المسلمين، إلا أن الأنباء جاءت لتؤكد أن أبا العاص أسير، وهو في عداد الأسرى، وتحت رعاية رسول الله ﷺ.

أخذ المشركون من أهل مكة يعدّون العدّة، كيما يذهبون في فداء الأسرى، وتجهّز عمرو بن الربيع أخو أبي العاص ليقدم مكة في فداء أخيه.

وفي تلك اللحظات، رأت الفتاة الصغيرة أمامة بنت أبي العاص موقفًا عطرًا لأمها، لا تزال ذكراه تلوح في ذاكرتها طيلة حياتها، وكذلك يلوح ذلك الموقف في ذاكرة العابدين إلى يوم يبعثون.

رأت أمامة والدتها زينب وهي تنزع قلادة لطيفة من عنقها، لتبعثها في فداء أبيها أبي العاص، وكانت زينب قد روت لابنتها أُمامة قصة هذا العقد النفيس، وكيف أهدتها إياه أمها خديجة في يوم زفافها، وظلّ هذا العقد الكريم اللطيف يذكّرها بالطاهرة خديجة التي تثوي عنها غير بعيد.

انطلق عمرو بن الربيع يحمل الفداء؛ وفي المدينة المنورة تقدّم فقال لرسول الله ﷺ: بعثتني بنت محمد بهذا في فداء زوجها؛ أخي أبي العاص بن الربيع[١].

وعن عائشة، قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أُسرائهم، بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الربيع بمالٍ، وبعثت فيه بقلادة كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها، قالت: فلما رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها رقة شديدة، وقال: **«إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها مالها، فافعلوا»**؛ فقالوا: نعم يا رسول الله فأطلقوه، وردوا عليها الذي كان لها[٢].

وفاء بالعهد

وكان رسول الله ﷺ قد أخذ عليه: أو وعد رسول الله ﷺ ذلك، أن يُخلِّي سبيل زينب إليه، أو كان فيما شرط عليه في إطلاقه، ولم يظهر ذلك منه ولا من رسول الله ﷺ فيُعلَم ما هو، إلا أنه لما خرج أبو العاص إلى مكة وخُلِّي سبيله، بعث رسولُ الله ﷺ زيدَ بن حارثة ورجلًا من الأنصار مكانه، فقال: **«كُونا ببطن يأجِجَ حتى تمرَّ بكما زينب، فتصحباها حتى تأتياني بها»**[٣]، فخرجا مكانهما، وذلك بعد بدر بشهر أو شهرين،

(١) نساء أهل البيت (ص: ٦١١ ، ٦١٢).
(٢) أخرجه أبو داود في كتاب «الجهاد» باب «في فداء الأسير بالمال» (٣/ح ٢٦٩٢) وأحمد في «مسنده» (٦/ ٢٧٦) والبيهقي في «السنن الكبرى» وإسناده حسن. والحاكم في «مستدركه» (٤/ ٤٥) وقال: صحيح ووافقه الذهبي.
(٣) رواه أبو داود (٣/ح ٢٦٩٢)، والحاكم (٣/ ٢٣٦) وصححه ووافقه الذهبي.

فلما قَدِم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها فخرجت تجهّز.

فلما فرغت بنت رسول الله ﷺ من جهازها قدَّم لها حَمُوها كنانةُ بن الربيع أخو زوجها، بعيرًا، فركبته، وأخذ قوسه وكنانته، ثم خرج بها نهارًا، وهي في هَوْدج لها. وتحدث بذلك رجالٌ من قريش، فخرجوا في طلبها حتى أدركوها بذي طُوى، فكان أول من سبق إليها هَبّارُ بن الأسود، فروّعها هبّار بالرمح، وهي في هَودجها، وكانت المرأةُ حاملاً - فيما يزعمون - فلما ريعت طرحت ذا بطنها - سقط حملها - وبَرَكَ حموها كنانةُ، ونثر كنانته ثم قال: والله لا يدنو منّي رجلٌ إلا وضعتُ فيه سهمًا، فتكرْكر[١] الناسُ عنه. وأتى أبو سفيان في جلّة من قريش، فقال: أيها الرجل، كفّ عنا نبلك حتى نكلمك، فكفَّ؛ فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه، فقال: إنك لم تُصِبْ، خرجت بالمرأة على رءوس الناس علانيةً وقد عرفت مُصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا من محمد، فيظن الناس إذا خرجت بابنته إليه علانيةً على رءوس الناس من بين أظهُرنا، أنّ ذلك عن ذلٍّ أصابنا عن مصيبتنا التي كانت، وأنّ ذلك منا ضعف ووهن، ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها منْ حاجة، وما لنا في ذلك من ثُؤرة[٢]. ولكن ارجع بالمرأة، حتى إذا هدأت الأصوات، وتحدّث الناسُ أن قد رددناها، فسُلَّها سرًّا وألحقها بأبيها؛ قال: ففعل، فأقامت ليالي، حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصحابه، فقدما بها على رسول الله ﷺ[٣].

قال المسور بن مَخْرمة: أثنى النبي ﷺ على أبي العاص في مصاهرته خيرًا، وقال: «**حدثني فصدقني، ووعدني، فوفى لي**»[٤].

وهكذا تكون الأمانة، وهكذا يكون الوفاء بالوعد. . . وهكذا تكون مراقبة الله عز وجل.

---

(١) فتكركر الناس عنه: أي رجعوا وانصرفوا.

(٢) ثؤرة: طلب الثأر.

(٣) أخرجه الطبري في التاريخ (٢/ ٤٣، ٤٤) والبيهقي في الدلائل (٣/ ١٥٥، ١٥٦) وابن كثير في البداية (٣/ ٣٣٠). وهذا إسناده منقطع. ووصله البيهقي (٣/ ١٥٦) من طريق أخرى عن عمرو بن عبد الله بن عروة بن الزبير عن عائشة. . . به وإسناده حسن.

(٤) أخرجه البخاري (٣٧٢٩) فضائل الصحابة (٥٢٣٠) النكاح.

فلقد ضرب (أبو العاص) رضي الله عنه المثل في الوفاء والأمانة.

في رحاب الحبيب ﷺ

ويا لها من لحظة يعجز القلم عن وصفها... فها هو الحبيب ﷺ يستقبل ابنته زينب وحفيدته أُمامة رضي الله عنهما بكل رحمة وحنان وسقطت دموع الفرح من عيني زينب رضي الله عنها.

وليس الذي يجري من العين ماؤها ... ولكنها روحٌ تسيل فتقطُرُ.

وعاشت أُمامة في رحاب الحبيب ﷺ ليغدق عليها من عطفه وحبه وحنانه فلقد كانت أول حفيدة للنبي ﷺ فكان لها مكانة عظيمة في قلبه... وكان النبي ﷺ يحمل في قلبه من الحب والعطف والرحمة ما يسع البشر أجمعين فكيف بحفيدته وقُرة عينه وثمرة فؤاده (أُمامة).

وها هو الحبيب ﷺ يأخذها معه إلى المسجد ويصلي بالمسلمين وهو يحمل أُمامة رضي الله عنها.

عن أبي قتادة: أن رسول الله ﷺ، كان يصلي وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها[1].

وفي رواية أبي داود: عن أبي قتادة قال: بينا نحن في المسجد جلوس، خرج علينا رسول الله ﷺ، يحمل أمامة بنت أبي العاص بن الربيع، وأمها زينب بنت رسول الله ﷺ، وهي صبية، يحملها على عاتقه، فصلى رسول الله ﷺ، وهي على عاتقه: يضعها إذا ركع، ويعيدها إذا قام، حتى قضى صلاته يفعل ذلك بها[2].

والله لأضعنها في رقبة أحب أهل البيت إليّ

ولقد كان الحبيب ﷺ يزداد حبًا (لأمامة) يومًا بعد يوم حتى كان يُحب أن يأتيها بما يُدخل عليها السعادة والسرور.

عن أمنا عائشة الصدِّيقة بنت الصدِّيق رضي الله عنهما أنها قالت: أُهْدِي لرسول الله ﷺ قلادة من جزع ملمَّعة بالذهب، ونساؤه مجتمعات في بيتٍ كلّهن، وأمامة بنت زينب بنت

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٦)، ومسلم (٥٤٣) المساجد.

(٢) رواه أبو داود وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٨١٢).

رسول الله ﷺ، وهي بنت أبي العاص بن الربيع، جارية تلعب في جانب البيت بالتراب.

فقال ﷺ: - أي لنسائه -: «**كيف ترين هذا**» ؟

فنظرنا إليها فقلنا: يا رسول الله ! ما رأينا أحسن من هذه قط ولا عجب! فقال: «**ارددنها إليَّ**».

فلما أخذها قال: «**والله لأضعنها في رقبة أحب أهل البيت إليَّ**».

قالت عائشة : ﵂ فأظلمت عليَّ الأرض بيني وبينه خشية أن يضعها في رقبة غيري منهن، ولا أراهن إلا قد أصابهن مثل الذي أصابني، ووجمنا جميعًا، فأقبل بها حتى وضعها في رقبة أمامة بنت أبي العاص، فسُرِّيَ عنّا[1].

لقد كانت عائشة ﵂ تعتقد أن النبي ﷺ سيضع تلك القلادة في عنقها لأنها تعرف وتدرك مكانتها عند رسول الله ﷺ ولكن النبي ﷺ وضعها في عُنق أمامة ﵂ .

فيا لها من منقبة عظيمة لا توازيها الدنيا بكل ما فيها من متاعٍ زائل.

تحلي بهذا يا بُنية

ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي خصَّ النبي ﷺ فيها أُمامة بتلك الهدية بل كان ﷺ يخصها كثيرًا بالهدايا ليُدخل السعادة والسرور على قلبها.

عن عائشة قالت: قدمَتْ على النبي ﷺ، حلية من عند النجاشي أهداها له، فيها خاتم من ذهب، فيه فص حبشي.

قالت: فأخذه رسول الله ﷺ، بعُودٍ مُعْرِضًا عنه، أو ببعض أصابعه، ثم دعا أمامة ابنة أبي العاص ابنة ابنته زينب فقال: «**تحلّي بهذا يا بُنية**»[2].

موعدٌ مع السعادة

وظلت أُمامة تعيش في رحاب الحبيب ﷺ تقبس من هديه ودلّه وسمته وأخلاقه ورحمته... وكان النبي ﷺ يحوطها برعايته ومحبته إلى أن منَّ الله ﷻ على أبيها

(١) قال الهيثمي في المجمع (١٥٣٩١): رواه الطبراني «اللفظ له وأحمد باختصار وأبو يعلي وإسناد أحمد وأبي يعلى حسن.

(٢) رواه أبو داود وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٥٦٤).

بنعمة الإسلام والإيمان وذلك قبل فتح مكة.

فلقد أقام أبو العاص بمكة، وأقامت زينب عند رسول الله ﷺ بالمدينة، حين فرَّق بينهما الإسلام، حتى إذا كان قُبيل الفتح، خرج أبو العاص تاجرًا إلى الشام، وكان رجلًا مأمونًا، بمال له وأموالٍ لرجال من قريش، أبضعوها معه، فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلًا، لقته سرية لرسول الله ﷺ، فأصابوا ما معه، وأعجزهم هاربًا، فلما قدمت السرية بما أصابوا من ماله، أقبل أبو العاص تحت الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله ﷺ، فاستجار بها، فأجارته، وجاء في طلب ماله، فلما خرج رسول الله ﷺ، إلى الصبح فكبّر وكبّر الناس معه، صرخت زينب من صُفّة النساء: [أيها الناس] إني قد أجرتُ أبا العاص بن الربيع، قال: فلما سلَّم رسول الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس، فقال: «**أيها الناس، هل سمعتم ما سمعت**» ؟ قالوا: نعم؛ قال: «**أما والذي نفسُ محمد بيده ما علمتُ بشيء من ذلك حتى سمعتُ ما سمعتم، إنه يُجير على المسلمين أدناهم**»، ثم انصرف رسول الله ﷺ، فدخل على ابنته، فقال: «**أي بُنية، أكرمي مثواه، ولا يخلصنّ إليك، فإنك لا تحلين له**»(١).

وعن عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ بعث إلى السرية الذين أصابوا مال أبي العاص، فقال لهم: «**إن هذا الرجل منا حيثُ علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له، فإنا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فيءُ الله الذي أفاء عليكم، فأنتم أحق به**»؛ فقالوا: يا رسول الله، بل نرده عليه، فردوه عليه، حتى إن الرجل ليأتي بالدلو ويأتي الرجل بالشَّنّة وبالإداوة، حتى إنِ أحدهم ليأتي بالشُّظاظ، حتى ردوا عليه ماله بأسره، لا يفقد منه شيئًا. ثم احتمل إلى مكة. فأدّى إلى كل ذي مالٍ من قُريش ماله، ومن كان أبضع معه، ثم قال: يا معشر قريش، هل بقي لأحدٍ منكم عندي مال لم يأخذه ؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيرًا ! فقد وجدناك وفيًا كريمًا؛ قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، والله ما منعني من الإسلام إلا تخوُّف أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم وفرغتُ منها أسلمتُ. ثم خرج حتى قَدِمَ على رسول الله ﷺ(٢).

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن» (٩/ ٩٥) والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٢٣٦، ٢٣٧) وذكره الزيلعي في نصب الراية (٣/ ٢١١) وقال إلي تصحيحه.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٢٣٧) وإسناده صحيح، والبيهقي في «الدلائل» (٤/ ٨٥).

فردَّ النبي ﷺ على أبي العاص زوجه زينب ليسعدا في ظل الإيمان.

وهكذا اكتملت السعادة في قلب (أُمامة) بإسلام أبيها وعاش أبو العاص في ظلال واحة الإيمان بين ابنته وزوجته - والكل يسعد بجوار الحبيب ﷺ -.

وكانت أُمامة تملأ البيت بصوتها العذب الذي يُدخل السرور والسعادة على والديها فكان والدها يشعر بالسعادة تغمر قلبه فإذا رأى ابنته كان يُقبل عليها ويضمها إلى صدره في حنانٍ.

وكان الحبيب ﷺ في قمة سعادته بإسلام أبي العاص بل كان يتمنى أن لو كانت خديجة رضي الله عنها قد شهدت إسلام ابن أختها الذي كانت تُنزله بمنزلة ولدها.

وها هي الأحزان تطرق بابها

ومع تلك السعادة التي عاشتها تلك الأسرة المباركة إلا أن دوام الحال من المحال... فلقد تراكمت الأحزان واجتمعت مرة واحدة لتطرق الأبواب.

ففي بداية السنة الثامنة من الهجرة نامت زينب رضي الله عنها على فراش الموت - وكانت مريضة منذ هجرتها من مكة إلى المدينة - وفاضت روحها إلى بارئها ... فحزنت أمامة لموت أمها حزنًا شديدًا لكنها احتسبتها عند الله لتنال ثواب الصابرين - وجاء الحبيب ﷺ ليخبر أم عطية - التي غسَّلت زينب - بكيفية غسلها.

فعن أم عطية رضي الله عنها قالت: «دخل علينا رسول الله ﷺ، ونحن نغسل ابنته. فقال: **«اغسلنها ثلاثًا، أو خمسًا، أو أكثر من ذلك بماء وسدر، واجعلن في الآخرة كافورًا، فإذا فرغتن فآذِنني»**. فلما فرغنا آذناه. فألقى إلينا حقوه فقال: **«أشعرنها إياه»**[1].

وأصبحت أمامة ترى دار أمها ساكنة سكون القبور، موحشة بلا حياة، فقد ذهبت الحبيبة التي كانت نبض بهجتها، وروح أنسها، وأنس روحها، ونظرت أمامة فرأت قلادة أمها، تلك القلادة التي كانت لجدتها خديجة، ولطالما حدثتها أمها عن جدتها خديجة وعن مكانة هذه القلادة عند رسول الله ﷺ، وكيف أكرم رسول الله أباها عندما وقع أسيرًا في غزوة بدر.

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٥٧) ومسلم (٩٣٩) الجنائز.

في الآخرة: أي في الغسلة الأخيرة. وآذنّني: أي: أعلمنني، - وحقوه بفتح الحاء، وكسرها: يعني: إزاره، وأصل الحقو: معقد الإزار، وسمي الإزار به مجازًا لأن الحقو يُشد به.

تذكرت أمامة كل هذا فاستعبرت، فضمها أبو العاص إلى صدره في حنان، وأخذ يمسح عن عينيها دموع الحزن فقد وجد في ابنته ما يخفف بعض حزنه على زوجه زينب، . . . وكان رسول الله ﷺ يكرم أُمامة فقد وجد فيها ما يخفف حزنه على زينب ويذكره بذكرى عطرة، ذكرى الطاهرة خديجة رضي الله عنها التي قضت نحبها من أكثر من عقد من الزمن.

عاشت أمامة مرعية الجانب في البيت النبوي، ويبدو أنها عاشت في كنف خالتها فاطمة الزهراء - رضوان الله عليها -، وراحت الزهراء تفيض عليها من حنانها وعطفها ما تغمره به أولادها: الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم، وكانت تعدها لتكون إحدى النساء الشهيرات في دنيا الفضيلة والفضائل، وما ظنك بامرأة يشرف عليها رسول الله ﷺ، وتكرمها فاطمة الزهراء رضي الله عنها ؟!

ومضت الأيام والحبيبة النبوية أمامة تنعم في كنف أكرم بيوت الدنيا، ولكن ما إن جاء شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة حتى توفي رسول الله ﷺ، وانتقل إلى الرفيق الأعلى، فدخل حزن عظيم على قلب أمامة بفقده، وكذلك أصيب المسلمون به جميعًا، وأحست أمامة بأنها فقدت الركن الكبير في حياتها بوفاته ﷺ.

وعاشت أمامة رضي الله عنها تحت رعاية خالتها فاطمة الزهراء، وصُنعت على عينها، إلا أن فاطمة الزهراء رضي الله عنها لم تمكث بعد أبيها طويلاً، وإنما مرضت، وذوي جسمها، وأخذ الموت يزحف إليها كيما تلحق برسول الله ﷺ، تحقيقًا لما أخبرها به بأنها أول أهله لحوقًا به.

وجاءت أمامة، وألقت نظرة على خالتها فاطمة الزهراء، فتسور الحزن صدرها، واعتصر الأسى قلبها، فقد عاشت في كنف خالتها الزهراء بعد موت الأحبة، أمها زينب، وجدها رسول الله ﷺ، فأنستها الزهراء بعطف حنانها، وحنان عطفها، وحبها لها، آلام اليتم وإيلام الفراق فكانت لها أمًّا بعد أمها[١].

ولم تلبث فاطمة رضي الله عنها بعد وفاة أبيها رسول الله ﷺ إلا ستة أشهر ثم ماتت لتلحق بالحبيب ﷺ في الجنة ولتكون سيدة نساء أهل الجنة. . . وحزنت أُمامة حزنًا كاد أن يمزق قلبها فلقد توالت الأحزان عليها فمات الأحباب واحدًا بعد واحدٍ حتى نزف قلبها الدماء بدل الدموع ولم يبق لها إلا والدها الذي اشتد عليه المرض فلزم الفراش.

(١) نساء أهل البيت (ص ٦٢٠ ، ٦٢١).

وفي السنة الثانية عشرة من الهجرة كان أبو العاص يودع الدنيا وإذا به ينظر نظرة أخيرة على ابنته الحبيبة التي عصرت الأحزان قلبها... إنها تذكره بأمها زينب وجدتها خديجة ﵄ وما هي إلا لحظات حتى فاضت روحه إلى بارئها ليلحق بالأحباب في جنات ونهر في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر.

وجلست (أُمامة) وحيدة تفكر في تلك الدار التي كانت بالأمس القريب عامرة بالأحبابِ وإذا بها تُصبح خاوية على عروشها... مات الأحباب ورحلوا جميعًا وبقيت أُمامة وحيدة في هذه الدنيا ولكنها كانت تشعر بأن الله سيكرمها.. وحسبُها أنها كانت قرة عين للنبي ﷺ ومات وهو راضٍ عنها.

زيجة مباركة

وبعد تلك الأحزان المتوالية جاءت اللحظة التي قدر الله ﷿ فيها أن تدخل السعادة مرة أخرى على قلب أُمامة... فلقد جاء فارس المسلمين علي بن أبي طالب ﵁ ليتزوجها.

وكان أبو العاص بن الربيع ﵁ أوصى قبل وفاته ابن خاله الزبير بن العوام ﵁ ليكون وليًا لأمامة، وعاشت أمامة في كنف الزبير وزوجه أسماء بنت الصديق ﵃ جميعًا. وكان الزبير وزوجه أسماء يكرمان أمامة أشد الإكرام، فهما يعلمان مكانتها من قلب رسول الله ﷺ، لذا فقد كانا يحرصان كل الحرص على مرضاته ﷺ حيًا وميتًا.

وفي خلافة الفاروق عمر(١)، تزوجها سيدنا علي بن أبي طالب ﵁ ،... وقد زوَّجها الزبير بن العوام.

وعاشت مع زوجها (علي) تقتبس من علمه وأخلاقه ورحمته حتى سكنت السعادة قلبها مرة أخرى.

وتمر الأيام حتى أصبح (علي) أمير المؤمنين... وبدأت الفتن تُقبل من كل حَدَبٍ وصوب إلى أن قُتل (علي) غدرًا فتجددت الأحزان واحتسبت كل أحبابها عند ربها ﷿ .

وتمر الأيام ويتزوجها المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي فولدت له يحيى بن المغيرة.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٣٥).

وجاء وقت الرحيل

وبعد تلك الحياة الطويلة المليئة بالبذل والعطاء - والتي امتزجت فيها الجراح مع الأفراح - نامت أُمامة رضي الله عنها على فراش الموت وفاضت روحها إلى بارئها لتلحق بجدها رسول الله ﷺ وجدتها خديجة وأمها زينب وأبيها أبي العاص - رضي الله عنهم- في جناتٍ ونهر في مقعد صدق عند مليكٍ مقتدر.

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

* * *

الرُّبيع بنت مُعوذ رضي الله عنها

ابنة قاتل فرعون هذه الأمة

لله درُّ نفس تطهرت من أنجاس هواها، وتجلببت جلباب الصبر عن دنياها، وشغلها ما رأى قلبها عما رأت عيناها، وإن مالت إلى الدنيا نهاها نُهاها[١]، وإن مالت إلى الهوى شفاها شفاها، سهرت تطلب رضى المولى فرضي عنها وأرضاها، وقامت سوق المجاهدة على سوق هداها، فباعت حرصها بالقناعة فظفرت بغناها، وفَوَّقَتْ[٢] سهام العزائم إلى أهداف المحارم تبتغي علاها، ورمت نجائب الأسحار فساقها حادي الاستغفار إذ عناها؛ وقطعت بيداء الجد بآلة المستعد فبلغت مُناها، فمن أجلها ينزل القطر وينبت الزرع من جزاها، ولولاها لم تثبت الأرض بأهل دنياها[٣].

وها نحن يتجدد بنا اللقاء مع صحابية جليلة نشأت في بيئة إيمانية مباركة جعلتها تعرف قدر هذا الدين العظيم بل وتعرف قدر نفسها في ظل هذا الدين فكان الدين هو همها الأول والأخير.

إنها بنت الإسلام التي بذلت النفس والنفيس لنُصرة هذا الدين... إنها الزهرة النقية التقية التي بايعت بيعة الرضوان لتفوز بالرضوان من الرحيم الرحمن ومن ثَم بالفوز بالنعيم في أعلى الجنان.

إنها ثمرة من ثمرات التضحية والفداء فهي التي عاشت في ظلال الوحي فنشأت على حُب البذل والعطاء فشاركت في الجهاد وفي نشر العلم والفضائل كلها.

إنها الرُّبيع بنت معوذ - رضي الله عنها وعن أبيها -.

وكعادتنا فسوف نقف وقفة مباركة مع المكارم التي أحاطت بها من كل جانب قبل أن نتعايش مع سيرتها العطرة المباركة.

---

(١) نُهاها: بضم النون: العقل.
(٢) فوقت: صوّبت.
(٣) مواعظ ابن الجوزي (ص ٩٩).

وقفة مع المكارم

لقد نشأت ﵁ في بيت مبارك أُسس على التقوى من أول يوم فلقد كان أبوها من المسارعين إلى الدخول في هذا الدين العظيم بل كان له مواقف عظيمة سطَّرها على جبين التاريخ بسطورٍ من النور... فأبوها هو معوِّذ بن عفراء - وهو من أهل بدر - ولقد قال رسول الله ﷺ عن أهل بدر: **«إن الله ﷿ اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»**(١).

وفي الصحيحين: قال ﷺ: **«لعل الله اطلع على أهل بدرٍ فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة - أو فقد غفرت لكم -»**.

* بل لقد جاء جبريل ﵇ إلى النبي ﷺ فقال: **«ما تعدون أهل بدرٍ فيكم»؟ قال: «من أفضل المسلمين»** - أو كلمة نحوها - قال: **«وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة»**(٢).

* بل لقد شارك أبوها في مقتل أبي جهل - فرعون هذه الأمة - وله مواقف عظيمة في نُصرة هذا الدين العظيم.

* وأما زوجها فهو إياس بن البكير الليثي - وهو أحد كبار المهاجرين - ولقد ولدت له ابنه محمد بن إياس.

فنشأت الرُّبيع ﵂ في ظل هذه البيئة الإيمانية التي عمر الإيمان جوانبها، وحل الصدق والإيثار بساحتها، وتخلل الإسلام مسالكها، وأضاء نور الحق بيوتها، فكانت نشأة هذه الفتاة الكريمة ابنة أحد الذين: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: الآية ٩]

وفي ظلال ذلك الشَّذَا القُدسي، وفي جَنَباته، نهدت الابنة في مهدها، فتخلل الإيمان مشاعرها، وملأ قلبها وعقلها، وعرفت حلاوة مهادها، الإخلاص لله تعالى مما كانت ترى من أبيها وأعمامها وذويها، أولئك الذين ﴿صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: الآية ٢٣]، حيث كان أهلها من حُماة الحق وناصِريه، ومِنَ:

الخائضين من الخطوب غمارها المُصطلين من الحروب لظاها

(١) رواه أبو داود (٤٦٥٤) وابن حبان (موارد الظمآن ٢٢٢٠) وإسناده حسن.
(٢) أخرجه البخاري (٣٩٩٢).

البـاذلـيـن لـدى الـفـداء نـفـوسـهـم   يـبـغـون عـنـد إلـهـهـم مـحـيـاهـا
مـا آثـروا فـي الأرض إلا ديـنـه   دِيـنًـا ولا عـبـدوا سِـواه إلـهـا
قـومٌ هـم اتخـذوا الـشـهـادة بـغـيـة   لا يبتغون لدى الجهاد سواها[(١)]

موقفٌ عظيم لأبيها وعمها في يوم بدر

وفي يوم بدرٍ كان لأبيها وعمها موقف عظيم أمام صناديد الكفر الذين أعلنوا الحرب على رسول الله ﷺ ومن معه. وجاءت معركة بدر التي كتب الله فيها العزة والنُّصرة لأوليائه.

وبدأت المعركة وكان أول وقود المعركة الأسود بن عبد الأسد المخزومي - وكان رجلًا شرسًا سيئ الخلق - خرج قائلًا: أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه، فلما خرج إليه حمزة بن عبد المطلب ﷺ والتقيا، ضربه حمزة، فأطن قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب رجله دمًا نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن تبر يمينه، ولكن حمزة ثنى عليه بضربة أخرى أتت عليه وهو داخل الحوض.

وكان هذا أول قتل أشعل نار المعركة، فقد خرج بعده ثلاثة من خيرة فرسان قريش كانوا من عائلة واحدة، وهم: عتبة وأخوه شيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، فلما انفصلوا من الصف طلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من شباب الأنصار، عوف ومعوذ ابنا الحارث - وأمهما عفراء - وعبد الله بن رواحة، فقالوا: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار، قالوا: أكفاء كرام، ما لنا بكم حاجة، وإنما نريد بني عمنا، ثم نادى مناديهم: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا، فقال رسول الله ﷺ: **«قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا عليّ»**، فلما قاموا ودنوا منهم، قالوا: من أنتم ؟ فأخبروهم، فقالوا: أنتم أكفاء كرام، فبارز عبيدة - وكان أسن القوم - عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة، وبارز عليٌّ الوليد[(٢)]، فأما حمزة وعليّ فلم يُمهلا قرنيهما أن قتلاهما، وأما عبيدة

(١) بنات الصحابة (ص ١٥٢).
(٢) هذا على ما قاله ابن إسحاق، وفي رواية أحمد (١/ ١١٧)، وأبي داود (٣/ ٢٦٦٥): أن عبيدة بارز الوليد، وعليّ بارز شيبة، وحمزة بارز عتبة، مشكاة المصابيح (٢/ ٣٤٣).

فاختلف بينه وبين قرنه ضربتان فأثخن كل واحد منهما صاحبه، ثم كر عليّ وحمزة على عتبة فقتلاه واحتملا عبيدة، وقد قُطعت رجله؛ فلم يزل ضَمِنًا حتى مات بالصفراء بعد أربعة أو خمسة أيام من وقعة بدر، حينما كان المسلمون في طريقهم إلى المدينة[(١)].

وكان عليّ يُقسم بالله أن هذه الآية نزلت فيهم: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: الآية ١٩][(٢)]

أبوها يشارك في مقتل أبي جهل ...

ثم يرزقه الله الشهادة

وتأتي اللحظة المناسبة بل ويأتي هذا الموقف التاريخي الذي يشارك فيه أبوها في مقتل فرعون هذه الأمة - أبي جهل - ثم يرزقه الله الشهادة في سبيله.

فتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا مع هذا المشهد المهيب.

وهنا أترك المجال للصحابي الجليل - عبد الرحمن بن عوف - ليصف لكم هذا المشهد الجليل.

قال عبد الرحمن بن عوف: **إني لفي الصف يوم بدر إذ التفتّ، فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن، فكأني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سرًّا من صاحبه: يا عم، أرني أبا جهل، فقلت: يا ابن أخي، فما تصنع به؟ قال: أُخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ قال: والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك، قال: وغمزني الآخر، فقال لي مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألاني عنه، قال: فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فقال: «أيكما قتله»؟ فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، قال: «هل مسحتما سيفيكما»؟ فقالا: لا فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين، فقال: «كلاكما قتله»، وقضى رسول الله ﷺ بسلبه**

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ١٨٧، ١٨٨) وصححه ووافقه الذهبي - لكن إسناده حسن ففيه ابن إسحاق وهو صدوق مدلس إلا أنه صرح بالتحديث.

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٦٥)، والنسائي في التفسير (٦/ ١١٣٤٢).

لمعاذ بن عمرو بن الجموح.

والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعوذ بن عفراء[١].

وقال ابن إسحاق: قال معاذ بن عمرو بن الجموح: سمعت القوم، وأبو جهل في مثل الحرجة - والحرجة: الشجر الملتف، أو شجرة من الأشجار لا يوصل إليها، شبه رماح المشركين وسيوفهم التي كانت حول أبي جهل لحفظه، بهذه الشجرة - وهم يقولون: أبو الحكم لا يُخلصُ إليه، قال: فلما سمعتها جعلته من شأني فصمدت نحوه، فلما أمكنني حملت عليه، فضربته ضربة أطنَّتْ قدمه - أطارتها - بنصف ساقه، فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا بالنواة تطيح من تحت مِرْضَخَةِ النوى حين يضرب بها، قال: وضربني ابنه عكرمة على عاتقي، فطرح يدي، فتعلقت بجلدة من جنبي، وأجهضني القتال عنه، فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي، فلما آذتني وضعت عليها قدمي، ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها، ثم مر بأبي جهل - وهو عَقِيرٌ - معوذ بن عفراء، فضربه حتى أثبته فتركه وبه رمق، وقاتل مُعوذ حتى قُتل[٢].

فيا لها من بطولات نادرة .. ويا له من ثبات على الحق.

فلما استشهد أبوها حزنت لموته حزنًا شديدًا ولكنها احتسبته عند الله لتفوز بثواب الصابرين... وحسبُها أن أباها استشهد في أرض الشرف والجهاد.

مكانتها عند رسول الله ﷺ

ولقد حظيت رضي الله عنها بمكانة عالية عند رسول الله ﷺ فقد كان يزورها ويَقبل هديتها... حتى كان الصحابة - رضي الله عنهم - يعلمون قدرها ومكانتها عند النبي ﷺ ففازت بكل تقدير واحترام.

وها هو موقف من أعظم المواقف ومنقبة من أجلّ المناقب التي فازت بها ألا وهي زيارة النبي ﷺ لها في يوم زواجها.

عن خالد بن ذكوان، قال: دخلنا على الربيع بنت معوذ، فقالت: دخل عليَّ

(١) أخرجه البخاري (٣١٤١) ومسلم (٤٢) (١٧٥٢).
(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٦٣ ، ٤٦٤).

رسول الله ﷺ في يوم عرسي، فقعد على موضع فراشي هذا وعندنا جاريتان تضربان بدُفٍّ، وتندبان آبائي الذين قُتلوا يوم بدر، وقالتا فيما تقولان: وفينا نبي يعلم ما في غد.

فقال: «أمّا هذا فلا تقولاه»(١).

وإنما أنكر عليهما ﷺ وصفهما له بعلم الغيب، لأنها صفة تختص بالله سبحانه وتعالى كما قال جل شأنه ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: الآية ٦٥] . وقال لنبيه :﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٨] وما كان النبي ﷺ يخبر به من الغيوب إنما هو بإعلام الله تعالى إياه، لا أنه يستقل بعلم ذلك كما قال سبحانه :﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

هكذا كان النبي ﷺ يتعهدها بالتعليم والتربية والتوجيه. . . وهكذا ظلت تلك الزيارة المباركة في ذاكرتها لا تنساها أبدًا حتى كانت تحدث بها وهي في قمة السعادة بتلك المنقبة العظيمة.

وقد سجل الذهبي - رَحِمَهُ الله - هذه المنقبة الفريدة (للرُبيِّع) في أعلام نُبلائه فقال: وقد زارها النبي ﷺ صبيحة عُرسها صِلةً لرحمها(٢).

ولعل تكريم الرسول ﷺ للربيع ابنة معوذ، هو تكريم لأسرتها، فإذا كرّم النبي ﷺ الربيع وأكرمها، فإنه يكرّم في شخصها الوفاء في أروع صوره وأرفع نماذجه، ويكرمُ كذلك ذروة الفضائل الإيمانية في أسرتها - ذكورهم وإناثهم -، الأسرة التي وهبت نفسها وجميع ما تملك من قوة ومال لإعلاء كلمة الله، والدفاع عن رسول الله ﷺ أن يمسَّه أحدٌ من أعدائه وأعداء الإسلام بسوءٍ من القول أو الفعل، أو حتى الهمس والإشارة. وفي الصفحات التاليات نعرف مصداق ذلك(٣).

ها هي تروي لنا صفة وضوء النبي ﷺ

لقد كان النبي ﷺ - كما أسلفنا - يزورها كثيرًا بل كان يتوضأ أحيانًا في بيتها ويصلي

(١) أخرجه ابن سعد (٨/ ٤٤٧) والبخاري (٩/ ١٧٤) النكاح.
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٩٨).
(٣) بنات الصحابة (ص ١٥٧ ، ١٥٨).

فتعلمت صفة وضوء النبي من الحبيب ﷺ مباشرة وكانت تسأله عن كل ما تحتاج أن تعرفه لتعبد الله على علمٍ وبصيرة.

وها هي تروي للأمة كلها صفة وضوء النبي ﷺ.

عن الرُّبيِّع بنت مُعَوِّذ بن عفراء، قالت: كان رسول الله ﷺ يأتينا، فحدثتنا أنه قال: «اسْكُبي لي وَضُوءًا» فذكرت وضوء رسول الله ﷺ قالت فيه: فغسل كفيه ثلاثًا، ووضأ وجهه ثلاثًا، ومضمض واستنشق مرة، ووضأ يديه ثلاثًا ثلاثًا، ومسح برأسه مرتين: يبدأ بمؤخرة رأسه ثم بمقدمه، وبأذنيه كلتيهما ظهورهما وبطونهما، ووضأ رجليه ثلاثًا ثلاثًا[(١)].

وهكذا فقد رسمت الرُّبيع رضي الله عنها صورة وضيئةً مباركة لكيفية وضوء الحبيب ﷺ كأنك تراه - فجزاها الله تعالى خير الجزاء -.

بل هو أبهى من الشمس والقمر

ولقد كانت رضي الله عنها بليغة فصيحة تعبِّر عن الشيء الذي يحتاج إلى الإطالة والتفصيل بكلمات موجزة جامعة لهذا الشيء - وهذا كله من فطنتها ورجاحة عقلها -.

عن أبي عبيدة بن محمد قال: قلت للرُّبيع بنت معوذ: صِفي لي رسول الله ﷺ فقالت: يا بني لو رأيته لرأيت الشمس طالعة[(٢)].

وأقول: بل هو أبهى وأجمل من الشمس والقمر.

يقول أنس رضي الله عنه: «ما مسست حريرًا ولا ديباجًا ألين من كف النبي ﷺ ولا شممت ريحًا قط أطيب من ريح النبي ﷺ»[(٣)].

كانت تحمل همّ الدين

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله:

إذا أصبح العبد وأمسى وليس همُّه إلا الله وحده، تحمَّل الله سبحانه حوائجه كلها،

(١) رواه أبو داود وحسنه الألباني في صحيح سنن أبو داود (١١٧).
(٢) دلائل النبوة للبيهقي (١/ ٢٠٠) ودلائل النبوة للأصبهاني (٢/ ٧٧٥).
(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٦٥٤) المناقب.

وحَمَل عنه كل ما أهمّه، وفرّغ قلبه لمحبته، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته.

وإن أصبح وأمسى والدنيا همُه، حمَّله الله همومها وغمومها وأنكادها، ووكّله إلى نفسه، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق، ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم؛ فهو يكدح كدح الوحش في خدمة غيره، كالكير ينفخ بطنه ويعصر أضلاعه في نفع غيره.

فكل من أعرض عن عبودية الله وطاعته ومحبته بُلِيَ بعبودية المخلوق ومحبته وخدمته، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: الآية ٣٦] (١)

ولقد كانت ضيفتنا المباركة ﵂ تسعى دائمًا إلى مرضاة الله ﷿ والعمل لنُصرة دينه بكل ما تملك فلم تكن تبخل بنفسها ولا بمالها عن خدمة هذا الدين العظيم.

فكانت تغزو مع رسول الله ﷺ لسقاية القوم وخدمتهم.

تقول (الرُّبيع) - كما روى البخاري -: كنا نغزو مع رسول الله ﷺ ونسقي القوم ونخدمهم ونردّ القتلى والجرحى إلى المدينة.

وهكذا كانت تسارع إلى نُصرة الإسلام في كل وقتٍ وحين.

ولا عجب في ذلك فإن الرُّبيع بنت معوذ ﵂ ذات رحلة مجيدة في رحلة الجهاد فهي مجاهدة من طرازٍ فريد في عالم بنات الصحابة الأنصار، ولا غرابة في ذلك، فهي فرعٌ كريمٌ، وغصنٌ أزهر زاهرٌ من دوحةٍ زاهيةٍ دانية الفضل، زاكية المكارم، أصلها ثابت في منابت الحق والإيمان، وفرعُها متطاول في سماء الإيمان والتسليم.

فالرُّبيِّع - رضوان الله عليها - تُعَد من بنات الصحابة الشهداء الذين اشترى الله منهم أنفسهم.

هكذا تكون العزة

ولقد كانت تستمد عزتها من عبوديتها لله وانتسابها لهذا الدين العظيم .. فهي تعلم يقينًا أننا جميعًا كنا أذل قومٍ فأعزّنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله.

(١) الفوائد/ للإمام ابن القيم (ص ١٢٦).

ولذلك فلقد كانت تقف في كل المواقف عزيزة شامخة بعقيدتها الراسخة في قلبها .. وها هو موقف من مواقفها الشامخة.

عن الرُّبيع، قالت: أخذتُ طِيبًا من أسماء بنت مُخرِّبة، أم أبي جهل، فقالت: اكتبي لي عليك، فقلت: نعم، أكتب على رُبيِّع بنت معوذ، فقالت: حَلْقَى[1]، وإنك لابنة قاتل سيده، قلت: بل ابنة قاتل عبده. قالت: والله لا أبيعك شيئًا أبدًا[2].

لقد رضي الله عن المؤمنين

ولقد كانت تسابق دائمًا إلى كل خير ولا تترك فرصة تُقربها إلى الله إلا وتغتنمها لتفوز في الدنيا والآخرة بالمغفرة والرضوان والنعيم في أعالي الجنان.

وها هي تبايع النبي ﷺ تحت الشجرة مع من بايع في هذا اليوم المبارك. فإنه لما كان عام الحديبية خرجت (الرُّبيِّع) مع رسول الله ﷺ فلما أرسل الحبيب ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه سفيرًا إلى قريش ليؤكد لهم موقفه وأنه ما جاء لحرب أبدًا وإنما جاء لأداء العمرة.. وإذا بقريش تحتبس عثمان - ولعلهم أرادوا أن يتشاوروا معه في الوضع الراهن- وطال الاحتباس فشاع بين المسلمين أن عثمان قُتل فقام النبي ﷺ ودعا أصحابه إلى بيعة الرضوان فبايعوه على الموت وكانت (الرُّبيِّع) ممن بايع الحبيب ﷺ فتنال الرضوان في بيعة الرضوان فقد قال عن الذين حضروا تلك البيعة: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: الآية ١٨].

لا يدخل النار من أصحاب الشجرة أحد

ولقد فازت بالخيرية في تلك البيعة حيث شهد النبي ﷺ لكل من بايع بأنهم خير أهل الأرض.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال لنا رسول الله يوم الحديبية: «**أنتم خير أهل**

---

(١) حَلْقَى: دعاء عليها بأن تُصاب بوجع في حلقها. ويقال للمرأة إذا كانت مؤذية مشؤومة: عَقْرى حَلْقَى.

(٢) أورده الحافظ في «الإصابة» (٤/ ٢٣٢) في ترجمة أسماء بنت مخربة من طريق الواقدي، وانظر «الطبقات» (٤/ ١٢٩ و ٥/ ٤٤٣ ، ٤٤٤).

الأرض وكنا ألفًا وأربعمائة، ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة»(١).

بل لقد بشَّرها النبي ﷺ ومن معها بالنجاة من النار - ويا لها من بشارة عظيمة - فقد قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: الآية ١٨٥].

فعن جابر ﵁ قال: أخبرتني أم مُبشِّر أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النار - إن شاء الله - من أصحاب الشجرة أحدٌ. الذين بايعوا تحتها» قالت: قلت: بلى يا رسول الله. فانتهرها فقالت حفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: الآية ٧١] فقال النبي ﷺ: قد قال الله ﷿ ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: الآية ٧٢](٢).

صفحة مشرقة من علمها وروايتها

إن أفضل ما اكتسبته النفوس، وحصَّلته القلوب، ونال به العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، هو العلم والإيمان، ولهذا قرن بينهما سبحانه وتعالى في قوله:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم: الآية ٥٦]

وقوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: الآية ١١]

وهؤلاء هم خلاصة الوجود ولبُّه والمؤهلون للمراتب العالية(٣).

ولقد فازت (الرُّبيع) ﵂ بشرف الصُحبة فكانت تنهل من النبع الصافي فتعلمت الكثير من كتاب الله ومن سُنة رسول الله ﷺ حتى غدت من راويات حديث النبي ﷺ.

وكانت مثالاً عظيمًا للمسلمة العالمة التي تتقن العلم وتتحرى فيه دقة ألفاظه ومعانيه فعرف المسلمون قدرها ومنزلتها وأكبروا علمها فكان عددٌ كبير من الصحابة والتابعين يأتون إليها ليسألونها عما تعرفه من أحكام الشريعة حتى روى عنها عددٌ كبير من أهل المدينة لعلمهم بقدرها ومكانتها عند رسول الله ﷺ وكثرة ترددها على عائشة ﵂ لتتزود من علمها وأدبها وفقهها.

قال الإمام الذهبي: حدَّث عنها: أبو سلمة بن عبد الرحمن، وسليمان بن يسار،

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٥٤) ومسلم (١٤٨٤).
(٢) أخرجه مسلم (٢٤٩٦).
(٣) الفوائد للإمام ابن القيم (ص ١٥٤ ، ١٥٥).

وعُبادة بن الوليد بن عبادة، وعمرو بن شُعيب، وخالد بن ذَكْوان، وعبد الله بن محمد ابن عقيل، وآخرون[١].

وحان وقت الرحيل

وظلت (الرُّبيع) تعيش في رحاب تلك البيئة الإيمانية المباركة إلى أن جاءت اللحظة التي أظلمت فيها المدينة - بموت الحبيب ﷺ - فحزنت عليه حزنًا شديدًا.

وعاشت في رحاب الخلافة الراشدة... وكان الخلفاء يعرفون قدرها ومكانتها فكانوا يُحسنون إليها غاية الإحسان.

وطالت بها الحياة حتى خلافة عبد الملك بن مروان ثم نامت على فراش الموت وفاضت روحها إلى بارئها بعد حياة طويلة مليئة بالبذل والتضحية والعمل لنُصرة هذا الدين العظيم.

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

* * *

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٩٨).

أم الفضل

(لبابة بنت الحارث) رضي الله عنها

أم حبر الأمة وإمام التفسير

كانت الإشاعات قد فاضت بين أهل الكتاب الأولين أن نبيًا قد اقترب ظهوره، ولهذه الإشاعات ما يبررها، فإن عهد الناس بالرسل أن يتتابعوا فلا تطول فترة الانقطاع بين أحدهم والآخر.

ولا يعلم أقدار النفوس إلا بارئها، والذي يريد هداية العالم أجمع يختار للغاية العظيمة نفسًا عظيمة، وقد كان العرب في جاهليتهم يرمقون محمدًا ﷺ بالإجلال، ويحترمون في سيرته شارات الرجولة الكاملة، إلا أنهم لم يتخيلوا قط أن مستقبل الحياة قد ارتبط بمستقبله، وأن الحكمة ستتفجر من ذلك الفم الطهور، فتطوي السهوب والجدوب، وتثب الوهاد والنجاد.

لم يكن محمد عليه الصلاة والسلام إمامًا لقبيل من الناس صلحوا بصلاحه، فلما انتهى ذهبوا معه في خبر كان، بل كان قوة من قوى الخير، وإن بعثته لتمثل مرحلة من مراحل التطور في الوجود الإنساني، كان البشر قبلها في وصاية رعاتهم أشبه بطفل محجور عليه، ثم شب الطفل عن الطوق ورشح لاحتمال الأعباء وحده. وجاء الخطاب الإلهي إليه - عن طريق محمد ﷺ - يشرح له كيف يعيش في الأرض، وكيف يعود إلى السماء. فإذا بقي محمد ﷺ أو ذهب فلن ينقص ذلك من جوهر رسالته، . . . إن رسالته تفتيح الأعين والآذان، وتجلية البصائر والأذهان، وذلك موضع في تراثه الضخم من كتاب وسنة.

إنه لم يُبعث ليجمع حول اسمه أناسًا قلوا أو كثروا. إنما بُعث صلة بين الخلق والحق الذي يصح به وجودهم، والنور الذي يبصرون به غايتهم.

فمن عرف في حياته الحق، وكان له نور يمشي به في الناس، فقد عرف محمدًا ﷺ، واستظل بلوائه وإن لم ير شبحه ويعيش معه . .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

﴿بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ١٧٥﴾.

[النساء: ١٧٤- ١٧٥]

وها نحن اليوم على موعدٍ مع صحابية جليلة كان لها قدم السبق إلى الإسلام فلقد استجاب قلبها النقي التقي وفطرتها السوية لنداء الحق فسارعت إلى الإسلام فلم تتأخر لحظة واحدة... وما كان لأصحاب الفطر السليمة أن يتأخروا عن خيرٍ دُعوا إليه.

إننا على موعدٍ مع صاحبة الفضل (أم الفضل) بنت الحارث بن حَزْن بن بُجَير، الهلالية، الحرة الجليلة. زوجة العباس، عم النبي ﷺ. وأم أولاده الرجال الستة النجباء.

اسمها: لُبابة. وهي أخت أم المؤمنين ميمونة، وخالة خالد بن الوليد، وأخت أسماء بنت عُمَيس لأمها[1].

وتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا مع سيرتها العطرة.

أم الفضائل والمكارم

وقبل أن نطوي الصفحات في قراءة حياة أم الفضل دعونا نقف لحظاتٍ عند الأصل الزكي الذي تكلل بالسيادة وأشرق بالمجد من كل أطرافه.

* فأما زوجها فهو العباس (عم رسول الله ﷺ) سيد بني هاشم الذي كان يمنع الجار ويبذل المال ويعطي في النوائب ويكسو العاري ويُطعم الجائع.

* وأما ابنها فهو حَبر الأمة وترجمان القرآن (عبد الله بن عباس رضي الله عنهما).

ولقد ولدت للعباس - غير عبد الله - الفضل وبه كانت تُكنى، وعُبيد الله وقُثَم، ومعْبَدًا، وعبد الرحمن، وأم حبيبة سابعة.

وفي أم الفضل يقول عبيد الله بن يزيد الهلالي:

ما ولدت نجيبة من فحل ... كستة من بطن أم الفضل
عم النبي المصطفى ذي الفضل ... بجبل نعلمه أو سهل
أكرم بها من كهلة وكهل ... وخاتم الرسل، وخير الرسل

* أما أخواتها: فأشرفهن وأنبلهن ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين، زوج النبي ﷺ

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ٣١٤).

تزوجها سنة ستٍّ من الهجرة، وكانت من سادات النساء. ومنهن لبابة الصغرى، وعصماء وعزة، وهُزيلة، كلهن بنات الحارث.

* ومن أُخواتها لأمٍّ: **أسماء وسلمى وسلامة بنات عميس الخثعميات، فانظر إلى هذا النبت الصالح، والغرس المبارك، فيا له من عزٍّ أي عزٍّ، وقد قيل: إن زينب بنت خزيمة الهلالية زوج النبي ﷺ أختهن لأمهن**[(١)].

* وهي خالة (خالد بن الوليد رضي الله عنه) الذي قال عنه الحبيب ﷺ: **«خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سلَّه على المشركين»**[(٢)].

وقال عنه أبو بكر رضي الله عنه: **«عجزت النساء أن يلدن مثل خالد». - فهل بعد هذا الفخر من فخر ؟ وهل بعد هذه المكارم مكرمة ؟.**

أكرم الناس أصهارًا

وكان يقال لوالدة أم الفضل العجوز الحرشية أكرم الناس أصهارًا: **ميمونة زوج النبي ﷺ، والعباس تزوج أختها شقيقتها لبابة، وحمزة تزوج أختها سلمى، وجعفر بن أبي طالب تزوج شقيقتها أسماء، ثم تزوجها بعده أبو بكر الصديق، ثم تزوجها بعده علي**[(٣)].

الأخوات المؤمنات

بل لقد شهد لها النبي ﷺ ولأخواتها بالإيمان فقال ﷺ: **«الأخوات الأربع: ميمونة وأم الفضل وسلمى وأسماء بنت عميس - أُختهن لأمهن - مؤمنات»**[(٤)].

ويا لها من شهادة عظيمة خرجت من فم الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ.

من السابقات

ها هي شمس الإسلام تشرق على أرض الجزيرة وينزل الوحي على الحبيب ﷺ وإذا

---

(١) تهذيب الكمال للمزي (٣٥/ ٢٩٨).
(٢) رواه ابن عساكر عن عمر وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٠٧).
(٣) الإصابة للحافظ ابن حجر (٨/ ٤٥٠).
(٤) رواه النسائي والحاكم عن ابن عباس وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٧٦٣).

بأصحاب القلوب النقية والفِطر السليمة السوية يُقبلون على الإسلام ويتبعون خير البرية ﷺ فكانت أول من أسلمت من النساء خديجة رضي الله عنها فيا تُرى من هي الصحابية الجليلة التي أسلمت بعد خديجة ؟.

والجواب: إنها أم الفضل - ضيفتنا المباركة -.

قال الإمام الذهبي: وقيل: لم يُسلم - من النساء - أحد قبلها. يعني: بعد خديجة[1].

فأسلمت أم الفضل رضي الله عنها وكانت في مقدمة تلك القافلة المباركة التي مدح الله أفرادها بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: الآية ١٠٠].

صبر واحتساب

وما إن علمت قريش بخبر إسلام أصحاب الحبيب ﷺ حتى قاموا بحملة واسعة من التعذيب والنكال لكي يفتنوهم عن دينهم. وكانت أم الفضل ترى الصحابة وهم يُعذبون فتبكي لأنها لا تملك من الأمر شيئًا.

ولما نزل قول الله عز وجل: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء: الآية ٧٥].

قال ابن عباس (ابنها): كنت أنا وأمي من المستضعفين[2].

فلما أذن النبي ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة لم تستطع أم الفضل أن تهاجر مع من هاجر لأن زوجها العباس لم يكن قد أسلم بعد - وقيل إنه كان قد أسلم قبل الهجرة ولكنه لم يُعلن إسلامه -.

ولم تخرج أم الفضل من مكة إلى المدينة إلا بعد فتح مكة فكانت حزينة على كل هذا

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣١٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٨٧) كتاب التفسير/ باب: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾.

الخير الذي فاتها لبقائها في مكة بعيدًا عن النبي ﷺ وأصحابه ﷺ.

موقف كريم لزوجها يوم العقبة

وعلى الرغم من أن زوجها (العباس) كان على دين قومه إلا أنه يوم بيعة العقبة الثانية كان له موقفٌ كريم مع النبي ﷺ.

عن كعب بن مالك ﷺ في قصة العقبة الثانية قال: «فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لمعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القَطا مستخفين - طائر معروف - حتى اجتمعنا في الشِعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلًا ومنا امرأتان من نسائنا (نسيبة بنت كعب)، أم عمارة إحدى نساء بني مازن بن النجار، (وأسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي) إحدى نساء بني سلمة، وهي أم منيع.

قال: فاجتمعنا في الشِعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذٍ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج - قال: وكانت العرب يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها - إن محمدًا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزٍّ من قومه ومَنَعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم مُسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عزٍّ ومنعة من قومه وبلده»[(١)].

هكذا أراد أن يطمئن على ابن أخيه (رسول الله ﷺ) مما زاد من مكانته وقدره في قلب النبي ﷺ.

إلى المدينة المنورة

وبقيت أم الفضل مع العباس في مكة إلى ما بعد صلح الحديبية فلما حضر

(١) سيرة ابن هشام مع الروض الأنف (٣/ ١٨٩).

رسول الله ﷺ والمسلمون معه إلى مكة لقضاء العمرة وأقاموا أيامًا ثلاثة، خطب ميمونة أخت أم الفضل، الأيم التي توفي عنها زوجها أبو رُهم بن عبد العزى فقد كانت مسلمة مؤمنة. وكان هو على الشرك، وكانت تقيم في بيت أختها أم الفضل تحت رعاية العباس.

ثم خرجوا جميعًا من مكة، فكانت هجرة العباس وأم الفضل بأهلهم أجمعين.

وفي المدينة كانت لأم الفضل دالة على بيت رسول الله ﷺ تأتيه دومًا، سواء عند أختها ميمونة - أم المؤمنين - أو عند غيرها من أزواجه ﷺ، فالكل يعرف ما لأم الفضل من فضل.

وهناك عاشوا في رحاب الأنصار الذي وصفهم الله تعالى بقوله:

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: الآية ٩].

وكانت أم الفضل من علية النساء وكانت شغوفة بطلب العلم فكانت تحفظ كثيرًا من القرآن والسُنة... ولا عجب في ذلك فهي أم حَبر الأمة عبد الله بن عباس.

العباس يخرج يوم بدر مُكرهًا

قال بعض المؤرخين: إن العباس رضي الله عنه كان قد أسلم قبل الهجرة وكتم إسلامه، وقيل: إنه أسلم قبل الفتح. وكانت قريش تجد في قلبها شيئًا من ناحية العباس (كانت تشك في إسلامه) ولكنها لم تجد ما يؤيد ظنها، وبخاصة أنه كان في ظاهر أمره موافقًا لهم، فلما كانت غزوة بدر أرادت قريش أن تقطع الشك باليقين فجعلته يخرج معها في تلك الغزوة.

ولذلك نهى النبي ﷺ أصحابه عن قتل العباس رضي الله عنه.

عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال لأصحابه: «**إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كرهًا، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي أحدًا من بني هاشم فلا يقتله؛ ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أُخرج**

مستكرهًا»(١).

وقوعه في الأسر يوم بدر

لم يقاتل العباس ﷺ في غزوة بدر فإنه خرج مستكرهًا ونهى النبي ﷺ عن قتله. . . ثم وقع العباس في الأسر، فعن أبي اليسر أنه قال: نظرت إلى العباس يوم بدر، وهو واقف كأنه صنم، وعيناه تذرفان.

فقلت: جزاك الله من ذي رحم شرًا ! أتقاتل ابن أخيك مع عدوه ؟

قال: ما فعل، أقُتِل ؟ قلت الله أعزُّ له وأنصر من ذلك. قال: ما تريد إليَّ؟ قلت: الأسر؛ فإن رسول الله ﷺ نهى عن قتلك. قال: ليست بأول صلته. . . فأسرته، ثم جئت به إلى رسول الله ﷺ (٢).

وعن البراء أو غيره، قال: جاء رجل من الأنصار بالعباس، قد أسره، فقال: ليس هذا أسرني، فقال النبي ﷺ: **«لقد آزرك الله بملَك كريم»** (٣).

وعن ابن عباس، قال: أسر العباس (أبو اليسر) فقال النبي ﷺ: كيف أسرته ؟ قال: لقد أعانني عليه رجل ما رأيته قبل ولا بعد، هيئته كذا. قال: **«لقد أعانك عليه مَلَكٌ كريم»** (٤).

حزن النبي ﷺ على عمه

عن ابن عباس، قال: أمسى رسول الله ﷺ والأُسارى في الوثاق، فبات ساهرًا أول

---

(١) سيرة ابن هشام [٢/ ٤٥٨، ٤٥٩]، وأخرجه ابن سعد في الطبقات [٤/ ٨٠٧] من طريق ابن إسحاق قال: حدثني العباس بن عبد الله بن معبد عن بعض أهله عن عبد الله بن عباس، فذكر الحديث، وأخرجه الحاكم [٣/ ٢٢٣] مزيلًا لهذه الجهالة فقال: «عن أبيه عن ابن عباس»، ولذلك صححه على شرط مسلم، وحذفه الحافظ من تلخيصه، والعباس بن عبد الله وأبوه ثقتان، لكن يخشى أن يكون ذلك محرف في نسخة الحاكم، فقد أخرجه البيهقي في الدلائل [٣/ ١٤٠] من طريقه، وقال: «عن بعض أهله»، والله تعالى أعلم.

(٢) أخرجه ابن سعد (٤/ ١٢).

(٣) أخرجه ابن سعد (٤/ ١٢) ورجاله ثقات.

(٤) أخرجه ابن سعد (٤/ ١٢) ورجاله ثقات.

الليل، فقيل: يا رسول الله، ما لك لا تنام ؟ قال: «سمعت أنين عمي في وثاقه». فأطلقوه، فسكت، فنام رسول الله ﷺ [(١)].

شجاعة نادرة

ولله در أم الفضل يوم أن قامت لتسطِّر هذه الصفحة على جبين التاريخ بسطورٍ من النور.

فبعد أن كتب الله النُّصرة للمسلمين في غزوة بدر كان لأم الفضل موقف عظيم يتجلى فيه إيمانها الصادق وعقيدتها الراسخة وشجاعتها الباهرة.

والآن تعالوا بنا لنستمع إلى أبي رافع مولى رسول الله ﷺ وهو يحكي موقفها الخالد مع عدو الله أبي لهب.

عن عكرمة مولى ابن عباس، قال: قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ: كنت غلامًا للعباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، فأسلم العباس، وأسلمت أم الفضل، وأسلمتُ، وكان العباس يهَاب قومه، ويكره خِلافهم، وكان يكتم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرِّق في قومه، وكان أبو لهب قد تخلَّف عن بدر، فبعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة، وكذلك كانوا صنعوا، لم يتخلف رجلٌ إلا بعث مكانه رجلًا، فلما جاءه الخبر عن مُصاب أصحاب بدر من قريش، كَبَتَه الله وأخزاه، ووجدنا في أنفسنا قوةً وعزًّا، قال: وكنت رجلًا ضعيفًا، وكنت أعمل الأقداح: أنحتها في حجرة زمزم، فوالله إني لجالسٌ فيها أنحت أقداحي، وعندي أم الفضل جالسةٌ، وقد سرَّنا ما جاءنا من الخبر، إذ أقبل أبو لهب يجرُّ رجليه بِشَرٍّ، حتى جلس على طُنُب الحجرة فكان ظهره إلى ظهري، فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، - قال ابن هشام: واسم أبي سفيان المغيرة - قد قَدِمَ، قال: فقال أبو لهب: هلمّ إليّ، فعندك لعمري الخبر، قال: فجلس إليه والناس قيام عليه، فقال: يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس ؟ قال: والله ما هو إلا أن لقينا القوم، فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا، وايم الله مع ذلك ما لُمت الناس،

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٤/ ١٢، ١٣).

لقينا رجالاً بيضًا، على خَيل بُلق، بين السماء والأرض، والله ما تُليق شيئًا، ولا يقوم لها شيء. قال أبو رافع: فرفعت طُنُب الحجرة بيدي، ثم قلت: تلك والله الملائكة؛ قال: فرفع أبو لهب يده فضرب بها وجهي ضربة شديدة. قال: وثاوَرْتُه، فاحتملني فضرب بي الأرض، ثم برك عليّ يضربني، وكنت رجلًا ضعيفًا، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة فأخذته فضربته به ضربة فعلت في رأسه شجة منكرة، وقالت: استضعفته أن غاب عنه سيده؛ فقام مولّيًا ذليلًا؛ فوالله ما عاش إلا سبع ليالٍ حتى رماه الله بالعدسة فقتله(١).

وفي رواية قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ: رماه الله بالعدسة فقتله، فلقد تركه ابناه بعد موته ثلاثًا، ما دفناه حتى أنتن، وكانت قريش: تتقي هذه العدسة، كما تتقي الطاعون، حتى قال لهم رجل من قريش: ويحكما، ألا تستحيان أن أباكما قد أنتن في بيته لا تدفنانه ؟ فقالا: إنا نخشى عدوة هذه القرحة. فقال: انطلقا فأنا أعينكما عليه، فوالله ما غسلوه إلا قذفًا بالماء عليه من بعيد ما يدنون منه، ثم احتملوه إلى أعلى مكة، فأسندوه إلى جدارٍ، ثم رجموا عليه بالحجارة.

فيا لها من شجاعة نادرة يعجز القلم عن وصفها... إنها لم تضرب رجلًا من المشركين فحسب بل ضربت فارسهم المغوار الذي كانوا يُعدونه للنوائب والشدائد.

وها هي ترضع سيد شباب أهل الجنة

وها هي منقبة عظيمة لأم الفضل ﵂ فلقد أرضعت الحسين بن علي الذي قال الحبيب ﷺ عنه وعن الحسن: «**الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة**»(٢).

وعن سماك بن حرب - أن أم الفضل قالت: يا رسول الله، رأيت أن عضوًا من أعضائك في بيتي. قال: «**تلد فاطمة غلامًا وتُرضعينه بلبن قُثم**»، فولدت حسينًا، فأخذته، فبينا هو يقبِّله إذ بال عليه فقرصته فبكى. فقال: «**آذيتيني في ابني**»، ثم دعا بماء فحدره حدرًا(٣).

(١) رواه ابن كثير في البداية (٣/ ٣٠٩) والطبري في تاريخه (٢/ ٣٩ ، ٤٠).
(٢) رواه أحمد والطبراني عن أبي سعيد وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٨١).
(٣) قال الحافظ ابن حجر في الإصابة (٨/ ٤٥٠): أخرجه ابن سعد بسندٍ جيد.

وفي رواية: فأرضعته حتى تحرك، فجاءت به النبي ﷺ، فأجلسه في حجره فبال فضربته بين كتفه، فقال: «**أوجعت ابني رحمك الله...**» الحديث.

موقف جليل بعد فتح خيبر

وبعد أن انتصر المسلمون في غزوة خيبر - بإذن الله - وحازوا المغانم والكنوز التي كانت فيها كان للعباس ولزوجه أم الفضل السبق في نزول هذا الخبر كالصاعقة على قلوب المشركين في مكة.

فتعالوا بنا لنعرف القصة كاملة:

قال ابن إسحاق: ولما فُتحت خيبر، كلَّم رسول الله ﷺ الحجَّاج بن عِلاط السُّلمي، فقال: يا رسول الله، إن لي بمكة مالاً عند صاحبتي أم شيبة بنت أبي طلحة ومال متفرّق في تجار أهل مكة، فأذن لي يا رسول الله، فأذن له، قال: إنه لا بد لي يا رسول الله من أن أقول[1] قال: «قل»، قال الحجَّاج: فخرجت حتى إذا قدمت مكة وجدت بِثَنِيَّة البيضاء رجالاً من قريش يتسمَّعون الأخبار، ويسألون عن أمر رسول الله ﷺ، وقد بلغهم أنه قد سار إلى خيبر، وقد عرفوا أنها قرية الحجاز، ريفًا ومَنعَة ورجالاً[2]، فهم يتحسَّسون الأخبار، ويسألون الركبان، فلما رأوني قالوا: الحجاج بن عِلاط - ولم يكونوا علموا بإسلامي - عنده والله الخبر، أخبرنا يا أبا محمد، فإنه قد بلغنا أن القاطع - يقصدون النبي ﷺ - قد سار إلى خيبر، وهي بلد يهود وريف الحجاز، قال: قلت: قد بلغني ذلك وعندي من الخبر ما يسرّكم، قال: فالتَبَطُوا بجنبيْ ناقتي[3] يقولون: إيه يا حجاج، قال: قلت: هُزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط، وقُتل أصحابه قتلاً لم تسمعوا بمثله قط، وأُسر محمد أسرًا، وقالوا: لا نقتله حتى نبعث به إلى أهل مكة فيقتلوه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم، فقال: فقاموا وصاحوا بمكة، وقالوا: قد جاءكم الخبر، وهذا محمد إنما تنتظرون أن يُقْدَم به عليكم، فيُقتل بين أظهركم. قال: قلت: أعينوني على جمع مالي بمكة وعلى غُرَمائي، فإني أريد أن أقْدم خيبر، فأصيب من فَلّ[4] محمدٍ وأصحابه قبل

---

(١) أن أقول كلامًا لأحتال عليهم وأسترد مالي.

(٢) أي أنها قرية محصنة لا يقدر عليها أحد.

(٣) التبطوا بجنبي ناقتي: أي مشوا إلى جانبها كمشي العرجاء.

(٤) الفل: القوم المنهزمون.

أن يسبقني التجار إلى ما هنالك.

قال: فقاموا فجمعوا لي مالي كأحثّ جَمع سمعت به. قال: وجئت صاحبتي فقلت: مالي، وقد كان لي عندها مال موضوع، لعلي ألحق بخيبر، فأُصيب من فرص البيع قبل أن يسبقني التجار، قال: فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر، وجاءه عني، أقبل حتى وقف إلى جنبي وأنا في خيمة من خيام التجار، فقال: يا حجَّاج، ما هذا الخبر الذي جئت به ؟ قال: فقلت: وهل عندك حِفْظ لما وضعت عنك ؟ قال: نعم، قال: قلت: فاستأخِر عني حتى ألقاك على خلاء، فإني في جمع مالي كما ترى، فانصرف عني حتى أفرُغ. قال: حتى إذا فرغت من جمع كل شيء كان لي بمكة، وأجمعت الخروج، لقيت العباس، فقلت: احفظ عليّ حديثي يا أبا الفضل، فإني أخشى الطلب (ثلاثًا)، ثم قل ما شئت، قال: أفعل، قلت: فإني والله لقد تركت ابن أخيك عروسًا على بنت مَلِكهم، - يعني صفية بنت حُيي -، ولقد افتتح خيبر، وانتثل ما فيها[1]، وصارت له ولأصحابه؛ فقال: ما تقول يا حجَّاج ؟ قال: قلت: إي والله، فاكتُم عني، ولقد أسلمتُ وما جئت إلا لآخذ مالي، فَرَقًا من أن أُغلب عليه؛ فإذا مضت ثلاثٌ فأظهر أمرك، فهو والله على ما تحب، قال: حتى إذا كان اليوم الثالث لبس العباس حُلة له وتخلَّق[2] وأخذ عصاه - وساعدته أم الفضل وهي في غاية السعادة - ثم خرج حتى أتى الكعبة فطاف بها فلما رأوه - أرادوا أن يسخروا منه فقالوا: يا أبا الفضل، هذا والله التجلُّد لحَرِّ المصيبة، قال:كلا، والله الذي حلفتم به، لقد افتتح محمد خيبر وتُرك عروسًا على بنت ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها فأصبحت له ولأصحابه، قالوا: من جاءك بهذا الخبر، قال: الذي جاءكم بما جاءكم به، ولقد دخل عليكم مسلمًا، فأخذ ماله، فانطلق ليلحق بمحمد وأصحابه، فيكون معه، قالوا: يا لعباد الله ! انفلت عدو الله، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن، قال: ولم ينشَبُوا أن جاءهم الخبر بذلك[3].

---

(١) انتثل ما فيها: أي استخرجه.

(٢) تخلَّق: تطيَّب بالخلوق والعطر.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٥/ ٩٧٧١) ومن طريق أحمد في «مسنده» (٣/ ١٣٨) وإسناده صحيح. ورواه أيضًا أبو يعلى والبزار والطبراني كما قال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١٥٤ ، ١٥٥) وقال: رجاله رجال الصحيح.

سعادة غامرة

وكانت أم الفضل تخشى في بداية أمرها أن يظل العباس على دين الآباء والأجداد ولكن قلبها قد امتلأ غبطة وسعادة وسرورًا بإسلام زوجها وحضوره المشاهد مع رسول الله ﷺ . . وليس ذلك فحسب بل كانت تسعد عندما تسمع بقدر ومكانة زوجها في قلب النبي ﷺ.

فها هو الحبيب ﷺ يعلن أمام أصحابه عن مكانة عمه العباس.

عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس، أن رجلاً من الأنصار وقع في أبٍ للعباس كان في الجاهلية، فلطمه العباس، فجاء قومه، فقالوا: والله لنلطمنّه كما لطمه، فلبسوا السلاح.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فصعد المنبر، فقال: **«أيها الناس، أيُّ أهل الأرض أكرم على الله»** ؟ قالوا: أنت. قال: **«فإن العباس مني وأنا منه لا تسبوا أمواتنا فتؤذوا أحياءنا»**.

فجاء القوم فقالوا: نعوذ بالله من غضبك يا رسول الله[1].

وعن ابن عباس، أن النبي ﷺ جعل على العباس وولده كساء، ثم قال: **«اللهم اغفر للعباس وولده مغفرة ظاهرة وباطنة، ولا تُغادر ذنبًا. اللهم اخلفه في ولده»**[2].

وعن عبد المطلب بن ربيعة قال: دخل العباس على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنا لنخرج فنرى قريشًا تحدث فإذا رأونا سكتوا، فغضب رسول الله ﷺ، ودرَّ عرق بين عينيه ثم قال: **«والله لا يدخل قلب امرئ إيمان حتى يحبكم لله ولقرابتي»**[3].

وعن سعيد بن المُسيِّب، عن سعد قال: كنا مع النبي ﷺ في نقيع الخيل، فأقبل العباس، فقال النبي ﷺ: **«هذا العباس عم نبيكم، أجود قريش كفًا، وأوصلها»**[4].

وعن المطلب بن ربيعة، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما بال رجال يؤذونني في العباس،**

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٠٠) بسندٍ حسن – ورواه ابن سعد في الطبقات (٤/ ٢٤) وصححه الحاكم (٣/ ٣٢٩) ووافقه الذهبي.

(٢) رواه أبو يعلى في مسنده. وقال الأرناؤوط: إسناده جيد [السير (٢/ ٨٩)].

(٣) رواه أحمد (١/ ٢٠٧) والترمذي (٣٧٥٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٢٨) وصححه ووافقه الذهبي.

وإن عم الرجل صِنو أبيه، من آذى العباس فقد آذاني»(١).

حبر الأمة وإمام التفسير

ولم تقف سعادتها عند هذا فحسب بل لقد غمرتها السعادة بولدها الحبيب (عبد الله ابن عباس) الذي ولدته في الشِعب وقت الحصار الذي فرضته قريش على بني هاشم - وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين - فلقد كانت ترى نبوغ ابنها وتفوقه في علوم الدين فتذكرت البشرى العظيمة التي بشرها بها النبي ﷺ وهي حامل بعبد الله.

فعن ابن عباس، قال: «حدَّثتني أم الفضل بنت الحارث قالت: بينا أنا مارة والنبي ﷺ في الحِجر فقال: «**يا أم الفضل**» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «**إنك حاملٌ بغلام**» قلت: كيف وقد تحالفت قريش لا يولدون النساء ؟ قال: «**هو ما أقول لك، فإذا وضعتيه فأتيني به**» فلما وضعتُه أتيتُ به النبي ﷺ فسمَّاه عبد الله وألباه(٢) بريقه، قال: «**اذهبي به، فلتجدنه كيِّسًا**» قال: فأتيت العباس فأخبرته، فتبسم، ثم أتى النبي ﷺ، وكان رجلًا جميلًا، مديد القامة، فلما رآه النبي ﷺ قام إليه فقبَّل ما بين عينيه وأقعده عن يمينه، ثم قال: «**هذا عمي، فمن شاء فليباه بعمه**» فقال العباس: بعض القول، يا رسول الله، قال: «**ولِمَ لا أقول وأنت عمي، وبقية آبائي، والعم والد**»(٣).

فوزه بدعاء النبي ﷺ له

لقد صَحِب النبي ﷺ نحوًا من ثلاثين شهرًا. وكان وسيمًا، جميلًا، مديد القامة، مهيبًا، كامل العقل، ذكي النفس، من رجال الكمال.

عن ابن عباس قال: ضمَّني النبي ﷺ إلى صدره وقال: «**اللهم علِّمه الحكمة**»(٤).

وفي رواية قال: «**مسح النبي ﷺ رأسي ودعا لي بالحكمة**»(٥).

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٥٨) في المناقب وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أي: حنَّكه بريقه ﷺ.

(٣) قال الهيثمي في المجمع (١٥٥١٤): رواه الطبراني وإسناده حسن.

(٤) أخرجه البخاري (٣٧٥٦) - والترمذي (٣٨٢٤) وأحمد (١/ ٣٥٩).

(٥) أخرجه البخاري (١/ ١٥٥) العلم - والترمذي (٣٨٢٤) وابن ماجه (١٦٦).

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان في بيت ميمونة فوضعت له وضوءًا من الليل قال: فقالت ميمونة: يا رسول الله وضع لك هذا عبد الله بن عباس فقال: «**اللهم فقِّهه في الدين وعلِّمه التأويل**»(١).

وعن ابن عباس قال: دعا لي رسول الله ﷺ أن يؤتيني الحكمة مرتين(٢).

وتوفي النبي ﷺ وهو ابن ثلاث عشرة سنة وكان حَبر الأمة ويسمى البحر لغزارة علمه، وكان عمر وعثمان رضي الله عنهما يدعوانه فيشير عليهما مع أهل بدر، وكان يفتي في عهدهما إلى أن مات(٣).

وهكذا أثلج الله صدر أمه عندما رأت قدره ومكانته العلمية ترتفع يومًا بعد يوم.

استدراك ما فات

وبعد أن أعلن العباس إسلامه كان ملازمًا للحبيب ﷺ لا يفارقه أبدًا فكان يشهد معه المشاهد ويتمنى أن يفديه بنفسه وماله وبكل ما يملك.

وفي يوم حُنين لما انهزم الناس عن رسول الله ﷺ كان العباس ملازمًا له ولم يفارقه.

قال العباس رضي الله عنه: فلما التقى المسلمون والكفار، ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكفار، قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله أكفّها إرادة أن لا تُسرع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «**أي عباس ناد أصحاب الشجرة**»(٤): فقال عباس - وكان رجلاً صيِّتًا - «**أي صوته مرتفع**» - فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب الشجرة ؟ قال: فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها...»(٥).

(١) أخرجه أحمد والحاكم (٣/ ٥٣٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخرجاه ووافقه الذهبي.
(٢) رواه الترمذي (٣٨٢٣)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن سعد في الطبقات (٢/ ٢/ ١١٩).
(٣) صفة الصفوة (١/ ٣٢١).
(٤) أي أصحاب بيعة الرضوان تحت الشجرة بالحديبية وكانوا أربع عشرة مائة، وبايعوا على الموت، وعلم الله في قلوبهم من الإيمان والصدق فرضي عنهم، وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحدٌ بايع تحت الشجرة».
(٥) أخرجه مسلم (١٢/ ١١٣-١١٧) الجهاد والسير.

ذكاء وفطنة

وعاشت أم الفضل أجمل أيام حياتها تقبس من هدي النبي ﷺ وحلمه وأخلاقه وعلمه حتى روت أحاديث. . . بل وحدَّث عنها ولداها عبد الله وتمام وأنس بن مالك وعبد الله بن الحارث وغيرهم[(١)].

بل لقد أكرمها الله عز وجل فحجت حجة الوداع مع النبي ﷺ هي وزوجها العباس - وكان لها موقف عظيم في يوم عرفة.

عن عمير مولى عبد الله بن عباس، عن أم الفضل بنت الحارث؛ أن ناسًا تماروا عندها، يوم عَرَفَةَ، في صيام رسول الله ﷺ فقال بعضهم: هو صائم. وقال بعضهم: ليس بصائم. فأرسلتُ إليه بقدح لبن، وهو واقف على بعيره بعرفة فشربه[(٢)].

فراق مؤلم

وبينما السعادة الإيمانية ترفرف على حياة أم الفضل وإذا بها تجد سحابة الحزن قد خيمت على سماء المدينة. . . فقد مات رسول الله ﷺ فحزنت عليه حزنًا كاد أن يمزق قلبها. . . لكنها احتسبته عند الله لتفوز بثواب الصابرين.

وظلت على العهد بعد وفاة الحبيب ﷺ . . عابدة زاهدة قائمة صائمة بل كانت تطلب العلم وتجتهد كثيرًا في الدعوة إلى الله .

وكان أبو بكر وعمر وعثمان - رضي الله عنهم - يعلمون قدرها ومكانتها عند رسول الله ﷺ فكانت تحظى بكل تكريم واحترام فهي السابقة إلى الإسلام التي بذلت كل شيء لنُصرة دين الله.

وجاء وقت الرحيل

وبعد تلك الرحلة الطويلة من البذل والعطاء لدين الله نامت أم الفضل رضي الله عنها على فراش الموت بعد أن قدمت الكثير والكثير وحسبُها أنها قدمت للأمة (حَبر الأمة) عبد الله ابن عباس. . فهو في ميزان حسناتها يوم القيامة فقد قال ﷺ: **«إذا مات**

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣١٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٨٨) كتاب الصوم، ومسلم (١١٠) (١١٢٣) كتاب الصيام.

الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية أو علمٍ يُنتفع به أو ولدٍ صالح يدعو له» [١].

ورحلت أم الفضل لتجد عند ربها كل الخير والفضل والنعيم في جنته ومستقر رحمته.

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

* * *

(١) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة.

الخنساء رضي الله عنها

تحتسب أولادها الأربعة في معركة القادسية

إن الإنسان بلا إيمان ريشة في مهب الريح لا تستقر على حال ولا تسكن إلى قرار أينما تميلها الريح تميل - والفرد بلا إيمان لا قيمة له ولا جذور - إنسانٌ قلق متبرم حائر لا يعرف حقيقة نفسه ولا سر وجوده.

لا يدري من ألبسه ثوب الحياة ولماذا ألبسه إياه، ولماذا ينزعه عنه بعد حين؟

فالإنسان بلا إيمان قلبه لا يفقه، وأذنه لا تسمع، وعينه لا تبصر، والمجتمع بلا إيمان مجتمع غابة، وإن لمعت فيه بوارق الحضارة؛ لأن الحياة فيه للأقوى لا للأفضل والأتقى... فهو مجتمع شقاء وإن ذخر بأدوات الرفاهية والرخاء.

إن الإيمان هو الذي يحول الظلام الدامس إلى نور ساطع والقلوب الميتة إلى ضمائر حية والعبيد إلى سادةٍ للأمم والضعفاء إلى قادةٍ للشعوب والأجيال.

ولذا فإن الأمم لا تنهض من كبوة ولا تقوى من ضعف، ولا ترتقي من هبوط إلا بعد أن يلامس الإيمان شغاف القلوب.

ونحن نعلم جميعًا أن هدم الجبال أو تحويل مياه النيل أو تغيير معالم الكون أسهل بكثير من تغيير القلوب والعقول، وعلى الرغم من ذلك فإن الإيمان هو الشيء الوحيد الذي تغيرت به القلوب، وتنورت به العقول، فالإيمان بالله وحده هو الذي يصنع العجائب، ويغير وجه الإنسان وسلوكه بين التو واللحظة؛ فلو أنك كنت تعرف إنسانًا في جاهليته ثم رأيته مرة أخرى بعد إسلامه أو بعد توبته (إن كان من عصاة المسلمين) لرأيت إنسانًا آخر، وكأن الله أحياه من بعد موته!!![1].

الشاعرة اللبيبة

وها نحن اليوم على موعدٍ مع صحابية جليلة صاغها الإسلام صياغة باهرة لا تخطر على قلب بشرٍ.

---

(١) ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون - للمصنف (ص: ٦٥-٦٧) بتصرف.

إنها «الخنساء» - تماضر بنت عمرو بن الشريد بن عُصية السُلمية -.. صحابية جليلة وشاعرة مشهورة.

كانت لبيبة عاقلة، وكان الناس يعلمون قدرها ومكانتها ومهارتها في الشعر حتى أجمع أهل العلم بالشعر أنه لم تكن هناك امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها.

حزنها على موت أخيها

كانت الخنساء تقول البيتين أو الثلاثة حتى قُتل أخوها شقيقها معاوية بن عمرو، وقُتل أخوها لأبيها صخر، وكان أحبهما إليها لأنه كان حليمًا جوادًا محبوبًا في العشيرة، كان غزا بني أسد، فطعنه أبو ثور الأسدي طعنة مرض منها حولاً ثم مات، فلما قُتل أخوها صخر قالت ترثيه:

أعيناي جودا ولا تجمدا ... ألا تبكيان لصخر الندى
ألا تبكيان الجريء الجميل ... ألا تبكيان الفتى السيدا
طويل النجاد رفيع العماد ... ساد عشيرته أمردا
إذا القوم مدوا بأيديهم ... إلى المجد مدَّ إليه يدا
فنال الذي فوق أيديهم ... من المجد ثم مضى مصعدا
يحمله القوم ما عالهم ... وإن كان أصغرهم مولدا
ترى المجد يهوي إلى بيته ... يرى أفضل المجد أن يحمدا
وإن ذُكر المجد ألفيته ... تأزَّر بالمجد ثم ارتدا

وقالت أيضًا:

ألا يا صخر لا أنساك حتى ... أفارق مهجتي ويشق رمسي
يُذكرني طلوع الشمس صخرًا ... وأبكيه لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي[(١)]

وقالت في رثاء معاوية:

ألا لا أرى في الناس مثل معاوية ... إذا طرقت إحدى الليالي بداهية
بداهية يضغى الكلاب حسيسها ... وتخرج من سر النجيِّ علانية

(١) الإصابة/ للحافظ ابن حجر (٨/ ١١٢).

وكان لزاز الحرب عند نشوبها إذا شمرت عن ساقها وهي ذاكية
وقواد خيل نحو أخرى كأنها سعال وعقبان عليها زبانية
بلينا وما تبلى تعار وما ترى على حدث الأيام إلا كما هِيَهْ
فأقسمت لا ينفعك دمعي وعولتي عليك بحزن ما دعا الله داعية

لقد كانت شهرة الخنساء ﵂ قد ذاعت وطار صيتها في كل مكان وخاصة من خلال مراثيها التي سارت بها الركبان.

فلقد تركت بعد موت أخيها (صخر) ديوانًا كان الأول من نوعه في شعر المراثي والدموع . . وهي إلى شاعريتها صاحبة شخصية قوية تتمتع بالفضائل والأخلاق العالية والرأي الحصيف والصبر والشجاعة.

شمس الإسلام تشرق في قلبها

وشاء الله ﷻ أن تقف سحابة الإيمان فوق رأس الخنساء فتُسقط ماءها في قلبها فيلامس الإيمان شغاف قلبها وتدب فيه الحياة الحقيقية. . وإذا بها تنفض غبار الجاهلية وتحمل راية التوحيد لتعلم الكون كله درسًا لا ينساه التاريخ على مدى العصور والأزمان.

فلقد جاءت الخنساء مع قومها من بني سُليمان فأسلمت معهم وحزنت على كل الخير الذي فاتها، وعلى العمر الذي مضى بعيدًا عن هذا النور، ولكنها عزمت على أن تستدرك كل ما فاتها وأن تضحي بكل ما تملك من أجل نُصرة هذا الدين العظيم.

ألم أقل لكم أن الإسلام قد صاغها صياغة باهرة يعجز القلم عن وصفها.

صبر واحتساب في يوم القادسية

ها هي الخنساء ﵂ التي ملأت الدنيا بكاءً وعويلًا على موت أخيها (صخر) في الجاهلية. . . ها هي بعد أن صاغها الإسلام صياغة باهرة تقدم في يوم القادسية أولادها الأربعة لينالوا شرف الشهادة!!!.

أنا لا أستطيع أن أُعلق بكلمة واحدة سوى أن أقول: إنها معجزة من معجزات الإيمان الذي يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده.

لقد علمنا كيف كان حُزنها على أخيها وجزعها لموته وتصدُّع قلبها واضطرام

حشاها. لقد استحال كل ذلك إلى صبرٍ أساغه الإيمان، وجمّله التقى، فلم تأس على فائت من متاع الحياة الدنيا.

أولئك أبناؤها، وهم أشطار كبدها، ونياط قلبها، خرجوا إلى القادسية وكانوا أربعة، فكان مما أوصتهم به قولها: «يا بَني إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله إلا هو، إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما هجّنت حَسبكم، وما غيرت نسبكم، واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية.

اصبروا، وصابروا، ورابطوا، واتقوا الله لعلكم تفلحون، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، وجللت نارًا على أرواقها، فيمموا وطيسها[1]، وجالدوا رسيسها[2]، تظفروا بالغُنم والكرامة، في دار الخلد والمقامة».

فلما أصبحوا باشروا القتال بقلوبٍ فتية، وأنوفٍ حمية، فإذا فتر أحدهم ذكّره إخوته وصية الأم العجوز، فزأر كالليث، وانطلق كالسهم. وانقض كالصاعقة، ونزل كقضاء الله على أعداء الله، وظلوا كذلك حتى استشهدوا واحدًا بعد واحد.

وكل منهم أنشد قبل أن يستشهد رجزًا:

فأنشد الأول:

يا إخوتي إن العجوز الناصحة ... قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة
بمقالة ذات بيان واضحة ... وإنما تلقون عند الصائحة
من آل ساسان كلابًا نابحة

وأنشد الثاني:

إن العجوز ذات حزم وجلد ... قد أمرتنا بالسداد والرشد
نصيحة منها وبرًا بالولد ... فباكروا الحرب حُماة في العدد

وأنشد الثالث:

والله ما نعصى العجوز حرفا ... نُصحًا وبرًا صادقًا ولطفًا
فبادروا الحرب الضروس زحفًا ... حتى تَلُفُّوا آل كِسرى لفًا

(١) الوطيس: المعركة أو الضرب فيها.
(٢) الرسيس: الأصل.

وأنشد الرابع:

لست لخنساء ولا للأخرم ولا لِعَمري ذي السناء الأقدم
إن لم أُرَدْ في الجيش جيش الأعجم ماض على الهول خِضِمٍّ حَضرمي[(١)]

وبلغ الأم نعي الأربعة الأبطال في يوم واحدٍ، فلم تلطم خدًّا، ولم تشق جيبًا، ولكنها استقبلت النبأ بإيمان الصابرين، وصبر المؤمنين، وقالت: (الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته).

ولنا أن نسأل أنفسنا هذا السؤال. ما الذي حوَّلها وغيرها من حال إلى حال؟! إنه إكسير الإيمان الذي وضعه النبي ﷺ في قلوب المؤمنين فنقلهم من دنيا الجهالة إلى عالم المُثل العليا والقيم الرفيعة والأخلاق العالية والشوق إلى رضوان الله[(٢)].

والله لا أمنحها شرارها

قال الحافظ في الإصابة: ويقال إنها دخلت على عائشة وعليها صِدَار من شعر؛ فقالت لها: يا خنساء، هذا نهى رسول الله ﷺ عنه، فقالت: ما علمت، ولكن هذا له قصة؛ زوَّجني أبي رجلاً مبذرًا فذهب ماله، فأتيت إلى صخر فقسم ماله شطرين، فأعطاني شطرًا خيارًا، ثم فعل ذلك زوجي مرة أخرى، فقسم أخي ماله شطرين فأعطاني خيرهما؛ فقالت له امرأته: أما ترضى أن تعطيها النصف حتى تعطيها الخيار؛ فقال:

والله لا أمنحها شِرَارَهَا وهي التي أرحضُ عني عارها
ولو هلكت خرَّقت خِمارها واتَّخذت من شَعرٍ صِدارها[(٣)]

وحان وقت الرحيل

ولكل بداية نهاية... ولكن ما أجمل وما أبهى أن تكون نهاية الإنسان على التوحيد والإيمان.

---

(١) تنظر الأبيات في الاستيعاب - ترجمة رقم (٣٣٦٣).
(٢) ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون/ للمصنف (ص ٧١ ، ٧٢) ط. دار الفردوس.
(٣) الإصابة (٨/ ١١٢).

فها هي الخنساء رضي الله عنها تنام على فراش الموت بعد ما قدمت أولادها الأربعة لله راضية محتسبة لتكون من أهل الجنة فقد قال ﷺ: **«من احتسب ثلاثة من صُلبه دخل الجنة قالت المرأة: واثنان ؟ قال: واثنان»**(١).

ولكن الخنساء لم تحتسب اثنين بل احتسبت أربعة من الفرسان فهنيئًا لها ثم هنيئًا لها.

وهكذا رحلت الخنساء التي صاغها الإسلام أعظم صياغة لتكون مثالاً للأم الصابرة المجاهدة المحتسبة.

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

* * *

(١) رواه النسائي وابن حبان عن أنس وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٦٩).

أم معبد الخزاعية رضي الله عنها

صاحبة الشاة المباركة

إن نجاح الإسلام في تأسيس وطن له، وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة هو أخطر كسب حصل عليه منذ بدأت الدعوة له، وقد تنادى المسلمون من كل مكان هلموا إلى يثرب !! فلم تكن الهجرة تخلصًا فقط من الفتنة والاستهزاء، بل كانت تعاونًا عامًا على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن.

وأصبح فرضًا على كل مسلم قادر أن يُسهم في بناء هذا الوطن الجديد، وأن يبذل جهده في تحصينه ورفع شأنه، وأصبح ترك المدينة - بعد الهجرة إليها - نكوصًا عن تكاليف الحق، وعن نصرة الله ورسوله، فالحياة بها دين، لأن قيام الدين يعتمد على إعزازها.

ليست الهجرة انتقال موظف من بلد قريب إلى بلد ناء، ولا ارتحال طالب قوت من أرض مجدبة إلى أرض مخصبة.

إنها إكراه رجل آمِن في سربه، ممتد الجذور في مكانه، على إهدار مصالحه وتضحيته بأمواله والنجاة بشخصه فحسب، وإشعاره وهو يصفي مركزه بأنه مُستباح منهوب، قد يهلك في أوائل الطريق أو نهايتها. وبأنه يسير نحو مستقبل مُبهم، لا يدري ما يتمخض عنه من قلاقل وأحزان، ولو كان الأمر مغامرة فرد بنفسه لقيل: مغامر طياش، فكيف وهو ينطلق في طول البلاد وعرضها، يحمل أهله وولده؟ وكيف وهو بذلك رضي الضمير وضَّاء الوجه ؟!

إنه الإيمان الذي يزن الجبال ولا يطيش! وإيمان بمن؟ بالله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الأولى والآخرة، وهو الحكيم الخبير.

هذه الصعاب لا يطيقها إلا مؤمن، أما الهيَّاب الخوار القلق، فما يستطيع شيئًا من

ذلك إنه من أولئك الذين قال الله فيهم :﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا۟ مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: الآية ٦٦] .

ضيفتنا المباركة

وكان من الذين ارتبط اسمهم بهذا الحدث العظيم - الهجرة - ضيفتنا المباركة أم معبد الخزاعية رضي الله عنها .

إنها لم تكن ذات شهرة في الجاهلية فلقد كانت امرأة بدوية بسيطة لا تتجاوز شهرتها خيمتها أو أهلها وعشيرتها الذين يعيشون حولها، ولكنها غدت إحدى شهيرات النساء في الإسلام لما نزل النبي ﷺ ضيفًا عليها في هجرته المباركة إلى المدينة المنورة.

أما اسمها فهي عاتكة بنت خالد بن منقذ أخت خُنيس بن خالد الخزاعي الكعبي الصحابي الجليل. . . وهو أحد المغاوير الذين شاركوا في فتح مكة وكان من جنود خالد بن الوليد رضي الله عنه وقُتل يومها شهيدًا - فرضي الله عنه وأرضاه -.

في رحاب الهجرة المباركة

ولما تم اتخاذ القرار الغاشم بقتل النبي ﷺ نزل إليه جبريل بوحي ربه - تبارك وتعالى- فأخبره بمؤامرة قريش، وأن الله قد أذن له في الخروج، وحدد له وقت الهجرة قائلاً: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه(١).

وجاء رسول الله ﷺ إلى أبي بكر نصف النهار في ساعةٍ لم يكن يأتيه فيها مُتَقَنِّعًا، فقال له: **«أخرج مَنْ عندك»**، فقال: إنما هم أهلك يا رسول الله، فقال: **«إن الله قد أذن لي في الخروج»**، فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ :**«نعم»**، فقال أبو بكر: فخذ بأبي وأمي إحدى راحلتيَّ هاتين، فقال رسول الله ﷺ: **«بالثمن»**(٢).

وأمر عليًا أن يبيت في مضجعه تلك الليلة، واجتمع أولئك النفر من قريش يتطلعون من صِير الباب ويرصدونه، ويُريدون بياته، ويأتمرون أيهم يكون أشقاها، فخرج

---

(١) ابن هشام (١/ ٤٨٢).

(٢) أخرجه البخاري (٧/ ١٨٣) الفضائل/ باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه.

رسول الله ﷺ عليهم فأخذ حفنة من البطحاء، فجعل يَذرُّه على رؤوسهم، وهم لا يرونه، وهو يتلو :﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ [يس: الآية ٩] .

ومضى رسول الله ﷺ إلى بيت أبي بكر، فخرجا من خَوْخة في دار أبي بكر ليلاً، وجاء رجل، ورأى القوم ببابه، فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمدًا، قال: خِبتم وخسرتم قد والله مرَّ بكم وذرّ على رؤوسكم التراب، قالوا: والله ما أبصرناه، وقاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم.

وفي رواية: وبات المشركون يحرسون عليًا، يحسبونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا، ثاروا إليه، فلما رأوا عليًا، رد الله مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا ؟ قال: لا أدري، فاقتصوا أثره، فلما بلغوا الجبل، خلط عليهم، فصعدوا في الجبل، فمروا بالغار[(١)].

وكان النبي ﷺ قد مضى هو وأبو بكر إلى الغار، وكانا قد استأجرا عبد الله ابن أُرَيْقِط الليثي، وكان هاديًا ماهرًا بالطريق وكان على دين قومه من قريش، وأمناه على ذلك، وسلَّما إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث[(٢)]، وجدَّت قريش في طلبهما، وأخذوا معهم القافَة، حتى انتهوا إلى باب الغار، فوقفوا عليه.

ففي «الصحيحين» أن أبا بكر قال: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصرنا فقال: **«يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما لا تحزن فإن الله معنا»**[(٣)]. وكان النبي ﷺ وأبو بكر يسمعان كلامهم فوق رؤوسهما، ولكن الله سُبحانه عمَّى عليهم أمرهما، وكان عامر بن فُهيرة يرعى عليهما غنمًا لأبي بكر، ويتسمَّع ما يقال بمكة، ثم يأتيهما بالخبر، فإذا كان السحر سَرَحَ مع الناس[(٤)].

قالت عائشة: وجهَّزْناهما أحث الجِهاز، ووضعنا لهما سُفرة في جِراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نِطاقها، فأوكت به الجراب، وقطعت الأُخرى فصيَّرتها

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٤٨) وحسنه الحافظ ابن كثير وابن حجر في الفتح (٧/ ١٨٤ ، ١٨٥).
(٢) أخرجه البخاري (٧/ ١٨٦).
(٣) أخرجه البخاري (٨/ ٨، ٩، ١٠) فضائل أصحاب النبي ﷺ، ومسلم (٢٣٨١) فضائل الصحابة.
(٤) أخرجه البخاري (٧/ ١٨٥).

عِصامًا لِفم القِربة، فلذلك لُقبت، ذات النطاقين[١].

البركة تهبط في دار أم معبد

وها نحن نتعايش بقلوبنا مع قصة الحبيب ﷺ مع أم معبد التي وصفت النبي ﷺ وصفًا يعجز البُلغاء وأهل الفصاحة أن يأتوا بمثل هذا الوصف البليغ - والحبيب ﷺ فوق كل وصف -.

فلقد مرَّ رسول الله ﷺ في مسيره ذلك حتى مرَّ بخيمتي أم معبدٍ الخزاعية، وكانت امرأة بَرْزَةً[٢] جَلْدَةً تحتبي بفناء الخيمة، ثم تُطعم وتَسقي مَنْ مرَّ بها، فسألاها: **«هل عندها شيء»** ؟ فقالت: والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القِرَى[٣]، والشاء عازب وكانت سنة شهباء[٤]، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كِسْرِ الخيمة[٥]، فقال: **«ما هذه الشاة يا أم معبد»** ؟ قالت: شاة خلفها الجَهد عن الغنم، فقال: **«هل بها من لبن»** ؟ قالت: هي أجهد من ذلك، فقال: **«أتأذنين لي أن أحلبها»** ؟ قالت: نعم، بأبي وأمي، إن رأيت بها حلبًا فاحلبها، فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها، وسمَّى الله ودعا، فتفاجت[٦] عليه، ودرَّت، فدعا بإناء لها يُربض الرَّهط[٧]، فحلب فيه حتى علته الرَّغوة، فسقاها فشربت حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب، وحلب فيه ثانيًا، حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها، فارتحلوا، فقلما لبثت أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزًا عِجافًا، يتساوكن[٨] هُزالاً لا نِقي[٩] بهن، فلما رأى اللبن، عجب، فقال: من أين لك هذا،

(١) أخرجه البخاري (٧/ ١٨٣، ١٨٤) وابن سعد (١/ ٢٢٩).
(٢) برزة: أي معروفة مشهورة.
(٣) القرى: الضيافة.
(٤) كلها قحط وجدب.
(٥) كسر الخيمة: جانبها.
(٦) تفاجت: فرجت ما بين رجليها وانتفخ ضرعها ودرَّ اللبن.
(٧) يربض الرهط: يرويهم ويثقلهم حتى يناموا ويمتدوا على الأرض من ربض بالمكان.. إذا لصق به وأقام.
(٨) يتساوكن: يتمايلن من شدة ضعفهن.
(٩) النقي: مخ العظم.

والشاة عازب[(١)] ؟ ولا حَلوبة في البيت؟ فقالت: لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت، ومن حاله كذا وكذا. قال: والله إني لأراه صاحب قريش الذي تطلبه، صِفيه لي يا أم معبد، قالت: ظاهر الوضاءة، أبلج الوجه[(٢)]، حسن الخَلق، لم تعبه ثُجلة[(٣)]، ولم تُزر به صُعلة[(٤)]، وسيم قسيم، في عينيه دَعَجٌ[(٥)]، وفي أشفاره وطَف[(٦)]، وفي صوته صَحَل، وفي عنقه سطعٌ، أحور، أكحل، أزجٌّ، أقرن، شديد سواد الشعر، إذا صمت علاه الوقار، وإن تكلم، علاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنه وأحلاه من قريب، حُلو المنطق، فَصْلٌ، لا نَزْر ولا هذر، كأن منطقه خرزات نظْم يَتَحَدَّرْن، ربعةٌ، لا تقحمه عين من قصر، ولا تشنؤه من طول، غصن بين غُصنين، فهو أنضر الثالثة منظرًا، وأحسنهم قَدْرًا، له رُفقاء يحفُّون به، إذا قال، استمعوا لقوله، وإذا أمر، تبادروا إلى أمره، محفودٌ[(٧)] محشودٌ[(٨)]، لا عابسٌ ولا مُفْنِدٌ[(٩)]، فقال أبو معبد: والله هذا صاحب قريش الذي ذكروا من أمره ما ذكروا، لقد هممت أن أصحبه، ولأفعلنَّ إن وجدت إلى ذلك سبيلًا، وأصبح صوت بمكة عاليًا يسمعونه ولا يرون القائل:

جزى الله رب العرش خير جزائه ... رفيقين حلَّا خيمتي أم معبدِ
هما نزلا بالبر وارتحلا به ... وأفلح من أمسى رفيق محمدِ
فيا لَقُصَى ما زوى الله عنكم ... به من فعال لا يُجازى وسؤدَدِ
ليهن بني كعب مكان فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصدِ
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها ... فإنكم إن تسألوا الشاء تشهدِ[(١٠)]

(١) الشاة العازب: أي بعيدة المرعى.
(٢) أبلج الوجه: مشرقه ومسفره.
(٣) الثُجلة: ضخامة البطن.
(٤) الصعلة: صغر الرأس.
(٥) الدعج: سواد العين.
(٦) في أشفاره وطف: أي في شعر أجفانه طول.
(٧) المحفود: الذي يخدمه أصحابه ويعظمونه ويسرعون في طاعته.
(٨) المحشود: هو الذي يجتمع إليه الناس.
(٩) لا عابس ولا مفند: هو الذي يكثر لومه.
(١٠) أخرجه الحاكم (٣/ ٩ ، ١٠) وابن سعد (١/ ٢٣٠ ، ٢٣١) وإسناده حسن.

قالت أسماء بنت أبي بكر: ما درينا أين توجه رسول الله ﷺ، إذ أقبل رجل من الجن من أسفل مكة، فأنشد هذه الأبيات، والناس يتبعونه ويسمعون صوته، ولا يرونه حتى خرج من أعلاها، قالت: فلما سمعنا قوله عرفنا حيث توجه رسول الله ﷺ وأن وجهه إلى المدينة.

ولقد لامست نسمات الإيمان قلب أم معبد منذ اللحظات الأولى التي سمعت وشاهدت فيها النبي ﷺ بدليل أنها حين مر بها فتيان قريش وسألوها عن رسول الله ﷺ - وكانوا يلاحقونه - أشفقت عليه منهم، فتعاجمت عليهم، وقالت لهم: إنكم تسألون عن شيء ما سمعت به قبل عامي هذا.

إسلامها

لقد انبهرت أم معبد بتلك البركات التي رأتها من الحبيب ﷺ فما كان منها إلا أنها قدمت بعد ذلك هي وزوجها فأسلما وبايعا النبي ﷺ.

وفي يوم من الأيام أرسلت إلى النبي ﷺ شاة تهديها له فأبى أن يقبلها فثقل ذلك عليها فقالوا لها: إنما ردَّها لأنه رأى بها لبنًا فأرسلت إليه بجذعة فأخذها. . . فلقد كانت حريصة كل الحرص على إرضاء الحبيب ﷺ.

وعاشت أم معبد رضي الله عنها في رحاب الإيمان قائمة صائمة عابدة لله فامتلأ قلبها بالسعادة والسرور وعاشت جنة الدنيا التي من عاشها فإنها تُثمر له جنة الآخرة.

وكانت تفرح كثيرًا إذا سمعت بنصر المسلمين على أعدائهم وتحزن كثيرًا إذا سمعت غير ذلك. . . وظلت تتعايش بقلبها مع الإسلام والمسلمين إلى أن جاء اليوم الذي دخل الحزن قلبها فاستقر فيه - عندما مات الحبيب ﷺ - فحزنت عليه حُزنًا كاد أن يمزق قلبها . . وجلست تتذكر يوم أن جاء النبي ﷺ إلى خيمتها في يوم هجرته المباركة. . ولكنها علمت أن الرضا هو مفتاح كل خير فصبرت ورضيت واحتسبت النبي ﷺ عند الله عز وجل لتفوز بثواب وأجر الصابرات.

* * *

شاة أم معبد ... وعام الرمادة

وفي عام الرمادة أصاب القحطُ المسلمين.

قال ابن الجوزي: وذلك أن الناس، أصابهم جدب، وقحط، وجوع شديد حتى جعلت الوحش تأوي إلى الإنس، وكانت الريح تسفي ترابًا كالرماد، فسُميَ ذلك العام، عام الرمادة، وكان الرجل يذبح الشاة فيعافها من قُبحها، وإنه لمعسر.

فآلى عمر ألا يذوق سمنًا، ولا لبنًا، ولا لحمًا حتى يحيا الناس، وإن غلامًا لعمر اشترى عُكة من سمن ورطبًا من لبن بأربعين، ثم أتى بهما عمر، فقال عمر رضي الله عنه: تصدق بهما فإني أكره أن آكل إسرافًا، كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسسني ما مسهم. ا.هـ[(١)].

وعلى الرغم من هذه الشدة التي كان يعيشها المسلمون فقد كانت الشاة التي مسح النبي ﷺ ضرعها مازالت عند أم معبد - إنها الشاة التي أصابتها بركة رسول الله ﷺ - فكانت تدر اللبن صباحًا ومساءًا.

تقول أم معبد: فكنا نحلبها صبوحًا وغبوقًا وما في الأرض لبنٌ قليل ولا كثير - وكل ذلك ببركة الحبيب ﷺ -.

مكانتها وقدرها ومنزلتها

ولقد كانت تحتل مكانة عالية ومنزلة سامقة في قلوب الصحابة وبخاصة الخلفاء الراشدين - رضي الله عنهم جميعًا - فقد كانوا جميعًا يعرفون قدرها ومنزلتها وموقفها مع النبي ﷺ في رحلة الهجرة المباركة.

عن هشام بن حرام، عن أبيه: أن أم معبد كانت تجري عليها كسوة وشيء من غلة اليمن، وقطران لإبلها، فمرَّ عثمان فقالت: أين كسوتي ؟ وأين غلة اليمن التي كانت تأتيني ؟ قال: هي لك يا أم معبد عندنا، واتبعته حتى أعطاها إياها[(٢)].

---

(١) المنتظم (٤/ ٢٥٠).

(٢) قال الهيثمي في المجمع (١٥٤٣٣): رواه الطبراني وهشام بن حرام وأبوه لم أعرفهم وبقية رجاله رجال الصحيح - وقال محقق مجمع الزوائد (عبد الله محمد درويش): رواه الطبراني في الكبير (٢٤/ ٣٤٩) عن حرام بن هشام عن أبيه وهما ثقتان.

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مباركة نامت تلكم الصحابية المباركة على فراش الموت بعد ما بذلت كل ما تستطيع لخدمة دين الله .

وماتت أم معبد رضي الله عنها وها نحن مازلنا نتذكر قصتها المباركة التي ملأت الكون كله بعبير الإخلاص والتضحية.

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

* * *

أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها

نزل القرآن لينقذها من براثن المشركين

إن من آثر رضا الله ورضا رسوله ﷺ آثره الله على الدنيا بأسرها.

ولابد للمؤمن أن يؤثر الله في كل مقام وأن يحبه ويحب رسوله ﷺ أكثر من حُبه لولده ووالديه والناس أجمعين، بل أكثر من حُبه لنفسه.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: الآية ٢٤][١].

وصدق من قال:

أتحب أعداء الحبيب وتدعي ... حبًا له !! ما ذاك في الإمكانِ
وكذا تعادي جاهرًا أحبابه ... أين المحبة ؟! يا أخا الشيطانِ
شرط المحبة أن توافق من تحب ... على محبته بلا نقصانِ
فإن ادعيت له محبة مع ... خلافك ما يحب فأنت ذو بطلانِ[٢]

وها نحن نتعايش بقلوبنا من خلال تلك السطور مع صحابية جليلة عرفت قدر نعمة الإسلام بل عرفت قدر نفسها في ظل هذا الدين العظيم فخرجت من دنياها مهاجرة إلى الله ورسوله ﷺ لتُعلم الكون كله درسًا عظيمًا في التضحية والفداء من أجل هذا الدين العظيم.

هكذا كانت البداية

لقد كانت أم كلثوم رضي الله عنها تبحث عن فجر يبدد ظلام الجاهلية فلما ظهرت شمس الإسلام على أرض الجزيرة وجدت (أم كلثوم) أن أصحاب الفطر السليمة والقلوب

(١) أصحاب الرسول ﷺ للمصنف (٢/٥٥٨).
(٢) النونية/ للإمام ابن القيم (ص ١٧١).

النقية التقية يسارعون إلى الدخول في هذا الدين فما كان منها إلا أن وجدت أقدامها تسابق الريح لتنضم إلى تلك القافلة الإيمانية فأسلمت لله وبايعت ولكن لم يتهيأ لها الهجرة إلا في السنة السابعة وذلك لأنها كانت تعيش بين أبوين كافرين فكان خروجها في زمن صُلح الحديبية.

ولكن قبل أن نتعايش مع تلك الهجرة أريد أن ألقي الضوء على أبيها الذي مات كافرًا في يوم بدر لنعرف كيف أنقذها الحق من بين براثن الكفر... ورزقها نعمة التوحيد التي لا توازيها الدنيا بكل ما فيها.

هذا هو عقبة بن أبي معيط

سبحان الذي يُخرج الحي من الميت... فهذه هي أم كلثوم رضي الله عنها تلك المؤمنة التي هاجرت إلى الحبيب ﷺ رغبة في أن تظفر بنعمة الإسلام... وعلى الرغم من ذلك فأبوها كان من أئمة الكفر ومات كافرًا بالله عز وجل.

ويوم يعض الظالم على يديه

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

روي أن «عقبة بن أبي معيط» وكان صديقًا لأُبي بن خلف صنع وليمة فدعا إليها قريشًا ودعا رسول الله ﷺ فلما قدم الطعام قال رسول الله ﷺ **«ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أني رسول الله»**، ففعل فأكل رسول الله ﷺ من طعامه فلما بلغ **«أبي ابن خلف»** ذلك قال لصديقه عقبة صبأت قال: لا ولكن دخل عليَّ رجل عظيم فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد له بالرسالة، فقال له أُبي: وجهي من وجهك حرام إن رأيت محمدًا حتى تبزق في وجهه وتطأ على عنقه وتقول كيت وكيت، ففعل عدو الله ما أمره به خليله فأنزل الله ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ [الفرقان: الآية ٢٧] الآية[1].

(١) التفسير الكبير (٢٤/ ٧٥).

قال الحافظ ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ [الفرقان: الآية ٢٧] الآية. يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول، وما جاء به من عند الله من الحق البيِّن الذي لا مرية فيه، وسلك طريقًا أخرى غير سبيل الرسول ﷺ. فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم، وعض على يديه حسرة وأسفًا، وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أو غيره من الأشقياء، فإنها عامة في كل ظالم[١].

وهكذا تكون نهاية كل ظالم

هذا الشقي الذي آذى رسول الله ﷺ، وانفرد بما لم يفعله أحد، ووضع رجله على عنق أطهر الخلق رسول الله ﷺ، فقُطعت عنقه جزاءً وفاقًا.

قال ابن إسحاق في أسرى بدر، وعن عقبة بن أبي معيط وكيف قتل صبرًا: قال عقبة حين أمر رسول الله ﷺ بقتله: فمن للصبية يا محمد؟. قال: «النار». وكان الذي قتله عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وكذا قال موسى بن عقبة في مغازيه.

ولما أقبل إليه عاصم بن ثابت، قال: يا معشر قريش علام أُقتل من بين من هنا؟ قال: على عداوتك لله ورسوله.

وقال حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن الشعبي قال: لما أمر النبي ﷺ بقتل عقبة قال: أتقتلني يا محمد من بين قريش ؟ قال: **«نعم، أتدرون ما صنع هذا بي، جاء وأنا ساجد خلف المقام، فوضع رجله على عنقي وغمزها، فما رفعها حتى ظننت أن عيني ستندران، وجاء مرة أخرى بسلا شاة، فألقاه على رأسي وأنا ساجد، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسي»**.

قال ابن هشام: بل قتل (عقبة) علي بن أبي طالب، فيما ذكره الزهري وغيره من أهل العلم[٢].

وذهب عقبة إلى مزبلة التاريخ، وأطيح بعنقه جزاء كفره وعناده وحسده للإسلام

(١) مختصر تفسير ابن كثير/ محمد نسيب الرفاعي (٣/ ٣١٠).

(٢) البداية والنهاية (٣/ ٦).

ورسوله ﷺ[(١)].

الهجرة المباركة

وها نحن نرجع مرة أخرى لنتعايش بقلوبنا مع تلك الهجرة المباركة.

عن عروة بن الزبير: أنه سمع مروان والمسور بن مخرمة رضي الله عنهما يخبران عن أصحاب رسول الله ﷺ قال:

لما كتب «سهيل بن عمرو» يومئذ كان فيما اشترط «سهيل بن عمرو» على النبي ﷺ أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، وخليت بيننا وبينه.

فكره المؤمنون ذلك وامتعضوا منه، وأبى سهيل إلا ذلك، فكاتبه النبي ﷺ على ذلك فرد يومئذ «أبا جندل» إلى أبيه سهيل بن عمرو، ولم يأته أحد من الرجال إلا رده في تلك المدة وإن كان مسلمًا.

وجاءت المؤمنات مهاجرات وكانت «أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط» ممن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذ وهي عاتق، فجاء أهلها يسألون النبي ﷺ أن يرجعها إليهم، فلم يرجعها إليهم لما نزل فيهن ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ [الممتحنة: الآية ١٠] إلى قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: الآية ١٠].

قال عروة: أخبرتني عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يمتحنهن بهذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الممتحنة: ١٠-١٢].

---

(١) نقلًا عن (الجزاء من جنس العمل) د. سيد حسين (١/ ٢٦٠).

قال عروة: قالت عائشة: فمن أقر بهذا الشرط منهن قال لها رسول الله ﷺ. «**قد بايعتك**»، كلامًا يكلمها به، والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة وما بايعهن إلا بقوله[١].

وفي رواية ابن سعد: وكان خروجها زمن صلح الحديبية، فخرج في إثرها أخواها: الوليد وعمارة.

فما زالا حتى قدما المدينة، فقالا: يا محمد، فِ لنا بشرطنا. فقالت: أتردني يا رسول الله إلى الكفار يفتنوني عن ديني ولا صبر لي، وحال النساء في الضعف ما قد علمت ؟ فأنزل الله تعالى :﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [المُمتحنة: الآية ١٠] الآيتين، فكان يقول: «**الله ما أخرجكن إلا حب الله ورسوله والإسلام! ما خرجتن لزوج ولا مال**» ؟. فإذا قلنَ ذلك، لم يرجعهن إلى الكفار[٢].

وها هي تحكي قصة هجرتها المباركة فقالت:

كنت أخرج إلى بادية لنا فيها أهلي فأقيم بها الثلاث والأربع، وهي ناحية التنعيم، ثم أرجع إلى أهلي فلا ينكرون ذهابي البادية، حتى أجمعت المسير فخرجت يومًا من مكة كأني أريد البادية. فلما رجع من تبعني إذا رجل من خزاعة قال: أين تريدين ؟ قلت ما مسألتك ؟ ومن أنت ؟ قال: رجل من خزاعة. فلما ذكرت خزاعة اطمأننت إليه لدخول خزاعة في عهد رسول الله ﷺ وعقده فقلت: إني امرأة من قريش وإني أريد اللحوق برسول الله ﷺ ولا علم لي بالطريق. فقال: أنا صاحبك حتى أوردك المدينة. ثم جاءني ببعير فركبته فكان يقود لي البعير، ولا والله ما يكلمني بكلمة. حتى إذا أناخ البعير تنحى عني فإذا نزلت جاء إلى البعير فقيده بالشجرة وتنحى إلى فيء شجرة، حتى إذا كان الرواح حدج البعير فقربه وولى عني فإذا أركبت أخذ برأسه فلم يلتفت وراءه حتى أنزل فلم يزل كذلك حتى قدمنا المدينة فجزاه الله من صاحب خيرًا. فدخلت على أم سلمة وأنا متنقبة فما عرفتني حتى انتسبت - أخبرتها بنسبي - وكشفت النقاب فالتزمتني وقالت

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٢٤٠) وأحمد (٤/ ٣٣١).

(٢) الطبقات/ لابن سعد (٨/ ٢٣٠).

هاجرت إلى الله عز وجل وإلى رسول الله ﷺ قلت: نعم وأنا أخاف أن يردني كما رد أبا جندل وأبا بصير، وحال الرجال ليس كحال النساء، والقوم مصبحي قد طالت غيبتي اليوم عنهم خمسة أيام منذ فارقتهم، وهم يتحينون قدر ما كنت أغيب، ثم يطلبوني، فإن لم يجدوني رحلوا.

فدخل رسول الله ﷺ على أم سلمة فأخبرته خبر أم كلثوم فرحب بها وسهّل.

فقلت. إني فررت إليك بديني فامنعني ولا تردني إليهم يفتنوني ويعذبوني، ولا صبر لي على العذاب، إنما أنا امرأة وضعف النساء إلى ما تعرف[1]. . . فنزلت آية الامتحان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ [الممتحنة: الآية ١٠].

زواج مبارك

وعاشت أم كلثوم رضي الله عنها في المدينة المنورة بعد تلك الهجرة المباركة التي فارقت من أجلها الأهل والأوطان لتفوز برضوان الرحيم الرحمن.

ولم يكن لأم كلثوم بمكة زوج فتزوجها زيد بن حارثة، ثم طلقها، فتزوجها عبد الرحمن بن عوف، فولدت له: إبراهيم، وحميدًا. فلما توفي عنها، تزوجها عمرو بن العاص؛ فتوفيت عنده[2].

وهكذا ظلت أم كلثوم رضي الله عنها تنتقل من بيئة إيمانية إلى بيئة إيمانية إلى أن جاء الوقت الذي شاء فيه الحق أن ترحل هذه الصحابية الجليلة عن دنيا الناس.

وحان وقت الرحيل

وظلت هذه الصحابية الجليلة تتعايش بقلبها وجوارحها مع كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله ﷺ حتى جاءت اللحظة التي رحلت فيها عن دنيا الناس وكان ذلك في خلافة علي رضي الله عنه . . ولكنها وإن كانت قد رحلت لكن سيرتها لم ترحل وستبقى دائمًا يرويها الأجيال بعد الأجيال لتكون نورًا على الدرب.

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

(١) صفة الصفوة/ لابن الجوزي (ص ٣٦١ ، ٣٦٢).
(٢) المستدرك (٤/ ٦٦ ، ٦٧) نقلا من السير (٢/ ٢٧٧).

أم المنذر بنت قيس رضي الله عنها

المصلية للقبلتين ... المحافظة على البيعتين

إن قضية «الإيمان» ليست أمرًا على هامش الوجود، يجوز لنا أن نُغفله أو نستخف به. أو ندعه في زوايا النسيان، كيف وهي أمر يتعلق بوجود الإنسان ومصيره ؟ بل أجد قضية الإيمان هي أعظم «قضية مصيرية» بالنظر إلى الإنسان.

إنها سعادة الأبد أو شقوته، إنها لجنة أبدًا أو لنار أبدًا، فكان لزامًا على كل ذي عقل أن يفكر فيها ويطمئن إلى حقيقتها.

ونحن حين نتحدث عن ثمرات الإيمان وآثاره في النفس والحياة إنما نعني الإيمان القوي الدافق. الإيمان حين يبلغ مداه، ويشرق على القلوب سناه، ويخط في أعماق النفوس مجراه، لا نتحدث عن الإيمان الضعيف المزعزع، الإيمان المخدر النائم، إنما نتحدث عن الإيمان اليقظ. ولا يضيرنا أن أصحاب هذا الإيمان قليلون، فإننا نناقش هنا الماديين الذي يُشككون في قيمة الإيمان. ليتعلموا أن الإيمان الذي يحاربونه كلما زاد عمقه في القلوب، وسلطانه على النفوس، ازداد أثره المبارَك في حياة الأفراد والجماعات.

وها نحن نتعايش بقلوبنا من خلال تلك السطور مع صحابية جليلة ظهر أثر الإيمان وبركته عليها فقامت لتسطِّر على جبين التاريخ سطورًا من النور. . . إنها: أم المنذر بنت قيس - إحدى خالات النبي ﷺ - التي بايعت البيعتين وصلَّت للقبلتين.

فهيا بنا لنفتح تلك الصفحة المباركة ونتعايش معها بقلوبنا وأرواحنا.

في رحاب المكارم

لقد جمع الله لهذه الصحابية الجليلة الكثير والكثير من المكارم التي يعجز القلم عن وصفها.

فهي إحدى خالات النبي ﷺ من جهة أبيه.

وقال ابن عبد البر: وهي أخت سُليط بن قيس. . . وسليط هذا واحد من فرسان

مدرسة النبوة، شَهد بدرًا وأُحدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وهو أحد أبطال معركة الجسر الشهيرة مع أبي عبيدة حيث قُتل يوم الجسر شهيدًا سنة أربع عشرة من الهجرة، وله أخبارٌ مباركة تدل على كرمه ومكانته وشجاعته رضي الله عنه(١).

ولأم المنذر أيضا أختان أخريان هما: أم سُليم بنت قيس وعميرة بنت قيس، وقد أسلمتا وبايعتا رسول الله ﷺ(٢).

فهي زهرة يانعة في بستان المكارم والفضائل ونشرت عبيرها على الكون كله ليعلم الناس جميعًا أن هذا الجيل الفريد لم ولن يتكرر أبدًا مهما طال بنا الزمان.

ثمرات الدعوة المباركة

بعد بيعة العقبة الأولى أرسل النبي ﷺ إلى المدينة المنورة سفير الدعوة الأول مصعب بن عمير رضي الله عنه الذي تعلم بين يدي الحبيب ﷺ كيف تكون الدعوة الرحيمة.. فذهب مصعب وأخذ يدعو كل من حوله بالحكمة والموعظة الحسنة فاستجاب أصحاب القلوب النقية التقية والفطر السليمة السوية لدعوة مصعب فأسلموا واستسلموا وفازوا بنعمة التوحيد والعبودية لله.

وكان من بين ثمرات هذه الدعوة المباركة أن أسلمت أم المنذر رضي الله عنها ولامس الإيمان شغاف قلبها فأصبحت في مضمار السابقات إلى الإسلام فكانت ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: الآية ١٠٠].

وها هي تبايع الحبيب ﷺ

ولما اشتد إيذاء المشركين لأصحاب الحبيب ﷺ أذن لهم بالهجرة إلى المدينة المنورة.. ثم أَذن الله لرسوله ﷺ بالهجرة فهاجر إلى المدينة فأشرقت المدينة وامتلأت قلوب الأنصار سعادة وسرورًا بمقدم الحبيب ﷺ وأحست (أم المنذر)

(١) الطبقات (٣/ ٥١٢)، الإصابة (٢/ ٧٠).
(٢) الطبقات (٨/ ٤٢٣).

بالسعادة تغمر قلبها وجوارحها فذهبت مع النساء لمبايعة النبي ﷺ.

فها هي تروي بنفسها كيف ذهبت لتبايع النبي ﷺ.

قالت رضي الله عنها : جئت رسول الله ﷺ فبايعته في نسوة من الأنصار، فلما شرط علينا: «أن لا نشرك بالله شيئًا ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف» قال: «**ولا تغشُشن أزواجكن**» قالت: فبايعناه، ثم انصرفنا، فقلت لامرأة منهن: ارجعي، فسلي رسول الله ﷺ: ما غش أزواجنا ؟ قالت: فسألته، قال: «**تأخذ ماله فتُحابي به غيره**»[1].

في رحاب الإيمان

وعاشت هذه الصحابية الجليلة حياة إيمانية في ظل هذا المجتمع الذي لا يعدله مجتمع في الكون كله في الأخلاق والسلوكيات والعبادات والمعاملات... وكانت حريصة كل الحرص على أن تزداد علمًا يومًا بعد يوم فكانت حريصة على تلاوة كتاب الله عز وجل وحفظ حديث رسول الله ﷺ وكانت لا تفتر لحظة واحدة عن الدعوة إلى الله فكانت تتعايش مع هذا الدين بقلبها وجوارحها ودمائها.

ولقد صلَّت مع رسول الله ﷺ إلى القبلتين.

قدرها ومكانتها عند رسول الله ﷺ

لهذه الصحابية الجليلة مكانة عظيمة عند رسول الله ﷺ فلقد كان يحمل لها في قلبه كل تقدير واحترام ويحفظ لها قدرها ومكانتها. بل كان النبي ﷺ يذهب إليها أحيانًا ويخصها بالزيارة ويأكل عندها ويشير إلى أن طعامها ذو بركة وذو نفعٍ.

عن أم المنذر بنت قيس الأنصارية، قالت:دخل عليَّ رسول الله ﷺ، ومعه (عليٌّ) وعليٌّ ناقِه[2] ولنا دوالي[3] معلقة، فقام رسول الله ﷺ، يأكل منها وقام (عليٌّ) ليأكل؛

(١) قال الهيثمي في المجمع (٩٨٦٣): رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني ورجاله ثقات.

(٢) الناقه: قريب العهد بالمرض، ولم يستكمل صحته.

(٣) الدالية: ما تدلى من الشجر المثمر مثل العنب والتمر، وهنا العذق من البُسر الذي ينضج على التراخي، يؤكل ما أرطب منه.

فطفق رسول الله ﷺ يقول لعلي: «مَهْ إنكَ ناقِهٌ» حتى كفَّ (علي) قالت: وصنعت شعيرًا وسِلْقًا، فجئت به، فقال رسول الله ﷺ: «يا عليُّ أَصِبْ من هذا، فهو أنفع لك»(١).

موقف كريم في غزوة بني قريظة

ولما اجتمعت كتائب الكفر في غزوة الأحزاب (الخندق) لمحاربة النبي ﷺ وأصحابه... وكان هناك معاهدة بين النبي ﷺ ويهود بني قريظة على أن يقفوا في وجه كل من أراد المدينة بسوءٍ.

ولكن اليهود هم اليهود فلقد نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ وأرادوا أن يفتحوا الطريق لكتائب الكفر للقضاء على الإسلام والمسلمين... وكان المسلمون في موقفٍ عصيب حتى وصفهم الله تعالى في كتابه فقال: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

ولكن الله ﷻ أنزل نصره على المؤمنين وهزم الأحزاب وحده وردَّ الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا وكفى الله المؤمنين القتال.

وفي اليوم الذي رجع فيه رسول الله ﷺ إلى المدينة، جاءه جبريل عليه السلام عند الظهر، وهو يغتسل في بيت أم سلمة، فقال: أوَ قد وضعت السلاح؟ فإن الملائكة لم تضع أسلحتهم، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، فانهض بمن معك إلى بني قريظة، فإني سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم، وأقذف في قلوبهم الرعب، فسار جبريل في موكبه من الملائكة(٢).

فأمر رسول الله ﷺ مؤذنًا في الناس: «من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة»(٣).

---

(١) رواه ابن ماجة وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (٣٢٦٥).

(٢) أخرجه ابن هشام في «السيرة» [٣/ ٧١٥] عن ابن إسحاق عن الزهري به مرسلًا، وأخرجه البخاري (٤١١٧)، ومسلم (١٧٦٩) وغيرهما من حديث عائشة بنحوه.

(٣) أخرجه ابن هشام في «السيرة» [٣/ ٧١٦] عن ابن إسحاق حدثني الزهري به مرسلًا، وقد =

فأتاهم رسول الله ﷺ فحاصرهم خمس وعشرين ليلة، فلما اشتد حصرهم واشتد البلاء، قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فاستشاروا (أبا لبابة ابن عبد المنذر)، فأشار إليهم أنه الذبح. فقالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ فأُتي به على حمار عليه إكاف من ليفٍ قد حُمل عليه وحفَّ به قومه، وقالوا له: يا أبا عمرو حلفاؤك ومواليك وأهل النكاية ومن قد علمت، فلم يرجع إليهم شيئًا ولا يلتفت إليهم، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال: قد أتىٰ لي أن لا يأخذني في الله لومة لائم. قال أبو سعيد: فلما طلع قال رسول الله ﷺ: «**قوموا إلى سيدكم فأنزلوه**». قال عمر: سيدنا الله. قال: «**أنزِلوه**» فأنزَلوه. قال رسول الله ﷺ: «**احكم فيهم**». قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تُقتل مقاتلتهم وتُسبى ذراريهم وتقسم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله عز وجل وحكم رسوله**». قال: ثم دعا سعد فقال: اللهم إن كنت أبقيت على نبيك من حرب قريش شيئًا فأبقني لها، وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني إليك. قالت: فانفجر كَلمه - جُرحه - وكان قد برأ مثل الخرص(١).

قالت: ورجع إلى قبته التي ضرب عليه رسول الله ﷺ قالت عائشة: فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر. قالت: فوالذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر وأنا في حجرتي، وكانوا كما قال الله عز وجل ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ قال علقمة: فقلت: أي أمه فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع؟ قالت: كانت عينه لا تدمع على أحد، ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلحيته(٢).

وفي بني قريظة نزل قول الله تعالى :﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ • [الأحزاب: ٢٦، ٢٧]

= أخرجه البخاري (٩٤٦)، ومسلم (٦٩) (١٧٧٠) من حديث ابن عمر بلفظ «**لا يصلين أحد العصر - عند مسلم (الظهر) - إلا في بني قريظة**».

(١) الحلقة الصغيرة من الحلمة.

(٢) قال الهيثمي: في الصحيح بعضه رواه أحمد وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث وبقية رجاله ثقات. مجمع الزوائد (٦/ ١٣٧ ، ١٣٨).

عندما كان المسلمون يُنفِّذون ما حكم به سيدنا سعد بن معاذ في بني قريظة، وفي تلك اللحظات كانت أم المنذر رضي الله عنها قرب النبي ﷺ، ترى نهاية بني قريظة، وكان رفاعة بني سموأل القرظي له انقطاع إليها وإلى أخيها سليط بن قيس وأهل الدار، وكان رفاعة حين حُبس أرسل إلى أم المنذر رضي الله عنها أن كَلِّمي محمدًا ﷺ في تَركي، فإن لي بكم حُرمة وأنتِ إحدى أمهاتِهِ.

ورأى النبي الكريم ﷺ علائم الحيرة مرتسمة على وجه أم المنذر فسألها وقال: **«ما لك يا أم المنذر ؟!»**.

قالت بأبي وأمي يا رسول الله رفاعة بن سموأل كان يغشانا - يزورنا - وله بنا حرمة فهَبْهُ لي.

وكان رسول الله ﷺ قد رأى رفاعة يلوذ بها فقال عليه الصلاة والسلام: **«نعم هو لكِ»**. ثم قالت: يا رسول الله، إنه سيصلي ويأكل لحم الجمل.

فتبسم النبي ﷺ ثم قال: **«إن يُصل فهو خيرٌ له، وإن يثبت على دينه فهو شرّ له»**. ثم أطلقه الرسول الكريم ﷺ.

قالت أم المنذر رضي الله عنها : فأسلم رفاعة(١). وهذه من حسناتها رضي الله عنها ، ورفاعة هو خال صفية بنت حيي أم المؤمنين(٢).

فازت بالرضوان يوم بيعة الرضوان

وها هي رضي الله عنها تبايع للمرة الثانية ولكنها هذه المرة تبايع تحت الشجرة في بيعة الرضوان لتنال الرضوان من الرحيم الرحمن - جل جلاله -.

فإن النبي ﷺ لما خرج بأصحابه إلى مكة لأداء العمرة فعلمت قريش بذلك فصدوا المسلمين عن البيت فأرسل النبي ﷺ إليهم عثمان بن عفان رضي الله عنه ليخبرهم أن النبي ﷺ ما جاء للقتال. . .

فانطلق عثمان. . . واحتبسته قريش عندها - ولعلهم أرادوا أن يتشاوروا فيما بينهم

(١) الاستيعاب (١/ ٤٩٢) والإصابة (١/ ٥٠٤).
(٢) أسد الغابة - ترجمة رقم (١٦٩٠).

في الوضع الراهن، ويبرموا أمرهم، ثم يردوا عثمان بجواب ما جاء به من الرسالة - وطال الاحتباس، فشاع بين المسلمين أن عثمان قُتل، فقال رسول الله ﷺ لما بلغته تلك الإشاعة: **«لا نبرح حتى نناجز القوم»**(١)، ثم دعا أصحابه إلى البيعة، فثاروا إليه يبايعونه على أن لا يفروا، وبايعته جماعة على الموت، وأول من بايعه أبو سنان الأسدي، وبايعه سلمة بن الأكوع على الموت ثلاث مرات، في أول الناس ووسطهم وآخرهم(٢)، وأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه وقال: **«هذه عن عثمان»**(٣)، ولما تمت البيعة جاء عثمان فبايعه، ولم يتخلف عن هذه البيعة إلا رجل من المنافقين، يقال له: جد بن قيس.

أخذ رسول الله ﷺ هذه البيعة تحت الشجرة، وكان عمر آخذًا بيده، ومعقل ابن يسار آخذًا بغصن الشجرة يرفعه عن رسول الله ﷺ (٤).

هذه هي بيعة الرضوان التي أنزل الله فيها :﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ الآية . [الفتح: الآية ١٨] .

وكانت أم المنذر ﵂ ممن بايع تحت الشجرة ففازت بخيري الدنيا والآخرة فلقد رضي الله تعالى عنها وحرَّم جسدها على النار فقد قال ﷺ: **«لا يدخل النار أحدٌ ممن بايع تحت الشجرة»**(٥).

إنَّ المتقين في جناتٍ ونَهَر

ولقد كانت ﵂ من راويات حديث النبي ﷺ فقد كانت تحفظ الكثير والكثير حتى روت عنها أم سليط بن أيوب بن الحكم وأيوب بن عبد الرحمن ويعقوب بن أبي يعقوب المدني(٦).

---

(١) أخرجه ابن هشام في «السيرة» [٣/ ٧٨٠] عن ابن إسحاق حدثني عبد الله بن أبي بكر مرسلًا.
(٢) أخرجه مسلم (١٣٢) (١٨٠٧) وأحمد (١٦٥٧١) [٤/ ٤٨].
(٣) أخرجه البخاري (٣٦٩٨) - وانظر أطرافه عند رقم (٣١٣٠) - وأحمد [٢/ ١٠١ ، ١٢٠] من حديث ابن عمر.
(٤) أخرجه مسلم (٧٦)(١٨٥٨)، وأحمد (٢٠٣٤٤)[٥/ ٢٥].
(٥) أخرجه مسلم عن أم مبشر وأحمد وأبو داود والترمذي عن جابر.
(٦) الاستيعاب (٤/ ٣٢١) وتهذيب التهذيب (٢١/ ٤٨٠).

وبعد هذا العمر المبارك وتلك الرحلة الإيمانية الطويلة نامت على فراش الموت ضيفتنا المباركة أم المنذر صاحبة البيعتين التي صلَّت إلى القبلتين... وفاضت روحها إلى بارئها .

ولا نملك ونحن نودعها إلا أن نقرأ قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥]

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

* * *

هند بنت عُتبة رضي الله عنها

خياركم في الجاهلية ... خياركم في الإسلام

إن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

وضيفتنا التي نتعايش مع قصتها من خلال تلك السطور كانت تعيش في عداوة شديدة للإسلام وللمسلمين بل ولرسول الله ﷺ - أكثر من عشرين عامًا - بل كانت تبذل المال وكل ما تملكه للصد عن سبيل الله.

وفي عام الفتح تتنزل المنحة الربانية عليها فينفتح قلبها للإسلام فتصبح ما بين غمضة عين وانتباهتها صحابية جليلة.

ومنذ تلك اللحظة وهي تبذل أضعاف أضعاف ما كانت تبذله لعداوة الحبيب ﷺ... ولكنها تبذله الآن لُنصرة دين الله عز وجل.

فيا تُرى من هذه الصحابية الجليلة ؟

إنها هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس العبشمية القرشية [1]، إحدى نساء العرب اللاتي كان لهن شهرة عالية قبل الإسلام وبعده؛ وهي أم الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

الإيمان وأثره في القلوب

إن الأمم لا تنهض من كبوة. ولا تقوى من ضعف، ولا ترتقي من هبوط، إلا بعد تربية أصيلة حقة، وإن شئت فقل: بعد تغير نفسي عميق الجذور، يحول الهمود فيها إلى حركة، والغفوة إلى صحوة، والركود إلى يقظة، والفتور إلى عزيمة، والعقم إلى إنتاج، والموت إلى حياة.

ولكن هذا التغيير أمر ليس بالهين اليسير، إنه عبء تنوء به الكواهل، فإن الإنسان

(١) تاريخ الإسلام (٣/ ٢٩٨) وتاريخ دمشق (ص ٤٣٧) والاستيعاب (٤/ ٤٠٩).

مخلوق مركب معقد، ومن أصعب الصعب تغيير نفسه أو قلبه، أو فكره.

إن التحكم في مياه نهر كبير، أو تحويل مجراه، أو حفر الأرض، أو نسف الصخور، أو أي تغيير في معالم الكون المادي أسهل بكثير من تغيير النفوس، وتقليب القلوب والأفكار.

ولكن الإيمان وحده هو صانع العجائب، الإيمان هو الذي يهيئ النفوس لتقبل المبادئ الخيرة مهما يكمن وراءها من تكاليف وواجبات، وتضحيات ومشقات، وهو العنصر الوحيد الذي يغير النفوس تغييرًا تامًا وينشئها خلقًا آخر. ويصبها في قلب جديد، فيغير أهدافها وطرائقها، ووجهتها وسلوكها وأذواقها ومقاييسها، ولو عرفت شخصًا واحدًا في عهدين - عهد الكفر وعهد الإيمان - لرأيت الثاني شخصًا غير الأول تمامًا، لا يصل بينهما إلا الاسم، أو النسب أو الشكل.

ومن هنا كانت البداية

كانت هند رضي الله عنها تتمتع بصفات يندر وجودها في النساء فهي فصيحة وجريئة وعندها ثقة وحزم ورأي سديد وكذلك فهي شاعرة لبيبة وصاحبة مروءة عالية.

قال عنها الذهبي: كانت هند من أحسن نساء قريش وأعقلهن[1].

* تزوجها في بادئ أمرها رجل يسمى (الفاكه بن المغيرة المخزومي) أحد فتيان قريش فكانت تعاني من سوء رأيه مما حملها على فراقه وذلك بعد أن ولدت له (أبانًا).

* ثم تزوجها بعد ذلك (أبو سفيان بن حرب) فولدت له معاوية وعُتبة.

وعاشت مع أبي سفيان بعدما أشرقت شمس الإسلام على أرض الجزيرة ولكنها لم تقبل النور ورفضت الإسلام - هي وزوجها - بل أخذت تدبر المكائد - مع زوجها - لهدم هذا الدين من جذوره وظلت في هذا العداء إلى أن جاء اليوم الذي أظهرت فيه عداءها للإسلام صُراحًا - في يوم بدر -.

(١) تاريخ الإسلام/ للذهبي (٣/ ٢٩٨).

تفقد أحبابها في يوم بدر

وفي يوم بدر خرج المشركون من مكة - وعلى رأسهم صفوة رجالهم - ليدافعوا عن تجارتهم وللقضاء على المسلمين.

وكانت (هند) تراقب الموقف بشدة لأن أحبابها سيقاتلون في تلك الغزوة... فأبوها وعمها وزوجها وأخوها خرجوا جميعًا ليكونوا في صفوف المشركين.

وبدأت المعركة الحاسمة والتقى الفريقان وجاءت النصرة من عند الله وتنزلت الملائكة في أرض المعركة لتقاتل مع المسلمين.

وبدأت أمارات الفشل والاضطراب في صفوف المشركين، وجعلت تتهدم أمام حملات المسلمين العنيفة، واقتربت المعركة من نهايتها، وأخذت جموع المشركين في الفرار والانسحاب المبدد، وركب المسلمون ظهورهم يأسرون ويقتلون، حتى تمت عليهم الهزيمة.

وأسفرت المعركة عن مقتل سبعين وأسر سبعين من المشركين.

وفي هذه الغزوة قُتل عتبة وشيبة والوليد بن عتبة ففقدت (هند) بذلك أباها وعمها وأخاها في تلك الغزوة... وكان الذي قتل عمها وأباها هو (حمزة) عم النبي ﷺ فلقد قتل (حمزة) عمها واشترك مع (علي بن أبي طالب) في قتل أبيها فظلت (هند) تفكر ليلًا ونهارًا كيف تنتقم من حمزة رضي الله عنه لتثأر لأبيها وعمها وأخيها.

وكان الثأر في يوم أحد

لم يهدأ بال قريش مذ غشيها في «بدر» ما غشيها وكان ما جدَّ من الحوادث بعد لا يزيد أحقادها إلا ضراما، فلما استدارت السنة، كانت مكة قد استكملت عدتها واجتمع إليها أحلافها من المشركين، وانضم إليهم كل ناقم على الإسلام وأهله.

فخرج الجيش الثائر في عدد يربو - يزيد - على ثلاثة آلاف.

ورأى أبو سفيان قائده أن يستصحب النساء معه، حتى يكون ذلك أبلغ في استماتة الرجال دون أن تصاب حرماتهم وأعراضهم ؟.

وكان زعماء قريش يهدفون بمعركتهم الجديدة هذه إلى رجلين اثنين: الرسول - عليه صلاة الله وسلامه - وحمزة - رضي الله عنه وأرضاه -.

أجل . . . والذي كان يسمع أحاديثهم ومؤامراتهم قبل الخروج للحرب، يرى كيف كان «حمزة» بعد الرسول ﷺ، بيت القصيد وهدف المعركةِ.

ولقد اختاروا قبل الخروج، الرجل الذي وكلوا إليه حمزة، وهو عبدٌ حبشي، كان ذا مهارة خارقة في قذف الحربة. . جعلوا كل دوره في المعركة أن يتصيد «حمزة» ويصوب إليه ضربة قاتلة من رمحه، وحذروه من أن ينشغل عن هذه الغاية بشيء آخر، مهما يكن مصير المعركة واتجاه القتال.

ووعدوه بثمن غال وعظيم - هو: حريته. . فقد كان الرجل واسمه (وحشي) عبدًا لجبير بن مطعم. . وكان عم جبير قد لقي مصرعه يوم بدر، فقال له جبير: اخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمي طعيمة بن عدي فأنت عتيق.

ثم أحالوه إلى «هند بنت عُتبة» زوجة أبي سفيان لتزيده تحريضًا ودفعًا إلى الهدف الذي يريدون.

وكانت هند قد فقدت في معركة «بدر» أباها، وعمها، وأخاها، وابنها وقيل لها: إن «حمزة» هو الذي قتل بعض هؤلاء، وأجهز على البعض الآخر.

من أجل هذا كانت أكثر القرشيين والقرشيات تحريضًا على الخروج للحرب، لا لشيء إلا لتظفر برأس حمزة مهما يكن الثمن الذي تتطلبه المغامرة. . !![1].

ولقد لبثت أياما قبل الخروج للحرب، ولا عمل لها إلا إفراغ كل حقدها في صدر «وحشي» ورسم الدور الذي عليه أن يقوم به.

ولقد وعدته إن هو نجح في قتل حمزة بأثمن ما تملكه المرأة من متاع وزينة - فلقد أمسكت بأناملها قرطها اللؤلؤي الثمين وقلائدها الذهبية التي تزدحم حول عنقها، ثم قالت وعيناها تحدقان في وحشي: كل هذا لك، إن قتلت حمزة. . !!!

وسال لعاب وحشي. . وطارت خواطره تواقة مشتاقة إلى المعركة التي سيربح فيها

(١) مع العلم بأنها أسلمت بعد ذلك وحسن إسلامها - رضي الله عنها -.

حريته، فلا يصير بعد عبدًا أو رقيقًا، والتي سيخرج منها بكل هذا الحلي الذي يزين عنق زعيمة نساء قريش، وزوجة زعيمها، وابنة سيدها..!! كانت المؤامرة إذن... وكانت الحرب كلها تريد «حمزة» رضي الله عنه بشكل واضح وحاسم[1].

دورها في غزوة أحد

وقامت نسوة قريش بنصيبهن من المشاركة في المعركة، تقودهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان، فكن يتجولن في الصفوف، ويضربن بالدفوف، يستنهضن الرجال، ويحرضن على القتال ويثرن حفائظ الأبطال، ويحركن مشاعر أهل الطعان والضراب والنضال، فتارة يخاطبن أهل اللواء فيقلن:

ويهًا حماة الأدبار
ويهًا بني عبد الدار
ضربًا بكل بتار

وتارة يُآزِّرْنَ قومهن على القتال وينشدن:

إن تُقبلوا نعانق
ونفرش النمارق
أو تُدبروا نفارق
فراق غير وامق[2]

وأما أصحاب الحبيب ﷺ فقد كانوا يذكرون الله عز وجل ويطلبون منه النصر أو الشهادة في سبيله.

واندلعت نيران المعركة واشتد القتال بين الفريقين وبينما كان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين، كان القتال المرير يجري في سائر نقاط المعركة، وكانت روح الإيمان قد سادت صفوف المسلمين، فانطلقوا خلال جنود الشرك انطلاق الفيضان تتقطع أمامه السدود وهم يقولون: «أمت، أمت» كان ذلك شعارًا لهم يوم أحد[3].

---

(١) رجال حول الرسول ﷺ خالد محمد خالد (ص ٢١٥، ٢١٦).
(٢) الرحيق المختوم/ للمباركفوري (ص ٢٧٣، ٢٧٤).
(٣) ورد هذا الشعار في الحديث الذي رواه أبو داود (٢٥٩٦) وأحمد (١٦٥٥٠) وصححه الحاكم (٢/١٠٧، ١٠٨) ووافقه الذهبي - وإسناده حسن.

مع أبي دجانة

كان النبي ﷺ قبل بدء القتال يحرض أصحابه على القتال ويحضهم على المعابرة والجلاد عند اللقاء.

وأخذ ينفث روح الحماسة والبسالة في أصحابه، حتى جرد سيفًا باترًا ونادى أصحابه: «**من يأخذ هذا السيف بحقه**» ؟ فقام إليه رجال ليأخذوه - منهم علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وعمر بن الخطاب - حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة، فقال: وما حقه يا رسول الله ؟ قال: «**أن تضرب به وجوه العدو حتى ينحني**». قال: أنا آخذه بحقه يا رسول الله، فأعطاه إياه[1].

وأقبل أبو دجانة معلما بعصابته الحمراء، آخذًا بسيف رسول الله ﷺ مصممًا على أداء حقه فقاتل حتى أمعن في الناس وجعل لا يلقي مشركا إلا قتله، وأخذ يهد صفوف المشركين هدًا. قال الزبير بن العوام: وجدت في نفسي حين سألت رسول الله ﷺ السيف فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة، وقلت - أي: في نفسي -: أنا ابن صفية عمته، ومن قريش وقد قمت إليه، فسألته إياه قبله فأتاه إياه وتركني، والله لأنظرن ما يصنع ؟ فاتبعته فأخرج عصابة له حمراء، فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت. فخرج وهو يقول:

أنا الذي عاهدني خليلي ... ونحن بالسفح لدى النخيلِ
أن لا أقوم الدهر في الكيول[2] ... أضرب بسيف الله والرسولِ

فجعل لا يلقى أحدا إلا قتله،... كان في المشركين رجل لا يدع لنا جريحا إلا ذفف عليه، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه، فدعوت الله أن يجمع بينهما فالتقيا، فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته، فعضت بسيفه فضربه أبو دجانة فقتله[3].

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٨) (٢٤٧٠) وأحمد (١٢٢٥٦) من حديث أنس بنحوه.
(٢) الكيول: آخر الصفوف. يعني أنه لا يقاتل في مؤخرة الصفوف بل يظل أبداً في المقدمة.
(٣) ابن هشام (٢/ ٦٨ ، ٦٩).

ثم أمعن أبو دجانة في هد الصفوف، حتى خلص إلى قائدة نسوة قريش وهو لا يدري بها. قال أبو دجانة: رأيت إنسانا يخمش الناس خمشًا شديدًا فصمدت له، فلما حملت عليه السيف ولول فإذا امرأة، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة.

وكانت تلك المرأة هي هند بنت عتبة، قال الزبير بن العوام: رأيت أبا دجانة قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة، ثم عدل السيف عنها، فقلت: الله ورسوله أعلم[١].

مقتل حمزة رضي الله عنه والتمثيل بجسده

وقام أسد الله (حمزة) يصول ويجول في أرض المعركة يشق الصفوف شقًا ويهد المشركين بسيفه هدًا.

بل لقد كان يقاتل قتال الليوث المهتاجة فصد حملة اللواء من بني عبد الدار واقتنص أرواحهم فردا فردا.

عن سعد بن أبي وقاص قال: كان حمزة يقاتل يوم أحد بين يدي رسول الله ﷺ بسيفين ويقول: أنا أسد الله[٢].

ولولا أن ترك الرماة مكانهم فوق الجبل، ونزلوا إلى أرض المعركة ليجمعوا غنائم العدو المهزوم... لولا تركهم مكانهم وفتحهم الثغرة الواسعة لفرسان قريش لكانت «غزوة أحد» مقبرة لقريش كلها: رجالها... ونسائها.. بل وخيلها.. وإبلها..!!

وأخذ (حمزة) يضاعف من قوته ونشاطه وثباته أمام المشركين ولكن كان هناك من يتربص به ليقتله ألا وهو (وحشي) - وكانت (هند) ممن حرضه على قتل حمزة رضي الله عنه.

يقول وحشي: «... وكنت رجلا حبشيًا أقذف بالحربة قذف الحبشة، قلما أخطئ بها شيئا، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة، وأتبصره، حتى رأيته في عرض الناس مثل

(١) السيرة النبوية/ لابن هشام (٣/ ٥٨٩).
(٢) أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ٦) والحاكم (٣/ ١٩٤) وصححه ووافقه الذهبي.

الجمل الأورق، يهد الناس بسيفه هدًّا، ما يقوم له شيء، فوالله إني لأتهيأ له، أريده، وأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو مني إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزى، فلما رآه حمزة قال: هلم يابن مقطعة البظور. قال: فضربه ضربة كأن ما أخطأ رأسه. قال: وهززت حربتي، حتى إذا رضيت منها، دفعتها عليه، فوقعت في ثُنَّته، حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء نحوي، فغُلب، وتركته وإياها حتى مات، ثم أتيته فأخذت حربتي، ثم رجعت إلى العسكر، فقعدت فيه، ولم يكن لي بغيره حاجة وإنما قتلته لأُعتق...»[١]

وطارت قريش فرحًا بنصرها، وحسبت أنها انتقمت لبدر أشد الانتقام وكانت هند من أشد القوم سرورًا، فلم يكفها قتل حمزة رضي الله عنه، بل انطلقت هي والنسوة اللاتي معها يمثلن بالقتلى من المسلمين أبشع تمثيل، وأشنع فعلة، مما جعل زوجها أبو سفيان يبرأ من تبعتها، وأعلن أنه لم يأمر بذلك، وإن كان قد اشترك فيه، وقال يخاطب أحد المسلمين: أنه كان في قتلاكم مَثْلُ، والله ما رضيت وما سخطت، وما نهيت وما أمرت.

وبعد هذا علت هند على صخرة مشرقة فصرخت بأعلى صوتها:

نحن جزيناكم بيوم بدر ... والحرب بعد الحرب ذات سعرِ
ما كان عن عتبة لي من صبر ... ولا أخي وعمه وبكري
شفيت صدري وقضيت نذري ... شفيت وحشي غليل صدري[٢]

وانصرف المشركون عن أحد وهم مسرورون بما زال عنهم من عار بدر وقالت هند حين انصرافها عن أحد:

رجعت وفي نفسي بلابل جمة[٣] ... وقد فاتني بعض الذي كان مطلبي
ولكنني قد نلت شيئًا ولم يكن ... كما كنت أرجو في مسيري ومطلبي[٤]

(١) أخرجه البخاري (٧/ ٤٠٧٢) المغازي، وأحمد (٣/ ٥٠١).
(٢) تاريخ الإسلام (٢/ ٢٠٥).
(٣) بلابل جمة: أي أحزان كثيرة.
(٤) السيرة النبوية/ لابن هشام (٢/ ١٦٨).

إسلامها يوم فتح مكة

وبقيت (هند) على الشرك حتى شرح الله تعالى صدرها للإسلام يوم فتح مكة.

وكان ابنها معاوية رضي الله عنه قد أسلم قبل أبيه وقت عمرة القضاء ولكنه لم يلحق بالنبي ﷺ - خوفًا من أبيه - فانتظر حتى أظهر إسلامه يوم الفتح.

وتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا مع قصة إسلام أبي سفيان وزوجه هند رضي الله عنهما.

فها هو الحبيب ﷺ يدخل مكة فاتحًا منتصرًا... فلما مر النبي ﷺ بأبي سفيان قال له العباس: النجاء إلى قومك، فأسرع أبو سفيان حتى دخل مكة، وصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحميت الدسم الأخمش الساقين، قبح من طليعة قوم.

قال أبو سفيان: ويلكم، لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. قالوا: قاتلك الله، وما تغني عنا دارك؟

قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

وألقى الله عز وجل الإسلام في قلب أبي سفيان.

«... فجاء أبو سفيان فقال: يا رسول الله ! أُبيدت خضراء قريش. لا قريش بعد اليوم. قال أبو سفيان: قال رسول الله ﷺ: **«من دخل دار أبي سفيان فهو آمن. ومن ألقى السلاح فهو آمن. ومن أغلق بابه فهو آمن»**(١).

وبعد عداوة دامت أكثر من عشرين سنة وإذا بالحق - جل جلاله - يفتح قلبها للإسلام وإذا بها تقول لزوجها أبي سفيان: إنما أريد أن أتابع محمدًا.

قال: قد رأيتك تكرهين هذا الحديث أمس.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦) (١٧٨٠) كتاب الجهاد والسير/ باب: فتح مكة.

قالت: إني والله ! ما رأيت أن عُبد الله حق عبادته في هذا المسجد قبل الليلة والله ! إن يأتوا مصلين قيامًا وركوعًا وسجودًا.

عن عائشة قالت: جاءت هند إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ! والله! ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إليّ من أن يذلهم الله من أهل خبائك. وأصبحت وما على ظهر الأرض أهل خباء أحب إليّ من أن يعزهم الله من أهل خبائك. فقال النبي ﷺ: **«وأيضًا والذي نفسي بيده»** ! [(١)].

أخذ البيعة

وحين فتح الله مكة على رسول الله ﷺ والمسلمين تبين لأهل مكة الحق وعلموا أن لا سبيل إلى النجاح إلا بالإسلام، فأذعنوا له، واجتمعوا للبيعة، فجلس رسول الله ﷺ على الصفا يبايع الناس، وعمر بن الخطاب أسفل منه، يأخذ على الناس، فبايعوه على السمع والطاعة فيما استطاعوا[(٢)].

وفي المدارك[(٣)] روي: أن النبي ﷺ لما فرغ من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء، وهو على الصفا وعمر قاعد أسفل منه، يبايعهن بأمره، ويبلغهن عنه، فجاءت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متنكرة خوفًا من رسول الله ﷺ أن يعرفها لما صنعت بحمزة فقال رسول الله ﷺ: **«أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئًا»**، فبايع عمر النساء على أن لا يشركن بالله شيئا، فقال رسول الله ﷺ: **«ولا تسرقن»** فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح، فإن أنا أصبت من ماله هنَّات ؟ فقال أبو سفيان: وما أصبت فهو لك حلال، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها، فقال: **«وإنك لهند ؟»** قالت: نعم، فاعف عما سلف يا

(١) أخرجه مسلم (٨)(١٧١٤) كتاب الأقضية/ باب: قضية هند.
قال الإمام النووي - رحمه الله - والخباء يعبر به عن مسكن الرجل وداره، وأما قوله ﷺ: (وأيضا والذي نفسي بيده) فمعناه وستزيدين من ذلك ويتمكن الإيمان من قلبك، ويزيد حبك لله ولرسوله ﷺ ويقوى رجوعك عن بغضه. [مسلم بشرح النووي (١٢/ ١٣)].

(٢) أخرج عبد الرازق في «المصنف» (٦/ ٩٨٢٠)، وعنه أحمد (١٥٤٧٢) (٣/ ٤١٥) بإسناد حسن عن الأسود بن خلف أنه رأى النبي ﷺ يبايع الناس يوم الفتح.

(٣) انظر مدارك التنزيل للنسفي تفسير آية البيعة.

نبي الله، عفا الله عنك.

فقال: «ولا يزنين». فقالت: أَوَ تزني الحرة ؟ فقال: «ولا يقتلن أولادهن»، فقالت: ربيناهم صغارًا، وقتلتموهم كبارًا، فأنتم وهم أعلم - وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قُتل يوم بدر - فضحك عمر حتى استلقى، فتبسم رسول الله ﷺ فقال: «ولا يأتين ببهتان»، فقالت: والله إن البهتان لأمر قبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، فقال: «ولا يعصينك في معروف». فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا، وفي أنفسنا أن نعصيك [(١)].

نعمة جليلة

لهند بنت عتبة رضي الله عنها شخصية متميزة في عالم النساء، فعندما فتح الله عليها بالإسلام انمحت معالم الأدران من قلبها، وأظهرت على أنها امرأة من طراز فريد في عالم الصحابيات؛ ففي سبيل الله عز وجل، وفي سبيل دينه ما غسل الدم وزالت الوحشة وأُتلفت نوافر القلوب وطهر الله نفسها من نزعة الحقد، وأبرأ قلبها من قرحة الغل، وحسر عن عقلها حجاب الجهل، ونزع عن إدراكها غشاء الأباطيل، فلم تعد تخضع لعقيدة فاسدة، وطبقت هذا عمليًا، فلما أسلمت جعلت تضرب صنمًا لها في بيتها بالقدوم فلذة فلذة، وهي تقول: كنا منك - أو معك - في غرور [(٢)].

خذي من ماله بالمعروف

وها هي تذهب للحبيب ﷺ لتستشيره في شئون حياتها.

عن عائشة قالت: دخلت هند بنت عتبة، امرأة أبي سفيان، على

(١) أخرجه ابن جرير في تاريخه (٢/ ٢٢٧) بدون إسناد، ونقله عنه الحافظ ابن كثير في «البداية» (٤/ ٣٦٥)، وأخرجه البخاري (٢٢١١)، ومسلم (١٧١٤) وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها قالت هند أم معاوية لرسول الله ﷺ إن أبا سفيان رجل شحيح فهل علي جناح أن آخذ من ماله سرًا، قال: « خذي أنت وبنوك ما يكفيك بالمعروف».
وانظر تفسير آية البيعة (الممتحنة/ ١٢) عند ابن جرير، وابن كثير، والسيوطي.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٥٧).

رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ! إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بنيّ إلا ما أخذت من ماله بغير علمه. فهل عليَّ في ذلك من جناح؟ فقال رسول الله ﷺ :**«خذي من ماله بالمعروف، ما يكفيك ويكفي بنيك»** [(١)].

فراق مؤلم

وظلت هند رضي الله عنها عابدة قائمة صائمة إلى أن جاء اليوم الذي أظلمت فيه الدنيا كلها يوم أن مات الحبيب ﷺ فحزنت عليه حزنًا كاد أن يمزق قلبها لأنها كانت في عداوته زمانًا طويلاً ولم تُسلم إلا منذ فترة يسيرة فحزنت على وفاة الحبيب ﷺ وحزنت على العمر الذي ضاع قبل أن تُسلم لله .

ولكنها ظلت على العهد عابدة لله محافظة على كل ما بايعت عليه النبي ﷺ.

موقفها الخالد في يوم اليرموك

وكان لها موقف عظيم في يوم اليرموك.

قال ابن جرير: (وقد قاتل المسلمين في هذا اليوم، وقتلوا خلقًا كثيرًا من الروم، وكن يضربن من انهزم من المسلمين، ويقلن: أين تذهبون وتدعوننا للعلوج؟ فإذا زجرنهم لا يملك أحد نفسه حتى يرجع إلى القتال [(٢)].

ورجعت الفرسان تحرض الفرسان على القتال، فرجع المنهزمون رجعة عظيمة، عندما سمعوا تحريض النساء، وخرجت هند ابنة عتبة، وبيدها مزهر، ومن خلفها نساء من المهاجرين، وهي تقول الشعر الذي قالته يوم أحد:

نحن بنات طارق
نمشي على النمارق
مشي القطا الموافق
قيدي مع المرافق

(١) أخرجه مسلم (٧) (١٧١٤) كتاب الأقضية/ باب: قضية هند.

(٢) البداية والنهاية (٧/ ١٣).

إن تــغــلــبــوا نــعــانــق
أو تــدبــروا نــفــارق
فــراق غــيــر وامــق
هــل مــن كــريــم عــاشــق
يــحــمــي عــن الــعــوائــق

ثم استقبلت خيل ميمنة المسلمين، فرأتهم منهزمين، فصاحت بهم: «إلى أين تنهزمون؟ وإلى أين تفرون ؟ من الله ومن جنته ؟ هو مطلع عليكم»، ونظرت إلى زوجها أبي سفيان منهزما، فضربت وجه حصانه بعمودها، وقالت له: «إلى أين يا ابن صخر ؟ ارجع إلى القتال، ابذل مهجتك حتى تمحص ما سلف من تحريضك على رسول الله ﷺ، قال الزبير بن العوام: فلما سمعت كلام هند لأبي سفيان ذكرت يوم أُحد ونحن بين رسول الله ﷺ قال: فعطف أبو سفيان عندما سمع كلام هند، وعطف المسلمون معه، ونظرت إلى النساء وقد حملن معهم، وقد رأيتهن يسابقن الرجال، ولقد رأيت منهن امرأة وقد أقبلت على علج عظيم وهو على فرسه، فتعلقت به، ومازالت به حتى نكبته عن جواده، وقتلته، وهي تقول: «هذا بيان نصر الله للمسلمين» «وفي هذه الموقعة قتلت أسماء بنت يزيد بن السكن بعمود خبائها تسعة من الروم»[(١)] ، قال الزبير بن العوام رضي الله عنه : «وحمل المسلمون حملة منكرة لا يريدون غير رضا الله ورسوله ﷺ فانكسر الروم»[(٢)] .

وحان وقت الرحيل

وحان وقت الرحيل... ففي خلافة عمر رضي الله عنه وبعد ما قامت هند رضي الله عنها بتقديم كل ما تستطيع لخدمة هذا الدين العظيم فقد آن لهذا الجسد أن يستريح.

نامت على فراش الموت وفاضت روحها إلى بارئها .

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

* * *

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٧).
(٢) فتوح الشام (١/ ١٢٧ ، ١٢٨).

مراجع الكتاب

* القرآن الكريم.

* الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني - ط. دار الكتب العلمية.

* إنها الجنة يا أختاه: محمود المصري (أبو عمار) - ط. دار الفردوس.

* الاستيعاب: لابن عبد البر.

* الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار: ابن قدامة المقدسي - تحقيق علي نويهض - ط. دار الفكر.

* أصحاب الرسول ﷺ: محمود المصري (أبو عمار) - ط. مكتبة التقوى.

* الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة: للزركشي - تحقيق سعيد الأفغاني - ط. المكتب الإسلامي.

* أسد الغابة في معرفة الصحابة: ابن الأثير - ط. دار الفكر.

* أنساب الأشراف: للبلاذري - تحقيق محمد حميد الله - ط. دار المعارف.

* أحكام النساء: لابن الجوزي.

* أسباب النزول: للواحدي - ط. مكتبة الدعوة.

* الاعتصام: للشاطبي - ط. دار إحياء التراث.

* إعلام الموقعين: لابن القيم - ط. دار الجيل.

* الأخت المسلمة: للجوهري.

* أئمة الهدى ومصابيح الدجى: محمد حسان - ط. دار ابن رجب.

* البداية والنهاية: لابن كثير - ط. دار الكتب العلمية.

* بهجة المجالس وأنس المجالس: لابن عبد البر - ط. دار الكتب العلمية.

* بنات الصحابة: أحمد خليل جمعة - ط. دار اليمامة.

* تاريخ الإسلام: للذهبي - ط. دار الكتاب العربي.

* تاريخ الإسلام: للذهبي - ط. دار الكتاب العربي.
* تاريخ بغداد: للخطيب البغدادي - ط. دار الكتاب العربي.
* تاريخ الخلفاء: للسيوطي - ط. دار الفكر.
* تاريخ دمشق: لابن عساكر - ط. دار الفكر.
* تاريخ الأمم والملوك: للطبري - ط. دار الكتب العلمية.
* تهذيب الأسماء واللغات: للنووي.
* تلقيح فهوم الأثر في عيون التاريخ والسير: لابن الجوزي.
* التفسير الكبير: للفخر الرازي - ط. دار الكتب العلمية.
* تهذيب الكمال: للمزي.
* تفسير القرطبي: للقرطبي.
* تراجم سيدات بيت النبوة: عائشة عبد الرحمن.
* التبصرة: لابن الجوزي - ط. دار ابن خلدون.
* تهذيب التهذيب: لابن حجر العسقلاني - دار الكتاب الإسلامي.
* ترطيب الأفواه بذكر من يظلهم الله: د. سيد حسين العفاني.
* مختصر جلاء الأفهام: ابن القيم - تحقيق: محمود المصري (أبو عمار).
* الجزاء من جنس العمل: د. سيد حسين العفاني - ط. مكتبة ابن تيمية.
* حياة الصحابة: الكاندهولي - ط. دار القلم.
* حياة محمد: محمود المصري (أبو عمار) - ط. مكتبة العلم.
* حلية الأولياء: لأبي نعيم - ط. دار الكتاب العربي.
* الدر المنثور: للسيوطي - ط. دار الفكر.
* ديوان (الأسرار والرموز): لمحمد إقبال.
* دلائل النبوة: للأصبهاني - ط. دار التراث.

* دلائل النبوة: للبيهقي - ط. دار الكتب العلمية.

* ديوان حسان بن ثابت: - ط. دار المعارف.

* رجال مبشرون بالجنة: أحمد خليل جمعة.

* الرحيق المختوم: للمباركفوري - ط. قرطبة.

* رجال ونساء حول الرسول: عبد الحميد هنداوي - ط. دار الدعوة.

* الروض الأنف: للسهيلي - ط. مكتبة الكليات الأزهرية.

* رجال حول الرسول: خالد محمد خالد - ط. دار الكتاب العربي.

* الرياض النضرة في مناقب العشرة: للمحب الطبري - ط. دار الكتب العلمية.

* رحمة للعالمين: محمد سليمان المنصورفوري.

* زاد المسير: ابن الجوزي - ط. المكتب الإسلامي.

* زاد المعاد: ابن القيم - ط. مؤسسة الرسالة.

* الزهد: للإمام أحمد بن حنبل - ط. دار الكتب العلمية.

* السمط الثمين: للمحب الطبري - ط. مكتبة التراث الإسلامي.

* السيرة النبوية: للمحب الطبري - ط. دار الحديث.

* السيرة النبوية دروس وعبر: د. مصطفى السباعي.

* السير الحلبية: لعلي بن برهان الدين الحلبي.

* السير والمغازي: ابن إسحاق - ط. دار الفكر.

* سير أعلام النبلاء: للذهبي - ط. مؤسسة الرسالة.

* سيرة عمر بن عبد العزيز: ابن الجوزي.

* شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام: للفاسي - ط. دار الكتاب العربي.

* صحيح مسلم بشرح النووي: ط. قرطبة.

* صحيح سنن الترمذي: للألباني - ط. مكتبة التربية.

* صحيح سنن ابن ماجة: للألباني - ط. مكتبة التربية.

* صحيح سنن أبي داود: للألباني - ط. مكتبة التربية العربي لدول الخليج.

* صحيح سنن النسائي: للألباني - ط. مكتبة التربية.

* صحيح الجامع الصغير وزيادته: للألباني - ط. المكتبة الإسلامية.

* صور من سير الصحابيات: السحيباني - ط. دار ابن خزيمة.

* صور من حياة الأنبياء والصحابة والتابعين: محمود المصري (أبو عمار) - ط. مكتبة التقوى.

* صفة الصفوة: ابن الجوزي - ط. دار ابن خلدون.

* صلاح الأمة في علو الهمة: د. سيد حسين العفاني - ط. مؤسسة الرسالة.

* صور من حياة الصحابة: د. عبد الرحمن رأفت الباشا.

* صور من حياة الصحابيات: د.عبد الرحمن رأفت الباشا.

* صدقوا ما عاهدوا: محمود المصري (أبو عمار) - ط. دار الفردوس.

* الطبقات الكبرى: لابن سعد - ط. دار صادر.

* عون المعبود شرح سنن أبي داود: ط. دار الفكر.

* العقد الفريد: لابن عبد ربه.

* عودة الحجاب: محمد أحمد إسماعيل - ط. دار العقيدة.

* فتح الباري بشرح صحيح البخاري: لابن حجر العسقلاني - ط. دار الريان.

* فرسان من عصر النبوة: أحمد خليل جمعة - ط. دار اليمامة.

* فتوح الشام: للأزدي.

* فيض القدير: للمناوي.

* الفصول في اختصار سيرة الرسول: ابن كثير.

* الفوائد: ابن القيم - ط. دار الخاني.

* لطائف المعارف: ابن رجب الحنبلي - ط. دار الجيل.
* لسان العرب: لابن منظور.
* المرأة العربية: عبد الله عفيفي.
* مدارك التنزيل: للنسفي.
* منح المدح: لابن سيد الناس - ط. دار الفكر.
* المجتبى من المجتنى: لابن الجوزي - ط. دار الفرقان.
* المقاصد الحسنة: للسخاوي.
* ميزان الاعتدال: للذهبي.
* مسند أبي يعلي: للموصلي - ط. دار المأمون.
* مختصر تفسير ابن كثير: محمد نسيب الرفاعي - ط. مكتبة المعارف.
* المستدرك على الصحيحين: للحاكم.
* مختصر منهاج القاصدين: لابن قدامة المقدسي.
* المواهب اللدنية بالمنح المحمدية: للقسطلاني.
* مواعظ ابن الجوزي: ط. دار الفضيلة.
* معجم البلدان: لياقوت الحموي.
* مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: للهيثمي - ط. دار الفكر.
* مسند الإمام أحمد: - ط. دار الفكر.
* النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: للأتابكي.
* النونية: لابن القيم.
* نساء حول الرسول: الاستانبولي - الشلبي - ط. دار ابن كثير.
* نساء مبشرات بالجنة: أحمد خليل جمعة - ط. دار اليمامة.
* نساء أهل البيت: أحمد خليل جمعة - ط. دار اليمامة.
* وفاء الوفا: للسمهودي - ط. دار إحياء التراث.
* وقفات تربوية مع السيرة النبوية: أحمد فريد - ط. دار ابن القيم.
* ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون: محمود المصري (أبو عمار).

فهرس الموضوعات

الموضوع — الصفحة

سودة بنت زمعة رضي الله عنها

الكريمة المباركة... صاحبة الهجرتين

عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما

المبرأة من فوق سبع سماوات

زوجة النبي ﷺ في الدنيا وفي الجنات

حليمة السعدية ﵂

نبت من لبنها المبارك أطهر جسد في الدنيا

أم أيمن ﵂ حاضنة رسول الله ﷺ

أم عمارة رضي الله عنها

المجاهدة التي دافعت عن النبي ﷺ في يوم أحد

أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما

أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين في الجنة

أم حرام بنت ملحان رضي الله عنها الشهيدة الصابرة

كبشة بنت رافع رضي الله عنها

استشهد ولدها فاهتز له عرش الرحمن جل وعلا

سمية بنت خباط رضي الله عنها

أول شهيدة في الإسلام


من إصداراتنا
الشيخ محمود المصري أبو عمار
سؤال وجواب
فقه المسلم
فقه المسلم
فقه المسلم
لا تحزن وابتسم للحياة
ساعة و ساعة
نوادر و عجائب
رفقاً بالمخطئين
كيف تتعامل مع أخطاء الناس
السحر الحلال
كيف تكسب قلوب الناس
ليلة في بيت النبي
مسك الختام
موسوعة الحقوق الإسلامية
موسوعة الزواج الإسلامي السعيد
تحذير الساجد من أخطاء العبادات والعقائد
سيرة الرسول
رحلة إلى الدار الآخرة
أصحاب الرسول
صحابيات حول الرسول
فتاوى الحج والعمرة
أصحاب الرسول
تفسير جزء عم
سيرة الرسول للأطفال
أخلاق الرسول للأطفال
قصص الرسول
قصص الأنبياء
قصص القرآن
حكايات عمو محمود
حكايات عمو محمود للأطفال